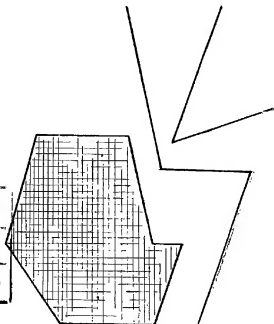


الإسلام والحَبَشَة

عبد التاريخ



المجلد : ١٠ / العدد : ١ / السنة : ١٤٠٢ هـ / ٢٠٢١ م
 رقم التسجيل : ٩٥٥ / ٢٠٢١

مهندس

فتحي غيث



Printed and Published by:
 Dar of the Alexandria Library
 10, El-Dokki, Alexandria, Egypt

اهداءات ٢٠٠١

اد. محمد حبيب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

وفاء :

دين فى عنقى - أوفيه للسليين
فى الحبشة والإرتيريا وشرق افريقية

وإهداء :

إلى زوجتى التى طافت معى
وشاركتنى مصاعب الحياة . ومعها
أولادنا أحمد وسهير
شم طاهر - الذى ولد هناك
فى أديس أبابا

محتويات

صفحة	
١	استهلال
٥	<u>الفصل الأول</u> موجز جغرافى
	منشأ الإسم - تعدد المناطق - طبيعة البلاد - الأنهار - خيرات الأرض .
١٩	<u>الفصل الثانى</u> العناصر الأساسية لسكان الحبشة
	الحاميين - قبائل البجة - الجالا والصومال - العرب
٣٩	<u>الفصل الثالث</u> موجز التاريخ القديم للحبشة
	تأثير قدماء المصريين - تأثير قدماء العرب - تأثير اليهود الأوائل - اضطرة سليمان وملوكه سبأ - دخول المسيحية إلى الحبشة - الرواية الإسلامية للحملة الحبشية على اليمن .
٤٦	<u>الفصل الرابع</u> تاريخ الحبشة فى عصور الإسلام الأولى
	اتصال الإسلام بالحبشة - تحليل الخلافات بين المؤرخين فى هجرة المسلمين إلى الحبشة ، - ابتداء دخول الإسلام عزلة الحبشة وقبائل البجة - عزلة الحبشة وقبائل الآجاو ومتاعب الدولة المسيحية ، انتشار الإسلام - مجهودات الكنيسة الحبشية ، عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى حكم الأجوريين للحبشة .

صفحة

٦٨

الفصل الخامس تفصيل للممالك الاسلامية

حتى نهاية القرن الثالث عشر

هجرة المسلمين إلى الحبشة - الاسلام في شمال الحبشة
وقبائل البجة - مملكة شوا الاسلامية - الممالك
الاسلامية في شرق الحبشة .

٩١

الفصل السادس الحروب الصليبية والحبشة

التنامخ الديني في الإسلام وحوادث الاضطهاد
الحروب الصليبية وأسبابها المباشرة - نتائج الحروب
الصليبية وآثارها - علاقة الحبشة بالحروب الصليبية .

١٠٦

الفصل السابع الإبرة السلجانية والصراع مع الإسلام

(من القرن ١٣ إلى القرن ١٦)

السلطات الاسلامية - المناطق الاسلامية داخل
المملكة المسيحية - علاقة سلاطين مصر بالحبشة -
بداية الصراع العنيف - عهد عمدا سيون الاول - عهد
أرعد - زرم يعقوب ..

١٣٢

الفصل الثامن صراع الاسلام في أوروبا

المسلمون في إسبانيا - المسلمون في صقلية وإيطاليا -
الاسلام في أوروبا وأثره في الحروب الصليبية -
غارات التتار - ظهور الامبراطورية العثمانية - دور
البرتغال .

صفحة

١٤٨ الفصل التاسع
الغزو الاسلامي في الحبشة (القرن ١٦)
الغزو العظيم - الإمام أحمد بن إبراهيم الأشول - تدخل
البرتغال - نتائج الغزو العظيم على المسيحيين والمسلمين ،
صفحة مؤقتة .

١٦٢ الفاصل العاشر
قبائل الجالا

الاسلام بين قبائل الجالا - الهجرة الكبيرة لقبائل الجالا
١٧١ الفصل الحادى عشر
العلاقة بين الديانتين (فى القرن ١٧ ، ١٨)
الدعوة الكاثوليكية ومقاومتها - التحالف مع
المسلمين - عودة الاسلام إلى الانتشار - العودة
إلى الخلاف مع المسلمين - الانقسامات الاقليمية ،
تفكك الامبراطورية وسيطرة الجالا على العرش ،
تقدم الاسلام أثناء الانقسامات الاقليمية .

١٨٧ الفصل الثانى عشر
الامبراطور تيورور والحملة الانجليزية

العلاقة مع بريطانيا - طغيان تيورور - حملة نايبير ،
هدية الاسلحة الانجليزية للامبراطور يوحنا -
مزيد من الاسلحة من روسيا .

٢٠٣ الفصل الثالث عشر
عهد الامبراطور يوحنا الرابع

صراع يوحنا مع الاسلام .

٢٠٩ الفصل الرابع عشر
الحملات المصرية على الحبشة :

الخلاف بين تيورور وسعيد باشا - مهد لإسماعيل
فتح هرر - فتح الصومال - الحرب بين مصر
والحبشة مع المهديين - كلمة ختامية عن الحملة
المصرية .

صفحة

الفصل الخامس عشر عهد منليك ٢٤٠

اسباب انتصارات منليك - حرب منليك مع
لإيطاليا - معاهدة اوشيانلي - اتفاق الدول
الأوروبية الثلاثة .

الفصل السادس عشر لبيج ياسو - الامبراطور المسلم ٣٥٣

الفصل السابع عشر العهد الأول للامبراطور هيلاسلاسي ٣٦٠

موقفه أمام عصبة الأمم - نشاط هيلاسلاسي ،
حالة المسلمين في عهده الأول .

الفصل الثامن عشر الاحتلال الإيطالي ٣٦٧

موقف الدول الكبرى - الغزو الإيطالي - تأثير
الاحتلال الإيطالي - سياسة الإيطاليين مع
الكنيسة الحثيثة - سياسة الإيطاليين مع المسلمين ،
القضاء على إيطاليا في شرق افريقية .

الفصل التاسع عشر العهد الثاني للإمبراطور هيلاسلاسي ٣٨٨

الحلاقات مع انجلترا - أعباء الدولة الجديدة ، حالة
المسلمين في العهد الثاني لهيلاسلاسي ، الحالة الداخلية ،
محاولة انقلاب

الفصل العشرون الإريتريا ٣١٥

انتشار الاسلام بالإريتريا - أهمية الإريتريا
الحكم الإيطالي - تقرير مصير الإريتريا - الموقف
بعد الاتحاد ،

صفحة

٢٢٥

السكان

الفصل الحادى والعشرين

تقدير السكان - نسبة المسلمين - كيف سيطرت
الحكومة المسيحية (الأقلية) على البلاد .

٢٥٦

عدل

الفصل الثانى والعشرين

حقوق الانسان - آمالنا .

الملاحق

٣٦٣

ملحق رقم ١ . التقويم التاريخى .

٣٧٤

ملحق رقم ٢ . جدول عناصر الحبشة وأديانها .

(مترجم عن كتاب الاسلام فى إثيوبيا
لترمنجام) .

٣٧٥

ملحق رقم ٣ . التقديرات المختلفة لتعداد سكان الحبشة

٣٧٩

ملحق رقم ٤ . مراجع عربية

٣٨١

ملحق رقم ٥ . مراجع أجنبية

الخرائط

أمام ص - ٥

١ - خريطة الحبشة (إثيوبيا)

ص - ١٢٥

٢ - المقاطعات الاسلامية فى عهد عمداسيون

أمام ص - ٣٥٢

٣ - خريطة (أديان الحبشة)

٣٨٢

فهرست الاعلام والاماكن

تصويب

استهلال

عندما تقرر إفادى فى مهمة إلى الحبشة فى عام ١٩٤٣ ، عكفت قبل سفرى على الاطلاع على ماوصلت إليه يدى من مراجع عن تلك البلاد ، وكانت أغلبها أما قديمة العهد وأما سطحية ، شأنها شأن كتب الرحلات التى يكتبها بعض المغامرين ، ووجدتها فى جملتها يغلب عليها طابع التواتر الذى يعتمد على إيراد الأخبار منقولة من شخص إلى آخره فلم أكد أصل إلى أديس أبابا وبطول مقامى بها حتى تبينت فقر تلك المراجع وعجزها عن إعطاء الصورة الحقيقية لتلك البلاد ، وكلما تجولت فى أنحائها واختلطت بمختلف أجناسها وعشائرها وطوائفها كلما تفتحت أمامى آفاق جديدة من المعرفة بها .

ومنذ أن غادرت الحبشة بعد إقامتى بها قرابة عامين ، وكان ذلك منذ عشرين عاما ، ظل اهتمامى بها متصلا ومتقدما طوال هذه السنين ، وحرصت خلالها على الاطلاع بتطوراتها وبكل جديد مما ينشر عنها ، ومن حسن الحظ وجدت أن بعضا قد بدأ معالجة أمور الحبشة وشرحا على جانب لا بأس به من العمق والعناية وبدأت كثير من الحقائق الخافية تظهر بين السطور ، وكان لابد لها أن تظهر مع الطفرة الهائلة فى وسائل الاعلام والمواصلات التى شملت جميع أنحاء المعمورة ، فأصبحت المجال معلما واندمجت البلاد المنعزلة مع المجتمع العالمى الكبير .

وكانت المعلومات عن الاسلام فى الحبشة التى صادقتها فى أغلب المراجع أما خاطئة أو مسوخة أو مبتورة بقصد أو بغير قصد ، الأمر الذى حفزنى على الاهتمام بهذا الموضوع ودفعنى إلى القيام بزيارات متعددة إلى مختلف المناطق متحررا عن الحقيقة ، ولم يكن هذا بالعمل الهين ، ولكن بعد مشاهداتى

(١ - الحبشة)

على الطبيعة وإطلاعى على ما أخذ يظهر من مؤلفات وأبحاث ورجوعى إلى ما كتب بين ثنايا مراجع التاريخ ، أصبح من الميسور على وضع كتاب بصور الحقيقة عن الاسلام وأحوال الحبشة قديما وحديثا ، على قدر يرضى الباحث المنصف من حيث الدقة وتحرى الحقيقة الخالصة .

ولكى نكتب عن الاسلام فى الحبشة لابد وأن نهد بالسكلام عن تاريخ الحبشة منذ برزت إلى التاريخ ، وكيف تدرجت مع العصور ومرت بها العقائد من وثنيه إلى يهوديه إلى مسيحية ، وكيف دخلها الاسلام وثبت أقدامه بها حتى أصبحت البلاد على ما هي عليه اليوم . نخطى من كل ذلك . ولا يمكن أن نستعرض في تاريخ الإسلام في الحبشة دون أن نذكر في ذكر تاريخ الحبشة نفسها ، حيث تفاعل أحدهما مع الآخر وأصبحت سلسلة واحدة متصلة الحلقات .

ولا بد أيضا أن نتعرض في البحث لجغرافية الحبشة وطبيعتها ، فإن كانت طبيعة البلدان ذات أثر كبير في تاريخها وحضارتها فإنها في الحبشة أشد أثرا ، مما جعلها متحفا كبيرا للأجناس واللغات والعادات والأديان .

وبالرغم مما عرف عن هذه البلاد من طابع العزلة الذي ظل يحجبها عليها ما يقرب من ألف عام ، إلا أننا لمستنا بعد إمعان الدرس أن الظروف العالمية الكبرى كان لها أكبر الأثر في تاريخ الحبشة وإحداثها بالرغم من تلك العزلة ولذلك نهجنا في هذا الكتاب نهجا خاصا ، وهو كتابة تاريخ الاسلام والحبشة على أساس صلته بالأحداث العالمية الهامة ومدى تأثيرها بها .

وليس من المعقول أن نغطي فترة ألف سنة من تاريخ مثل هذه البلاد الخافتة بالأحداث والتيارات ، بتفصيل كل صغيرة وكبيرة ، في مثل الحجم المرتقب لهذا الكتاب لذلك عمدنا إلى الاختصار على المراحل والعوامل الهامة التي تشكل في تسلسلها عرضا متصلا وافيا للتاريخ ، مبرزين في كل

مرحلة وفي كل مناسبة كل ما يتعلق بالاسلام ، وهو الغرض الاصلى من وضع هذا الكتاب .

واتماما للفائدة أرفقنا في نهاية الكتاب ملحقا هاما عبارة عن تقويم تاريخى كامل للحبشة ابتداء من القرن الرابع الميلادى إلى الوقت الحاضر . مبين فيه توافق الاحداث الهامة في تاريخ الحبشة مع المراحل التاريخية الهامة في العالم الاسلامى والشرق ، وكذلك في العالم المسيحى والغربى - في كل قرن من القرون .

أما لماذا رأينا أن نسمى هذا الكتاب « الاسلام والحبشة عبر التاريخ » فاننا فضلا عن ميلنا إلى استعمال الاسم العربى الذى عرفت به هذه البلاد على مر العصور وفي جميع اللغات ، فان أكثر ما سنعرض له بالبحث يعود إلى تلك العصور التى كان هذا الاسم شائعا عنها ، لذلك رأينا استعماله امتدادا للراجع العربية والتاريخ الاسلامى .

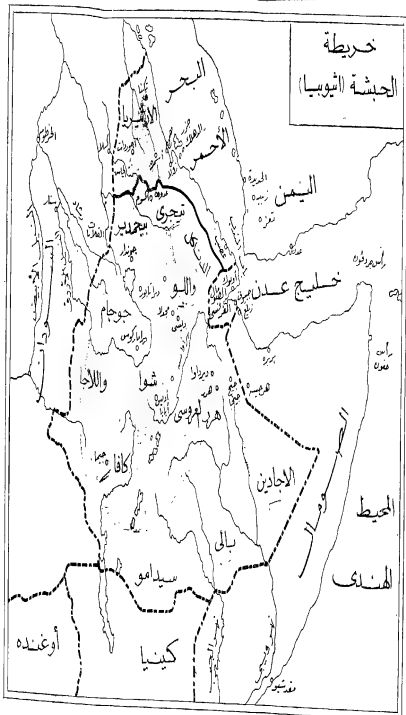
وعندما بدأت الكتابة ، كان ذهنى مليئا بالحوادث التاريخية الكبرى التى غمرت العالم عبر العصور . ووجدتها تشد بعضها البعض وتنبع كل منها من سابقتها ، وظهر كل ذلك واضحا لا لبس فيه ولا غموض في مجربات الأمور في الحبشة وصلتنا الوثيقة بأحداث العالم الخارجى ، يتناجهاه كثير من الكتاب في حرص وإصرار إلى إثبات عزلة الحبشة وبعدها عن تلك المؤثرات .

تركت نفسى على سجيئتها في الكتابة ملتزما بالنهج الذى اقتنعت به وهو الصلة الوثيقة بين تاريخ الحبشة وتاريخ العالم في أغلب العصور التى مرت بها فضاء الحديث عن بعض أدوار التاريخ الهامة مثل الحروب الصليبية ، وصراع الاسلام في أوروبا مطولا ، ورأى أصدقاؤى أنه رغما عن أهمية ما كتبتنه في هذا الشأن إلا أنه تجاوز الشكل الذى يتناسب مع الغرض الاسامى من الكتاب ، وأجمعوا على ضرورة اختصار تلك الفصول وحذف الكثير منها ،

وأن تترك للقارىء فرصة الاستزادة والاطلاع على ما يشاء من التفاصيل في المراجع الأخرى ، وهي لحسن الحظ متوفرة وميسورة .

ولم يقتصر فضل هؤلاء الأصدقاء على هذا الأمر فحسب ، بل امتد إلى جميع صفحات الكتاب وموضوعاته بالتعليق والتصحيح والنصح ، ولإني إذا أقدمه للقارىء الكريم على هذه الصورة أتقدم بالشكر إلى هؤلاء الأصدقاء الذين أعتز بفضلم وهم الأساتذة - عبد العزيز حسين وعبد المجيد مصطفى وحسن الدباغ وأمين يوسف غراب وصهرى مصطفى بدر .

خريطة
الحبشة (اثيوبيا)



الفصل الأول

موجز جغرافي

منشأ الاسم :

تدل أبحاث الدراسات على أن الاسم العربي (حبشة) أو (حبشات) الذي يعنى (الحليط) أو الأجناس المختلطة ، قد بدأ يطلق على تلك البلاد منذ أن بدأت تيارات الهجرة إليها من الجزيرة العربية عامة ومن اليمن والجنوب العربى خاصة فى القرن السابع قبل الميلاد ، وفى أول الأمر أطلق هذا الاسم على طوائف هؤلاء المهاجرين . ولكن نظرا لكثرتهم وازدياد أهميتهم وتفوقهم على سكان البلاد الأصليين وكذلك لتغلب لغات هؤلاء المهاجرين على اللغة الأصلية فى البلاد أصبح الاسم (حبشة) يطلق على جميع المنطقة ، فاختلط المهاجرون الذى ينتمون إلى الجنس السامى (Samitic) مع أهل البلاد الأصليين الذين ينتمون إلى الجنس الحامى (Hamitic) وكان يطلق عليهم عندئذ قبائل كوش (Kush) ويسكنون فوق الهضبة العالية التى تتوسط البلاد لاعتدال جوها وغزارها وكثرة العشب ، التى جعلت منها مساحات شاسعة من المراعى المثالية .

أما لفظ (أثيوبيا) فهو اسم قديم ، جاء ذكره فى كثير من الكتابات الاغريقية القديمة وغيرها من المراجع التاريخية والدينية الهامة . ومعناها الاغريقى هو (الوجه المحروق) ولقد أطلقتها بعض تلك المراجع القديمة وعلى رأسها (العهد القديم) على الممالك النوبية التى تأثرت بالحضارة المصرية

القديمة وامتد بعضهم في اطلاقها إلى جميع سكان القارة الافريقية جنوب الصحراء وأعلى النيل .

وعندما كتب سيريدج (Budge) كتابه عن « تاريخ أثيوبيا » بدأ الكلام عن تاريخ مملكة النوبة على أساس أنها جزء من أثيوبيا . ولقد اعتمد في هذا الاتجاه على جميع المراجع القديمة منذ كتاب الاغريق القدماء هوميرو ، وهيرودوت وغيرهم ، الذين اعتبروا أن بلاد أثيوبيا تبدأ من حدود مصر الجنوبية . بينما ذهب العالم الجغرافي سترابو إلى أن بلاد أثيوبيا كانت جزءا من مصر وامتدادا لها وتقع إلى الجنوب منها .

ولقد تعددت الكتابات القديمة وتنوعت بحيث رسخ في ذهن بعضهم أن اسم أثيوبيا يشمل مصر والسودان وبلاد العرب وفلسطين وبلاد الهند . وعلى الأخص تلك الشعوب التي تسكن وادي النيل شماله وجنوبه .

ولما كان الاسم في أصله اليوناني معناه (الوجه المحروق) فإن المؤرخين أطلقوه على جميع الشعوب التي يتدرج لونها من السمرة إلى السواد بما فيهم الزنوج . وأن البلاد التي تسكنها جميع هذه الشعوب تدعى أثيوبيا . وعلى ذلك لم تنفق المصادر القديمة على حدود معلومة للبلاد التي يطلق عليها هذا الاسم ، بل ظل مشاعا دون تحديد جغرافي . وارتبط هذا الاسم باسم آخر معاصر له وهو كوش (Kusu) الذي يعني نفس الشعوب ونفس المناطق .

ومن دلائل الاضطراب في تحديد المناطق التي كان يشملها هذا الاسم القديم « أثيوبيا » تلك الغزوة التي قام بها ملك النوبة على مصر ، وحكت أسرته النوبة مصر من عام ٧١٢ إلى ٦٦٣ قبل الميلاد وهي الأسرة الخامسة والعشرين ، والتي يسميها المؤرخون بالأسرة الأثيوبية ، مع أنها جاءت من بلاد النوبة ، مما يدل على أن المؤرخين القدامى كانوا يقصدون باسم

اثيوبيا مملكة النوبة ومروى أكثر مما يقصدون غيرها وكانوا يحددون عاصمتها الأولى ناباتا (Napata) وعاصمتها الثانية مروى (Merow) وكلتاها في شمال السودان .

ولكن الكتاب في العصور الوسطى والحديثة ، وقد وجدوا أجزاء هامة من هذه المنطقة قد اتخذت لها أسماء محدودة منذ الأزمنة القديمة مثل مصر والسودان ، اختصوا ماعداها بهذا الاسم ومن بينها الحبشة ، ومن هنا نشأت الرغبة الحديثة لدى الحبشة بالانفراد به لرغبتهم في التخلي عن الاسم القديم الشائع عنها والذي يوحى بتعدد الأجناس وتفككها وافقارها إلى أهم عامل من عوامل تكوين الدول وهو الوحدة العنصرية .

ولقد ظل هذا الاسم مخفيا فترة طويلة من الزمن إلى أن عاد إلى الظهور ثانية في العصر الحاضر ^(١) .

وأرجح ما نراه في تحديد هذه الأسماء هو ما يعنيه التقسيم الحالي للدول التي يتألف منها هذا الجزء من القارة الذي يسمى (قرن أفريقيا) . بحيث يطلق أسم (الحبشة) على الهضبة المرتفعة التي كانت تتكون منها الدولة القديمة ويطلق أسم اثيوبيا على الدولة الحالية التي تضم في الوقت الحاضر السهول التي تحيط بتلك الهضبة من شرقها وجنوبها والتي كانت إلى عهد قريب مجموعة من الممالك والسلطنات المستقلة ، أما ما يتأخم البحار فتتكون منه جمهورية الصومال الحالية ، وكذلك الاريتريا في الشمال التي دخلت مع اثيوبيا في اتحاد فيدرالى بعد الحرب الكبرى الثانية .

(١) مراجع في ٢ - ٥ ، ٣٥ تاريخ اثيوبيا للسير بدرج

وكذلك دائرة المعارف البريطانية ج ٨ ص ٧٩٠ (١٩٦٤)

Ethiopia to day by Iuther وكذلك ص ١٠ من كتاب

The Ethiopia by Ullendorff وكذلك ص ٢

تعدد المناطق :

وبهذه المناسبة نود أن نلفت النظر إلى أن تعدد الاجناس واللغات والممالك والعصبيات التي من أجلها أكتسبت البلاد أسم الحبشة ، لازالت قائمة إلى اليوم ، فالبلاد ظلت مقسمة في داخلها إلى عديد من المناطق التي تتباين فيها العصبيات وتعدد فيها اللغات والأديان ، وتشتد بين طوائف الحزازات ومظاهر التنافس ، التي كثيراً مما تتعدى الحدود المألوفة بين طوائفها الدول مما يجعل أسم الحبشة أكثر أنطباقاً عليها إلى الآن .

* * *

ونرجو أن يكون واضحاً في ذهن القارئ طوال الفصول القادمة من الكتاب أننا باستعمالنا تسمية الحبشة إنما نقصد الاستمرار في أن نعى بها مملكة الحبشة القديمة التي تسكن مرتفعات الهضبة . وعندما يمتد بنا الحديث إلى غير ذلك من المناطق فأننا سنحاول أن نكون من الواضوح بحيث يتيسر على القارئ معرفة ما نقصده بالضبط .

ومن الصعب معرفة الحدود الحقيقية التي تشمل مملكة الحبشة القديمة ولكن التقدير المعقول هو أن مملكة اكسوم لم تكن تشمل إلا تلك المنطقة الواقعة في شمال الحبشة الحالية ومتصفها - فوق المرتفعات . وتشمل بناء على ذلك الجزء الجبلي المرتفع في الاريتريا الحالية الذي يشكل امتداداً طبيعياً لمقاطعة التيجري^(١) .

أما ما بعد العصور القديمة - وإلى عهد قريب - فإن الحبشة التي تقع أيضاً فوق مرتفعات الهضبة حيث تركز المملكة المسيحية فإنها تشمل مساحة أكبر مما سبق لمملكة اكسوم أن شملته ، فأصبحت تتكون من أربعة ممالك بارزة (حسب ما جاء عن بروس Bruce) وهي مقاطعات (تيجري - امبرا

شوا - جوجام) . بينما يذهب (سولت Salt) إلى تقسيمها إلى ثلاث مناطق في نفس المواقع باعتبار جوجام جزءاً من أمهرا ^(١) .

تلك هي حدود الحبشة القديمة التي تعنيها ، وأماما هذا ذلك - فمقاطعات منفصلة في أوصافها وظروفها ، مستقلة في أغلب أوقاتها ، تتناوب عليها ظروف متعددة خلال القرون الطويلة . وسنغني بذكر اسم كل منها أثناء الشرح حتى تكون العلاقة بينها وبين الحبشة القديمة واضحة .

وفي تلك المقاطعات الأربع القديمة المذكورة ، تنقل الملك من مقاطعة إلى أخرى وعاصمتها أكسوم في شمال الحبشة إلى أمهره في وسط الحبشة وعاصمتها جوندرا ، واستمرت كل منهما مركزاً للسلطة عدة قرون إلى أن انتقلت في العصور الأخيرة إلى شوا في عهد منليك الذي أسس مدينة أديس أبابا وجعلها عاصمته إلى الآن .

* * *

ولم تحظ الحبشة في تاريخها الطويل بعمود استقرار كثيرة ، وبدل التاريخ الحبشي من عهد « يكونو أملاك » إلى الآن - ١٩٢٨ وهو تاريخ تسجيل هذه الفقرة في كتاب السير بدج - أنه لم يحاول أي من ملوكهم - ملك الملوك - أن ينشئ دولة مستقرة متصلة ، بل كانت تصرفات كل ملك تليها الظروف السائدة في عصره ، وكذلك تتحكم فيها رغباته الخاصة ، وكان رائد حكام المناطق وزعمائها أغارة كل منهم على الآخر ، ولم يكونوا يخضعون لسلطة الملك إلا إذا تصادف وكان ذلك الملك قوياً وله جيش قوى ، أي أن القوة هي التي كانت توجههم - لذلك لم يحدث أن استقرت الأمور بالصورة التي تسود فيها الأنظمة المستقرة للإدارة والضرائب ، ولم يكن

(١) من ١٢٢ السير بدج A History of Ethiopia by Sir E. A. Wallis Budge. (1928) (١٩٢٨)

هناك توجيه لشئون التجارة والزراعة ، وبالتالي لم يحظ التعليم برعاية الملوك واهتمامهم .

وأما من جهة الدين - فإن المسيحية كانت مركزه في تلك الممالك الأربع وكان ملوك الحبشة حريصين على تأييد الكنيسة الوطنية ورعايتها - إلى الحد الذى جعلها قرابة ستة عشر قرنا رغم حروبها مع العرب والعثمانيين والزنج محافظه على مسيحيتها بدرجة تدعو إلى الإعجاب^(١) .

طبيعة البلاد :

تقع الحبشة الحالية في المنطقة الحارة إلى الجنوب من خط عرض ١٥ وتسكاد في نهايتها تمس خط الاستواء ، وتحتل القسم الأكبر من (القرن الأفريقى Horn of Africa) ولكنها لا تطل على البحار إلى عن طريق ماضئته إليها من أراضي الإريتريا أخيرا ، وبذلك أصبح لها منافذ خاصة بها في مينائى صوع وعصب ولكنها في أقصى الشمال ، مما يجعل جانبها كبيرا من تجارتها مركزا على ميناء جيبوتى فى الصومال للفرنسى كما كان فى السابق .

وتتدرج البلاد من سواحل البحار شرقا ومن السودان وأواسط أفريقيا غربا فى الارتفاع التدريجى ، حتى تصل إلى الهضبة الحبشية التى يتراوح متوسط ارتفاعها بين ٧٠٠٠ ، ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وفيها من المرتفعات والجبال ما يصل إلى ١٤٠٠٠ قدم ، وتبدو تلك الهضبة كأنما تستند من جانبيها على جدارين هائلين جعلت منهما الطبيعة سدين هائلين يحميان فى وسطهما أراض غاية فى الخصب واعتدال الجو . وتتناوب فيها السهول الخصبة مع الوديان السحيقة والجبال الشاهقة فتجعل منها بلادا شديدة العورة تصادف

(١) من ١٢٢ سيريدج Budge (١٩٢٨) .

أثناء سفرك خلالها عددا لا حصر له من المواقع التي توحى بالمناعة والقسوة ،
وتليس منذ اللحظة الأولى السبب الذى جعل هذه البلاد فى عزله عن العالم
غبارغم من قوذا الديانات إليها وما حملته معها من معانى الحضارة ، فانها
بقيت ذات طابع خاص بها ، حتى أن الانسان يشعر بعد أن يتعد بضعة
كيلو مترات عن أديس أبابا أو أية مدينة أخرى كأنما قد دخل إلى عصور
التاريخ القديمة بكل ما كان سائدا فيها من شدة وفطره .

واقسى تلك الحوائط وعوره ذلك الجرف الهائل الذى يقع إلى الغرب
من بحيرة تسانا ويفصل بين الحبشة والسودان ، وهو الذى يدور من حوله
النيل الأزرق فى انحداره من هضبة الحبشة إلى أن يدخل أراضي
السودان .

ولقد درج الكثيرون على تشبيه الحبشة بسويسرا ، وأن كان هذا التشبيه
جائزا لكثرة الجبال والوديان ، فإن الفرق بينهما كبير يجعل من أحدهما
وضعا معكوسا للآخرى . فبينما تملأ الثلوج القمم والمرتفعات السويسرية
وتجعلها قاحلة خالية من السكان الذين يندفعون إلى المعيشة فى الوديان
والأراضي المنخفضة حيث يعتدل الجو وتحيط بهم الجبال من كل جانب ،
يجد أن الأحباش يعيشون على أقصى المرتفعات والقمم والسهول المرتفعة
هاربين من الوديان حيث تشتد حرارة الجو . وبذلك يطل الحبشى من
مرتفعاته على وديان ومناظر غاية فى الروعة والجمال ، ولكنهم بهذا قد
اختاروا لأقامتهم تلك الأماكن والمناطق التى جعلت المواصلات بينها عبر
الوديان فى غاية الصعوبة والشدة ^(١) .

° ° °

وفي أشهر الصيف عندما تزداد الحرارة على المحيط الهندي وتنتج السحب إلى الهضبة الجبلية تسقط الأمطار الغزيرة من منتصف يونية إلى منتصف سبتمبر وللأمطار فترة أخرى تدعى فترة الأمطار الصغيرة وتقع خلال شهور مارس وأبريل ومايو . وتنظم هاتان الفترتان انتظاما دقيقا عاما بعد عام ، وتترتب عليهما مواعيت الزراعة والحصاد في دورات رتيبة ، وتكفي فترة الأمطار الصغيرة احتياجات الزراعة والرى في البلاد ، أما فترة الأمطار الغزيرة فأتها تفيض عن حاجات الهضبة بكميات هائلة تندفق إلى الأنهار العظيمة التي تتبع منها .

وتتميز الهضبة الجبلية باعتدال الجو على مدار السنة في جميع أنحائها الهضبة ، وهو أمر تتميز به تلك المناطق مما جعلها خلال العصور مطعنة للهاجرين لتوفر اعتدال الجو مع خصوبة الأرض وغزارة الأمطار .

* * *

الأنهار :

وأهم الأنهار التي بالجبهة هو النيل الأزرق (Abbay أبابى الكبير) الذي يبدأ من بحيرة تسانا .

وتبلغ مساحة هذه البحيرة ٣٦٣٠ كيلو متر مربع ويتضاعف حجمها أثناء موسم الأمطار وذلك لقرب منسوب البحيرة من منسوب الأرض المحيطة بها ، إذ أنها أشبه بطبق كبير مفرطح الجوانب ، توسط سهلا واسعا من الأراضي الخصبة المعتدلة الجو ، وفي موسم الأمطار يقع عليها حوالى ١٢٥ سنتيمترا من الأمطار وينحدر إليها من السهول المحيطة بها بواسطة عديد من القنوات الصغيرة (وأهمها الابابى الصغير Little Abbey) كمية أخرى من المياه تمتد بشواطئ البحيرة إلى ما يجعلها ضعف مساحتها الأصلية .

تندفق هذه المياه الزائدة إلى النيل الأزرق عند بدايته بجوار بلدة وجرداره
ولقد تضاربت أقوال وحسابات البعثات التي أوفدت لتقدير كمية المياه التي
تنحدر من هذه البحيرة حتى أثبتت بثقة هوايت (عام ١٩٣٠) أن تصرف
البحيرة في المتوسط هو ٨ ر ٣ ، مليار من الأمطار المسكبة في السنة ، بينما
يلعب تصريف النيل الأزرق في المتوسط حوالي الخمسين ملياراً . مما يبين أن
إيراد النيل الأزرق من المياه يأتيه مما ينحدر إليه من شاطئيه بواسطة الأخاديد
العديدة التي تصب مياهها فيه خلال موسم الأمطار على هيئة شلالات
لاحصر لها .

والنيل الأزرق طبيعة خاصة إذ أنه منذ أن يغادر البحيرة عند (جردار)
ينحدر في عنف إلى ذلك الأخدود العميق الذي نحره في الهضبة ، بحيث يصل
في انخفاض منسوب مياهه عن سطح الهضبة ما يقرب من ١٨٠٠ متر في بعض
الأماكن ، ويبدو من فوق الهضبة كأنه شريط رفيع من القضة .

• • •

ويلى النيل الأزرق في الأهمية ، نهر العطبرة ومصادره المختلفة وأهمها
نهر تسكازى (Takkaze) الذي ينبع من أواسط الهضبة ثم يصب في
العطبرة الذي يدخل بعدئذ إلى السودان .

ويبدأ من شمال الهضبة نهر مارب (Mareb) ويمر بأكله في الاريتريا
حتى يصل إلى حدود السودان ومن هناك يسمى جاش (Gash) حيث يمتد
خلال الرمال ماراً بمدينة كسلا وينتهي بعدها بقليل .

أما الأنهار الأخرى في الحبشة فهي نهر الجب أو جوبا (Juba) ونهر
وبى شبل (Webi Shebli) وهما ينحدرا إلى السهل الشرقى الكبير
وينتهيان في الصومال .

وبليها نهر بركة (Baraka) الذى يبدأ من مرتفعات أرتيريا ويتجه شمالا إلى البحر الأحمر بالقرب من طوكر .

أمانهر أواش (Awash) فانه فى وادى الشق الكبير الموجود فى منتصف الهضبة فى مقاطعة شوا إلى الجنوب من أديس أبابا ، ويتجه شمالا بشرق فى بلاد الدناكل وقبل أن يصل إلى حدود الصومال الفرنسى يتجه جنوبا فى اتجاه جمهورية الصومال حيث يغيب نهائيا فى الرمال قبل أن يصل إلى شاطئ البحر .

* * *

تلك هى الأنهار الأساسية فى الحبشة ولكن البلاد مليئة بعدد لا حصر له من القنوات والأخوار ، التى تمتلئ بالمياه أثناء نزول الأمطار وتندفع فيها بسرعة حاملة معها كميات كبيرة من الطمي الذى يجعل لونها أكثر كثافة وأدكن لونا من مياه النيل فى موسم الفيضان ، وسرعان ما تختفى المياه بعد وقوف المطر ، وتجف هذه القنوات حيث تكون قد تخلصت من مياهها بتجمعها فى قنوات أكبر ، ومنها إلى تلك الأنهار الكبرى التى سبق ذكرها مثل النيل الأزرق ، ومن الظواهر المعهودة أن تعترض مثل هذه القنوات طريق المسافرين (فى الطرق غير المرصوفة) ، وما على المسافر إلا أن ينتظر قليلا حتى تجف المياه ويتمكن عبور القنوات ويعاود السفر .

* * *

خيرات الأرض :

سبق أن أشرنا إلى خصوبة الأرض فى أغلب أرجاء الحبشة ، ولقد قدر بعضهم مساحة الأراضى الخصبة التى يمكن زراعتها بحوالى ثمانين مليون

فدان^(١) ، وتتكون التربة الحشبية إلى عمق كبير من ذلك الطمي النادر الذي يصل قليلة إلى مصر مع فيضان النيل فيكون تلك القشرة التي تجعل أرض مصر من أخصب بلاد العالم ، فما بالك بالبلاد التي هي مصدر ذلك الطمي النفيس ، وتتعاون تلك الحشوية مع الجو المناسب والأمطار وتجعل من سرعة الانبات وقوته ظاهره نادره الوجود .

وفي مواسم الأمطار تمتلئ البلاد بطبقة كثيفة من الحشائش وتزدهر المراعى ، ولثروة الحيوانية شأن عظيم في هذه البلاد حيث تصبح أمان الأبقار والأغنام زهيدة جدا ، ويتكون منها الغذاء الرئيسى للشعب ، ولو تحسنت وسائل المواصلات لأصبح في الامكان تصدير اللحوم من الحشبة بمقادير كبيرة .

وبالحشبة كثير من الغابات وأهمها تلك التي تقع على الجزء الأوسط من النيل الأزرق على ضفتيه ، وكذلك تلك التي تقع في منتصف الطريق بين أديس أبابا وديسى ، وتنبت فيها كثير من أنواع الاشجار الحشبية وأهمها أشجار الصنوبر ، وهي تشكل ثروة كبيرة كامنة في البلاد سوف يكون لها شأن عندما تحسن وسائل المواصلات وتقل تكاليف نقل الأخشاب من الغابات .

أما الزراعة فإن الجوء المستغل من تلك المساحات الواسعة لازال ضئيلا وخصوصا فوق هضبة الحشبة ، إذ أن ساكن تلك المنطقة يكتفى بفلاحة ما يلزمه من قطعة الأرض التي تحافظ بكوخه أو قريبا منه ولا يبتغى المزيد فهو في غالب الأمر يفلح الأرض بيديه وقليل منهم يستعمل المهرات ، وتكاد البلاد تكون محرومة من وسائل الرى الحديثة ، وبالرغم من كل

(١) هذا التقدير يشمل الأراضى الزراعية والمراعى الجيدة وسيأتى تفصيل لذلك النصل الحادى والعرضى .

هذا التأخر في الزراعة . فقد تمكنت الحبشة من تصدير كميات كبيرة من الحبوب كل عام ، ولقد كانت الحبشة مصدرا هاما من مصادر الحصول على القمح أبان الحرب العالمية الثانية لسد العجز في المناطق المجاورة ولذلك جعلت بريطانيا عليها إشرافا خاصا تحت اسم (الشركة التجارية للمملكة المتحدة Ukcc) .

وأهم صادرات الحبشة هو البن ، الذي يعتبر أجود أنواع البن في العالم وخصوصا ذلك الذي ينتج من إقليم هرر ، وهناك إقليم آخر تكثر فيه زراعة البن الجيد وهو إقليم (جيمما Jimma) حيث توجد مدينة (كافا Kaffa) التي يشتق منها اسم القهوة في جميع اللغات ، ويبلغ ما تصدره الحبشة من البن حوالي ٢٠ مليون جنيه سنويا .

وتبذل الحكومة الحالية قصارى جهدها لتشجيع الزراعة واستغلال الأراضي الشاسعة ، وإدخال الأساليب الحديثة في الزراعة والري بما ييسر بتغيير كبير في اقتصاديات البلاد ، كما أنها جعلت تحسين وسائل المواصلات في مقدمة مشروعاتها حتى تجعل من خيراتها المدفونة مصدرا هاما من مصادر الثروة .

وقد قامت إيطاليا بعمل الدراسات المستفيضة عن الحبشة منذ عام ١٨٨٥ وخصوصا في منطقة جونداد بالقرب من بحيرة تسانا . وعندما اجتاحت الحبشة في عام ١٩٣٦ كان لديها تنظيم كامل لاستعمار البلاد ونشر الزراعة الحديثة في جميع أرجائها ، وكانت على علم تام بأنها سوف تكون لها من وراء هذه المغامرة امبراطورية تضارع الامبراطورية البريطانية في الثروة والغنى .

وسرعان ما وضعت ثلاثة مشروعات ، فترة كل منها خمس أعوام بحيث يتم استثمار الأراضي على الوجه الاكمل في مدة ١٥ سنة ، ولقد أتمت الخطوة

الخامسة الأولى ، ورأينا منها كيف أقامت عددا لا يحصى من المستعمرات الزراعية في المناطق السهلة ، تتراوح مساحة المزرعة الواحدة بين ٥٠٠ ، ٥٠٠٠ فدان ورأينا إحداها وهي تبلغ ٦٠.٠٠٠ فدان وشاهدنا فيها آثار تسوية الأرض وإزالة الشوائب وحفر القنوات ومساكن العمال والموظفين ومحطات توليد الكهرباء وورش إصلاح الجرارات وآلات الزراعة ومحطات المضخات وأجهزة الاتصال اللاسلكي . وهناك بيان كامل بهذه المزارع في كتاب .

Gli Annali Dell Africa Italiana .

ولقد اختص الإيطاليون منطقة بحيرة تسانا بالعناية في الدراسة ، مركزين على منطقة حول جوندار وجدوا بينهما وبين دلتا مصر تشابها كبيرا في التربة والمناخ وتعادلها في المساحة (حوالى أربعة ملايين فدان) وكانوا على أهبه استغلالها في زراعة القطن (الطويل التيلة) والحبوب والفواكه ولهم في ذلك كتاب هام يمكن الرجوع إليه (أرض بحيرة تسانا تأليف رافيلي دى لاورو)

Le Terre Del Lago Tsana- Raffele Di Lauro. -

وبالحشة كثير من المعادن التي لا محل لذكرها هنا ، سوى أن نشير إلى كثرة وجود الذهب في منطقة (ليكمتي Lechemti) في جنوب البلاد وكذلك في بعض مناطق الاريتريا ، أما البترول فلا زالت الشركات العالمية تنقب ولم تصل إليه بعد .

* * *

وتنقسم الحبشة الحالية إلى عدة مقاطعات يبينها كالاتي :

Tigre	تیجری .	Eritrea	الاریتریا .
Wallo	واللو .	Bagemder	باجمدیر .
Shoa	شاوا .	Gojam	جوجام .
Harar	هرر .	Wallega	واللجا .
Bale	بالی .	Hrnsi	عروسی .
Kaffa (Gimma)	کافا (جیما) .	Ilmbabor	ایلیو بابور
Sidamo	سیدامو .	Gomo- Gofa	جامو جوفا

الفصل الثاني

العناصر الأساسية لسكان الحبشة

ونرى لزماً علينا حتى نوفي هذا البحث حقه أن نقدم للقارىء تفصيلاً واضحاً عن العناصر الأساسية التي يتكون منها سكان الحبشة ، إذ أن هذه البلاد من أكثر دول العالم تعرضاً للهجرات الجماعية ، التي وفدت عليها خلال تاريخها الطويل ، فأصبحت خليطاً من أجناس متباينة في الشكل والعادات والمستوى الحضارى ، ولم تدخل تلك العناصر إلى أرض الحبشة في وقت واحد ، بقى جانب من كل طائفة منعزلاً وعتقظاً بلغته وعقائده ، بينما اختلطت فروع أخرى من هذه الطوائف والعناصر مع بعضها - وتنتجت من ذلك أنواع متعددة من الأجناس .

ولم تنصهر تلك الأجناس مع بعضها انصهاراً تاماً إلا في القليل النادر وبذلك بقيت الحبشة إلى يومنا هذا متخذاً للأجناس والعناصر ، فالدولة لا تنقسم إلى مناطق جغرافية بقدر ما تنقسم إلى مناطق عنصرية . تتحكم فيها النزعات القبلية والروابط العنصرية ، وتتنوع فيها اللغات واللهجات المحلية بما يتجاوز الأربعين .

ولكى لا يختلط الأمر على القارىء فيما سوف نمر عليه من أبناء وأحداث رأينا أن نوضح هنا أهم تلك العناصر الأساسية الكبرى لسكان البلاد ، على أن نعود إلى ذكرها في مواضعها من تاريخ البلاد بالقدر الذى يستدعيه شرح الأحداث وما يتطلبه من تفصيل .

١ - الأحباش الأوائل

الحاميين : Hamitis

وبالرغم من ندرة المعلومات عن الأصل القديم للأحباش الأوائل ، فإن الشواهد تدل على أن سكان الحبشة الأوائل كانوا من القبائل الحامية التي نزحت إلى تلك البلاد من القوقاز عن طريق مصر والنيل ، وقد يكون بعضها قد مر عن طريق الجزيرة العربية ، ويبدو أن هؤلاء الحاميين قد وصلوا إلى تلك البلاد في موجات وبحرعات متعاقبة ، اختلطت على مرور الأيام مع زنوج أفريقيا ، ونشأ عنهم ذلك العنصر السائد في هذه المنطقة ولكن ذلك الاختلاط لم يكن على درجة واحدة في مختلف المناطق وبين مختلف القبائل التي تسكنها ، فإن الأصل الحامي يبدو أكثر صفاء ونقاوة وأشد وضوحاً في قبائل البيجا في الشمال^(١) كما أنه يبدو غالباً في قبائل الأجاو التي تسكن قلب الهضبة . وكذلك في المناطق الجنوبية التي تحوي قبائل السيداما .

وبالرغم مما تعرضت له هذه المناطق من الاختلاط بالساميين الذين غزوا البلاد فيما بعد واستولوا على الهضبة حيث يتكاثر الحاميون ، فإن الأصل الحامي بقي غالباً واضحاً بين قبائل التيجري والأمرا وفي مقاطعات جوجام وشوا (وهي المناطق التي تتركز فيها الديانة المسيحية في الوقت الحاضر) . وكذلك اختلطت قبائل الأجاو في عصور متأخرة بسكان الشمال المطعمين بالنم السامى ، ولكنهم كانوا أكثر حفاظاً على عنصرهم ولغتهم وعاداتهم ومعتقداتهم .

وكما انحدرنا من أعلى الهضبة إلى السهول الممتدة في الجنوب والجنوب الغربي كلما أصبح الدم الزنجي غالباً وأكثر وضوحاً . حتى مناطق أعلى النيل .

(١) يذهب بعض الكتاب إلى أن قبائل البيجا من الساميين الذين اختلطوا مع الحاميين .

بل يمتد عنصرهم إلى مناطق النيل الوسطى عن طريق هجرتهم إلى الشمال ويلقبهم الأحباش بالشناقة أو بنى شنقول . ويطلق على تلك القبائل الحامية الأولى اسم (كوش Kush) أو (الكوشيين Kuschiti) وهي التي اختلط فيها دم الحاميين بالعناصر الزنجية .

• • •

أما العنصر السامى فإنه نزل بالبلاد فيما بين عام ١٠٠٠ ، ٤٠٠ قبل الميلاد بالهجرة من جنوب الجزيرة العربية ، جالبا معه من المدنية ما أحدث بالحشة تغييرا كبيرا ، ورفع مستواهم الحضرى ، الأمر الذى تميزت به المناطق التى انتشر فيها الساميون فى أعالي الهضبة ، وهى المناطق التى أصبحت غالبية على مملكة الحبشة الأولى (تيجرى - أمرا - جوجام - شوا) ومنذ ذلك الحين وأرض الحبشة تنقسم إلى أقسام واضحة الخلاف فى العنصر بين حامى وزنجى ثم خليط منهما ، وبين خليط آخر من الساميين والحاميين ، وكذلك تعددت اللغات ، فسلك جنس من هذه الاجناس لغته الخاصة ، حتى أن الجنس المتميز من خليط الساميين مع الحاميين يتكلم لغتين مختلفتين هما اللغة التيجرية واللغة الأمهرية .

وبما تجدر الإشارة إليه بصفة خاصة ، أن تأثير الساميين على الحبشة كان واضحا بين القبائل التى اختلط بها ، وأوجد بينها رابطة جديدة ، غلبت فى كثير من الأحيان على الخلافات القبلية القديمة ، وإن احتفظت كل منطقة بالرغم من ذلك بعصبيتها ولغتها .

ومنذ العصور القديمة ، تميزت تلك المقاطعات الأربع التى سبق ذكرها وتركزت سلطتها فى شمال الهضبة وتكونت منها مملكة الحبشة الأولى وشملت جانبا من الاريتريا الحالية حيث تمتد قبيلة التيجرى التى تسكن الطرف

الشمالى من الهضبة الذى يخترق الاريتريا . وكانت عاصمة هذه المملكة القديمة مدينة أكسوم . ولما كان لكل مقاطعة من تلك المقاطعات الأربع استقلال ذاتى ولها ملك . فإن ملك أكسوم كان يدعى «ملك الملوك» .

• • •

استمرت الأوضاع على تلك الصورة فترة طويلة من الزمن إلى أن اجتاحت قبائل البيجا شمال الحبشة وامتدت من شواطئ النيل إلى شواطئ البحر الأحمر واستولت في طريقها على الاريتريا ، فأنكشت دولة الحبشة القديمة ، مما اضطرها إلى الامتداد إلى الجنوب حيث توجد قبائل (الاجاوا Agaw) ومن بينها قبيلة (الزاجوى Zagwe) - وهى كما قدمنا نتاج اختلاط الطميين الأوائل بجمع الزنوج ، ولم يكن قد امتد إليها اختلاط الساميين كما حدث في الشمال ، ولذلك حافظت على عنصرها الحامى أكثر من القبائل الشمالية . وهى قبائل كثيرة العدد شديدة المراس ، لاقت منها مملكة الحبشة عندما اضطرت إلى الامتداد جنوبا في أراضيها كثيرا من الصعوبات ، ونشأت بينهما القلاقل والحروب ، ولم يكن من السهل ترويضها ثم نشر المسيحية بها وإخضاعها لحكم ملوك الحبشة . واستمرت بينهما المنازعات حتى استولت إحدى قبائل الاجاوا (أسرة زاجوى) على حكم مملكة الحبشة كلها مدة قرنين من الزمان . كما سيأتى تفصيله فيما بعد .

وأنه وإن كانت قبائل الأجويين تتشابه مع القبائل الحبشية القديمة وتتحده في العنصر الأصلي ، إلا أنها لم تتعرض للاختلاط بالقبائل السامية بالقدر الذى تعرضت له الأقاليم الشمالية ، مما جعل لها طابعا خاصا مستقلا عن باقى قبائل الهضبة ، حتى بعد دخولها في الدين المسيحى فإنها حافظت على كثير من عاداتها الوثنية الأولى ولم تندمج مع باقى مناطق المملكة وتحد معها ، بل بقيت تشكل عنصرا قائما بذاته يعزى بلغته وتقاليد وشخصيته ، وتستمد هذه القبائل قوتها من كثرة عددها وشدقهراسلما مما يجعل لها أهميتها الخاصة في المملكة الحبشية .

(ب) قبائل البجة (البيجا Beja)

ويقال لها البجة أو البجاه — وإن كان الاسم المتداول حالياً هو البجة (بكسر الباء) ومنه غلبت التسمية الأوروبية (بيجا Beja) .

ويميل علماء الأجناس إلى الربط بين البجة — وقدماء المصريين في أقدم عصور التاريخ، مما يستدل منه على وجود قبائل البجة بشكلها المستقل ومناطقها المحددة منذ القدم . إلا أن المراجع التي تفصل تاريخ هذه القبائل وأحوالها في تلك العصور السحيقة نادرة، مما يدعو إلى الاعتماد على الاستنتاج والاجتهاد لمعرفة تاريخها .

ويبدو أن أرجح المعلومات هي أن التكتل الأول لهذه القبائل كان في المنطقة الشرقية من نهر النيل التي تشمل وادي العظيرة وجانبا من وادي النيل الأزرق حتى حدود الحبشة عند كسلا . وكانت تتأخم حدود مصر عن الشمال وتمتد إلى البحر الأحمر عند طوكر وسواكن .

ويرجع نسب البجة إلى تلك القبائل التي نزلت^(١) في مبدأ الأمر من جزيرة العرب، ثم اتصلت مع المصريين القدماء ومن هنا كانت الروابط والعلاقات بينهما منذ القدم . ولكن اختلاف الطبيعة، وكثرة الأمطار في مناطق البجة جعل منهم بدواً رحلاً، ورعاة للأبقار، وغلبت هذه الطبيعة على طبائعهم وأصبحت لهم صفات البداوة المشهورة . وإن كانت صلاهم قد قويت مع المدن الكبيرة المستقرة على شاطئ النيل مثل مروى ودنقلة حيث تركزت سلطة المملكة — مملكة النوبة — أو مملكة مروى . التي اعتنقت الديانة المسيحية عن طريق مصر منذ عهد المسيحية الأولى — ولقد

(١) يميل بعض الكتاب إلى أن قبائل البيجا من الحاميين الذين اختلطوا بالساميين (كما سبق ذكره) .

انتشر هناك مذهبان مسيحيان مختلفان — أكبرهما تابع لبطريركية الاسكندرية شأنها في ذلك شأن الحبشة — وكان هو المذهب الغالب في شمال السودان — أما قبائل البجة البدوية فلم تتأثر بالمسيحية وبقيت على وثنيها قرونا طويلة .

وبالرغم من الطبيعة البدوية لقبائل البجة فإن اتصالهم بحيرانهم وخصوصا مع المصريين كان كبيرا . حيث تبادلوا التجارة معهم ، واكتسبوا منهم كثيرا من المعلومات عن الزراعة وتربية الماشية — وتقول المراجع التاريخية أن من أهم مناطق الاتصال بينهما وادى العلاقي ومالييه من جهة الجنوب ؛ حيث توجد مناجم الذهب ^(١) التي كان المصريون يقبلون على استغلالها .

ويبدو أن البلاد التي كانت تعيش فيها قبائل البجة وملكة النوبة ، كانت أغزر مطرا وأكثر نباتا في العصور القديمة . ولكنها بدأت تجف بعد ذلك مما دفع قبائل البجة إلى الهجرة إلى الجهات الأوفر ماء ، فنزحت إلى الشرق في أعداد وأفواج كبيرة ، وملأت السهول والوديان والمرتفعات الجبلية من شرق السودان إلى البحر الأحمر مكتسحة أمامها بلاد البوغوص (الاريتريا) وشمال الحبشة .

ويبدو أيضا أن جفاف الأرض واشتداد صعوبة الحياة على قبائل البجة جعل من هذه القبائل مصدرا للقبائل والممالك لملكة النوبة التي طاردهم وعاونت بذلك على ازدياد موجات الهجرة . وما أن جاء القرنان السابع والثامن الذي دخل فيهما الإسلام إلى مصر وتوطدت أقدامه فيها وبدأت منافساته مع ملكة النوبة المسيحية حتى كانت هجرة البجة إلى الشرق قد بلغت أوجها ، وأصبحت حاجزا منيعا في شمال الحبشة يجعل اتصالها مع العالم الخارجي متعذرا عن هذا الطريق عدة قرون ، وأصبحت عاملا من العوامل الهامة التي عاونت على عزلة الحبشة خلال تلك القرون .

* * *

كانت قبائل البجة وتعدادها الوفير ، مصدرآ من مصادر القوى العاملة التي استعان بها المصريون القدامى ثم العرب فيما بعد ، للعمل في المناجم الموجودة في شمال السودان وبلاد البوغوص وأهمها مناجم الذهب ، وكان لاستقرارهم حول هذه المناجم أثر كبير على عقائدهم ، إذ أنه عندما أفل نجم الدولة المصرية القديمة ، وحلت محلها الدولة الإسلامية أخذ العرب يحلون محل المصريين في استثمار تلك المناجم ، فاختلفوا بالبجة وتزوجوا معهم ، كما زادت روايتهم في كثير من المناطق الأخرى وأهمها الموانىء ، فانتشر الإسلام بين البجة واستمر انتشاره حتى أصبحت جميع البجة في القرن العاشر وما بعده قد اعتنقت الإسلام .

وكما سيأتى في سياق الحديث ، لم يقتصر أثر العرب والمسلمين على ذلك . فإن نشاط العرب في التجارة وكثرة العاملين بها في السودان منذ القدم وازدياد عددهم بعد الإسلام ، أوجد جاليات عربية في شمال السودان ، ازدادت عددا وقوة بعد الإسلام عندما هاجر إليها عدد من الأسر العربية العريقة عندما استولى الأمويون على الحكم — ثم بعد ذلك عندما استولى العباسيون على الخلافة .

ومن البديهي أن تكون قبائل البجة التي انتشرت في شمال الحبشة والاريتريا امتدادا لقبائل السودان ومن أهمها قبائل بنى عامر والأمرار والبشارية والمهندودة والحدارب .

* * *

(ج) الجالا GALLA

والصومال

عبرت خليج عدن وبوغاز باب المندب في العصور القديمة أيضا جحافل من المهاجرين إلى الشاطئ الأفريقى ، ينتمون إلى العنصر الحامى ، واستقروا

في مبدأ أمرهم في بلاد الصومال بين وادي نهر وبى وخليج عدن . وأخذوا أثناء امتدادهم مختلطون وبترأوجون مع الزنوج ، وانقسموا في هذه العملية إلى ثلاثة أقسام كبيرة ، أولها - هؤلاء الذين هاجروا شمالا إلى سهل الدناكل والمناطق الساحلية على البحر الأحمر . ويعرفون باسم قبائل « عفر ساهو Afar - Saho » ، والقسم الثانى هم الصوماليون الذين بقوا في أماكنهم وانتشروا انتشارا طبيعيا فيما حولهم من أراضى وامتدوا حتى وصلوا إلى وادي نهر (وبى شيبيله Wobi Shebeli) أما القسم الثالث فهو الأكثر عددا والذي اضطر إلى الهجرة شمالا وغربا وشرقا .

انتشرت قبائل عفر وقبائل الصومال في أماكن هامة من شرق أفريقيا . وقتئذ إلى مساحات كبيرة من أرض الحبشة وانفردت بها ، أما قبائل الجالا قد فاقت أبناء عمومتهما عددا وقوة ، وعندما اضطرت للهجرة زحفت على الحبشة زحفا ، وملأت جنوب الحبشة ومناطق العروسي وهرر في الشرق ، وفي الغرب إلى نهر (ديديسا Didessa) وامتد زحفهم إلى أعلى الهضبة الحصينة فغمرها مقاطعة شوا ومقاطعة واللو حيث استقروا بين السكان المسيحيين على الهضبة . وسرعان ما استقر هؤلاء الجالا فوق الهضبة وأصبح شأنهم كبيرا في مقاطعات (واللو ، شوا ، جيا ، هرر) وصاروا يعملون في الزراعة والمراعى . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الجالا نصف سكان الحبشة .

وبالرغم مما تعرض له الجالا من تأثير الساميين فإنهم ظلوا محافظين على صفاتهم الحامية - شأنهم في ذلك شأن قبائل الأجاو التي سبق الكلام عنها . ولكن قبائل الجالا مع مرور الزمن تنوعت في صفاتها وأحوالها ، فإن تلك الفروع التي استقرت فوق الهضبة ثبتت هناك وأصبحت لها القرى والمنازل الثابتة وعملت في الزراعة والمراعى ، أما هؤلاء الذين بقوا في السهول المنخفضة فقد ظلوا على حالتهم البدوية يتنقلون من مرعى

إلى آخر ، وبين هذين الفريقين تندرج فروع الجالا بين درجات الاستقرار
والبداءة .

إن قبائل الصومال وعفر والجالا - هي التي انتشر فيها الإسلام
تدريجيا . حتى اعتنقته جميع قبائل الصومال وعفر أولا - ثم أخذ يتغلغل
بين قبائل الجالا خلال العصور حتى أصبحت غالبيتها الكبرى تعتنقه منذ
أواخر القرن التاسع عشر .

• • •

ولقد بدأت هجرة الجالا إلى إقليم الحبشة ببطيئة ضئيلة في أول الأمر
ولكنهم ظهروا فجأة على مسرح الحوادث في القرن السادس عشر عندما
زحفوا على الحبشة في أفواج هائلة ملأت كل فراغ واستقرت في كل مكان
وبلغت من الكثرة والقوة بحيث لم يعد في الإمكان صدhem ، بل أصبحوا
جزءاً أساسياً من الدولة يبلغ نصف مجموع سكانها ، ولم تعد القبائل الأممية
والتجارية تدعى وتتنافس في كثرة العدد واتساع الرقعة إذ أصبحت الجالا
تفوقهم مجتمعين ، مساحة وعددا . كل ما هنالك أن قبائل التجارى وكذلك
قبائل الأممية كل منها متكنلة في منطقتها ، بينما الجالا الذين يفوقونهم عددا
منتشرون على مساحات شاسعة من البلاد ، وليس من الميسور إيجاد ذلك
النوع من التكتل بينهم لصعوبة المواصلات وبعد المسافات ، والاختلاف
في طبيعة المعيشة التي طرأت على فروعها المختلفة . ولكننا أننا أتيت لها
ظروف التكتل والاستقرار كما حدث في مقاطعة والالو في قلب الهضبة
أصبحوا خطرا كبيرا ونازعوا قبائل الأممية والتجارى السلطان .

• • •

(د) العرب

وأخيراً وليس آخراً - قبائل العرب من جنوب الجزيرة العربية ومن
الحجاز ومن شواطئ الخليج العربى . استمرت تنزح عبر البحر الأحمر

وخليج عدن على طول العصور القديمة والحديثة . للتجارة والإقامة . وهم على قلة عددهم بالنسبة للعناصر الثلاثة التي سبق ذكرها ، إلا أنها كانت أبلغها أثرا في تاريخ الحبشة ، إذ أنها حملت معها المدنية والثقافة والحضارة والدين الإسلامي ، وكانوا في هذا أول من ربط الأحياء بالعالم واستمروا قرونا طويلة واسطة الاتصال ومنبع الإشعاع . ولم يمر عصر من العصور لم يكن للعرب على الحبشة تأثير من نوع آخر .

وسنوضح هذا ونعرف الدور الكبير الذي لعبه العرب في تاريخ الحبشة عندما نأتي إلى ذكر مختلف المراحل التي سنمر عليها في تسلسل الأحداث .

* * *

الفصل الثالث

موجز التاريخ القديم للجيشة

تأثير قدماء المصريين :

يبدو أن المصريين كانوا أول الأجانب الذين اتصلوا بهذه البلاد التي اعتبروها في ذلك الوقت جزءا من بلاد النوبة ، والأرجح أن المصريين وصلوا إليها عن طريق الغرب متبعين مجرى النيل ، كما وصلوا أيضا عن طريق البحر بعد وصولهم إلى مكان ما على الشاطئ الصومالي بحثا عن التوابل والعاج والذهب ، التي كانت تشتهر بها عندئذ بلاد (قرن أفرقية) . ويحدثنا التاريخ عن حدوث هذه الرحلة في عهد بيبى الثانى (Pepi II) فرعون مصر خلال الألف سنة الثالثة قبل الميلاد^(١) وتكررت هذه الرحلات حتى جاء ذكرها في تاريخ الملكة حتشبسوت في منتصف الألف سنة الثانية قبل الميلاد ، مسجلا في معبد الدير البحرى في طيبة .

ويذكر المؤرخون أن الجيشة ليست لها حضارة خاصة بها ، وبين (السير بدج) ذلك بوضوح في مقدمة كتابه حيث يقول : «إن الكنائس العجيبة المنحوتة داخل الصخور في لاليبلا - لم تكن من عمل الأجاش ، بل من عمل الصناع المصريين والسوريين من مصر وبيت المقدس ، والجسر التاريخى فوق النيل الأبيض عند (أجام ديدلى Agam Dedli) - أقامه البرتغاليون ، وكذلك عدد كبير من القلاع والكنائس والقصور الموجودة في مختلف المناطق ، »^(٢)

(١) من ٤٧ The Ethiopians by Ullendorff.

(٢) مقدمة - كتاب السير بدج Budge .

وذكر أيضا أن البلاد ليس لها أعمال أدبية ، فجميع ما لديها مترجم
عن العربية أو القبطية^(١)

تأثير قدماء العرب :

ويوحى وضع (القرن الأفريق) محيطا بمجنوب بلاد العرب ، بضرورة
وجود صلة بين الجانبين ، ولقد اتضح أن هذه الصلة كانت ذات أثر فعال في
الألف سنة الأولى قبل الميلاد ، كما وضع أن هذه الصلة كانت طوال تلك
الفترة عبارة عن حركة في اتجاه واحد من الشرق إلى الغرب - عبر بوزان
باب المندب - وأن هذه الهجرة كانت السبيل الذي دخلت عن طريقه القبائل
السامية من جنوب الجزيرة العربية إلى الشاطئ الإفريق .

ومنذ اللحظة الأولى لوصول هذه الموجات السامية من المهاجرين ،
وضع تفوقهم على أهالي البلاد في وسط الحضبة وشمالها ، وكان تأثيرهم عليهم
كبيرا ، ومنذ تلك العهود السحيقة وهذه القبائل المهاجرة تسيطر على نواحي
النشاط المختلفة وأهمها التجارة ، وأخذ نفوذ العرب ونشاطهم التجارى
يزدهر ، في الوقت الذى أخذ النفوذ المصرى القديم فى الانحلال .

وكما توغل تجار العرب فى داخل البلاد الخبيثة كلما صادفوا مزيدا
من الخصب واعتدالا فى الجو يرغبهم فى الاستقرار بتلك البلاد ، ولا زالت
كثير من المواقع القريبة من مصوع تحمل من الأسماء ما يؤكد تغفل هؤلاء
المهاجرين والتجار العرب داخل الأراضى الأفريقية^(٢) .

وسرعان ما استقر هؤلاء المهاجرون واختلطوا بأهالى البلاد وأدخلوا
إليها تلك الأنظمة التى الفوها فى بلاد العرب فى شئون المجتمع والسياسة

(١) المرجع السابق .

Storia d'Ethiopia by conti Rossini .

(٢) صفحة ١٠٣

The Ethiopians by Ullendorff.

وصفحة ٤٩

والثقافة ، وعلى وجه الخصوص كان لهم أثر كبير في تطوير البلاد الحبشية بإدخال وسائل الري وتطبيق قوانين الملكية وتهذيب أساليب البناء ، وتنظيم عملية تربية الحيوانات وما إلى ذلك من وسائل التقدم والعمران .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح هؤلاء المهاجرون جزءاً لا يتجزأ من بلاد الحبشة (وكان أغلبهم أصلاً من اليز-وحضرموت) وبمرور السنين ضعف شأن البلاد الأصلية في جنوب الجزيرة العربية - وقويت شوكة الدولة الجديدة - التي كانت عاصمتها في ذلك الوقت مدينة أكسوم . الواقعة في شمال الهضبة الحبشية .

وفي القرن السادس الميلادي أخذت جيوش مملكة أكسوم وأغلب رجالها تجرى في عروقه دماء المهاجرين العرب الأوائل - يعبرون البحر في الاتجاه المضاد ويرفعون لواء مملكة أكسوم على جنوب الجزيرة العربية^(١) .

* * *

تأثير اليهود الأوائل :

وخلال تلك العصور التي تناولها بالبحث الآن كانت الديانة اليهودية قد بدأت في الانتشار في كثير من أنحاء الشرق الأوسط ، فهناك بعض المقاطع المتناثرة في (العهد القديم) التي تشير إلى اليهود الذين استقروا في مصر ، وإلى بعض من وصل منهم إلى مناطق كوش . وبلاد النوبة ، ولكن بالرغم من جميع ما ذكر عن هذا الأمر في العهد القديم وفي أوراق (بردى - اليفانتين) فإن الأرجح أن عدد من تسربوا إلى هذا المناطق كان ضئيلاً ، مما يدعو إلى الظن بأنه لم تحدث أية هجرة ذات شأن لليهود إلى الحبشة عن طريق مصر والنيل . هذا بالرغم من أن اليهود الباقين بالحبشة الآن يدعون أنهم نسل أتباع منليك الأول كإسآي ذكره - وكذلك من أتباع اليهود

الذين هاجروا من مصر عام ٥٨١ ق. م^(١) .

ولكن الأمر يختلف بالنسبة لبلاد العرب ، فالوثائق التاريخية متعددة عن دخول الدين اليهودى إلى جزيرة العرب قبل الميلاد ، واستقرار اليهود فى كثير من ربوعها وعلى الأخص فى جنوب الجزيرة ، وإن كان شأنهم قد بدأ يتضح بقوة عند دخول الإسلام ، فى يثرب وخيبر ، ومن هنا جاءت هجرة بعض اليهود مع بقية المهاجرين العرب إلى الحبشة قبل الميلاد ، ويبدو أنهم لم يهاجروا على هيئة جماعات متكثلة ولكنهم انضموا إلى مواكب المهاجرين كأفراد ، وبعد وصولهم تجمعوا وكونوا جالية قائمة بذاتها ، وبدأ أثرهم يظهر فى ثقافة البلاد وحضارتها بصورة مستقلة ، وليس أدل على ذلك من اعتناق فريق من أحباش ذلك العهد للديانة اليهودية .

وفى نفس تلك الفترة كان أحفاد سليمان قد بدأوا نشاطهم التجارى فى البحر الأحمر ، وتذكر بعض المصادر وصول بعض سفنهم إلى موانئ البحر الأحمر بحثا عن الذهب وربما كان هذا النشاط اليهودى عاملا من عوامل تعزيز الديانة اليهودية فى بلاد الحبشة .

* * *

أسطورة سليمان وملسكة سبأ :

وما دنا بصدد الكلام عن اليهود وصلتهم بالحبشة ، أصبح لزاما علينا أن نتكلم عن الأسطورة الشائعة التى تربط بين ملوك الحبشة والنبي سليمان ، فإن تاريخها يعود إلى العهد الذى نبحثه فى هذه المرحلة من جهة ، ولشدة ارتباطها وأهميتها للتاريخ الحبشى القديم والحديث على حد سواء — من جهة أخرى .

يعلق الإباحاش أهمية كبرى على قصة سيدنا سليمان مع بلقيس ويحملون منها أساسا هاما من تاريخ دولتهم بصفة عامة وتاريخ الأسره المملوكه بصفة خاصة ، وحذا حذوهم كثير من الكتاب فأخذوا ينقبون في أسفار (العهد القديم والعهد الجديد) ثم بعد ذلك من المراجع القديمة ، يجمعون ما تناثر هنا وهناك من إشارات يمكن الربط بينها لمعرفة حقيقة هذه الأسطورة ، وبالرغم من كل ذلك لم يتيسر لهم إلى الآن برهان تاريخي قاطع يربط بين ما يتواتر عن علاقة هذه القصة بتاريخ الحبشة وملوكها ، ولكن هذا لم يمنع الإباحاش من التمسك بها .

ونص الأسطورة التي يتمسكون بها يدور حول ملكة لهم تدعى (ماكيدا) وكانت ملكة على سبأ يقولون بأنها كانت بأرض الحبشة في المكان المعروف الآن بالاريتريا ، ويعتبرها الإباحاش أنها هي الملكة التي أطلق عليها العرب اسم بلقيس ، ثم بمعنى القصة في مثل ما تمضى فيه باقي المصادر حتى تنتهى بزيارتها لسليمان في بيت المقدس - حوالي عام ١٠٠٠ ق . م .

وقد ذكرت كثير من المراجع القديمة ما حدث بين بلقيس وسليمان من مناورات انتهت بزواجهما ، وهنا تستمر بعض المصادر في تكملة القصة بأن جعلت نتيجة لهذا الزواج ولدا اسمه منليك ، وعندما بلغ أشده أرسلته (ماكيدا) إلى والده الذي فرح به وجعل منه ملكا على الحبشة ، وفي أكثر الروايات زواجا ، أنه عاد إلى الحبشة ومعه نفر من شباب بني إسرائيل ، فرحت بهم الملكة وتوجت ابنا وتنازلت له عن العرش ، وجماع في نفس الأسطورة أن منليك عند مغادرته لبيت المقدس تمكن بمفاوضة رجاله أن يسرق (تابوت العهد) من أبيه وحمله معه وحفظه في عاصته أكسوم التي أطلق عليها (أرض صهيون الجديدة) .

• • •

ويذهب (أولندورف Ullendorff) في صفحات ١٤٣ ، ١٤٤ من كتابه عن (الايوبيين) أنه بما زاد في هذه القصة رسوخاً حتى أصبحت جزءاً من حياة الأقباش ومعتقداتهم ، تسجيلها على هيئتها تلك في كتاب (مجد الملوك — Glory of Kings — Nebra Kogast) الذي يقسده الايوبيون ، ولقد عمد واضع هذا الكتاب إلى الاعتماد على ما جاء ذكره من إشارات في أسفار العهد القديم والعهد الجديد . ويمضي أولندورف يقول (وفي الحقيقة لا بد وأن تلك الأسطورة كانت خلال العصور الطويلة محلاً للبالغات والإضافات الخيالية في الحبشة وغير الحبشة ولا بد أيضاً أن تكون مختلف الفصوص والأساطير قد انصهرت مع بعضها على تلك الصورة المتواترة ، وعندما جاء وقت كتابتها في القرن الثالث عشر ، غلبت على الكاتب رغبته في تأييد دعوة الأسرة السلمانية الجديدة العهد بالسلطة في الحبشة ، والتكئين لها قياً. تطمع فيه من قوة ومنعة ، وكانت مهمة المؤلف تيبورا أم يشاق Nebura Ed. Yesbaq. أقرب إلى تسجيل أساطير متواترة منذ أمد طويل ، لم ينهها لها إلى ذلك الحين من يتفرغ على تنظيمها أو تحليلها أو إمعان العقل والتفكير فيها للوصول إلى حقيقتها) .

* * *

والاعتقاد المنطقي أن هذه القصة إنما نشأت في القرن الثالث عشر لتثبيت أقدام الأسر المالكة السلمانية على العرش ، وكان القصد إضفاء صبغة القداسة على الأسرة الحاكمة الجديدة حتى لا يحاول أحد الانتفاض عليها ^(١) . واعتمد واضعو هذه الأسطورة على شدة تعلق أفراد الشعب الحبشي بأمثال هذه القصص .

* * *

ويقول السير بدج أن القديس « تكللا هيانوت » الذى تبى هذه الأسطورة، هو الذى وضع قائمة الأسرة السلجانية وتسلسلها حتى (سليمان الحكيم)^(١) وذلك لكي يتمكن الملك « يكونو أملاك » من العرش وهو الذى أطلق عليه هذا الاسم ومعناه (سوف يكون ملكا) بعد أن كان اسمه الحقيقي (تسفا ياسس) .

ويعود بدج فيقول عن سجل الملوك ، أو مجد الملوك - Kebra Megast - Glory of Kings أنه سجل لقيمة له ، إذ أن التضارب فيه واضح ، وأنه وضع بقصد ملء الخانات في تسلسل الملوك من آدم إلى سليمان^(٢) حتى أن الاختلاف أصبح واضحا من مقارنة الجدول التي أوردها (بروس Bruce) و (سولت Salt) مما يدعو إلى الشك في صحة السجل^(٣) .

وبمراجعة سجل الملوك المذكور تتضح حقيقة بالغة الأهمية في تاريخ الحبشة ، وهي أنه لم يتمكن أى ملك وطنى أو (رأس) قبل الإمبراطور (يكونو أملاك) من أن يطلق على نفسه لقب « ملك ملوك الحبشة »^(٤) . وذلك يزيد في اليقين بأن السجل قد وضع في ذلك الوقت (القرن الثالث عشر) ليخدم الهدف الذى سبق ذكره وهو نشر هالة من القداسة حول الملوك ، لتوطيد حكمهم على جميع أرجاء البلاد بدون منازع ، حيث لا يمكن لأى شخص مهما كبر مقامه أن يدعى نسبا أعلى من هذا النسب ، وعلى ذلك فلا يجوز له أن يتطلع إلى الملك .

ولذلك كان كل من يتمكن من الاستيلاء على العرش ، يسارع إلى ربط نسبه بتلك الأسرة حق ولو من قبيل الادعاء والاختراع .

• • •

(١) مقدمة كتاب - سير بدج - Budge

(٢) ص ١٨ نفس المرجع

(٣) ص ١٠٥ وما بعدها نفس المرجع

(٤) المقدمة - نفس المرجع

«وليس من المقبول بالنسبة لما جاء عن هذه القصة في القرآن الكريم ، أن نمر على هذه الأسطورة الحبشية دونما تحليل أو تعليق ، فقد أجمعت أكثر كتب التاريخ الآثار على أن مملكة سبا كانت تقع في جنوب الجزيرة الغربية في بلاد اليمن ، ولها تاريخ متسلسل مترابط تؤيده الآثار ، والنقوش ويزيد في تأييدها ما أجمعت عليه المصادر من أن العرب في هجرتهم إلى أرض الحبشة في تلك العصور حلوا منهم حضارة متقدمة لم تعدها بلاد الحبشة .

ونحن لا نشك في أن مملكة سبا كانت في اليمن وأن مملكتها كانت تدعى بلقيس ولكن ليس هناك ما يمنع من أن تكون تكون تلك المملكة الشهيرة قد ضمت لبلاد الحبشة تحت سلطتها في ذلك العهد وهذا أقرب إلى النعم وأكثر اتفاقا مع تاريخ هذه الفترة .

* * *

أما باقي الأسطورة فليس هناك أيضا ما يمنع من احتمال صحة ما جاء عن منليك ، وعندئذ لا نستبعد أن يقوم سليمان بتنصيبه ملكا على ذلك الجزء البعيد من أملاك والدته الذي يقع في الجانب الغربي من البحر الأحمر والذي يطلق عليه الحبشة .

وهناك تحليل آخر لهذه الأسطورة ونصيبها من الصحة ، فإن الأحباش كانوا ولا يزالون يعانون من هجرة نفسية تأصلت لديهم خلال العصور ، جعلت عندهم حساسية شديدة لكل ما يتعلق بتاريخهم ونفائهم وكرهيتهم لكلمة (الحبشة) ككأ قهموها معناها العرب ، وهو السبب في الإضرار على تغييرها في السنوات الأخيرة . وهذا يفسر ما يتصف به الأحباش من التغالي في الاعتزاز بالنفس والكبرياء والعزلة .

فقد كان الأحباش يعيشون على حضبتهم في هيئة بدائية - لازالت سائدة إلى يومنا هذا - ينأى تقد إليهم طوائف المهاجرين على مر العصور ، من

مصريين ويهود وعرب ، تتميز كل منها بالتفوق الحضري والعلم والمعرفة ، فعمل الاحباش على أن يجدوا لأنفسهم نسبا كريما ينتسبون إليه ، ومن هنا جاءت أسطورة نسبهم إلى القياثل الأولى من اليهود التي رافقت متليك بن سليمان الذي تنسب إليه أيضاً العائلة المالكة .

ولو أن ملوك الحبشة في تلك الأزمان القديمة كانوا يعلنون ويؤمنون بأنهم أحفاد سليمان حقيقة لرسخ إيمانهم بالدين اليهودي وتعصبوا له ، ولما كان من السهل اعتناقهم للدين المسيحي بتلك الاستجابة السريعة التي حدثت عندما جاءهم التبشير بهذا الدين .

ولا يدفناً إلى هذا الشك إلا ضعف المراجع والمصادر التي يستندون إليها وبعدها عن المناطق السليم ، وتعارضها مع باقي القصص التي وردت في المراجع المعتمدة — وعلى رأسها الكتب المقدسة .

أما ما يمكن الاعتماد عليه فهو أن اليهودية دخلت إلى الحبشة بالطريق المعتاد باستقرار بعض التجار الذين وفدوا إليها ، إما من فلسطين مباشرة وإما من مهاجري جزيرة العرب وكذلك بعض من جاءوا من مصر ، وعندما استقروا في الحبشة تكلموا في جماعات وتكونت منهم الجالية اليهودية ، ومن نسلهم قبائل « الفلاشة » Falasha ، الموجودين جالين في الحبشة ويبلغ عددهم حوالي ٦٠٠٠٠ نس . وكلية فلاشة باللغة الحبشية معناها (المهاجرون أو الأعراب) ولعل في شيوع هذه التسمية على اليهود خلال العصور الطويلة المتعاقبة ما يبرهن استنتاجنا بعدم وجود أية علاقة قوية مع أهالي البلاد ، ولو كانت العائلة المالكة تنحدر حقيقة من نسل سليمان لما استمر اليهود يحملون اسم الأعراب (الفلاشة) ولما بقي اليهود يعيشون في الحبشة في شبه عزلة عن باقي أجناسها .

ومن العجيب في الحبشة الآن شدة تمسك المسيحيين بعلاقتهم القديمة

مع اليهود وتفاخرهم بها ، والاحتفاظ بنجمة داود ، المثلثة ، رمزاً لهم .
وهو أمر لم نعهده في أى وسط مسيحي آخر .

وعلى أى حال فلا يوجد بين المراجع المعتمدة ما يؤيد اعتماد العائلة
المالكة الحبشية من نسل سليمان عليه السلام ، اللهم إلا ما جاء على لسان
العائلة المالكة نفسها .

بل وليس هناك أى مرجع معتمد يؤيد شخصية منليك ، وعلى ذلك
فإن الأرجح أن القصة موضوعة ، حتى تجعل للأسرة المالكة حقاً لامنازع
فيه في ملك الحبشة ، وتعمل من قداسة الملوك مانعاً من أية محاولة للثورة
عليهم ، إذ أن أية محاولة من هذا القبيل تصبح نوعاً من الكفر وتحدياً
لكنيسة الله .

وبالرغم من ضعف هذه القصة فإنها تغلغل في نفوس الشعب وأصبحت
جزءاً هاماً من كيانه ومعتقداته ، وكما حاول جميع الملوك الذين استولوا على
العرش إثبات نسبهم إلى الأسرة السلطانية ، فإن قبائل بأجمعها مثل قبيلة
التيجرى لم ترض بأن ينفرد الأمهريون بهذا الشرف العظيم ، ولكي يعزوا
حقهم في الملك الذي استمر في قبيلتهم زمناً طويلاً ، فإنهم أذاعوا نفس
الأسطورة في رواية أخرى تتفق في الجوهر الأصلي ولكنها تختلف في
بعض التفاصيل التي تجعل هذا الشرف مقصوراً على قبائل التيجرى .

° ° °

دخول المسيحية إلى الحبشة

في بداية القرن الرابع الميلادي كانت مملكة أكسوم قد وصلت إلى غاية
قوتها في عهد ملكها (إزانا Ezana) الذي ترك لحسن الحظ طائفة من
المخطوطات التي تلتقي بعض العنود على علاقاته مع جيرانه وكيف تخلصت
في عهده مملكة أكسوم من سيطرة النين ، وكذلك دلت تلك المخطوطات

على علاقة قائمة مع الإغريق حيث كتبت بعض تلك المخطوطات باللغة الإغريقية .

ودخلت المسيحية إلى الحبشة في حوالي عام ٣٥٠ الميلادي ، ويقال ق ذلك أن الشقيقين (فرومنتيوس وأيديسيوس Frumentius & Edesius) أوفدتهم كنيسة صور إلى بلاط ملك أكسوم ، ويقال أيضا أنهما كانا هاريين وفي طريقهما عرج أولهما على مدينة الاسكندرية حيث رسمه البطريرك الإسكندري مطرانا على أكسوم .

وفي رواية أخرى أكثر تفصيلا^(١) وأقرب إلى الفهم ، تلك التي كتبها ألكاهن (رفينوس Rufinus) الذي توفي سنة ٤١٠ ميلادية ، وذكر أنه سمعها من أوديبيوس شخصا .

وتتلخص تلك الرواية في أن مجموعة من تجار مدينة صور قاموا في رحلة تجارية في طريقهم إلى الهند وفي صحبتهم شابان صغيران بينهما قرابة . وأكبرهما فرومنتيوس وأصغرهما أوديبيوس ، وفي أثناء الرحلة وقفت سفينتهم بأحد المراتى على الشاطئ الأفريقي للبحر الأحمر للتزود بالمياه ، وكان أهل هذه الميناء قد لحققتهم أضرارا من بحارة سفينة تجارية سابقة مما أدى إلى توتر العلاقات مع الدولة البيزنطية ، فاعتدوا على السفينة وأغرقوا من فيها ولم ينج إلا هذان الشابان . فباعهما الإلهالي إلى الملك الذي سربهما ومنحهما ثقته وجعل أكبرهما أمينا على حساباته ورسائله وجعل الثاني ساقية الخاص ، وعندما واتته المنبة بقاء بجانب الملك لرعاية أمور الدولة إلى أن بلغ الملك الصغير (أزانان) أشده ، واستمر في خدمته .

عن هذا الطريق تمكن فرومنتيوس من التأثير على الملك أزانان حتى جعله يعتنق الدين المسيحي . ولكن يبدو أن أوديبيوس وكاتب القصة ،

أراد أن يجعلها أسطورة ومعجزة دينية ، فجاء في الكتاب المذكور أنه أثناء إقامة فرمنتوس في أكسوم دفعته دفعه الهية للبحث عن التجار اليونانيين الذين أخذوا يتكاثرون في الحبشة لكي يمنحهم الحق في إقامة الشعائر الدينية المسيحية ، ويحتمن على بناء الكنائس ، ويتخذ في نفسه الوقت من الوسائل ما يهد للدين المسيحي من الغزو والانتشار .

غاد أوديسيوس إلى صومر وأصبح راعيا لكنيستها ، حيث أُنحى له أن يعص قصته على روفينوس ، أما فرمنتوس فقد ذهب إلى الإسكندرية حيث اجتمع بالطريق أثيناسيوس وحته على إرسال مطران إلى أكسوم لرعاية شئون المسيحية والمسيحيين في تلك البلاد ، فوجد فيه البطريك خير من يقوم بهذه المهمة فعينه مطرانا على الحبشة .

وأثناء حياة فرمنتوس والامبراطور إزانا أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة تمثلها الكنيسة الحبشة التي تتبع الكنيسة المصرية . رسم بطارقة مصر ، المطارنة الذين يرأسون الكنيسة الحبشية واحدا بعد الآخر ، ولم يكن اعتناق الشعب للدين المسيحي في عهد الملك إزانا إلا بين فئة قليلة من أتباعه ، إذ أن القبائل الوثنية ظلت مستعصية تتسرب إليها المسيحية في ببطء شديد خلال قرنين من الزمان ، لم يسمح الحبشة أثناء هذا بأي نشاط ، إلى أن جاء عام ٥٢٤ الميلادي حين اتصلت بهم الامبراطورية البيزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) تطلب منهم حماية المسيحيين الذين يعيشون في جنوب الجزيرة العربية بالقرب من الحبشة .

وكان الملك ذونواس — آخر ملوك حمير — قد اعتنق الدين اليهودي وأخذ في القضاء على المسيحيين ، وبناء على طلب امبراطور بيزنطية ، قام النجاشي (كالب Kaleb) أو (أيلأ أصبحه Ela Asbeha) بإرسال جيوشه تحت قيادة «إرياط ، لغزو اليمن ، قام ذونواس اليهودي أثناء المواقع الحربية بالقضاء على مسيحيي نجران ولكن الحرب انتهت بانتصار إرياط وموت ذى نواس ، وانتهى بذلك عهد الجنوب العربي بالاستقلال .

وقام الجيش الحبشى فى جنوب الجزيرة العربية بتنصيب أبرهة ملكا على هذه البلاد الجديدة ، ومنذ ذلك الحين أخذ يستقل بملكه ، مقتصرًا على دفع الجزية لامبراطور الحبشة ، وتسجل تاريخ هذه الحقبة كتابات مستفيضة منقوشة على سد مأرب وفى مكان آخر قريب العهد بالكشف عند مريقان ، ويستفاد من هذه الكتابات أن أبرهة قد أحرز انتصاراً على إحدى قبائل شمال الجزيرة العربية .

أما باقى تاريخ أبرهة فهو معلوم بالتفصيل من المصادر الإسلامية حيث سجلت بناءه لكاتدرائية عظيمة فى صنعاء يقال لها القليس ، وكان يهدف من بنائها أن يناهض بها الكعبة ، ويحول إليها طوائف الحجاج ويقلل من شأن مكة .

وقام أبرهة فى عام ٥٧٠ الميلادى بحملته المشهورة على مكة المكرمة وعاد منها مهزوماً (عام الفيل - الذى ولد فيه محمد عليه السلام) ، وسنورد النص الإسلامى بعد الفراغ من هذا الشرح .

أغار جيوش الفرس على بلاد اليمن . وكان فى ذلك نهاية الحكم الحبشى لبلاد اليمن ، وأخذت مملكة أكسوم فى الضعف ، وتسببت الحروب السالفة الذكر فى كساد التجارة بين الجانبين ووقوف تيار المهاجرين ، الذين كانوا يدفعون بعجلة الحياة فى الحبشة إلى النشاط والرواج ، وكانت هذه الأحداث بداية العزلة الطويلة التى عاشت فيها الحبشة قروناً عديدة ، استمرت من عام ٦٥٠ إلى عام ١٢٧٠ ، ولكن المدهش حقاً أنه عند انقراض العزلة ظهر أن البلاد قد حافظت على مسيحيتها فى مرتفعات الهضبة وامتدت إلى الجنوب ، وإن كانت قد اتخذت طابعا خاصا بها ، فمع محافظتها على المذهب الارثوذكسى (القبلى - البعقوبى) إلا أنها أخذت تمارس معه كثيراً من الطقوس اليهودية والوثنية - ولكن المسيحية ظلت طوال

هذه المدة الرابطة القوية التي ربطت بين جميع سكان الهضبة الحبشية المرتفعة
للتنجعة^(١) .

الرواية الإسلامية للحملة الحبشية على النين^(٢) :

تولى (ذو نواس بن تبان أسعد) ملك النين ، واجتمعت عليه حمير
وقبائل النين ، فكان آخر ملوك حمير . وهو صاحب الأخدود ، وكان
بنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام ، أهل فضل واستقامة
لهم رأس يقال له عبد الله بن السامر ، فسار إليهم ذو نواس بجنوده فدعاهم
إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك والقتل ، فخذلهم الأخدود ، ففرق من
حرق بالنار ، وقتل من قتل بالسيف ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريبا
من عشرين ألفا .

• وفي ذي نواس وجنده قال تعالى : « قتل أصحاب الأخدود . النار ذات
الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا
منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

ويقال : كان فيمن قتل ذو نواس عبد الله بن الثامر رأسهم وأمامهم .
• وأفلت منهم رجل من سبأ يقال له - دوس ذو ثعلبان - على فرس ،
فسلك الرمل فأعجزهم ، ففضى على وجهه ، ذلك حتى أتى قيصر ملك
الروم ، واستنصره على ذي نواس وجنوده ، فأخبره بما بلغ منهم . فقال
له : بعدت بلادك منا ، ولكني سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا
الدين ، وهو أقرب إلى بلادك . وكتب إليه يأمره بنصره ، والطلب بثاره ،
فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين ألفا من الحبشة

Islam in Ethiopia by Trimmingham

(١) ص ٢٢

The Ethiopians by Ullendorff

ص ٢٢

(٢) تهذيب شجرة ابن هشام ص ١٥ وما بعدها (عبد السلام هارون) الجزء الأول .

وأمر عليهم رجلا منهم يقال له أرباط ومعه في جنده أبرهة الأشرم ،^(١)
« فركب أرباط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعبان
وسار إليه ذو نواس في حير ومن اطاعة من قبائل اليمن ، فلما التقوا أنهزم
ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به ويقومه وجه فرسة في
البحر ، ثم ضربه فدخل به ففاض به فمضاح البحر حتى أفضى به إلى غمره
فأدخله فيه وكان آخر العهد به .
« ودخل أرباط اليمن فلما ،

• • •

« فأقام أرباط بأرض اليمن سنين في سلطانه ذلك ، ثم نازعة في أمر
الحبيشة باليمن أبرهة الحبشي حتى تفرقت الحبيشة عليهما ، فأنجاز إلى كل
واحد منهما طائفة منهم ، ثم سار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب
الناس أرسل أبرهة إلى أرباط : « إنك لا تصنع بأن تلتقي الحبيشة بعضها
ببعض حتى تنفيها شيئا ، فأبرز إلى وأبرز إليك فأينا أصاب صاحبه
انصرف إليه جنده ، فأرسل إليه أرباط . أنصفت . فخرج إليه أبرهة
وكان رجلا قصيرا لحيا ، وكان ذا دين في النصرانية . وخرج إليه
أرباط وكان رجلا عظيما طويلا ، وفي يده حربة له ، وخلف أبرهة غلام له
يقال له عتوده يمنع ظهره ، فرفع أرباط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه
وسط الرأس ، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وأثقه وعينه

(١) في رواية أخرى لسير بدج ص ٣٦١ - أن دوس ذو ثعبان كان يهوديا وأنه هو
الذي أوقع الفتنة ونسب في مهاجمة ذي نواس لأهل بخران - وأن أشبارم وصلت إلى
بطريك الاسكندرية الذي كتب لملك الحبيشة لانتفاذ المسيحيين في بخران ، وأن الملك أبللا
أصبحه كانت قد وصلتته الانبياء أيضا من طريق شغبهم تمكن من الهروب من المذابح ، وكان
معه ملك الحبيشة الجيوش ولسكنه لم تكن لديه السفن التي تنقل بهم البحر ، ولذلك طلبها من
(الملك حوستين البيزنطي Juscin) الذي أمدته بما يلزمه منها .

وشفته ، فبذلك سبي . — أبرهة الأشرم — وحمل عتوده على أرباط من خلف أبرهة فقتله . وانصرف جند أرباط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة باليمن ^(١) .

ثم أن أبرهة بنى — كنيسة القليس — بصنعاء لم ير مثلها في زمانها بشىء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشي : لئن لم يأتني قد بقيت لك ، أيها الملك ، كنيسة لم تبين مثلها لك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب . ثم تسترد الرواية فيما حدث من أحداث حتى تآتى إلى حملة أبرهة الأشرم على مكة فاصداً هدم البكة فأسل الله عليهم طيراً من البخر أمثال الحظاظ طيف واليسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : خيبر في منقاره وحجران في رجليه ، أمثال الحص والعوس ، لا تصيب منهم أحداً إلا بهلك ^(٢) ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يتدرون الطريق الذى منه جاءوا ، يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده فأت .

وفي هذا نزلت الآيات الكريمة (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب القبيل ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف ما كُول) .

(١) ص ١٧ تهذيب سيرة ابن هشام

(٢) ص ٢٦٨ السير بد Budge يقول أن تلك الأحجار الصغيرة كانت تحمل مبرهن الجدرى الذى تنقى في جيش أبرهة . . . الخ

ونتمشى مع ما سبق أن أشرنا إليه في المقدمة من اتخاذنا نهجا خاصا ،
يربط جميع المراحل الهامة في أحداث الحبشة بالتاريخ العالمى ، يمكننا الآن
أن نعتبر الحملة الحبشية على اليمن استجابة لطلب امبراطور الدولة
الرومانية الشرقية (يوزنطة) لحماية مسيحي اليمن — وما أعقب ذلك
في عهد أبرهة — أول تلك المراحل الحبشية التى تتصل بتاريخ العالم
الخارجى .

الفصل الرابع

تاريخ الحبشة في عصور الإسلام الأولى

اتصال الإسلام بالحبشة :

رأينا فيما تقدم مدى ما كانت عليه الصلات بين شاطئ البحر الأحمر ،
الأحباش من الغرب وسكان الجزيرة العربية في الشرق وعلى وجه الخصوص
بلاد اليمن وجنوب الجزيرة . التي مرت في تلك الأزمان بأوج حضارتها
القديمة . فكانت مركزا للنشاط التجاري والإشعاع الحضاري ، الذي تكفلت
طوائف المهاجرين بنشره في بلاد الحبشة وتطوير الحياة بها ، ولما استقر
المهاجرون واختلطوا بالسكان الأصليين وتكونت منهم دولة جديدة على
جانب من الرقي والازدهار ، بدأت موجات الهجرة تسير في الاتجاه المضاد
وان كانت في هذه المرة على هيئة جيوش غازية يقال إنها سيطرت على اليمن
قراية قرنين من الزمان ، ورأينا على وجه اليقين نهاية تلك الفترة عندما
استنجد امبراطور الدولة الرومانية الشرقية بملك الحبشة لكي يحمي مسيحي
اليمن من الفناء على يد ذي نواس اليهودي ، وكيف تم ذلك على يد القواد
الأحباش الذي حاول أحدهم (أبرهة الأشرم) غزو مكة فاندحرت
جيوشه .

تدخل الفرس بعد ذلك مباشرة فعاد الأحباش إلى بلادهم في عام ٥٩٠
الميلادي وكانت تلك نهاية السيطرة الحبشية في بلاد العرب ، وما أن جاء
عام ٦٠٢ الميلادي حتى كان نفوذ الفرس قد شمل جميع أنحاء الجزيرة
العربية واستمرت اليمن تحت حكمهم المباشر حتى العام الثامن من الهجرة
(٦٣٠ ميلادية) حين اضطروهم الزحف الإسلامي إلى الانسحاب .

بدأ محمد عليه السلام دعوته إلى الإسلام سرا (عام ٦١٠ ميلادية) في بداية الأمر ، لا يعلم بها إلا أقرب المقربين ، ثم أمره سبحانه وتعالى بالجهر بالدعوة (فاصدع بما تؤمر) (الحجر ٩٤) (وانذر عشيرتلك الأقربين) (الشعراء ٢١٤) (عام ٦١٣ ميلادية) وهنا بدأت هذه الجماعة الصغيرة تتعرض للبحث من اجتماع كلبة قريش على إبداء المسلمين .

(فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يتمتع بما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفرارا إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام ^(١)) . (٦١٥ ميلادية) (السنة الخامسة بعد النبوة) .

ويجدر بنا أن ننظر هنا برهة قصيرة ، لكي نتأمل السبب الذي دعا عليه السلام إلى اختيار الحبشة دون غيرها لهجرة أصحابه ، فلقد ذهب الكتاب في هذا الأمر مذاهب شتى ، وحلوا الحديث فوق ما يحتمل من معان في الوقت الذي تستقيم فيه الأسباب مع أبسط البداهات .

محدوصه يؤمنون ويدعون إلى عبادة الله ونبذ الوثنية وتحميم الأصنام وينادون في الناس بالدين البنيف الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، جماعة صغيرة في مكة تنادى بهذا الأمر الخطير في وسط محيط من القبائل التي تدين بالوثنية وتعبد الأصنام .

لم يفكر الرسول في هجرة المسلمين إلى إحدى القبائل العربية ، لأنها كانت ترفض دعوته ، وتعلن ذلك في مواسم الحج مجاملة لقريش أو بسبب

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٩٢ (عبد السلام هارون) .

بدينها الوثني ، وكذلك لم يفكر النبي في الهجرة إلى مواطن أهل الكتاب من قبائل العرب الذين يعتقدون الديانات اليهودية والمسيحية لأن كلا من الفريقين كان ينازع الآخر وينافسه في النفوذ الأدنى ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لا يقبلان منافسا ثالثا خصوصا إذا كان من العرب الذين يتعالمون عليهم ويقولون عنهم - « ذلك أنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » (آل عمران ٢٥) - أما اليمن - وكانت مستعمرة للفرس الذين لم يدينوا بدين سماوى - فلن يطمئن الرسول إلى الالتجاء إليها ، وقد برهنت الأيام على بعد نظره .

وكذلك كان شأن الحيرة التي كانت إلى ذلك الحين بعيدة غاية البعد عن مكة ، أما الشام فهي بعيدة كذلك ، ثم أن كلا من الشام والحيرة كانت أسواقا هامة لتجارة قريش ، وكان لقريش بكل منها صلات وثيقة ومصالح متبادلة وزيارات في أوقات منتظمة " فأين يذهب أصحاب محمد عليه السلام إلا إلى بلاد ذلك الملك النصراني ، الذي يؤمن بالله ويكتبه ويبيع ما جاء به عيسى عليه السلام من هدى ، ويملكته (قيسين وrehبانا وأنهم لا يستكبرون) أين يجد الرسول عليه السلام لصحبه مكانا أكثر أمنا وسلاما ، وليس أدل على ذلك من قوله « وهى أرض صدق » ولا نعتقد أن لهذه الحادثة تفسيرا أبسط وأصدق من هذا التفسير .

كما أن الحبشة هي أقرب البلاد المسيحية التي يحكمها ملك مسيحي إلى الجزيرة العربية والسفر إليها أهون أمرا وأسلم عاقبة ، إذ أنه لا يزيد عن كونه عبورا للبحر وهو مما لا شك فيه أسلم من اختراق الجزيرة العربية شمالا أو جنوبا خلال القبائل العربية المعادية ، وليس أقل من ذلك أهمية في سبب اختيار الحبشة تلك العلاقة الطويلة التي سبق أن فصلناها بين الحبشة والجزيرة العربية ، وتلك الصلة التي توطدت بين الكثيرين في الجانبين خلال الرحلات التجارية إلى أكسوم .

(١) تاريخ الاسلام - الجزء الأول - لـ الدكتور حسن إبراهيم حسن - ص ٨٧ .

وكان عدد المهاجرين الأوائل في أرجح المصادر أحد عشر ، منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه ومعهم بعض زوجاتهم ، ثم تنابح المسلمون فيما يطلقون عليه الهجرة الثانية ، ومنهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومنهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل معه فكان من تلحق بأرض الحبشة ثلاثة وثمانون رجلا سوى زوجاتهم وأبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارا أو ولدوا بها ، ويقدر البعض بمجموع كل هؤلاء بستائة مسلم ، وامتدت إقامتهم في المهجرتين الأولى والثانية بالحبشة حوالي ستة عشر عاما .

* * *

لم تسترح قريش لما لاقاه مهاجرو المسلمين من أمان في كنف امبراطور الحبشة فأوفدوا إليه رسولين هما عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص . وكانا من التجار اللذين سبق لهما السفر إلى أكسوم ، وخبروا الأحباش . وجمعوا الهدايا للتجاشى وبطارقته ، وعندما بلغا التجاشى قالوا له : أيها الملك لأنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وعشيرتهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، فاستدعاهم التجاشى كما استدعى أساقفته (فنشروا مصاحفهم حوله) وسأل المسلمين : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا في دين أحد من الملل ؟ .

فأجابهم جعفر بن أبي طالب : أيها الملك ، كنا قوم أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأكل الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسب الجوار ، ويأكل القوي الضعيف ، فكاننا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده . ونحلق ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء — الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف (٤ — الحبشة)

عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

وعندما سألهم النجاشي عن علاقة دينهم بالنصرانية ، قرأ عليه جعفر سورة مريم فبكى النجاشي وأسأفته وقال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، ونظر إلى رسولي قريش قائلاً : انطلقا . فوالله لأأسلهم إيسكا ولا يكادون ، ^(١) .

* * *

تحليل الخلافات بين المؤرخين في تفاصيل الهجرة إلى الحبشة :

وبهذه القصة تبدأ الخلافات بين المؤرخين ومراجعهم ، وأولى هذه الخلافات أن ابن هشام ذكر أن عبد الله بن أبي ربيعة كان أحد الرسولين ، بينما يقول (صاحب المواهب) أن الذي ذهب مع عمرو بن العاص هو عمارة بن الوليد ، وترد بعض المراجع على ذلك بأن قريشا أرسلت في أمر من هاجر الحبشة مرتين ، ذهب أحدهما في الأولى وذهب الثاني في الثانية ^(٢) .

ويميل بعض المؤرخين إلى الظن بأن هذه القصة موضوعة - بدليل أن الصيام ورد فيها وهو لم يشرع إلا بعد الهجرة إلى الحبشة . وبغير ذلك من الأدلة ^(٣) .

وللقصة بقية تتصل أطرافها بعضها ببعض ، ومنها ما يتعلق بما نحن بصدده وهي أن النجاشي عندما تسلم كتاب الرسول يدعو فيه إلى الإسلام (كما

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٨ (عبد السلام هارون) .

(٢) ص ٣٣ ، السيرة الحلبية الجزء الثاني

(٣) ص ٢٦ فجر الإسلام تأليف الأستاذ أحمد أمين .

سيأتي ذكره فيما بعد) وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض ثم أسلم وشهد شهادة الحق . وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك (١) نستبق الحوادث ونذكر هذا الحادث في هذا المكان لأن هناك رواية أخرى تنسب إلى السيدة / عائشة رضي الله عنها من أن هذا النجاشي (أصحبه) كان أبوه ملكا على الحبشة وهو صبي صغير ، فقتل أبوه واستولى عمه على الملك وباع الصبي إلى رجل من العرب من بني ضمرة ومكث ببلاد العرب مدة مكنت له من لغتهم وعاداتهم ، وتمضى الرواية في شرح الظروف التي عاد فيها هذا الصبي عندما كبر وصار ملكا على الحبشة ، ويدلل المتحدثون بهذه الرواية على السبب الذي من أجله عطف النجاشي على مهاجري المسلمين (٢) .

وعلى هذا النحو يمضي التضارب بين أقوال المؤرخين العرب ، فنذكر بعض الحوادث في شيء كثير من التفصيل الذي يخرج بها عن حد البساطة والتصرف الطبيعي ، ويروى عنها قصة طويلة ذات مقدمات ونتائج .

وبما بلغت النظر مارواه الطبري (١ / ١١٨٢) « خرج الذين هاجروا الهجرة الأولى متسللين سرا ، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة ، منهم الراكب والماشي ، ووفق الله للمسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهما فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار ، وكان يخرجهم في رجب في السنة الخامسة من حين نبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر ، حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا ، وإيراد قصة الهجرة على هذه الصورة يجعل منها خطة سرية للهرب ، وعندما أحست قريش بها طاردوهم فلم يدركوهم .

عاد هؤلاء المهاجرون بعد فترة قصيرة لا تتجاوز بضعة شهور ، وجاء

(١) من ١٥٧ من نهاية الأرب الجزء الثامن عشر ، ص ٢١٢ من السيرة الحلبية .

(٢) من ٣ السيرة الحلبية ج ٢ ، ص ٢٥٢ الجزء السادس من نهاية الأرب .

في الطبري مستندا إلى كتب السنة (١ / ١١٩٢ وما بعدها) أن مسلبي الحبشة بلغتهم حادثة الغرائيق التي افترى فيها الكفار على النبي ، وادعوا أنه قال « تلك الغرائيق العلا ، وأن شفاعتن لترتجي » ، والغرائيق هي الأوثان التي كانت تعبد في قريش والعرب أيام الجاهلية ، أنه نتيجة لذلك أسلمت قريش فأيقن المهاجرون أنه لم يعد هناك ما يدعو لبقائهم بالحبشة فعادوا سراعا ، ولكن سرعان ما كشفوا حقيقة الغربة فعادوا ثانية إلى هجرتهم ، وزاد عددهم في الهجرة الثانية إلى ما يفوق الثمانين مهاجرا ومعهم بعض نساءهم ، وخرج معهم في هذه المرة جعفر بن أبي طالب .

ولما تعددت الروايات ، ذهب بعضهم إلى أن الهجرة الأولى ما كانت إلا وفدا إسلاميا بعثه الرسول (ص) إلى ملك الحبشة ليتعرف مدى استعداد النجاشي لقبول المهاجرين ، ولذلك كان تكوين الوفد شاملا لشخصيات ذات مؤهلات معلومة ، فمنهم التاجر ، والمتكلم ، وصاحب النفوذ ، والخبير بالحبشة وأهلها ، واستغرقت بعثتهم فترة قصيرة عادوا بعدها ليلقوا استعداد النجاشي لاستقبال المهاجرين ورعايتهم ^(١) واستمرارا لما يذهب فيه البعض بهذه الرواية ، أخذت الهجرة إلى الحبشة وما جرى حولها من أحداث ، صورة الوفود السياسية ، مرة من المسلمين أعقبتها بعثة من عند النجاشي لكي يستوثق من أخبار النبي قبل أن يصرح بقبول المهاجرين ، تلك البعثة التي ورد ذكرها في بعض المراجع والتي ضمت عددا كبيرا من القساوسة والرهبان ، والتي يقال إنهم عندما رأوا الرسول وسمعوا القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشي وأخبروه بما شاهدوه .

ثم تلو ذلك بعثة ثالثة من قريش تطلب من النجاشي إعادتهم ، ثم ذهاب وفد رابع من المسلمين الذين يحملون كتاباً من الرسول إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام .

(١) ص ٧٧ بين الحبشة والعرب الدكتور عبد المجيد عابدين .

وفي رأينا أن إيراد الحوادث على هذه الصورة أكثر مما تحتمله ظروف ذلك العهد ولا تخلو من طابع القصص . وأن مانعنا عما كان يمانيه النبي ومن معه من المسلمين الأوائل من شدة وقسوة من قريش ، دفعهم إلى الهجرة إلى الحبشة حيث يوجد بها ملك (لا يظلم عنده أحد) . ولا شك في ضرورة تدبير تلك الهجرة والقيام بها في سرية تامة ، الأمر الذي مكنتهم من النجاة من مطاردتهم .

وما لا جدال فيه أن حالة المسلمين في تلك الفترة العصبية ، لم تكن من الهدوء والأمن والاستقرار بحيث تجعلهم يرسلون وفدا بفاوض النجاشي ويستأذن منه .

* * *

وقرأنا بعض الكتاب تحليلا يشككون فيه حتى بوصول المهاجرين إلى النجاشي وعاصمة ملكه ، ويحاولون إثبات نزول هؤلاء المهاجرين عند أحد الملوك التوابع يقال له (بحر نجش) أى ملك الساحل ولنا على بينة من السبب الذى يدفع هؤلاء الكتاب إلى إبعاد هذا الفضل الكبير عن النجاشي ، ولكننا لإثبات الحقيقة نأتى فيما يلي بنص ماجاء في سيرة ابن هشام لباقي القصة ومنها يتضح بجملاء أن مكان هؤلاء المهاجرين كان قريبا من النيل الأزرق في قلب الهضبة حيث كانت عاصمة النجاشي الكبير .

فوالله أنا لعلي ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه ، فوالله ما علتنا حزنا حزنا قط كان أشد علينا من حزن حزناه ، عند ذلك ، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فبأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه ، وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزبير بن العوام : أنا ، قالوا : فانت . وكان من أحدث القوم سنا فنخروا له قربة فجعلها في صدره ، ثم سبغ عليها حتى

خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتي القوم ، ثم انطلق حتى حضرم فدعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتكئين له في بلاده ، فوالله إنا لعل ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع الزير وهو يسعى . فلبع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي .

وأهلك الله عدوه ومكن له في بلاده ، واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى عليه وسلم ، وهو بمكة ،^(١) وكان ذلك في عام ٦٣٠ ميلادية^(٢) (السنة الثامنة الهجرية) .

* * *

تقول المصادر العربية أن هذا النجاشي كان اسمه (أصحمة) ومعناه باللغة العربية (عطية) وجاء اسمه في بعض المراجع الأجنبية (ايللا صحم Ella Saham)^(٣) ويشك بعض الكتاب في وجود مثل هذا النجاشي أصلاً لعدم ورود ذكره في سجل الملوك (كبرا نجست) الذي يحوى أسماء ملوك الحبشة ، ولست أجد لهذا الشك من سبب خصوصاً وأن المؤرخين يتلفهون على العثور على أى سند مكتوب في تلك العصور التي ندر فيها تسجيل الحوادث وليس من ديدنهم تكذيب أى خبر مكتوب إلا إذا تعارض مع المنطق أو نقضه خبر آخر أقرب إلى التصديق .

ونعتقد أن النص الإسلامى غاية في الوضوح وقريب إلى المنطق ، ولم يظهر من المراجع الموثوق بها ما يمكن أن ينفيه أو يدعو إلى الشك فيه .

* * *

ومع ذلك فنود أن نشير إلى ما جاء في بعض المراجع لعلنا نزيل بعض اللبس . فإن (هارتمان Hartmann) قد رجح أن يكون اسم النجاشي ايللاصحم وله ولد تلاه على العرش يقال له أرمحه .

(١) المرجع السابق — تهذيب السيرة .

Hartmann (٢)

ثم جاء في تاريخ الطبرى (١ / ١٢٦٩) أن كتاب الرسول إلى النجاشى الذى أرسله مع عمرو بن أمية الضميرى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة

وجاء رد النجاشى يقول : إلى محمد رسول الله . من النجاشى الأصحم ابن أبجر

وبروى السيريدج فى الصفحات ٢٧١ وما بعدها - قصة الهجرة والكتب المتبادلة ويذكر اسم الملك فى بعضها أصحمه (ايللا صحم) ثم يعود ويسميه أرحمه - ثم يستمر فى تسميته أرحمه فى باقى روايته .

ولورجنا إلى سجل الملوك الذى نقله السيريدج عن (بروس Bruce) و (سولت Salt) و (سجل المتحف البريطانى 28b fol 821 , BRIT - Mus. List) لوجدنا فى المرجع الأخير ذكرا للملك يدعى ايللا أصحمه ولكنه لا يتفق فى الزمن مع وقت الهجرة بل يسبقها ، أما أرحمه فقد ورد فى باقى المصادر موافقا لنفس ذلك العهد الذى نحن بصددده . وهذا فيما يبدو هو السبب الذى جعله يستمر فى ذكر روايته مستعملا اسم أرحمه .

ولكننا بمقارنة المراجع الثلاثة لسجل الملوك نجد اختلافا كبيرا وتضاربا عجميا فى الأسماء والتوقيات والتسلسل وفترة حكم كل ملك من الملوك - الأمر الذى أدى بالسيريدج نفسه إلى الحكم بأن سجل الملوك الأصيل لا قيمة له ، إذ أنه وضع بقصد ملء الخانات الشاغرة فى تسلسل الملوك - ولقد أظهرت التواريخ ومقارنتها مع المعلومات المعروفة عن تاريخ العالم تضاربا كبيرا ،^(١) ولا يسعنا أمام كل ذلك إلا الاعتقاد على النص الإسلامى ، مع التسليم بأن الاتصال الأول كان مع النجاشى أصحمه ، والاتصال الثانى مع النجاشى الذى خلفه وهو ابنه أرحمه .

ولذا ما أبعدنا كل ماتعارض من نصوص واختصرنا الرواية إلى أركانها الرئيسية لوجدنا أنه مما يتفق مع المنطق ، أن النجاشي أصحمه عندما علم مبادئ الدين الإسلامي ووجدته يدعو إلى ما تقوم على أساسه الديانة المسيحية قدر هذا الدين حق قدره وصدق بما جاء به وبذلك أحسن وفادة المهاجرين وأكرمهم ، وتبادل الرسائل والهدايا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهناك فرق كبير بين الاعتراف بدين هؤلاء المهاجرين وتقديره له وبين اعتناق الإسلام .

كذلك ذكر الطبري^(١) وغيره من المراجع أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل فيمن أرسل إليهم من الملوك ، كتاباً إلى النجاشي يدعو فيه إلى الإسلام ، فلو أن هذا النجاشي كان قد أسلم حسب الرواية الأولى لما كان هناك محل لإرسال الكتاب إليه .

كذلك لا يجوز أن نستعين بالأثر الذي يتركه اعتناق ملك لدين جديد ، فليس هذا الأمر الذي يمكن أن يمر بسهولة دون أحداث أو عواقب يكون لها أثر يستحق التسجيل الأمر الذي لم يرد له أي ذكر في المراجع الثابتة عن ذلك العهد .

ونعتقد أن الرواية الصحيحة هي ما أتينا على ذكره مما جاء في (تهذيب سيرة ابن هشام) وبها ما يكفي من التقدير والإجلال للنجاشي أصحمه ، الأمر الذي — يجعل النبي الكريم يصلي عليه صلاة الغائب عندما علم نبأ وفاته — اعترافاً بفضله وكرمه (عام ٦٣٠ م) ، بل وتجعل من إرسال النبي عليه السلام كتاباً آخر يدعو إلى الإسلام عملاً له معنى ، يستقيم مع المنطق السليم .

* * *

(١) ذكر الطبري كتاب النبي إلى النجاشي ، ولكنه لم يذكر قصة مبعوثي قريش إلى النجاشي — التي جاء ذكرها في سيرة ابن هشام كما تقدم .

وقبل أن ننقل من هذه النقطة ، نود أن نشير إلى ما ذكره بدج عن قصة اسلام النجاشي التي جاء ذكرها في بعض المصادر الإسلامية حيث قال :
« بالرغم مما يعرف عن الأجاش من تعصب وكبرياء ، فإن النجاشي عندما سمع بانتصارات محمد وأنه يفرض اعتناق الاسلام أو القتل ، ولم يكن النجاشي في حالة تسمح له بالتعرض للحرب مع محمد وتعريض شعبه للقتل ومفك النعماء - فانه وجد من حسن السياسة أن يتفادى المريعة بأن يعلن اعتناقه للاسلام وأرسل الهدايا إلى الرسول - وبذلك أفضد بلاده ، وأصبحت الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي حافظت على مسيحيتها سالمة من العدوان لعدة قرون بعد حكم أرمجه ^(١) »

ولا يسعنا هنا أيضا إلا أن نستبعد هذا التفسير ، ونظل على ما أبدناه من رأي وهو أن النجاشي لم يسلم ، ولكنه احترم الاسلام والمسلمين وقدرهم وأن العلاقة بين المسلمين وبين النجاشي ما كانت لتصل إلى حالة الحرب للصلات الطيبة التي كانت ماثلة في الأذهان وما يؤيد ذلك من أن الرسول عليه السلام قال (اتركوا الأجاش متركوكم) .
(ص ٢٩٤ - ٣٠٢ - السيرة الحلبية) .

* * *

ولقد ثار جدل آخر حول كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي وإمكان التوفيق بينه وبين ما جاء ذكره في السيرة التي اقتطفنا جزءا منها ، فقد جاء فيما ذكره ابن اسحاق أن كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة كان كما يلي ^(٢) :

« من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة ، إني أحمد إليك الله الملك القدوس والسلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم البتول

(١) ص ٢٧٢ سير بدج

(٢) ص ٣٧٩ من صبح الأعشى للنفقشندى - الجزء السادس .

الطبيبة الحصيدنة ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده . وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وأن تتبني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله وأني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت وضحت ، فأقبلوا نصحي ، وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرا ومعه نفر من المسلمين ، والسلام على من اتبع الهدى .

ويمتد الخلاف في موضوع كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي على أهميته ، حينما تذكر بعض المراجع أنه أرسله مع ابن عمه جعفر ابن أبي طالب ، فإن البعض الآخر يقول إن رسول النبي إلى النجاشي كان رجلا من بني ضمرة يقال له عمرو بن أمية ، ويربط هؤلاء بين هذا المندوب وبين قصة إقامة النجاشي أصحابه مع بني ضمرة في شبابه ، لذلك كان القصد من اختيار هذا المندوب من تلك العائلة بالذات ، أن يؤتي أثره في نفس النجاشي .

وليس يعيد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسل كتابين ، أحدهما مع ابن عمه جعفر^(١) ، والآخر مع عمرو بن أمية الضمري ، وهنا قد يستقيم ما ذكرته بعض المصادر من أن حوادث الهجرة قد وقعت في عهد ملكين متعاقبين من ملوك الحبشة أحدهما أرسله والآخر أُرجمه بن أصحابه - ومن هنا حدث الالتباس في الأسماء .

وكما أنه من الممكن التوغل فيما يمكن أن تفسره هذه النصوص على أنها تعارض بعضها البعض ، وما قد يستتبع ذلك من التشكيك في صحة الروايات،

(١) عند مقارنة التواريخ نجد الملاحظة أن جعفر لم يكن ينتمي إلى الفريق الأول من المهاجرين كما جاء في السيرة كما أن هناك بعض المراجع الأخرى التي تعطي نصا آخر لكتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي أرسله مع عمرو بن أمية الضمري (راجع ص ١٥٧ من الجزء الثامن عشر من نهاية الأرب) وأيد الكتاب تلم لغير النجاشي السابق .

فانه من الميسور هنا أيضا أن نفترض أيسط الفروض ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم ، بعث برسائله مع جعفر عند هجرته ليسلمها للنجاشي وليس يبعد أن يكون قد أرسل رسالة أخرى إلى النجاشي بواسطة عمر بن أمية الضمرى ، وبهذه التفسيرات البسيطة تكتمل الصورة السليمة لما جاء في جميع المراجع الثابتة ، ولا محل بعدئذ للتعقيد والتشكيك ، خصوصا وأن العناصر الأساسية للحوادث مسجلة في وضوح على نحو ما عهدناه من العناية بتسجيل الأحداث منذ نشأة الإسلام ، فليس هناك شك في هجرة المسلمين إلى الحبشة ومن بينهم جعفر بن أبي طالب ، وليس بمستغرب أن يعمل معه كتابا من النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي مشابها لتلك الكتب التي حرص النبي على إرسالها للملوك ، وليس بمستغرب على النجاشي أيضا أن يستقبل الكتاب بروح طيبة ويقدر الدين الإسلامي الجديد حق قدره ، ويرد رسل قريش الذين جاءوا يطالبون بعودة المهاجرين ، على أعقابهم فاشلين ، ويكرم وفادة هؤلاء المهاجرين ويحميهم مدة إقامتهم بالحبشة التي أتمت ستة عشر عاما .

* * *

ابتداء دخول الإسلام :

لم تكن الحبشة ضمن الممالك التي وجه المسلمون إليها حملاتهم في ذلك العهد الأول الذي شاهد الاندفاع العظيم للإسلام ، ويبدو أن ذلك راجع إلى عدة عوامل ، منها تركيز المسلمين على كسر شوكة الامبراطوريتين المجاورتين لبلاد العرب ، واللتين يخشى منهما على الدولة الإسلامية الناشئة وهما امبراطورية الفرس والامبراطورية الرومانية الشرقية ، وكذلك اعتبار المسلمين أن مصر أكثر أهمية من الحبشة لمركزها الهام وسبقها في ميدان الحضارة والعمران ، ومن أهم الأسباب كذلك قرب عهد المسلمين بالعلاقات الطيبة التي كان للنجاشي السابق فيها فضل مشكور ، حتى أنه يروى أن النبي

نصح بترك الأحباش وشأنهم طالما أنهم لم يبدأوا بالعدوان (تركوا الحبشة ماتركوكم) ^(١) ولكن بعد فترة من الزمن أخذ بعض القراصنة الأحباش يهددون تجارة العرب في البحر الأحمر مما اضطر الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى إيفاد حملة بحرية صغيرة لتأديبهم، ولكنهم لم تسكل بالنجاح واستمر نشاط القرصان إلى درجة اضطرت المسلمين عام ٨٣ الهجرى إلى اتخاذ خطوة حاسمة لوضع حد لتلك العمليات بأن جردت حملة بحرية لاتخاذ مركز حربى على الشاطئ الغربى ، فاحتلت مجموع جزر (دهلاك Dahlak) المجاورة لمدينة صوع . وكان احتلال المسلمين لهذا المركز الممتاز بداية لاستيلائهم على باقى المراكز البحرية على الشاطئ الافريقى ، وعلى الانتشار التدريجى للإسلام فى شرق افريقيا .

* * *

عزلة الحبشة وقبائل البجة (Beja) :

قدمنا أن هزيمة الأحباش وجلاءهم على الجزيرة العربية كان بداية لعهد العزلة الطويل الذى خيم على بلاد الحبشة ، وكان لما ذكرناه آنفا من نزول المسلمين على الشاطئ الافريقى مزيدا من التمسك بهذه العزلة ، ولكن عاملا ثالثا دخل إلى الميدان وكان له أكبر الأثر فى إتمام الحصار وتدهور سلطة مملكة أكسوم . ذلك هو زحف قبائل البجة القوية وانتشارها من (مملكة النوبة) ووادى النيل إلى شاطئ البحر الأحمر حيث طاب لهم الجو والمرعى فتوغلوا فى الاريتريا وشمال الهضبة الحبشية إلى سواحل البحر الأحمر ، ولم يكن لمملكة أكسوم أى حول أو قوة للوقوف فى وجههم ، فاستولوا فى طريقهم على منطقة الخماسين ، مما اضطر كثيرا من الأحباش إلى الهجرة إلى الجنوب . ولكن أكسوم رغم ذلك بقيت عاصمة للبلاد الحبشية .

(١) ص ٣٩٤ من الجزء الثالث من السيرة الحلبية .

عزلة الحبشة وقبائل الاجاو (Agao)

انقطعت وسائل اتصال الحبشة مع وادى النيل غربا ومع البحر الأحمر شمالا وشرقا ، وانقطعت صلتهم بالامبراطورية الرومانية الشرقية والتجارة مع اليونان وعلاقتها الثقافية معهما . واضمحلت جميع نواحي الحياة في البلاد وعادت كثير من القبائل التي كانت قد اعتنقت المسيحية إلى وثنيها الأولى . ولم تعد الحبشة بمستطاعة أن تحتفظ باستقلالها إلا في المنطقة الجبلية في مقاطعة تيجرى وتلك الأماكن الجنوبية الجبلية التي اضطروا إلى النزوح إليها حيث كانت تعيش قبائل (الاجاو Agao) الوثنية . وتكونت بذلك دولة الحبشة الجبلية الجديدة التي شملت أقاليم ومقاطعات ومناطق تيجرى - جوجام Gojam - وأمرا Amhara - شوا Shoa .

امتدت مملكة الحبشة إلى تلك المناطق الجبلية الواقعة في الجنوب وأخذوا ينشرون بين سكانها الوثنيين تعاليم الديانة المسيحية ولغتهم (الجمز Ge'ez) أو الجيز . ومنذ ذلك الوقت بدأت تتكون دولة الحبشة الحقيقية التي تميز بطابعها الخاص . الذي هو عبارة عن خليط متفاعل من طبقة الساميين وأهل البلاد الحاميين ومن بينها قبائل الاجاو الكثيرة العدد ، وتعددت اللغات والطوائف ، ولكن اللغات التي سادت هي لغات الساميين (الجمز والتجيرية والأميرية) .

* * *

متاعب الدولة المسيحية :

ويبدو مما كتب يعقوبى والمسعودى أن مملكة أكسوم صادفتها مصوبة استعادت فيها نفوذها إلى ساحل البحر الأحمر في مواجهة اليمن فترة من الوقت ، وسيطرت أثناءها على كثير من الموانئ ومنها دهلك وزيلع التي أصبح جميع أهلها من المسلمين ، وبالرغم من كل ذلك فقد كانت المملكة

الجيشية تلاقى كثيرا من الشدائد مع قبائل الاجاو التي اشتركت معها في تكوين الدولة الجديدة ، فكانوا مصدرا للمشاكل حتى أصبحت حياة تلك الدولة عبارة عن حروب متتالية لاتنقطع ، مما أضعف سلطانها على الممالك الساحلية التي أخذت تستقل بنفسها تدريجيا ، بل أخذ سلطانها يمتد إلى داخل البلاد ، وكان الفضل في سهولة تغلغل الإسلام في هذه الفترة عائدا للمشاكل التي تسببها قبائل الاجاو لمملكتهم . وانصرف الملك إلى توطيد سلطانه بينهم ، الأمر الذي أدى بملكهم إلى الالحاق على بطريك الاسكندرية لارسال مطران إلى الحبشة (وكان المركز خاليا وقتا طويلا) لعله يتمكن من تهدئة الحال واستقرار الأمور . وفعلوا وصل المطران (أبونا دانييل) وكانت هذه الأحداث في أواخر القرن العاشر .

ولقد لعبت الكنيسة دورا هاما وبذلت مجهوداً شاقا لمحاولة السيطرة على قبائل الاجاو وأدخلهم إلى الدين المسيحي ، ولكن الاجاو كانوا من القوة والصلابة بحيث كانت استجابتهم لهذه الدعوة عبارة عن تشكيل هذه الديانة الجديدة بالشكل الذي ينمى مع تقاليدهم الوثنية القديمة ، وبقيت بها إلى الآن كثير من العادات التي لاتتفق مع المسيحية كتعدد الزوجات .

ولقد بذلت كنيسة الاسكندرية مجهودات ضخمة خلال القرون المتوالية دون جدوى واستقرت تلك المسيحية المحرفة في البلاد ، أما أكبر اثر لنشاط الكنيسة فكان وقوفها إلى جانب الحكومة الملكية مما كان له أثرا في تعزيز سلطة الدولة ومكنتها من المحافظة على كيائها .

وكان من نتائج نشاط الكنيسة ومجهوداتها أن ازداد عدد رجال الدين وانتشرت الكنائس والأديرة ، وكازاد اعتماد الدولة على الكنيسة ازداد اعتماد الكنيسة على الدولة . ولم تكن الكنيسة تعتمد على كفاءة رجالها وتنظيماتها بقدر ما كانت تعتمد على قوة رجال الحكومة .

لذلك كانت الأزمات السياسية والحروب الداخلية التي تتعرض لها الدولة تؤثر في قوة الكنيسة ونشاطها ، وعندئذ كانت تنهياً للفرص أمام الإسلام للزحف والانتشار .

انتشار الإسلام :

وبالرغم من أن التاريخ عن هذه الفترة ظل غامضاً ومتضارباً بالنسبة للجانبين المسيحي والإسلامي على السواء ، إلا أنه كما ظهر فيما بعد ، انشر الإسلام انتشاراً كبيراً أثناء هذه الفترة بحيث شمل جميع نواحي البلاد فيما عدا تلك المنطقة الجبلية المعزولة ، بل وتعدى ذلك إلى سيطرته على منطقة شوا الجبلية كما سيأتى ذكره ، ولكن انتشاره هذا كان امتداداً عاماً وزحفاً طبيعياً تمتد به القبائل الإسلامية وتنتشر ديارها في كل مكان ، دون تنظيم أو تعاون بين منطقة وأخرى أو بين جماعة وأخرى ، وكان لاتساع الرقعة وتعذر المواصلات أكبر الأثر في ذلك ، ولم يكن منافسهم المشترك في تلك الفترة من القوة أو الخطورة بحيث يدفعهم إلى الاتصال أو توحيد الجهود أو ضم الدويلات الإسلامية المتعددة بحيث تتكون منها دولة واحدة قوية ، واستمروا في الاتساع على هذه الصورة حتى شملت مناطقهم أغلب مناطق الجبلية وسكانها ، في غير ما اتفاق أو تعاون أو حتى سياسة مشتركة ولكن تغلغل الإسلام في هذه المناطق — كان من القوة بحيث أصبح اقتراعه من قلوب الناس في حكم المستحيل . وأصبح وجوده حقيقة لا رجعة فيها . وسارعت القبائل الوثنية التي كانت في تلك المناطق إلى اعتناق هذا الدين الناشئ المنتصر وقويت بهم شوكة الإسلام .

تمت كل هذه العمليات في مدى القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، وأصبح الإسلام يتحكم في جميع المناطق الساحلية من أرخبيل الدهلك (مصوع) إلى مناطق الدناكل وبلاد الصومال وشمل قبائل البجة في الشمال

وسيداما في الجنوب وسلطنة ايفات في شوا وسلطنة هرر ، وزاد على ذلك أنه بدأ في تهديد الهضبة الجبلية التي تحصنت المملكة المسيحية وانعزلت فيها .

* * *

مجهودات الكنيسة الحبشية :

ولكن خلال تلك القرون المظلمة كانت المسيحية في معقلا فوق الهضبة تتوالى عليها الصعاب والحروب الداخلية ، إلى أن تمكنت الكنيسة بعد مجهود شاق من توحيد القوى حول المسيحية ، وأصبحت الكنيسة المركز الذي تنتهى حوله جميع الخلافات ، ولقد استفادت الكنيسة الحبشية في تلك الفترة في تثبيت أقدامها واصلاح الأمور بين القبائل المتحاربة ، من الخدمات التي قدمها المهاجرون الأقباط الذين هاجروا من مصر هروبا من اضطهاد الحاكم بأمر الله (٩٩٦ — ١٠٢٠ م) والذين يعود إليهم الفضل في إحياء الحركة الأدبية والدينية في البلاد^(١) . وما دمتنا قد تعرضنا لذكر الحاكم بأمر الله وما حدث في عهده من اضطهاد ، أصبح لزاما علينا أن نقصص حقيقة الأمور التي حدثت في عهده في بعض التفصيل .

* * *

عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي :

وكان عهد الحاكم بأمر الله^(٢) متنافيا مع ما عرف عن الإسلام على مر العصور من سماحة وعدل مع النصارى واليهود على السواء ، فقد بلغ في عهده إلى أقصى ما يمكن من الاضطهاد للمسلمين ولغير المسلمين .

(١) Islam in Ethiopia by Trimingham ص ٥٦

(٢) Islam and The Arabs Rom Landau ص ٦٢

لقد كانت مصر ومعها باقي أنحاء الدولة الإسلامية تمر بمحنة عنيفة خلال حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي ، وكتب عنه الخافظ أبو عبد الله الذهبي في تاريخه ^(١) (كان جوداً سمحاً ، خيئاً ما كرا ، ردى الاعتقاد ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ، وكان عجيب السيرة ، يخترع كل وقتاً أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها ، فأمر بكتب سب الصحابة على أبواب المساجد والشوارع . . . وأمر النصراني بأن تحمل في أعناقهم الصلبان وأن يكون طول الصليب ذراعاً وزنته خمسة أرتال بالمصرى ، وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرأى الخشب في زنة الصلب أيضاً وأن يلبسوا العائم السود . . . وأمر يهدمه من الكنائس) وقال الصابى ^(٢) أن الحاكم عندما بدأ أهل مصر في التهنئة عليه (استدعى القادة والعرفاء ، وأمرهم بالسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها وقتل من ظفروا به من أهلها . . . وأوقعوا النار في أطراف البلد والحاكم يركب في كل يوم إلى القرافة ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ويسمع الصباح) .

وقد ادعى الحاكم الألوهية وساعده على ذلك رجل يعرف بالدرزى (محمد بن إسماعيل) أوهمه بأن روح آدم عليه السلام قد انتقلت إليه . ومن هذا الطريق نشأت الطائفة الدرزية الشيعية .

ولقد قتل الحاكم وزراره وكبار رجال دولته ، وكان بينهم بعض الأقباط ومنهم وزيره وموضع ثقته (فهد بن إبراهيم — النصراني) — وجاء في أسباب قتله (أن هذا الوزير استبد في أعماله وأثرى ثراء فاحشاً على حساب الدولة والرعية وحابى المسيحيين وقربهم إليه وأسند إليهم المناصب الرئيسية في الدولة واضطهد المسلمين . . . أما ما يزعمه المسيحيون من أنه قتله لرفضه اعتناق الاسلام ، الاسلام ، وأنه بعد قتله أصبح شهيداً ولم تحترق جثته

(١) ص ١٧٨ الجزء الرابع من النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة تأليف جمال الدين أبو الحسن .

(٢) ص ١٨٢ نفس المرجع :

فهي من خرافات المؤرخين وما أكثر ما تراه من خرافاتهم ، على أن الحاكم لم يقتل فهد لنصرانيته ، بل نراه يقتل كثيرا من المسلمين أيضا . ولم يقل أحد أن هؤلاء المسلمين أصبحوا شهداء . . (١)

لم يكن في إمكان المسلمين أن يهاجروا والحاكم يسيطر على جميع الأقطار الإسلامية ، أما الأقباط فقد وجدوا خلاصهم في الهجرة إلى المملكة الحبشية ، وكان هؤلاء المهاجرين أثر كبير في معاونة الامبراطور والمطران على توحيد كلمة الدين المسيحي بين القبائل المتنافرة في الحبشة والتفاف جميع القبائل حول الكنيسة . وبذلك توطدت دعائم الدولة الحبشية التي كانت في أوتق الروابط مع الكنيسة .

وبعد زوال حكم الحاكم بأمر الله ، (في عام ١٠٢١ م) عادت للعلاقات الطبيعية إلى ما كانت عليه وزال الاضطهاد ، وعادت بطريكية الاسكندرية صلاتها وتعزيزها ومعاوناتها للكنيسة الحبشية فزادت الأحوال في الحبشة تحسنا واستقرارا ، مما كان له أكبر الأثر في التمهيد للصحة المقبلة ، التي بدأت فيها قوة مملكة الحبشة تعود إلى الظهور .

حكم الأجويين للحبشة (Agro)

سبق أن ذكرنا أن غالبية قبائل الهضبة الحبشية الذين يسكنون الجزء الجنوبي منها تنتمى إلى الاجاو ، وأنه عند انتشار الإسلام وتطويقه للبلاد من جميع الجهات واستقرار قبائل البجة في الشمال ، اضطرت مملكة أكسوم أن تمتد إلى الجنوب حيث قبائل الاجاو ، وخلال الفترة التي سبق شرحها والأحداث التي توالى منذ القرن العاشر إلى بداية القرن الثاني عشر ، تمكنت أسرة (أجويه) من الاستيلاء على العرش في عام ١١٣٧ م ، وانتزعته من الأحباش القادمين من أكسوم ، والذين مكثوا على عرش البلاد قرونا عديدة توطدت أثناءها علاقاتهم بالكنيسة وأرتبطت بها مصالحهم وأهداهم

(١) من ٤١ طائفة الدروز تأليف الدكتور محمد كامل حسين .

خلال تلك القرون وتعاونوا في الكفاح على تعميم المسيحية في بلاد الحضبة الحبشية .

لكل هذه الأسباب لم تكن الكنيسة مستعدة لتأييد « الأسرة الأجوية » الحاكمة الجديدة وثار الخلاف بين المطران والملك ، وأتخذ الصراع بينهما مظهرا طريفا إذا انتهى بتدخل سلطان مصر ، الذي اضطر بطريرك الاسكندرية إلى إيفاد مطران جديد لهم يعترف بملكية هذه الأسرة الجديدة على الحبشة ومنذ ذلك الحين أخذ ملوك ، هذه الأسرة يحاولون التقرب من الكنيسة .

ومن أم ملوك هذه الأسرة (لاليبلا Lalibella ١١٩٠ — ١٢٢٥) الذي جعل همه بناء عدد كبير من الكنائس تقربا من رجال الكنيسة الذين رفعوه إلى مرتبة القديسين .

ولكن الأمور لم تستمر بعد وفاته على نفس المنوال ، كما أنه لم يتمكن أحد من ملوك الاجويين من السيطرة الكاملة على جميع أنحاء البلاد بالصورة التي تخوله حمل لقب (ملك الملوك) ، فبالرغم من وجود أفراد هذه الأسرة على العرش ، فإن المقاطعات المسيحية بقيت في شبه استقلال ذاتي تحت حكم ملوكها ، وكان تغفل المسلمين في البلاد وكذلك تمرد قبائل الأجاو ، سببا في جعل سلطة الملك الحقيقية لا تتعدى حدود العاصمة ، ولم تكن العلاقة بين الكنيسة والملك على مايرام .

وما أن جاء عام ١٢٧٠ حتى تمكن (يكونو أملاك Yekono Amlak) من الاستيلاء على العرش وانتهى بذلك حكم الاجويين ، وكان (يكونو أملاك) ينحدر من عائلة أمهرية قديمة .

الفصل الخامس

تفصيل للمالك الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث عشر

استطردنا فيما قدمنا من بحث في ذكر الحوادث التاريخية التي مرت بالحبشة في تسلسل تاريخي ، وما كان فيها من مد وجزر بين المسيحية والاسلام ، متخذين من تاريخ السلطة المسيحية أساسا للتسلسل وقاعدة للبحث .

وأصبح الظرف مناسباً بعد ذلك لأن نجتمع شتات ماتفرق بين مراحل البحث منذ نشأة الاسلام وانتشاره في مختلف المناطق الحبشية ونحدد مواقعها ونبين أحوالها ومدى مالها من أهمية حتى نهاية القرن الثالث عشر .

شرحنا في تفصيل واف ظروف الاتصال الأول بين الاسلام والحبشة في عهد الرسول (ص) ، ثم ذكرنا كيف اضطرت المسلمون لحماية تجارتهم وشواطئهم من القراصنة الاحباش أن يستولوا على جزر (الدهلك) المواجهة لمدينة مصوع وكيف جعلوا منها قاعدة لهم الأولى ومركز انطلاقهم ، ومنها امتد نفوذهم حتى استولوا على سواحل البحر الاحمر والمحيط الهندي ، وكيف أخذ نشاط المسلمين يمتد وتوسع بمالكهم إلى الداخل حتى استولوا على أغلب الأراضي الحبشية وبدأت مملكة الحبشة القديمة في عزلتها ، التي زادت على أثر زحف قبائل البجة من شاطئ النيل وانتشارهم في شمال الحبشة حتى ساحل البحر الأحمر .

ولقد ساعد على انتشار الاسلام وتغلغله في البلاد - كما انتشر في مناطق أخرى من العالم - عدة عوامل تبين فيما سيرد من تلخيص .

لم يدخل الإسلام شرق افريقية بحمد السيف ، بل كان للتسامح والعدل المتصلين بالبساطة والمنطق السليم أكبر الأثر في اقبال الناس على اعتناق الإسلام ، وبالرغم من قلة المراجع التي تفصل الأخبار في صدر الإسلام عن كيفية دخوله إلى افريقيا الشرقية ، إلا أننا قد نستنتج الكثير من العوامل بمقارنته ما كتب عن دخول الإسلام إلى مناطق أخرى من العالم ، وقد أشار إلى ذلك (فون كرم) (Von Kremer - 2 - p. 1-2) حين قال أننا مدينون فيما نعرفه عن التاريخ السياسي والحربي الذي يتعلق بتلك العصور لما بذله مؤرخو العرب من اجتهاد لا يعرف السكل في جمعهم للأخبار ، وأن بيننا وبين ذلك التاريخ اثني عشر قرناً ، لهذا تتناسب الدقة مع طول هذه الشقة على أن التاريخ الداخلي لتلك الفترة الهامة ، وكذلك تاريخ الكفاح بين الدين الجديد البسيط وبين الديانات القديمة ، بين كيف تنوعت فيها المذاهب إلى حد التعقيد ، حتى أصبحوا لا يعلمون من حقائقها إلا الأمور السطحية ^(١) .

وكانت المذاهب الدينية المسيحية تناوى بعضها البعض عند ظهور الإسلام ، وتعرض الناس لزعة إيمانهم نقيحة للاندماج في الجدل المستمر ، وعندما ظهر الاسلام وجد فيه الناس وهم في ضجرهم وحيرتهم (ملجأ من هذه المجادلات التي لا تنتهي ولا تعرف اللين والتسامح ، واستجابوا إلى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة ، حقيقة الوحدةانية ^(٢)) .

وكما أن هذه البساطة الخالية من السفسطة المذهبية كانت مغربة للمسيحيين وحييتهم في التحول إلى الدين الاسلامي ، فانها ولاشك كانت أكثر اغراء

(١) الدعوة للإسلام لـ بير توماس اوفول من ٨٨ ، ٨٩ ترجمة د . حسن ابراهيم

(٢) نفس المرجع .

الوثنيين الذين بدأوا يتصلون بالحضارة والعلم والمعرفة ، وكان عليهم أن يختاروا بين الاسلام في بساطته وبين الديانة المسيحية التي أحالتها الكنائس والثقافات الهيلينية والرومانية إلى عقيدة مخوفة بمذاهب عويصة معقدة مليئة بالشكوك والشبهات ، بعد أن كانت تعاليم المسيح الأولى بسيطة سامية لاتعقيد فيها .

كما أن الدين الاسلامي لم يعتمد في انتشاره في هذه العهود وما بعدها إلى سلطة دينية منظمة ، لها من السيطرة الروحية التي تتدخل تدخلا كبيرا في طريقة حياة الأفراد وحررتهم ، ويقوم على هذه السلطة رجال الكنيسة والمبشرون ، الذين يمكنون لسلطانهم بابتكار المزيد من التعاليم التي لايتطلبها الدين ، الأمر الذي جعل سلطة الكنيسة تمتد إلى سلطة الدولة وترتبط الواحدة منها بالأخرى ، وبذلك أصبح المعتنق لهذه الديانة متقادا ، يصعب عليه التحرر من القيود التي لايقبلها عقله ، إذ أنه أصبح يخشى على نفسه من خروجه على تلك السلطة التي أصبحت مرتبطة بسلطة الدولة .

والدين الإسلامي على العكس من ذلك تماما ، لايعتمد على طبقة كهنوتية تختص بنشر العقيدة ، فقد وجد المسلمون أن واجب كل فرد منهم أن يكون داعية لدينه ، وكل من يعتنق الاسلام يصبح ندا لآخوانه فلا يميز أحدهم عن الآخر إلا بالإيمان ، ولا يوجد واسطة بين المسلم وربه ، وأصبح أمر إيمانه متروكا لشخصه ، مما جعله يحمل المسئولية بنفسه ، وبذلك يصبح أكثر تشددا واهتماما في أداء واجباته الدينية ، وأشد تحملا للصعاب في سبيل تعلم مبادئ دينه وشعائره ، ويعتز بحريته التي تنمى فيه الاعتزاز ، بشخصيته وكرامته ، وجميع هذه الصفات ولاشك ، كانت أقصى مايتطلع إليه أفراد الشعوب الذين وقعوا فريسة لأنواع السيطرة ، ومنهم سكان أفريقيا الذين تعرضوا خلال تلك العصور لأقصى أنواع الظلم ، وطبقت عليهم العبودية التي طمست انسانياتهم ، وتاجر الأجانب فيهم كالسلع - ارقاء يساقون سوقا إلى من يدفع ثمنهم .

ولقد كان فضل الاسلام عظيما عندما نادى بتحرير العبيد ومحاربة الرق، ولقد اتخذ في ذلك خطوته الاولى التي تتفق وما تقتضيه الدعوة الجديدة من تعزيز ، بأن حمت كل من يعتنق الاسلام من الرق ، إذ أن الحرية الشخصية والكرامة الانسانية من مبادئ الاسلام الأولى .

ولقد وجد أفراد الشعوب الافريقية من أخلاق العرب الوافدين إليهم بحضارتهم ودينهم وتفوقهم في مختلف نواحي النشاط ، لا يفرقون في المعاملة بين شخص وآخر إلا بالنقوى ، مما جعل أهالى المناطق الافريقية المختلفة يقبلون على اعتناق الدين الاسلامى جماعات وطوائف بأكملها ، ذلك الدين الذى يضعهم في نفس المستوى ويرد إليهم كرامتهم فليس بينهم سيد ومسود ، فما تلبث طائفة منهم أن تختلط بالمسلمين حتى تدخل الاسلام .

* * *

ولعل أكثر المسلمين احتكاكا بالعناصر المختلفة من مسيحيين ووثنيين هم التجار الذين يتجولون ويجوبون المناطق المختلفة سعيا وراء التجارة ومصادر الرزق ، فكان هؤلاء التجار هم دعاة الإسلام الذين انتشر على أيديهم أينما تغفلوا في افريقية - وكان لما يتصفون به من حسن المعاملة والصدق لتركيز في كسب الاحترام والنقة ، وعن هذا الطريق البسيط انتشر الاسلام تتشارا منقطع النظير .

* * *

كل هذا لايعنى أنه لم يكن هناك للإسلام دعاة ، بل يذكر لنا التاريخ عددا وافرا منهم ، وكثيرون كان لهم شأن عظيم ، ولكن كان كل منهم يعمل منفردا متطوعاً معتمداً على جهده الشخصى ، لا يستند إلى مؤسسة عده بالمال والقوة كما هو معمول في الاساليب التبشيرية التي تتبعها الكنائس ،

وأن كانت في العصور الأخيرة قد تألفت جماعات دينية أخذت على عاتقها تنظيم نشر الدعوة الإسلامية وتثبيتها ، إلا أنها لم تبلغ في تأثيرها ما وصل إليه هؤلاء الأشخاص الأوائل الذين كانوا يعملون فرادى بجانب نشاطهم التجاري .

* * *

ومن الأسباب الهامة التي ساعدت على تغلغل الإسلام في البلاد الحبشية اضطراب الأحوال الداخلية ، فكلما زادت الفلاقل بين ملك أكسوم واتباعه من حكام المناطق وقامت بينهم الحروب ، واضطربت الأمور ، تهيأت الظروف للإسلام للتقدم ، وكلما ضعفت سلطة الكنيسة أو نشب خلاف بينها وبين ملك الحبشة ، زاد تغلغل الإسلام وهكذا ، ومن أبرز تلك الأسباب إعتقاد المسيحية على ذلك النظام المرسوم المركز في الكنيسة ، فإذا شاعت الظروف وبقي منصب المطران خاليا فترة من الوقت ، أو كان المطران ضعيفا أو شامت الظروف أن ينشب الخلاف بين المطران والملك ، فإن أحد هذه العوامل كفيل بأضعاف سلطة الكنيسة واضطراب الأمور ، وهكذا على العكس في الإسلام الذي لا يعتمد - كما اسلفنا - إلى مثل هذا النظام .

* * *

هجرة المسلمين إلى الحبشة

الهجرة إلى شرق أفريقية :

بالرغم مما سبق أن ذكرناه من اجتهاد المؤرخين العرب بكتابة التاريخ السياسي والحربي عن تلك العصور اجتهادا لا يعرف السكال والمثل ، فإن ماورد في كتبهم عن شرق أفريقيا كان ضئيلا متناثرا ، وجاء ذكره فيها ورد من مراجع بطريقة عرضية ، وأما ما عانيت بتفصيله بعض المصادر فقد جاء مشوشا يقتصر إلى الدقة شأن كل خبر مصدره انتقال الأخبار بالسمع والرواية

من شخص إلى آخر ، فلم تكن تلقى أخبار شرق أفريقيا تلك الأهمية التي بذلها المؤرخون لتسجيل تازيخ الشام والعراق ومصر وجزيرة العرب التي كانت مصدر القوة ومنبع الحوادث في ذلك العهد ، ولكن بالرغم من كل ذلك ، فإن القليل الذي وصل إلينا كاف لأن نستنتج منه المجرى الأساسي لتطور الأحداث وتسلسلها في قدر لا بأس به من الدقة .

* * *

وليس هناك من شك كثير في أن الغالبية العظمى من المهاجرين المسلمين ، الذين استوطنوا السواحل ، ووطدوا مراكزهم في شرق أفريقيا كانوا من التجار العرب وعلى الأخص من أهل اليمن والجنوب العربي ، وليس هذا بالأمر الجديد ، فنذ العصور القديمة وهم عماد التجارة والنشاط في تلك البقاع . ويكاد لا ينافسهم في التجارة في هذه المناطق إلا أشقاؤهم الواردين من الخليج العربي ومن مسقط وعمان على وجه الخصوص ، وعندما بزغ فجر الإسلام أخذ هؤلاء التجار المجاهدون يتحلون بصفاته وآدابه وتعاليمه ، وأخذ أثرهم يزداد كلما ازدادت الصلات التجارية وزاد عدد المستقرين في الشاطئ . الأفريقي الذي يتمتع بالخصب والهواء الطيب فوق مرتفعاته ، وساعد استقراره في (القرن الأفريقي) على تحكم التجار المسلمين في تجارة جميع البلاد الداخلية في وسط أفريقيا ، مما كان يعود عليهم بالمزيد من الربح الوفير .

في تلك العصور كانت دويلات الجزيرة العربية على الخليج العربي والمحيط الهندي تلعب دوراً كبيراً في النشاط البحري والتجاري - وظل أثره بارزاً حتى القرن التاسع عشر ، كما سيأتي تفصيله عند الكلام عن العصور الوسطى الحديثة ، ولكنه في تلك العصور الأولى ابتداءً من القرن السادس الميلادي كانت تجارة هذه البلاد العربية واسعة الانتشار هب البحار وأخذت

توطد أقدامها وتستقر في كثير من هذه الانحاء^(١) كما تشير إلى ذلك كتب المؤرخين القدامى عن هذه العبود ، ووصل نشاط هؤلاء التجار إلى الشاطئ الأفريقي الشرقي ونفذوا منه إلى داخل القارة ، وجاء ذكر طرف من أخبار هؤلاء العرب في إحدى الكتب التاريخية القديمة التي عثر عليها البرتغاليون في القرن السادس عشر من مدينة (كلوا Kilua) القريبة من زنجبار^(٢) .

وتقول هذه الوثيقة « من المهاجرين الذين قدموا من الشاطئ العربي للخليج الفارسي ، من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين ، وجاء هؤلاء في سفن ثلاث برعامة سبعة أخوه هارين من إضطهاد ملك الاحساء ، وهي مدينة قريبة من موطن قبيلتهم ، وأول مدینه بنوها هي مقديشيو التي ارتفعت فيما بعد إلى تلك القوه التي جعلتها سيدة على كل عرب الساحل ، ولكن لما كان المستوطنون الأصليون وهم (الأموزيدج ويقصد الزيديين) من مذهب يختلف عن مذهب اللاجئين الجدد ، حيث كان الأولون من الشيعة والآخرين من أهل السنة ، أبوا أن يخضعوا لسلطة حكام مقديشيو ونفذوا إلى الداخل حيث إندمجوا في السكان الأصليين وتزاوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم » .

وجاء في بعض المراجع تفصل أكثر وضوحاً بأن مدينة مقديشيو إنشئت حول منتصف القرن العاشر وظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين سنة ، حينما أدى قدوم مهاجرين آخرين من الخليج العربي إلى إنشاء وطن آخر يناقسها على بعد منها ناحية الجنوب ، وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى علياً ، وهو أحد الأبناء السبعة لأحد سلاطين شيراز ويدعى حسنا ولما كانت أمه حبشية إزدراه أخوته ، وعاملوه معاملة قاسية ، جعلته يصمم على أن يهجر وطنه ويبحث عن موطن في مكان ما . لهذا أبحر من جزيرة هرمز ومع زوجته وأولاده وجماعة صغيره من أتباعه ، وسار متجهاً إلى

(١) ص ٢٣١ وما بعدها الدعوة للإسلام لسير توماس ارفولد .

(٢) ص ٣٧٨ نفس المرجع .

مقديشيو ، التي ينتمى سكانها إلى مذهب ديني يختلف عن المذهب الذي ينتمى إليه ، قضى في طريقه صوب الجنوب ، إذ سمع إن الذهب يوجد في ساحل زنجبار ، وأسس مدينة كلوا ، وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل وأن يكون متحرراً من تدخل منافسيه المقيمين بعيداً عنه في الشمال .

وتتفق تسجيلات جميع المؤرخين على أن العرب المسلمين قد أسسوا للمدن ووطدوا أقدامهم على طول الساحل الشرقى لإفريقيا ، ولكن لقلة المعلومات التي أمكن الحصول عليها عن الأحوال في داخل القارة ذهب بعضهم إلى أن الإسلام لم يتغلغل إلى الداخل إلا ببطء شديد وفي العصور الحديثة — ولكن ما سوف نصل إليه من وقائع هامة يثبت أن الإسلام قد تغلغل بسرعة ، وفي العصور الوسطى بالذات وبلغ فيها شأناً عظيماً .

* * *

ويأتى في الأهمية بعد تجار المسلمين الذين إستقروا على الشاطئ الشرقى لإفريقيا فرق من المسلمين الذين هاجروا إلى إفريقيا خلال مراحل الصراع السياسى التي تعاقبت على الجزيرة العربية منذ الفتنة الكبرى التي بدأت في عهد خلافة عثمان بن عفان .

فبانتصار بنى أمية وتأسيس دولة الأمويين ، حدثت معارك دموية بينهم وبين الهاشميين كانت آخرها تلك المعركة التي قتل فيها زيد بن علي زين العابدين عام ١٢١ هجرى (٧٣٨ ميلادية) ، وتفرق أتباعه في البلاد واستقر فريق منهم في اليمن وأسسوا طائفة الزيديين التي كانت فيهم الأمامه إلى عهد قريب ، ومن هؤلاء الزيديين من هاجر إلى الشاطئ الغربى ، ومن تسلسل حوادث ذلك العصر يظهر أنهم كانوا ثانی الفرق العربية التي هاجرت ، بعد الفرق الأولى التي سبقتها إلى جزر الدهلك .

ولم يكن الزيديون وحدهم هم الذين هاجروا في عهد الأمويين ولكن يبدو أن كثيراً من أهل الحجاز (وعلى الأخص من أهل مكة والمدينة) قد حذوا حذوهم بعد الحملات الحربية التي جردها الأمويون على المدينة وما لاقاه مسلحو الحجاز على أيديهم من قسوة وتنكيل .

وكا أن أتباع زيد كانوا من خيرة الأسر العربية ، كذلك كان مهاجروا الحجاز من أغرق الأسر التي لم تكن ترضى بالحكم الأموي ، ومنها من كان ينافسهم في المركز والحسب ، ويشير ماسوف يمر بنا من تاريخ عن ظهور ملك على مملكة شوا يقال له المخزومي نسبة إلى بني غزوم قبله القائد الشهير خالد بن الوليد ، وقد يكون بعض هؤلاء قد هاجروا إلى الحبشة بالطريق الطبيعي وقد يكون نتيجة لخلافهم مع بني أمية وتنافسهم على النفوذ . ولقد تكررت نفس الهجرة وعلى نفس النمط عندما استولى العباسيون على الدولة الإسلامية ، وانتشر الأمويون وأتباعهم في شمال إفريقيا والأندلس ومنهم عدد لا بأس به وصل إلى الشاطئ الأفريقي .

* * *

الإسلام في شمال الحبشة وقبائل البجة :

يتضح مما تقدم كيف انتشر الإسلام وسيطر على الشاطئ الشرقي لأفريقيا وكيف كان ذلك أول مراحل دخول الإسلام ، وأول العوامل التي أدت إلى عزلة دولة الحبشة المسيحية .

وسبق أن أشرنا إلى قبائل البجة (أو البيجا Beja) التي انتشرت من وادي النيل إلى شاطئ البحر الأحمر مستولية على الأريتريا وشمال الحبشة ، وبذلك أتمت عزلة دولة الحبشة المسيحية ، ولأهمية الدور الذي تلعبه هذه القبائل في تاريخ الحبشة وكثرة عددها وأهمية موقعها ، يجدر بنا العودة إلى الكلام عنها في شيء من التفصيل .

كان لبلاد النوبة أوثق العلاقات مع مصر خلال جميع أدوار التاريخ وكانت تتأثر بما يجري في مصر من أحداث ، لذلك كان للفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص أثر كبير على مملكة النوبة التي حاولت أن تقاوم هذا التيار الجارف ، ولقد نجحت في صد أول حملة وجهها إليها المسلمون في عام ٦٤٢ م ، ولكن المسلمين أعادوا الكرة في ٦٥١ وتمكنوا من التغلب على جيوش مملكة النوبة وتوغلت فيها حتى وصلت إلى عاصمتها وحاصرتها ، وعقد

القائد العربى معاهدة (البقط) مع ملك النوبة تعهدا فيها ببادل التجارة مما يضى على هذه المعاهدة صورة التبادل الاقتصادى ، ولذلك اعتبرها بعض المؤرخين (معاهدة اقتصادية) . ويعتبرها البعض الآخر (هدنة) وينسبون كلمة (بقط) إلى الأصل اليونانى (Pactum) الذى يعرف باللغة الإنجليزى (Pact) ومعناه عهد وميثاق ^(١) .

* * *

ولقد ذهب اليعقوبى فى تاريخه (ص ١٩٢ من الجزء الأول طبعة بيروت) إلى إطلاق اسم «ملكة البجة» على جميع تلك الأراضى التى كانت تمتد من جنوبى أسوان إلى البحر الأحمر ، وإن كان قد قسمها إلى خمسة ممالك تبدأ أولاها وتدعى قيس (حد أسوان) إلى (حد بركة) عند الاريتريا والملكة الثانية تدعى (بلقين) ، والثالثة (بازين) والرابعة (جارين) ويبدو أنها كانت مملكة كبيرة تمتد من (البحر الأعظم إلى حد بركة) من مملكة بلقين . والخامسة تدعى (قطعة) وهى آخر ممالك البجة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن اليعقوبى يستمر فى سرد الممالك فيقول «أن المملكة السادسة هى (ملكة النجاشى) وهى بلد واسع عظيم الشأن ولهم مدن عظام وساحلهم دهلك ، ولم تزل العرب تأتى لهم بالتجارات ويؤدون له الخراج والنجاشى على دين النصرانية اليعقوبية » .

ثم يعود ويذكر (ملكة الحبشة) ذكرا مستقلا ويقول أن لها مدينة يقال لها ثبير ، ويسمى ملك هذه المدينة «مزع» إلخ إلخ . وربما كان السبب فى هذا الفصل بين الإثنين فى ذلك العهد عدم إمتداد سلطان النجاشى على تلك المملكة بعد وقد يكون هذا الوقت هو الذى بدأت تمتد فيه مملكة أكسوم التى بها عاصمة النجاشى إلى الجنوب (كتب اليعقوبى كتابة حوالى عام ٨٧٢ م) .

(١) صفحة ٧٦ - من كتاب العصر المالىكى - للأكتور سيد عبد الفتاح عاشور والصفحات ٢٧٦ - ٢٧٧ الجزء الخامس صبح الامنى - لفلشندى .

« وتدل الشواهدما سبق لإيراده من ظروف أن العرب قد اتصلوا بالنوبة والبلجة لإتصال تعاهد ومرور وانتقال وتجاره ، وإن بلاد السودان قد عرفت اللاجئين السياسيين من العرب ، كبنى أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى بلاد النوبة أو إلى شرق السودان واستقروا في أرض الجزيرة (مملكة مروى أو النوبة) ويبدو أن العرب قد اتصلوا لإتصالا وثيقاً بالبلجة في القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) عن طريق البحر الأحمر وعن طريق وادى النيل وخاصة من إقليم أسوان ، فرحلوا إليها تجاراً ، واجتازوا من مصر إلى بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى مغاور الذهب والزمرد منقبين ومستخرجين ، ويظهر أيضاً أن جماعة من العرب المسلمين كانوا أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم ، فبذة كلها عوامل مهدت للعرب سبيل الاختلاط أول الأمر بالبلجة في شرق السودان وساعدت على تعريب هذه المنطقة .

غير أن البلجة لم يحافظوا على العهد الذى قطعوه على أنفسهم في معاهداتهم فكثرت غاراتهم على جهات أسوان ، واشتد إيذاؤهم للمسلمين فيها فكانت للخليفة المأمون العباسى (٨٣١ م) وقائع انتهت بموادعتهم وإبرام عهد جديد تبين شروطه مدى إتصال العرب بمنطقة شرق السودان :

(١) أن تكون البلجة من حدود أسوان إلى البلاد التى تمتد من دهلوك وباضع ملكاً للخليفة .

(٢) أن يؤدى ملك البلجة كل عام الخراج أو البقطة على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار .

(٣) أن يحترم البلجة الإسلام وألا يذكره بسوء ولا يعينوا أحداً على أهله .

(٤) ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول في بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً .

(٥) ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مقبياً أو مجتازاً أو حاجاً ، فهو آمن حتى يخرج من بلادهم ، (وهذا الشرط يدل على أن العرب المسلمين

كانوا يذهبون إلى شرق السودان للتجارة والإقامة والمرور والحج) .
(٦) إذا نزل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجاراً فلا يظهر سلاحاً ولا يدخلون المدى والقرى بحال .

واستمر هذا الاتصال في عهد الخليفة المعتصم (٨٢٣ - ٨٤٢ م) والخليفة المتوكل (٨٤٦ - ٨٦٠ م) حيث نقض البجة العهد مرة أخرى وأغاروا على أعلى الصعيد مما أدى إلى قيام الحرب بينهم وبين المسلمين^(١) .
ولذلك لم تهدأ الأحوال على حدود الدولتين ، واستمرت المناوشات بينهما بضعة قرون ، كان الدين المسيحي أثناءها منتشرًا في مملكة النوبة حتى جاء عهد الدولة الأيوبية بمصر ومن بعدها المماليك ، حيث وجهت الحملات خلالها إلى بلاد النوبة ، وفي عهد الظاهريين ومن بعده السلطان الناصر قلاوون بلغت الحملات مبلغاً عظيماً من القوة ، وأخذت مملكة النوبة المسيحية في التفتك حوالي عام ١٢٨٩ م ، وما أن جاء النصف الأول من القرن الرابع عشر حتى كانت مملكة النوبة المسيحية قد سقطت ، وبدأ الإسلام يستقر في هذه الدولة (السودان) .

وما تجدر ملاحظته أن مملكة النوبة هذه تتأخم ما تنكلم عنه في هذه المرحلة من مملكة أكسوم والاريتريا ، وكان استمرار اتفاقهما في الدين سبباً لكثير من الاتصالات .

وعماساعد على تغلغل الإسلام في بلاد النوبة ازدياد عدد المسلمين العرب الذين هاجروا واستقروا في بلاد النوبة قبل ذلك بعدة قرون ، وكانت كثرتهم تقطن ضفاف النيل الأزرق ، وفي القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر خاصة بدأ عن طريق الهجرة إلى بلاد النوبة اندماجهم مع العرب ولاسيما قبيلة جبهة الذين تزوجوا في نساء هذه البلاد ونجحوا تدريجياً في

(١) صفحات ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣ الدعوة للإسلام - تأليف سبرنوماس ارفولد ترجمة د. حسن إبراهيم حسن .

كسر شوكة الأمراء النوبيين ، وبخبرنا ، ابن بطوطة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أن النوبيين كانوا في وقته لا يزالون على المسيحية ، مع أن ملك مدينة دنقلة — تلك المدينة الرئيسية في بلاد النوبة ، كان قد دخل في الإسلام ، وذلك في عهد الناصر .

ويظهر أن النوبيين قد انساقوا من المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفي ببطء شديد وكانت الحياة الروحية في كنيستهم قد انحدرت إلى دركات من التخلف ، وكان من الطبيعي أن ينشدوا ما يشق غلثهم ويسد رمقهم الروحي ووجدوا ما ينشدونه في الدين الإسلامي ، الذي حمل أتباعه الدليل على قوة حيويته وقتاً طويلاً^(١) .

ولقد كان بقاء مملكة النوبة على دينها المسيحي حتى القرن الرابع عشر أكبر الأثر في إيقاف تيار الزحف الإسلامي على الحبشة من الجهة الغربية ، أي من مصر عن طريق السودان ، وخصوصاً في تلك الأوقات التي كانت مصر فيه عزبة الجانب متمكنة من قوتها .

بالإضافة إلى أن جوار الحبشة لهذه المملكة المسيحية جعل لها متنفساً تتصل عن طريقه بالعالم ، وتصل عن طريقه التجارة التي نشط فيها اليهود واليونانيون بجانب العرب ،

ولقد تسببت الحروب والقتال والمناوشات التي وقعت في تلك العهود بين المسلمين في مصر وبين بلاد النوبة والبحج ، في ازدياد هجرة قبائل البجة شرقاً في اتجاه البحر الأحمر .

وبما تقدم يربط الكتاب بين قبائل البجة الحبشية وبين قبائل الهدندوه وبنى عامر وغيرهم من القبائل التي يقيم فريق كبير منها في شرق السودان كما سبق ذكره ، واختلطت قبائل البجة مع قبائل (التيجرى Tigre) التي تنتشر وتكون غالبية السكان في وسط الأريتريا وفي شمال الحبشة الحالية .

(١) ص ١٠٦ الإسلام في أثيوبيا لترمنجهم .

ولكن قبائل التيجرى حافظت على لغتها الأصلية بالرغم من هذا الاختلاط .

* * *

بدأ انتشار الإسلام بين قبائل البجة عندما بدأ المهاجرون العرب في الاستقرار في مناطق المناجم ، وكان لاحتكاكهم بالمصريين واختلاطهم نتيجة للمعاهدات التي سبق ذكرها ، أثر كبير في اعتناق كثير منهم للإسلام . ويقول المقرئى أن التجار العرب وأصحاب المناجم كان لهم نشاط واسع في أقاليم البجة الشمالية ، ويبدو أن تأثيرهم كان كبيرا على رؤساء القبائل مما مكنتهم من بناء المساجد ، وجاء ذكر أحد هذه المساجد في العاصمة (هجر) والآخر في سنكات ، في بعض المراجع ومنها الطبرى .

وكتب المسعودى في (٩٣٥ م) أن (الحدرات) وهى فرع من البجة قد اعتنقت الإسلام تحت تأثير المسلمين الذين يعملون في المناجم الموجودة في هذه المناطق ولكن باقى البجة لازالوا وثنيين ، وأيده في هذا اليعقوبى وابن حوقل (٩٧٧ م) . وأضاف ابن حوقل أن قبيلة أخرى من القبائل الكبيرة تعيش في (وادى بركة) عند الأريتريا بها كثير من المسلمين وعليها حاكم مسلم ^(١) .

وبهذا يتضح أن الإسلام قد بدأ يأخذ مكانته بين قبائل البجة في القرن العاشر الميلادى .

وعندما جاء القرن الثانى عشر كتب بعض المؤرخين العرب أمثال الإدريسى (١١٥٤م) وغيره من الكتاب بأن بعض قبائل البجة كانت لاتزال تعتنق المسيحية ويبدو أن هذا راجع إلى سابق صلتهم بملكيتهم الأصلية في بلاد النوبة المسيحية .

وعندما جاء المقرئى (١٣٦٦ - ١٤٤٣) وذكر أن قبائل الحدرات

(١) من ٥١ من كتاب الإسلام في أثيوبيا (ترجمتهام . وكتب اسم القبيلة المذكورة حدارب Hadareb فيما يكتبها اليعقوبى حدرات .

وسكان الساحل قد اعتنقوا الإسلام ، فإنه يؤيد دخول الإسلام إلى قبائل البجة وزيادة انتشاره بالرغم من وجود بعض القبائل المسيحية ، ولكنه يذكر أيضاً أن غالبية قبائل البجة كانت لا تزال وثنية^(١) ومن تسلسل تلك الأخبار يتضح جلياً أن الإسلام كان يتقدم تدريجياً بين قبائل البجة . ونكتفي في هذه المرحلة بما ذكرناه عن قبائل البجة وتاريخها إلى القرن الثاني عشر على أن نعود إلى ذكرها كلما جاءت مناسبتها فيما يلي من تاريخ الحبشة .

ملكه شوا الإسلامية :

تألفت من المهاجرين إلى الحبشة ومن القبائل التي اعتنقت الإسلام خلال تلك القرون ممالك وسلطنات ناشئة ، بدأت صغيرة ثم أخذت في النمو والاسراع وازدادت شأنها كلما توحدت أقدامها .

وكما سبق أن قدمنا لم يدخل الإسلام إلى الحبشة عن طريق غزو عسكري أو حروب كما حدث في الفتوحات الإسلامية الكبرى التي تغلبت فيها الدولة الإسلامية على الدول المجاورة ودخلت إليها حاكمة بجميوسها وسلطتها وتنظيماتها وأساليبنا الجديدة في الحكم ، ولكن دخول الإسلام إلى الحبشة كان تغلغلاً هادئاً ، بدأ بالمهاجرين الذين يلشرون الدين الجديد بين القبائل الوثنية بمختلف الأساليب ، وكان لنفوذهم الحضاري أكبر الأثر في استجابة الكثيرين من أهل البلاد إلى الدعوة .

لذلك عندما تشكلت الجماعات الإسلامية في أماكنها المتباعدة في تلك البقاع الشاسعة . لم يكن بين تلك الجماعات اتصال أو اتحاد ، بل أخذت كل منها تنمو مستقلة عن الأخرى ، وبعد عدة قرون أصبحت ممالك وسلطنات تتأخم بعضها البعض ، يجمعهم اسن الإسلامى ، وتفرقهم الخلافات المذهبية وتنافس الأسر الحاكمة ، فلم يكن بينهم أى نوع من الاتحاد بل على العكس فمن ذلك قامت بينهم بعض الحروب والمناوشات المحلية .

(٢) "من" من الإسلام في أيوتيا لعرنجهام .

وعند نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث عشر ، نجد تفصيلا لهذه السلطنات والممالك الإسلامية في كثير من المراجع ، وحدث في عام ١٩٣٦ أن اكتشف المستشرق الإيطالي (شيرولي E. Gerulli) وثيقة عربية هامة تشرح الأحداث التي مرت على (دولة شوا الإسلامية) في أواخر عهدهما (١٢٣١ - ١٢٨٩ م) ولقد أتيح للمستشرق شيرولي المزيد من البحث والدراسة أثناء إنتيلاء إيطاليا على الحبشة في ١٩٣٦ ، ونشر نتيجة أبحاثه في ١٩٤١ . ولها أهمية خاصة لأن المعروف قبل ذلك أن الإسلام في ذلك العهد كان مقتصرًا في انتشاره على الساحل ، وأنه وصل إلى حدود الهضبة فقط ، ولم يكن قد نفذ إلى داخلها ، أما هذه الوثيقة فإنها تثبت أمرًا هامًا وهو وجود مملكة إسلامية في صميم الهضبة ، وفي منطقة شوا ذات الأهمية الكبيرة .

وتفيد الوثيقة بأنه قد تأسست دولة إسلامية في قلب الهضبة الحبشية في إقليم شوا المشهور ، وذلك في عهد حكم ملوك الحبشة الأجويين ، وأن سلاطين هذه المملكة كانوا من بني غزوم (غزومي) أسرة سيف الإسلام خالد ابن الوليد ، وأن إنشاء هذه الدولة يعود إلى عام (٨٩٦ م) وهذه الوثيقة هي التي تؤيد ما سبق أن أشرنا إليه أن من بين المهاجرين إلى أرض الحبشة نفر من بني غزوم في عصر الأمويين ، ويبدو أنهم تغلغلوا داخل البلاد الأفريقية وتمكنوا من إنشاء تلك الدولة الإسلامية في هذا المكان من قلب الحبشة الذي يعتبر من أمتع المعاقل فوق مرتفعات الهضبة ، والذي تقع به مدينة أديس أبابا الحالية .

ولا يوجد بهذه الوثيقة من التفصيل ما يحيط الثام عن كيفية نشأة هذه المملكة ولا تاريخ جهودها الأولى ، ولكنها تفصل السنوات الأخيرة من حكمها حين بدأت عوامل الانحلال في الدولة . وتذكر

أخبار الاشتباكات والاضطرابات الداخلية وأسماء الفرق المتصارعة وزعمائها^(١).

وقد استمرت مملكة شوا الإسلامية خلال أربعة قرون في شبه عزله عن العالم - الخارجي ، ومن أجل ذلك لم يرد ذكرها على أهميتها في أى مرجع من المراجع القديمة حتى ظهر خبرها بعد كشف تلك الوثيقة سالفة الذكر .

ويبدو أنها ظلت طوال تلك المدة في معزل العالم لأن منطقتها خصبة معتدلة الجو تحتوي على كل متطلبات الحياة في ذلك العصر ، وكان اشتغال السكان بالزراعة والرعى كافيا لسد حاجات الشعب ووفرة رزقهم .

ولقد استمرت اسرة بنى مخزوم على عرش هذه المملكة حتى عام (١٢٢٥) حتى اغتصبه منها شخص يدعى مالزا الذى بقى على العرش ثمانية عشر عاما وبعدها استولى عليها سلطان آخر وهلم جرا ، من ملك إلى آخر في حروب داخلية لا تنهدأ حتى تدهورت الحالة في المملكة .

وفي نفس الوقت كانت هناك مملكة اسلامية أخرى فنية تنأهب ، وأخذ شأنها يزداد ، تدعى مملكة (إفات Ifat) وكانت تراقب الأمور في مملكة شوا الإسلامية عن كثب وانتهزت فرصة انحلالها وجردت عليها أربعة حملات انتهت باستيلاء مملكة إفات الإسلامية على مملكة شوا (عام ١٢٨٩ م)^(٢).

وباستيلاء إفات على مملكة شوا يتحدد تحديدا واضحا المدى الذى وصلت إليه سلطة الاسلام في القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر .
لإذ من المعلوم أن شوا تشغل جزءا هاما في قلب الهضبة الحبشية المنيعه ،

(١) ص ٨٠ الاسلام أنبوياء الترمينجيام ، كذا الجزء ٦٣.

The Ethiopians by Ullenderff

(٢) نفس المرجع .

وفي ذلك الجزء الذي تحتله قبائل الأجويين ويمتد نفوذ الدولة الإسلامية إلى شواطئ النيل الأزرق .

* * *

الممالك الإسلامية في شرق الحبشة :

سبق أن ذكرنا أن عددا من السلطنات والممالك الإسلامية قد بدأ في التكوين عندما ازداد انتشار الإسلام وثبتت أقدامه ، ولم يكن بين هذه الممالك أى نوع من الاتحاد أو الصلة التي يفرضها اشتراكهم في الدين ، بل على العكس من ذلك كانت تحارب بعضها البعض .

ومن البديهي أن هذه السلطنات والممالك وهي تمر بأدوار تكوينها من الطفولة إلى الشباب . كانت مضطرة إلى خطب ود ملوك الحبشة المسيحية كلما ظهر فيهم نجاشى قوى ، ولقد كان ذلك راجعا إلى انتشار الإسلام ، وهو بعد في عصر تكوينه ، في مساحات شاسعة بلغت أكثر من ثلاثة أرباع مساحة الحبشة ، بينما لجأ ملوك الحبشة في تلك العهود إلى التكتل داخل المقضية والتحصن فيها والعمل الدائم على توحيد الصفوف والقوى إزاء هذا الزحف الإسلامى الواسع ، وخلال ذلك اعتلى عرش الحبشة من الملوك الأقوياء من اضطرت تلك الممالك الإسلامية الناشئة المتباعدة إلى تقديم الولاء والطاعة له .

* * *

ولعل أبرز تلك العهود هو ما وصلنا تفصيله في (مسالك الأبحار) ونقله عنه القلقشندي في صبح الاعشى (الجزء الخامس — صفحات ٤٢٢ وما بعدها) وهذه الأخبار وإن كانت في الغالب تعطى الصورة الحقيقية السائدة في تلك البلاد ألا أنه يغلب عليها طابع المبالغة القصصية المعروفة في ألف ليلة وليلة . حين يقول ان — (نجاشى الحبشة تحت يده تسعة وتسعين ملكا وهو لهم تمام المائة) .

ويحدد هذا المرجع تاريخ كتابته بعهد النجاشي (عمداسيون Amda Sion) ومعناه عمود أو ركن صهيون - (ويقال أنه من الشجاعة على أوفر قسمه وأنه حسن السيرة عادل في رعيته - وقد بلغنا أن الملك القائم عليهم أسلم سرا ، واستمر في اظهار نصرانيته ابقاء للملكة .

ونعتقد أن المبالغة الروائية كان لها نصيب في تحديد عدد الملوك التابعين للنجاشي بتسعة وتسعين (منهم سبعة مسلمون) ، وكذلك نميل إلى الشك في صحة رواية اسلام النجاشي عمداسيون ، وأن كان سيروليام بدج (Bedge 1 p 288) يقول أن عمداسيون أمضى مدة حكمه مختلفا مع رجال الدين وعلى رأسهم المطران بسبب سلوك الملك المشين فقد عاشر خليلات أبيه وأختيه مما أثار عليه سخط رجال الدين فحرموه ، فلم يأبه به وقبض على المطران وشهر به . الخ . الخ .

ولعل ما هو معروف عن عدم اهتمام الأحباش بتلك العلاقات المشينة إلى الدرجة التي تسبب غضب المطران على الامبراطور الذي يؤدي إلى نفي المطران ، مما يدعو إلى الظن بأن الخلافات بينهما كانت بالغة الشدة لأسباب غير التي ذكرها (السير بدج) ، الأمر الذي حدا بالمؤرخ العربي إلى تعليل ذلك بأن النجاشي اعتنق الاسلام سرا . وهذه في رأينا مبالغة لا يسلم تصديقها .

* * *

ويمضى (صبح الأعشى عن مسالك الأبصار) في وصف بلاد مسلى الحبيشة ويعبر عنها (بالطراز الاسلامي) لأنها على جانب البحر كالطراز له وهي البلاد التي يقال لها بمصر والشام بلاد الزليغ - والزليغ إنما هي قرية من قراها ، غلب عليها اسمها . . ولها الجوامع والمساجد وتقام بها الخطب والجمع والجماعات ... وعند أهلها محافظة على الدين - وتشتمل هذه البلاد على سبع قواعد ، كل قاعدة منها مملكة مستقلة بها مالك مستقل .

المملكة الأولى : وفات :

وتسمى أيضا أوفات - ويقال لها أيضا « جبره » والنسبة إليها جبرى .
وطولها خمسة عشر يوما فى عرض عشرين يوما كلها عامرة بالقرى المتصلة
وعسكرها خمسة عشر ألفا من الفرسان ويتبعهم عشرون ألفا فأكثر من
الرجال ، وتتبعها زيلع وهى مدينة مشهورة وأهلها مسلمون .

المملكة الثانية : ذوارو :

وهى تلى أوفات المقدمة الذكر ، وأن مملكتها طولها خمسة أيام وعرضها
يومان ثم قال ، وهى على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر أوفات
فى الفارس والراجل .

المملكة الثالثة : اراينى :

وهى مدينة ذكرها فى (المسالك) أيضا ولم يذكر شيئا من صفتها ، ثم
ذكر أنها مربعة طولها أربعة أيام وعرضها كذلك وعسكرها يقارب عشرة
آلاف فارس ، أما الرجال فكثيرة للغاية .

المملكة الرابعة . هدية (Hadya)

وموقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة وبين خط الاستواء ،
وذكر بعض المسافرين أنها جنوب أوفات ... وطول مملكتها ثمانية أيام
وعرضها تسعة أيام ، وصاحبها أقوى أخوانه من ملوك هذه الممالك السبعة
وأكثر خيلا ورجالا ، وأشد بأسا على ضيق بلاده عن مقدار أوفات ، ولملكها
من العسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرجال . فانهم خلق كثير مثل
الفرسان مرتين أو أكثر .

المملكة الخامسة : شرخا :

وهى تلى هدية المقدمة الذكر وطول مملكتها ثلاثة أيام وعرضها أربعة
أيام وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجالها مثل ذلك مرتين أو أكثر .

المملكة السادسة : بالى :

وهى تلى شرعا المقدمة المذكور ولكنها أكثر خصبا وأطيب سكنا وأبرد هواء ، وطولها عشرون يوما وعرضها ستة أيام .

المملكة السابعة : داره :

وهى تلى بالى المقدمة الذكر ، وطولها ثلاثة أيام وعرضها كذلك وهى أضعف أخوانها حالا وأقلها خيلا ورجالا ، وعسكرها لا يزيد عن ألفى فارس ، ورجاله كذلك .

* * *

ويقول الفلقشندي نقلا عن (مسالك الأبصار) « أن جميع ملوك هذه الممالك وأن توارثوها ، لا يستقل منهم بملك إلا من أقامه سلطان أمرا » النجاشي أو الخطي ، وإذا مات منهم ملك ومن أهله رجال قصدوا إلى سلطان أمرا ، وتقربوا إليه جهد الطاقة ، فيختار منهم ملك يولييه ، فإذا أولاه سمع البقية له وأطاعوا ، فهم له كالتواب وأمرهم راجع إليه ، ثم كلمهم متفقون على تعظيم صاحب أوقات ، منقادون إليه . ثم قال . وهذه الممالك السبع ضعيفة البناء ، قليلة الغناء ، لضعف تركيب أهلها وقلة محصول بلادهم وتسلط النجاشي سلطان أمرا عليهم ، مع ما بينهم من عداوة الدين ، ومباينة ما بين النصارى والمسلمين . قال : وهم مع ذلك كلبتهم متفرقة وذات بينهم فاسدة » .

« ثم حكى عن الشيخ عبد الله الزيلعي وغيره : أنه لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم ، قدروا على مدافعة الخطي أو التماسك معه ، ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف واقتراق الكلمة بينهم تنافس . قال . وهم على ما هم عليه من الزله والمسكنة للنجاشي سلطان أمرا عليهم قطائع مقررره ، تجعل إليه في كل سنة من القماش الحرير والكتان ، مما يجلب إليهم من مصر واليمن والعراق » .

* * *

ويضيف القلقشندي في (صبح الأعشى الجزء الخامس ص ٣٣٥) على ما نقله عن — (مسالك الأبصار) ما أهملته تلك المراجع من المدن الهامة ، ويذكر منها جزر الدهلك الواقعة في الإقليم الأول — « وهي جزر مشهورة على طريق المسافرين في بحر عيزاب إلى اليمن وينبها وبين بر اليمن ثلاثين ميلا وملوكها من الحبش المسلمين وهو يدارى صاحب اليمن .

ومنها مدينة «عوان» وهي على ساحل القلزم مقابل (تهامه اليمن) ومنها مدينة «مقدشو» وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة وخط الاستواء وهي مدينة كبيرة بين الزنج والحبشة . وهي على بحر الهند ولها نهر عظيم يشبه النيل مصر في زيادته في الصيف .

* * *

ويضئ القلقشندي فيقول : « وقد أتى الخطي ملك الحبشة النصراني على معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة (القرن الرابع عشر الميلادي) وقتل أهلها وحرق ما بها من المصاحف ، وأكسره الكثير منهم على الدخول في دين النصرانية ، ولم يبق من ملوكهم سوى ابن مسبار المقاتلة بلاده لجزر دهلك تحت طاعة التجاشي ملك الحبشة وله عليه اتاوة مقرره ، والسلطان سعد الدين صاحب الزيلع وما معها ، وهو عاص له خارج عن طاعته ، بينه وبين التجاشي الحروب لا تنقطع وللسلطان سعد الدين في كثير من الأوقات النصره عليه والغلبة ، والله يؤيد بنصره من يشاء .

ولقد ذكرنا هذه الفقرة الأخيرة لورودها في ختام حديث القلقشندي ولما لها من أهمية ، بالرغم من أن تلك الحوادث التي تشير إليها وقعت في القرن الخامس عشر كما سيأتي ذكره فيما بعد .

* * *

ولكن الذي يعنينا من كل ذلك هو نبیان الممالك الإسلامية كما أوردتها المؤرخون ، وشرح مدى ما وصلت إليه من إتساع وانتشار في عصر كانت فيه ياقعه حديثه العهد ، وبين ملوكها من أسباب الخصام ما جعلها في كثير من

الأوقات تنطوى تحت لواء النجاشي ملك الحبشة النصرانيه ، خصوصاً إذا كان ذلك النجاشي بمن تهيأت له أسباب القوة في بلاده ، ومن أمثلة ذلك عهد عمداسيون الذي كتبت هذه الأوصاف للممالك الإسلامية الحبشية في عهده ، وهي الحالة التي كانت سائدة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ثم استمرت على هذا المنوال في القرن الرابع عشر الذي جاء به عهد الملك عمداسيون - سنأتي إلى تفصيل ذلك فيما بعد .

الفصل السادس

الحروب الصليبية والحبشة

لا يمكن أن نتعدى ما وصلنا إليه من مراحل التاريخ في هذه المنطقة دون أن نتعرض لذكر الأثر الذي أحدثته الحروب الصليبية في مجرى الحوادث . فالحبشة تتعرض لانتشار الإسلام بين ريوها وإستمد المسلمون قوتهم في ذلك العهد من مركز عزوتهم في مصر والشام ، بينما يعتمد ملوك الحبشة وكنيستهم على تعزيز وتأيد بطريك الاسكندرية ، الذي يتبع سلاطين مصر ، والدولة الإسلامية في تلك الفترة من الزمن تتعرض لأقصى ما عرفة التاريخ من الحروب الدينية المركزة على مراكز الإسلام في مصر والشام . وكلها كما ترى عوامل متشابكة متعارضة ، تتضارب مع بعضها البعض .

ولا يمكن أن نفترض الصدفة وتوافق الأحداث على غير اتفاق فيمثل هذه الأمور الخطيرة بل نعتقد أنها حلقة مترابطة تنبعث إحداها من الأخرى في تسلسل وانسجام تاريخي . من واجب المؤرخين أن يولوه ما يستحق من عناية .

وفي رأينا أن الفتح الإسلامي للأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا ، كان له أثر كبير في مجريات الأمور وكانت ولا شك ضمن الأسباب التي مهدت للحروب الصليبية ، ولكننا نعتقد أن أنسب محل للكلام عنه هو عندما تأتي إلى تاريخ حوادث القرن الخامس عشر ، عندما زالت دولة الإسلام من الأندلس .

التسامح الديني في الإسلام وحوادث الاضطهاد :

تكاد تجمع المراجع الأوروبية والإسلامية على أن التسامح الديني من أهم المميزات التي يتصف بها الحكم الإسلامي منذ نشأة الدولة الإسلامية ، ولم يعدنا التاريخ على أن تكون الصفات والتصرفات مطلقة متشابهة تحت جميع الظروف وفي مختلف العصور ، ولكن الحكم والعبرة دائماً بالسائد من الأحوال ، أما الاستثناء فليس من المدل أو الإنصاف أن يعتبر طابعاً أو دستوراً .

وما لا شك فيه أنه بالرغم مما عرف من الدول الإسلامية من التسامح ، فإن غير المسلمين قد لاقوا من الظلم والاضطهاد والقسوة في بعض الحالات خلال الحكم الإسلامي وبالرغم من قتلها وتدنيتها إذ قيسست بطول العهود والقرون الذي ساد فيها التسامح ، فإن المؤرخين المنصفين من المسيحيين قد وجدوا في أعمال المسيحيين وتصرفاتهم أثناء تلك الحالات ما يبرر ما وقع عليهم من ظلم واضطهاد .

وإذا رجعنا إلى ما عني السير توماس أرنولد بذكره (صفحة ٩٤ وما بعدها من كتاب الدعوة للإسلام) لوجدناه يعدد بعض تلك الحوادث . وكما حدث في عهد المنصور (٧٧٥ م) ، والمتوكل (٨٦١ م) ، والمقتدر (٩٣٢ م) والأمر (١١٣٠ م) التي كانت عبارة من صدور مراسيم بأقصاء (أهل الذمة) عن الوظائف العامة ، ولكن تجدد مثل هذه المراسيم الخاصة بأقصاء النعميين عن الوظائف دليل على أن مثل هذه الأساليب التي تنطوي على التعصب لم تكن موضع موضع التنفيذ مما دعا إلى تكرار إصدارها ، والحق أنه يمكن أن تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام إلى سخط شائع آثاره السلوك الحشن المتعجرف ، الذي يسلكه الموظفون المسيحيون ، وقد آثار آخره هؤلاء السلاطين ما أكتشفه من أمر محاولة المسيحيين إحراق مدينة القاهرة أو إلى ثورات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة للتسامح التي تميز بها الحكم الإسلامي ،

ولكن مصير هذه الأعمال التعسفية قد آل إلى الزوال في أسرع وقت .
وعاد السير أرنولد في (صفحة ٩٧) وفسر ظروف هذا الاضطهاد
الذي « ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها في بعض الحالات
هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية في خدمة الحكومة ، من جراء
أساءة استعمال سلطتهم العالية في سلب أموال المؤمنين ومضايقاتهم ومعاملتهم
بشيء من الغلظة وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم ، وقد تقدم المسلمون
بالشكوى إلى الخليفة المنصور (٧٧٥ م) والمهدى (٧٨٥ م) والمتوكل
(٨٦١ م) والمقتدر (٩٣٢ م) وإلى كثير من خلفائهم ، كما تعرضوا أيضاً
لبعض كثير من المسلمين باستخدامهم عيونا للدولة العباسية ومطاردة اتباع
أليت الأموى الذى أقصى عن الحكم ، وفي عصر متأخر اتهم المسيحيون
في زمن الحروب الصليبية باتصالحهم بالصليبيين اتصالاً ينطوى على الخيانة ،
فجلبوا على أنفسهم قيوداً شديدة الحرج ، ليس من العدل أن نصفها بأنها
اضطهاد ديني . »

ومهما قبل عن هذه الأحداث فإنها لا تسكاد تذكر في شدتها وقسوتها
بجانب ما لاقته بعض طوائف المسيحيين من اضطهاد وغدر وقسوة على يد
أخوانهم في الدين من الطوائف الأخرى ، وأقرب الأمثلة لما نحن فيه من
بحث ، ما ذكره نفس المؤلف (ص ١٢٣) من ترجيح أقباط مصر بالحكم
الإسلامي العادل السمع الذي خلصهم من ظلم الحكم المسيحي البيزنطي
(الدولة الرومانية الشرقية) ، وكذلك تحول عدد من الجماعات والطوائف
الصليبية إلى الإسلام أثناء قيام الحروب الصليبية .

ولا يمكننا هنا أن نبرز ما ناز في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي من اضطهاد
بأكثر مما سبق ذكره من أن الحاكم كان قد بلغ في أغلب تصرفاته إلى حد
العتة حيث أدعى الألوهية ، ولأق المسلمون على يديه من القتل والتعذيب
أكثر مما لاقاه المسيحيون .

ويقول السمعاني (Tom 111 Par. 11 P.C.) حين يتحدث عن

الأسباب التي أدت إلى اضطهاد المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي «كثيراً ما أثارَت المنازعات المتبادلة بين المسيحيين أنفسهم ، وتصريحات رجال الدين وكبرياء قاذتهم ، وسلطة أقطابهم العاتية ، عاصفة من الاضطهاد ، وخاصة المجادلات بين الأطباء والكتاب بصدد السيطرة المطلقة على أمتهم » ، وفي خلال الحروب الصليبية ظلما وقع مسيحيو الشرق في تهمة العمل على ممالاة الغزوات التي قام بها إخوانهم في الدين من المسيحيين الذين وفدوا من الغرب ، وفي تركيا الحديثة ، نجد حركة استقلال اليونان ، وما أثارته هذه الحركة من العواطف الدينية في أوروبا المسيحية ، ساعدت على جعل نصيب الشعوب المسيحية الخاضعة ، أشق مما يمكن أن يكون لو أنهم لم يهتموا بالحياة وتغورهم من حاكمهم المسلم .»

وقد أوضح (دى جوبينو De Gobineau) فكرته أيضاً قوياً فيما يتعلق بمسألة تسامح الإسلام حين قال « إذا انفصلت العقيدة الدينية عن الضرورة السياسية التي ظلما تحدثت وعملت باسمها ، فإننا لا نجد دينا أكثر تسامحا ، بل يمكن أن يقال وعلى وجه التقريب ، أكثر بعداً عن الاكتراث للعقيدة الفردية من الإسلام . هذا التكوين الآلى قوى إلى حد أننا إذا استثنينا الحالات التي كان كيان الدولة الواقع في خطر يجعل الحكومات الإسلامية على اتخاذ كل الأساليب للوصول إلى توحيد العقيدة ، فقد كان التسامح إلى أقصى حد . هو القاعدة المستمدة من الأصول الإسلامية ، لا يجوز أن نقف عند ألوان القسوة والعنف اللذين ارتكبا في أية مناسبة ، وإذا نظرنا إليها عن قرب ، لن نتردد في معرفة أن أسبابها كانت سياسية مجضة أو راجعة إلى الأهواء البشرية ، أو المزاج المسيطر على الحاكم .»

(١) (A. de Gobineau I P., P. 24 - 25)

* * *

(١) ص ٦٢ الدعوة إلى الاسلام لـ «توماس ارنولد» — ترجمة د. حسن إبراهيم .

ولقد ظل طريق الحج أمام الحجاج الغربيين إلى بيت المقدس مأمونة
مهداً خلال القرون ، السابع والثامن والتاسع والعاشر ، عبر البلاد الإسلامية ،
الأمر الذي أدى بالملك شرملة أن يرتبط بصداقة الخليفة هرون الرشيد ،
ويعتبره نصيره وسنده ضد الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطية) ،
في الوقت الذي كان شرملة على عداوة مستحكم مع المسلمين في أسبانيا^(١) .

* * *

الحروب الصليبية - وأسبابها المباشرة :

وفدت إلى البلاد العربية طوائف من مهاجري الأتراك السلجوقيين ،
وسرعان ما اعتنقوا الإسلام ودخلوا في خدمة الخلفاء العباسيين في بغداد ،
وتحت تأثير الظروف هؤلاء السلجوقيين بحيث أصبحوا في عتقوان قوتهم ،
عندما ضعفت الدولة العباسية ، وصارت لهم السيطرة الحقيقية على سورية ،
وبدأت في هذه الفترة معاملة هؤلاء الأتراك القاسية لسكان البلاد ولا فواج
الحجاج المسيحيين ، وكانوا أقل تسامحاً من العرب ويتصفون بالقسوة والغلبة ،
فجادلوا النصارى للمرة الأولى في حق المرور وسط البلاد الإسلامية بلا
إذن ، وأكروه الحجاج على دخول القدس بخشوع بدلاً من أن يسمحوا
لهم بدخولها على صوت الصنوج وضوء المشاعل ، كما كان العرب يسمحون به ،
وأخذوا يحملونهم على دفع الفدية غير تاركين وسيلة لإيذائهم إلا أنوها^(٢) .

وفي إحدى هذه الرحلات ، وفي هذه الفترة الشاذة في تاريخ العلاقات
الطويلة السمحة ، جاء في إحدى قوافل الحجاج قسيس يدعى بطرس
الناسك^(٣) ، وامتلاً غيظاً عارياً ومن سوء ما عومل به في فلسطين ، وتحيل
أنه مرسل لدعوة أوروبا إلى إيجاد الأراضى المقدسة ، وتوجه إلى روما
واستجد بالبابا (أوربان الثاني) الذي حمل الرسالة وصار يحجب بلاد إيطاليا

(١) صفحة ٨١ "Islam and the Arabs" by Rom Landau

(٢) حضارة العرب لوفستاف لويون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر (٣٢١) .

(٣) نفس المصدر ص ٣٢٢ ؛

وفرنسا ويلقى الخطب النارية (ووعده الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة) وتوالى المؤثرات وارتفعت الشعارات وترددت في جميع أنحاء أوروبا، وأصاب القوم نوبة حادة من الجنون أخذت تزداد يوما بعد يوم، وبدأوا زحفهم خلال الأناضول وآسيا الصغرى مرتكبين في طريقهم أشنع الجرائم وأبشع الأعمال الوحشية، التي كانت السبب في أبادتهم على أيدي الأتراك قبل أن يصل هذا الفوج الأول إلى الأراضي المقدسة وهلك من هذا الجيش الأول مئات الألوف .

وتوالى بعد ذلك الحملات المنظمة وتبادل ملوك أوروبا قيادة تلك الجيوش وعلى الأخص ملوك فرنسا الذين قاموا بالجانب الأكبر من الحروب الصليبية .

* * *

ومن الغريب أن تلك الفترة الشاذة في تاريخ هذه المنطقة والتي انفردت باضطهاد الحجاج النصارى ، كانت قد انتهت وعادت البلاد إلى سلطان مصر وزالت أسباب الشكوى ، وعادت الأمور إلى حالتها السلبية الأولى ، ولكن الصليبيين وقد استعدوا في هذه المرة بجيش كامل العدة والذخيرة وقوامه مليون جندي ، أبي إلا أن يندفع تحت حماسة العصبية الدينية التي اندلع لهايبها ليخلص القدس وفلسطين من حكم المسلمين ، فاستولوا على بيت المقدس في ١٥ يولية عام ١٠٩٩ م .

وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر ابن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون ، قال كاهن مدينة اليرموك « ريموند واجيل » حدث أمر عجيب للعرب عندما استولى قوما على أنشوار القدس وبروجها ، فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيهم ، وبقرت بطون بعضهم . فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحرق بعضهم في النار ، فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكفاس من رؤوس

العرب وأيديهم وأرجلهم . فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا ، وروى ذلك الكاهن خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر وقال في ذلك الوصف التالي - « لقد أفرط قومنا في سفك الدماء . في هيكल سليمان وكانت جثث القتلى تسيح في الساحة هنا وهناك ، وكانت الأيدي والأذرع المبنورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها ، وقام الفرسان الصليبيون بعد ذلك بآبادة جميع سكان القدس ، فأفنؤهم عن بكرة أبيهم في ثمانية أيام » .

* * *

وبلغت المسيحية الغربية أوجها في الحروب الصليبية الأولى (١٠٩٥ / ١٠٩٩) على حساب الاسلام - وأقامت سلسلة من الامارات المسيحية في سوريا تمتد من انطاكية وأورفة حتى بيت المقدس والعقبة (على رأس خليج العقبة الذي يؤدي إلى البحر الأحمر ^(١)) .

وفي عام ١١٤٤ بدأت قوة المسلمين في الظهور وكان ذلك أبان الحملة الصليبية الثانية التي بدأت من فرنسا أيضا واشتركت فيها ألمانيا ولكنها منيت بالفشل وقضى عليها الأولى في آسيا الصغرى . أثناء مرورها بها .

وما أن جاء عام ١١٨٧ حتى كانت الدولة المسيحية مقتصرة على موانئ انطاكية وطرابلس وصور ، وقامت لنصرتها الحملة الصليبية الثالثة المؤلفة من الجيوش الفرنسية والألمانية والانجليزية ، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد وطلد أقدامه في مصر وجزيرة العرب والعراق ودخل سوريا في ١١٨٧ واسترد بيت المقدس ، وتم طرد الصليبيين منها .

ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل بالصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش فيبيدهم عن بكرة أبيهم ، بل اكتفى بفرض جزية طفيقة عليهم مانعاً سلب شيء منهم .

(١) مختصر دراسة التاريخ لارنولد توينبي - ترجمة الأستاذ فؤاد شيل (ص ٢٥١) .
(٧ - الحبيشة)

ويمكن صلاح الدين من الانتصار على جيوش الدول الثلاث التي تكونت منها الحملة الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢) وكان سلوكه خلالها مثالا للشهامة والساحة وكرم الأخلاق بقدر ما تميزت أخلاق الصليبيين بالشراسة كما بدأ من (ريشارد قلب الأسد ملك الانجليز) عندما قتل ثلاثة آلاف أسير مسلم سلبوا أنفسهم إليه بعد ما قطع عهدا بحسن دمائهم،^(١)

* * *

تتابعت بعد ذلك الحملات الصليبية واحدة بعد الأخرى وبات جميعها بالفشل ولم تتمكن من استرداد القدس وانتهت بالحملة الثامنة في عام ١٢٧٠ التي هزمت . أمام السلطان بيبرس ، وانتهى عهد الصليبيين باستيلاء الناصر قلاوون على طرابلس في ١٢٨٩ واستيلاء ولده خليل على عكا سنة ١٢٩٠ ولم يحدث بعدها إلا تلك المحاولة التي قامت بها قبرص ونقضت المعاهدات . وأغارت على الاسكندرية ١٣٦٥م ، ثم على طرابلس الشام في ١٣٦٧ ولقد كانت أثناء ذلك مأوى للصليبيين ومركزا للقراصنة الذين يتعرضون للسفن العربية ، مما حفز مصر على الانتقام واستولت على قبرص في عام ١٤٢٦ -

نتائج الحروب الصليبية وآثارها :

ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد العالم عدم التسامح عندة قرون ، وأن صبغته بما لم تعرفه ديانة — خلا اليهودية — بصفة القسوة والجور ، أجل كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير عن عدم التسامح ، ولكنه ندر أن كان عدم التسامح هذا يصل إلى حد الغدر والطغيان ، وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغا من الحيا الشديدة في الحروب الصليبية ما لا يزال العالم يقامى أثره إلى زماننا هذا ^(٢)

(١) حضارة العرب لفوستاف لوبون (ص ٣٢٠)

(٢) حضارة العرب لفوستاف لوبون (ص ٣٣٤)

استمرت الحروب الصليبية الأصلية مدة قرنين من الزمان ، تبعها فترة مساوية أخرى من العداوة والحقن اللتين انطوت عليهما نفوس الدول الأوروبية المسيحية ، لعدم توفيقها رغم مجهوداتها الفائقة ، ثم تأصلت بعد ذلك في نفوسهم كراهية وترصص للعالم الاسلامي تنتقل من الوالد إلى ولده جيلًا بعد جيل بلا انقطاع .

ومهما قيل من أن الحروب الصليبية قد اتخذت طابعاً اقتصادياً أو استعماريًا أو وسيلة للزبد من النفوذ السياسي وما إلى ذلك مما يذهب إليه كثير من المؤرخين ويدللون عليه بحادثة من هنا وتحليل من هناك ، فإن الحروب الصليبية وما أعقبها من تعصب ديني لا يزال فعالاً إلى الوقت الحاضر ، ما هي إلا استجابة مستمرة لطوال الزمن لتلك الصيحة المنعصبة الأولى التي صاح بها البابا أوربان الثاني : « أتم فرسان أقياء وليكنكم تنطاحون وتتناهبون فيما بينكم ، ولكن تعالوا وحاربوا الكفار ، يامن تناهتكم اتحدوا ، يامن كنتم لصوصاً كونوا جنوداً ، تقدموا للدفاع عن المسيح لاتمنعكم عراقيل ، ولا تليكم نساؤكم ولا أولادكم ولا أموالكم عن القتال في سبيل الله تقدموا إلى بيت المقدس ، انزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم وهي تدرسمنا وعسلاً ، لأنكم إذا انتصرتكم على عدوكم ورتم ممالك الشرق ، وإن خذلتم فستقضون حيث مات يسوع فتخلدون في النعيم الدائم »^(١)

تلك الصيحة التي ملأت العالم بالشرور والآثام ، وقضت على التسامح الديني لازالت راسخة في قلوب نصارى أوروبا ، وامتدت منها إلى جميع الشعوب النصرانية التي أجمعت على عداوة الإسلام ، وروح هذا العداوة متمثلة بمجد جميع الشعوب جهداً خفياً مستترا متوالياً لا يفتر لسحق الاسلام سحقاً ، وتأخذ النصرانية مشاعر كل مسلم بصورة الهزء والسخرية والعبث والازدراء وأن ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصباً مذموماً محرماً ، هو عندهم في

(١) مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية لمحمد صبيح (ص ٢٢٤) .

ببلادهم وأوطانهم العنصرية الجنسية المباركة والقومية المقدسة - والوطنية المعبودة ^(١) وقال مستر جلاستون رئيس وزراء بريطانيا الأسبق - «بوجوب إعدام القرآن وتطوير أوروبا من المسلمين» وقال لورد سالسبوري البريطاني أيضاً «بوجوب إعادة ما أخذه الهلال من الصليب للصليب دون العكس» .

ولقد تعمد اللبني القائد البريطاني في نهاية الحرب العالمية الأولى عند دخوله القدس عام ١٩١٧ أن يقول (الآن فقط انتهت الحروب الصليبية) وتلاه القائد الفرنسي عند دخوله دمشق الذي جعل همه الأول أن يزور نهر صلاح الدين الأيوبي لكي يقول (هاقد عدنا باصلاح الدين) .

* * *

تلة أخيرة قالها قائد بريطاني يعمل في خدمة الحكومة المصرية وهو الجنرال غوردون ساكن السودان الذي كتب لأخته (ص ١٥٥ من رسائل غوردون) عندما أصدر يوحنا امبراطور الحبشة أمره بتنصيب جميع المسلمين (أن يوحنا - وبالعجب - يشبهني تعصباً للدين ، وله رسالة سينجزها ، وهي تنصيب جميع المسلمين) ^(٢)

ولعل في هذه القصة الأخيرة ما يثبت للقارىء مدى ارتباط الحوادث التاريخية بعضها ببعض ، ومدى ما أحدثته الحروب الصليبية في العالم من إشاعة التحصب الديني ضد المسلمين والعرب ، من أثر على تاريخ الحبشة ، وما سوف تتعرض له من أحداث ، التي لا يمكن أن يكون حدوثها في نفس الوقت واستطرادها بعد ذلك من قبيل الصدف .

(١) يوم الاسلام للاستاذ أحمد أمين (ص ١١٠) .

(٢) الاسلام في القرن العشرين لنباس محمود العقاد (ص ٩١) .

منذ أن قام صلاح الدين الأيوبي بمواجهة الجيوش الصليبية ومصر تتحمل الجانب الأكبر من متطلبات هذه الحروب من رجال وعتاد ، واستمرت في كفاحها طوال تلك الحروب وخلال عهود السلاطين المختلفة على هذه الحال ، حتى أنه عندما هدأت الحروب في أرض الشام بدأ الصليبيون في غارتهم على مصر ووجهوا حملتهم الرابعة على مصر عام ١٢٠١ وكذلك حملتهم الخامسة على مصر عام ١٢٤٨ تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وظلت العلاقات متوترة وفي حالة ترقص وتحفز مايقارب قرنين من الزمان ، امتدت إلى الوقت الذي هاجمت فيه قبرص مدينة الإسكندرية وضربتها عام ١٣٦٥ واضطرار مصر إلى الهجوم على قبرص والاستيلاء عليها عام ١٤٢٦ .

* * *

علاقة الحبشة بالحروب الصليبية :

ولا يمكن أن تمر تلك التجارب الميرة والحروب التي استنفذت مجهودا شاقا من مصر وملوكها دون أن تؤثر في أعصاب الدولة الإسلامية ، وكان من الممكن أن يقوم المصريون والسوريون بما قام به الصليبيون من إقامة المذابح والتفنن في وسائل التعذيب والاضطهاد ولكن بما يدعو إلى الفخر أن ماتعرض له الأقباط في تلك الفترة العصيبة من الاضطهاد لا يكاد يذكر أو يقارن بماحدث فيما تشابه مع تلك الظروف في دول أخرى في العالم .

* * *

ولقد كانت الحبشة خلال تلك الفترة في أشد الأوقات حاجة إلى معونه الكنيسة المصرية لتثبيت أقدام المملكة المسيحية ، وبالرغم من ذلك فإن المملكة المسيحية وجهت حملاتها على الدول الإسلامية الحديثة العهد بالحبشة وكلما قويت شوكة المملكة كلما أمنت في فرض سلطانها على تلك الدول الناشئة وفرضت عليها الاتاوات ، وكل ما يؤكد تبعيتها لملك الحبشة .

وفي تلك الأثناء وقعت في مصر تلك الحوادث المؤسفة التي يعدها بعض المؤرخين ضمن مظاهر الاضطهاد الديني في مصر ، ولقد سبق أن ذكرنا بعضها منها ، وذكرنا أيضا أن أسبابها كانت تعود إلى أساءة كبار المسيحيين للسلطات التي منحتها لهم الدولة (راجع الصفحات ٨٤-٩٤-١٢٣-١٢٨-١٢٢) من كتاب الدعوة للإسلام للسير توماس ارنولد) - مما يفيد بأن أغلب تلك الحوادث كانت ردا على سوء تصرف أو عقابا على سوء استعمال السلطة ، ولم تكن نابعة من تعصب ديني ، وأنها بالرغم من ذلك تنضال أمام مآشده العالم من اضطهاد ديني في غير الدول الإسلامية ، ولأسباب سطحية تافهة لا تقارن بما كان يتعرض له المسلمون ، كما أن هذه الصفحات نفسها تسجل ما كان يلقاه أقباط مصر من تسامح وتكريم واعزاز عندما تستقيم أمورهم بالتعاون مع الحكومة ، وأبناء وطنهم .

* * *

ولم تكن مملكة الحبشة غافلة عن مجرى الأحداث في أثناء الحروب الصليبية ، بل كانت معنية بها تتابع أحداثها ولكنها كانت بعيدة عنها لبعد المسافة وتعذر الوسائل التي تمكنها من تقديم المعونة للصليبيين ، وانشغالها في هذه الأثناء في حروبها الداخلية وقلقها على كيان دولتها وشغلها الشاغل بتثبيت أقدامها إزاء الزحف الإسلامي ونفوذه الذي يقسح رويدا رويدا . ولقد حاول بعض الكتاب أن يسدل ستارا على العلاقة الوثيقة التي كانت بين الحبشة وبين الحروب الصليبية ودول غرب أوروبا المسيحية ، بل عد البعض إلى الإيحاء بأن أوروبا لم تكن تعلم بوجود مملكة مسيحية في قلب أفريقيا ، وأن سلاطين الماليك في مصر كانوا يعملون على أن تظل أخبار تلك المملكة المسيحية مجهولة لدى الدول الأوروبية ، حتى لا ينتهزوا

الفرصة، ويتحالفوا معها للقضاء على مصر بالهجوم عليها من الشمال ومن الجنوب .

وحقيقة الأمر أن الحبشة كانت على اتصال وثيق بالحروب الصليبية والدول المسيحية في أوروبا طوال تلك الفترة العصبية من تاريخ العالم الاسلامي وبعدها ، يؤيد ذلك ما جاء في كتاب الحروب الصليبية الجزء الثاني ص ٩٦٥ للدكتور سعيد عاشور نقلا عن «كوليو» (ولم يفت الصليبيون كذلك أن يتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليتعاون معهم في حرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة^(١) (١٢١٨م))

ولقد بحث الصليبيون عن حليف يقطع طريق البحر الاحمر من الجنوب فلم يكن هناك أفضل من دولة الحبشة المسيحية ليحالفوها ويعتمدوا عليها . لذلك حرصت البابوية منذ أوائل القرن الرابع عشر بالذات على تقوية صلتها بالحبشة ، فقام وليم آدم - الراهب الدومنيكاني (١٣٠٥) برحلة طويلة زار فيها شرق افريقية والحبشة ثم عاد في ١٣١٦ م^(٢) ، أوفى تلك السنة أرسل البابا يوحنا الثاني والعشرين سفارة من الدومنيكان إلى الحبشة ولكن رجالها وقعوا في قبضة المماليك في مصر ، كذلك كان مصير سفارة أخرى من الدومنيكان أرسلها ملك فرنسا إلى الحبشة عام ١٢٢٨ م^(٣)

ويبدو أن تلك الاتصالات المتكررة بين الغرب الأوربي من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى ، نجحت في استئثار ملوك الحبشة ضد

(١) Coulbeaux : Hist. D'Abysinie Part 2 ص ٢٦٦ ، ٢٦٥

(٢) The Crusades of the Middle Ages by A.S. Atya ١٦٢-١٦١ ص

(٣) Krammer : La Mer Rouge I ص ٢٩٤

ومضعة ١٢٠٩ - الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور .

المسلمين وفي جذبهم إلى داخل مجال الحرب الصليبية ، ومن ذلك ما ذكره لاوركيير La Borquiere من أن ملك الحبشة أسرع عندما بلغه نبأ اغارة بطرس لوزنجان ملك قبرص على الاسكندرية في عام ١٣٦٥ إلى اعداد جيش ضخم من ثلاثة ملايين ٩٩ وزحف على رأسهم شمالا لمهاجمة دولة المماليك من الجنوب ، ولكنه لم يكد يقترب من تلك الحدود حتى علم بانسحاب بطرس لوزنجان من الاسكندرية فقفل راجعا إلى بلاده بعد أن خسر في تلك العملية زهاء مليونين من الرجال ، — وعلى الرغم مما في هذه الارقام من مبالغه واضحة في العدد وفي التوقيت لأن بطرس لوزنجان لم يبق بالاسكندرية أكثر من ثمانية أيام ، فإن الخبر نفسه يشير إلى وجود اتصالات بين ملكي قبرص والحبشة بقصد كبس دولة المماليك من الشمال والجنوب ^(١) ثم كان أن فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ — ١٤٢٩) في القيام بحركة ضليبية كبرى ضد المماليك في مصر وأرسل مندوبا إلى ملوك أوروبا بذلك وقبض على مندوبه عند عودته ومروره بمصر — كما سيأتي ذكره فيما بعد .

وبالرغم من الصعوبات العملية التي تجعل اشتراك الحبشة في الحروب الصليبية بجانب الأوربيين ، فإن فكرة استغلال الحبشة في القيام بعمل حربي ضد المماليك ظلت ماثلة في أذهان أصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوروبا حتى أواخر القرن الخامس عشر ومن ذلك أنه حدث عام ١٤٥٢ م أي قبيل سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين أن كتب حنا جيرمان . Jean German تقريراً لانقاذ شرق أوروبا من توسع العثمانيين المسلمين ، أشار فيه إلى أن البابا نجح في مجمع فلورنسا (١٤٢٩ م) في إصلاح ذات البين بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وأن هذا من شأنه أن يجعل من الممكن أن يؤلف المسيحيون الشرقيون — ومن جملتهم « يعاقبة الحبشة » جبهة قوية في وجه المسلمين ^(٢)

(١) ص ١٢٠٩ — الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور .

A.S Ariya

(٢) ص ٢٠٧

ولقد ظل الفشل حليف جميع تلك المجهودات المسيحية إلى أن نجح فاسكو دى جاما البرتغالى فى كشف طريق الرجاء الصالح حول أفريقيا (١٤٩٧ - ١٤٩٩م) مما جاء بمثابة الضربة القاضية لدولة الممالك ، وسرعان ماظهر أثر ذلك وتعاون الأحياش والبرتغاليون ضد الممالك المسلمين . وسوف نرى فيما يلى من أنباء ملوك الحبشة كيف كان اتصالهم بالدول المسيحية مستمرا بقصد القضاء على الدول الاسلامية .

«وبلاحظ أن هذه المشروعات الصليبية الخاصة باشتراك الأحياش مع الأوروبيين جاءت مصحوبة بفكرة أخرى نادى بها دعاة الحروب الصليبية طويلا ، هو تجويع مصر والقضاء على من فيها بتحويل مجرى النيل فى الحبشة . . وقد أشار فيليب دى ميزير صاحب المشروع الصليبي الكبير فى القرن الرابع عشر - إلى إمكان تنفيذ مشروع تحويل مجرى النيل للقضاء على دولة الممالك قضاء تاما ، وظلت هذه الفكرة تراود المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ، فأرسل الفونس الخامس ملك أراجونه إلى ملك الحبشة عام ١٤٥٠ يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من الجنوب ، وفى الوقت الذى يقوم الفونس نفسه بغزو بيت المقدس وفلسطين^(١) - ولما اشتد النزاع بين الممالك والبرتغاليين عقب كشف طريق الرجاء الصالح أرسل البوكرك - قائد الأسطول البرتغالى - إلى ملك البرتغال يطلب امداده بعدد كبير من العمال المدربين على قطع الصخور وحفر الأرض للعمل فورا على تحويل مجرى النيل ، مما يدل على اعتقاد الأوروبيين والأحياش جميعا فى إمكان تنفيذ المشروع^(٢) .

الفصل السابع

الأسرة السلجانية

والصراع مع الإسلام

(من أوائل القرن الثالث عشر إلى أوائل القرن السادس عشر)

عند انتهاء عهد ملوك الأيوبيين وارتقاء الملك ويكونو أملاك Yekono Amlak عرش الحبشة بدأ عهد الأسرة السلجانية ، تلك الأسرة التي تروى الأساطير أنها تنحدر من نسل سليمان بن داوود عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ (ما كيدا الحبشية) كما سبق ذكره . و « يكونو أملاك » ليس اسما وإنما جملة تعني (سوف يكون ملكا -- وهي قريبة من العربية كما هو واضح -- ويبدو أن هذه الكلمات نطق بها القديس تكلاهيمانوت عندما زعم أنه نزل عليه الوحي لينجح العرش إلى الأسرة السلجانية) فصارت عليه علما⁽¹⁾

ولقد لعبت الكنيسة دورا هاما في إنهاء عهد الأيوبيين وعملت على تسنم « يكونو أملاك » للعرس وكان على رأس رجال الدين الأب « تكلاهيمانوت Takla Haymanot السالف الذكر ، كان الاعتقاد السائد أن انتقال الملك من الأسرة الأيوبية إلى الأسرة السلجانية حدث بعد اتفاق سلمي مهدت له الكنيسة إلا أن الوثيقة العربية التي سبق ذكرها « عن روسيني » تبين أن الملك يكونو أملاك « جهر جيشا من عدة ولايات هزم به الأسرة الأيوبية » ، والثابت في كثير من الروايات أن الكنيسة ورجال الدين كان لهما الفضل الأكبر في انتصار الملك الجديد واستتباب الأمر للأسرة السلجانية .

(1) والاسم الحقيقي للملك هو تسفا راساس

(1) ص ٢٧٤ س. ب. ج. Budge

ويبدأ عهد هذه الأسرة في عام (١٢٧٠م) ومنذ ذلك التاريخ تتعدد المراجع التاريخية التي توضح الكثير من تسلسل الأحداث في شكل لا بأس به من الدقة والوضوح وأول ما حدث من الأمور الهامة هو أن الإمبراطور « يكونو أملاك » عرفانا منه بفضل الكنيسة على نصرته وتثبيتته على العرش وهب الكنيسة ورجال الدين ثلث أراضي الدولة للصرف على أمور الدين ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكنيسة أكبر مالك في الدولة ولديها من الموارد الثابتة ما جعل منها قوة هائلة ، ومهد لها السبيل لانتشار سلطانها ونشاطها ، والمتصرف الوحيد في هذه الأملاك وذلك الاقطاع هو المطران ، بصفته الراعى الأكبر لرجال الدين .

ومنذ ذلك الحين أيضا ازداد اعتماد الأباطرة على رجال الدين ، ولم يكن من الممكن بقاء مركز المطران شاغرا فترات طويلة ، لذلك عمد الأباطرة إلى الكتابة إلى سلاطين مصر وإيفاد الرسل إليهم ، للسباح لبطريك الاسكندرية باختيار المطارنة وإرسالهم إلى الحبشة في أقصر وقت يمكن ،

• • •

وكان لاستتباب الأمر للملك الحبشة على هذه الصورة أثر كبير في مجريات التاريخ في البلاد ، إذ أن هؤلاء الملوك أخذوا يعززون مراكزهم في مملكتهم على هضبة الحبشة بالصورة التي تمكنهم من الصمود أمام المد الإسلامي الذي أخذ يطرق أبوابهم ، وعلى الأخص من سلطته إيفات الإسلامية ، التي زحفت على مقاطعة شوا وحلت محل السلطنة المخزومية السابقة .

وسرعان ما بدأ الصراع بين الممالك المسيحية والإسلامية ، الذي اتخذ حظها سياسيا بجانب الدوافع الدينية .

وبالرغم من مرور ما يقرب من تسعة قرون على دخول المسيحية إلى الحبشة فإن غالبية الشعب الذي يسكن الهضبة كانت لاتزال وثنية حتى القرن

الثالث عشر ، لذلك كان تنصير هؤلاء الوثنيين أمم واجب وضعت الكنيسة والأسرة الحاكمة نصب أعينها ، حتى يوحدوا البلاد تحت لواء ديني واحد يمكنهم من الوقوف أمام الزحف الاسلامي .

لذلك بدأت حركة تبشير واسعة بين القبائل يترعها الأب تكلاهيا نوت ولقد رفعه الاحباش إلى مرتبة القديسين وبنوا له ديرا عظيما في (دبرا لبيانوس) ولقد كان نجاح هذه الحملة التبشيرية عظيما ، واعتمدت في نجاحها على جميع مانيسر لها من نفوذ ، فبالاضافة إلى ما كان لرجال الدين من حماية ونشاط فقد استعانوا بسلطة الامبراطور ، وبالأموال التي آلت إليهم بعد أن منحهم الامبراطور تلك أملاك الدولة .

السلطنات الاسلامية :

وأينا فيما سبق كيف كانت المسيحية تتقدم في بلاد الهضبة الحشبية المرتفعة بينما كان الاسلام يمتد في خطوات واسعة وسريعة من المناطق الساحلية إلى داخل البلاد متغلغلا في الأقاليم الجنوبية ، وامتدت بذلك سلسلة من السلطنات من البحر الأحمر إلى منطقة البحيرات . وشمل نفوذها الجانب الأكبر من إقليم شوا .

• ولو اتيج لهذه السلطنات الاسلامية أن تتحد في ذلك الوقت ، لأصبحت خطرا يهدد بقاء الدولة المسيحية ، التي كانت تعاني من قبائل الأجاو الوثنية التي تحيط بها وتتغلغل داخلها ، منحصنة في مواقعها الطبيعية المنيعه (١)

ومن أم تلك السلطنات الاسلامية شانا — سلطنة (هدية Hadya) التي تملكت في أقصى الجنوب ، لذلك كانت أكثر السلطنات نشاطا في تجارة الرقيق ، ثم سلطنة (فتاجار Fatajar) التي تقع في جنوب مقاطعة شوا ، ثم أم تلك السلطنات وأكبرها وهي (ايفات Ifat) التي سبق ذكرها ،

(١) الاسلام في اثيوبيا لترمجهام ص ٦٦ . وكذلك ما جاء في الفصل الرابع من عبد الله الزيلعي .

وكانت تسيطر على مساحة شاسعة من الدولة تبدأ من ساحل البحر الأحمر إلى قلب الحبشة شاملة لاقليم شوا الشرق ، وبذلك كانت تسيطر سلطنة أيفات على طرق التجارة التي تربط داخل البلاد بميناء زيلع ، ولقد سبق أن جاء ذكر هذه السلطنة في كتابات المؤرخين القدامى تحت اسم (ولاشما Walashma) في بعض العصور ، وأطلق عليها المؤرخون العرب أيضا اسم (جبرة Jebara) ثم اسم (جبرت Jabarta) وهذا الاسم حبشى الأصل (أجبرت بمعنى عباد الله ، وهى جمع مفرد لها جبر أى عبد ، والنسبة إليها جبرى - وهو الاسم المتداول والذي ينسب إليه الجبرى المؤرخ الشهير ^(١))

وكتب المقرئى أن الولاشما يزعمون أنهم من أصل عربى - قدموا من الحجاز واستقروا فى (جبرت) ، وأن أحدهم يقال له (لاشما) عينه النجاشى محافظا على مدينة أوفات وماحولها واستمر الحكم فى الأسرة حتى (١٤٤٥ م) ويقول البعض أن اسمه أصبح علما على المنطقة التى اشتقت اسمها من اسمه .

وكانت سلطنة أيفات تشمل أيضا امارات مورا و (عدل Adal) .

* * *

و أما الممالك الإسلامية الأخرى فكانت إلى الجنوب من أيفات وتقع فى أقاليم سيداما وأهمها مملكة دوارو وبالى ، وكانت تسكنها قبائل السيداما ومعها قبائل الجالا إلى الجنوب . وإلى الشرق منهما تقع مدينة هرر وهى مدينة يرجع عهدها إلى العصور القديمة وينسب انشاؤها إما إلى القبائل السامية أو العرب الذين هاجروا إلى الشاطئ الأفريقى ، وذلك لأن أهل هذه المدينة يتكلمون إلى الآن لهجة سامية .

(١) ص ١٠٦ بين الحبشة والعرب تأليف الدكتور عبد الحميد هابدين .

ولقد اعتنق أهل هرر الإسلام فأصبحت هذه المدينة مركزا تجاريا هاما ومصدرا لاشعاع الدعوة الاسلامية .

° ° °

وكانت هذه المناطق تعرف عند الكتاب المصريين والسوريين باسم بلاد الزيلع بالرغم من أن زيلع مدينة واحدة فيها ، وهناك غيرها من المدن التي اشتهرت على الساحل مثل مقديشو . (نرجو مراجعة ماجاء في الفصل الرابع من وصف القلقشندي لهذه الممالك الاسلامية) .

° ° °

ومما سبق يتضح أن الممالك الاسلامية كانت أكثر اتساعا من المملكة المسيحية ، وعلاوة على ذلك كان الحكام المسلمون قد وطدوا صلاتهم مع قبائل الاجاو النانويين لمملكة الحبشة . ولكن المملكة المسيحية تمكنت في صراعها المقبل مع المسلمين من الانتفاع من قدرتها على الحركة على خطوطها الداخلية القصيرة ، في الوقت الذي كان المسلمون منتشرين في مساحات شاسعة رديئة المواصلات ، تنخلها في كثير من الأماكن قبائل البدو ، لذلك كان نظام المسلمين مضطربا وتعبئة المحاربين عسيرة مما جعل مقاومتهم ضئيلة وعرضة للاهيار المفاجيء .

ولقد كانت سلطنة ايفات في طور التكوين والتنظيم ، وكانت تشكل خطرا كبيرا لو أتمها فكرت في المباداة ، ولكنها فوجئت بهجوم شامل من الجيوش الحبشية التي شياها الامبراطور عمداسيون ، الذي لم يترك لها الفرصة لجمع شملها بما اضطرها الى التسليم ، وبذلك فتح الباب للانتصار على السلطنات الأخرى واحدة بعد الأخرى .

° ° °

ولم يكن هذا الانتصار على ايفات حاسما ، إذ استمرت القوات الاسلامية في حروب ومناوشات ، تكسب معركة وتخسر أخرى ، حتى أخذ الموقف

يتغير عندما أصبحت هرر القاعدة الإسلامية الرئيسية ، إذ أصبح الأجاش عندئذ بعيدين عن قواعدهم فوق الهضبة ، وكانت هرر قد أصبحت على صلة تامة بقبائل (عفار Afar) والصومال التي تنوق إلى الحرب لتوسيع سلطانها ، وبذلك تحولت المبادأة والحملات الهجومية إلى القوات الإسلامية.
(المنظمة)^(١)

* * *

المناطق الإسلامية داخل المملكة المسيحية :

إضافة إلى تلك الممالك الإسلامية التي امتدت وتوغلت إلى داخل الحبشة وأحاطت بالهضبة الحبشية واستولت على إقليم شوا ، فإن كثيرا من المسلمين قد توغلوا في الهضبة المسيحية نفسها وكونوا عددا من المستعمرات التي انتشرت في مختلف بقاع الهضبة ، ولقد جاء ذكر ذلك في (تاريخ بطارقة الاسكندرية) وكذلك من شواهد القبور التي عثر عليها في شمال مقاطعة تيجرى والتي يرجع أحدها إلى (٨ ذو القعدة ٣٩٦ هجرية - أي ١٦ أغسطس ١٠٠٦) .

ولقد ذكر أبو صالح (١١٧٠ - ١٢٢٠ م) أن بمملكة الحبشة كثيرا من المسلمين في الأعوام الأولى من القرن الثالث عشر ، وكان على كل مسلم أن يدفع نوعا خاصا من الضريبة .

ولقد كانت الكنيسة أثناء الصراع مع الاسلام تتعرض للحرارة ، لاضطرابها أثناء عهود ضعفها إلى تأييد الاسلام ، فكانت تضطر الكنيسة القبطية في مصر أن تدعن لرعية سلطان مصر بتعيين المطران الذي يتعهد برعاية مصالح الإسلام في الحبشة ، ومن أمثلة ذلك تدخل بدر الجمالي - وزير المنتصر بالله - (١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) في تعيين مطران معين غير ذلك الذي

أختاره البطريك ، وعندما وصل هذا المطران إلى الحبشة عمل على تنفيذ ما واعد به الوزير بتشجيع بناء المساجد ، مما أثار عليه المسيحيين واضطر لتبرير أعماله بأن المساجد إنما تبنى ليستعملها التجار العرب وهي بذلك لا تفي شيئا ، بينما قد يؤدي رفض إقامتها إلى اضطهاد الأقباط في مصر ، ولكن كراهية هذا المطران بلغت الحد الذي أدى بالملك إلى وضعه في السجن ، وقام بتدمير المساجد السبعة التي كانت قد تم بناؤها .

وأعقب ذلك وضع القيود على نشاط التجار المسلمين مما دفع مصر إلى اتخاذ إجراءات مماثلة وتسبب عن ذلك قطع العلاقات بين الدولتين (١)

° ° °

علاقة سلاطين مصر بالحبشة :

شرحنا فيما سبق تلك العلاقة التي قامت بين مصر والحبشة ، وتبعية المسيحيين في الحبشة لكنيسة الاسكندرية ، وأهمية المطران المصرى الذى يوفيه بطريك الاسكندرية ليرأس كنيسة الحبشة ، وخطورة مركز المطران المصرى ونفوذه وما يتمتع به من سلطان روحى على الدولة واعتماد الامبراطور فى كسب طاعة الشعب على تأييد المطران ومن معه من رجال الدين . الذين بلغوا شأنا عظيما حتى أصبحت الكنيسة منبعا للقوة ، وازداد أثرها فى القرن الثالث عشر ، فعملت على نشر المسيحية بين الوثنيين المنتشرين فى المملكة المسيحية وجمع الكلمة حول الامبراطور للتمكن من الوقوف أمام الزحف الاسلامى .

وكذلك تكلمنا فى فصل سابق عن الحروب الصليبية التى جردتها الدول المسيحية فى أوروبا بغية القضاء على الإسلام ، وكيف اصطلت الشام ومصر بنارها بضعة قرون شملت ذلك العهد الذى تسكلم عنه الآن من تاريخ الحبشة .

لقد عدنا إلى التذكير بهذه الأمور في اختصار ، لأن المرحلة التي نمر بها الآن ، في الكتابة عن تاريخ الحبشة ، تمثل البداية الحقيقية لسلسلة متتابعة من الاضطهاد الديني من الطرفين .

* * *

لا يمكن أن يمر الإنسان بمرحلة الحروب الصليبية التي أشعل نارها التعصب الديني البغيض ، وما حدث خلالها من قسوة وفك بالأموال والأرواح . وتلك الحملات التي أخذت تتوالى على البلاد الإسلامية واحدة بعد الأخرى ، لا يمكن أن يمر الإنسان بكل ذلك مر الكرام كأنما يتابع قصة من القصص العابرة .

لا شك في أنه كان لتلك الحملات أسوأ الأثر في نفوس المسلمين شعوبا وحكاما ، ولا شك أيضا في أن المسلمين كانوا يعانون من تحطيم أعصابهم ، بأمرهم دينهم بالتسامح ورعاية أهل الذمة في آيات وأحاديث واضحة صريحة لاتقبل الشك أو التأويل ، بالإضافة إلى ما جلبوا عليه من النبل والشهامة ، وبين التواضع الإنسانية التي تنحرك في النفس عندما تتوالى عليهم الحروب . وتزداد الضحايا والخسائر من جراء تلك الحروب التي أشعلها الصليبيون على الاسلام ، وفي بلاد المسلمين وبين ظهرانيهم يعيش فريق كبير من المواطنين الذين يدينون بدين المهاجرين المعتدين .

لا شك في أن احتفاظ المسلمين بسماحتهم وعهدهم برعاية أهل الذمة ، يحتاج إلى قدر هائل من ضبط النفس والصبر ، ولقد تمكنوا من ذلك في غالب أوقاتهم ، حتى لقد امتلأت كتب المؤرخين من غربيين وشرقيين بالتعجب للوقف النبيل الذي وقفه المسلمون من قضية الاضطهاد الديني في ذلك الوقت الصعب . وبالرغم من ذلك فانه مما يتفق مع طبيعة الأمور ، ويتمشى مع الطبيعة البشرية . أنه لابد وأن تشدد بعض الظروف إلى الحد الذي لا يمكن معه الصبر والاحتفال ، خصوصا وأن الاسلام كما أمر بالتسامح ، أمر بـ (٨ - الحبشة)

وتوقيع الجزاء والدفاع عن الإسلام وكرامة المسلمين ، ومع ذلك فلم يلجأ المسلمون إلى معاقبة البرىء المسلم بحجارة المعتدى المذنب ، وما تحركت مشاعرهم إلا نتيجة لأعمال مباشرة قام بها مسيحيو الشرق العربى أبان الحروب الصليبية .

ولقد ظهرت آثار ذلك واضحة منذ القرن الثانى عشر حيث قال عنها Belin P. 478 (اتهم المسيحيون فى زمن الحروب الصليبية ، باتصا لهم بالصليبيين اتصالا ينطوى على الخيانة ، فجلبوا على أنفسهم قيوداً شديدة الحرج ، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد دينى)^(١) .

جرت التقاليد أنه كلما خلا منصب المطران أن يطلب ملك الحبشة بديلا عنه من مصر ، وأن يرسل بذلك رسالتين ، إحداهما إلى سلطان مصر والأخرى إلى بطريرك الاسكندرية وعندئذ يلتمس البطريرك من السلطان السماح له بإرسال المطران .

وللأهمية البالغة لعدم ترك منصب المطران شاغراً فإن الإباطرة لم يكونوا يترددون فى التذلل إلى كل سلطان وبطريرك فى سبيل الموافقة على تنصيب المطران ، فقد كتب (يكونو أملاك) (عام ١٣٧٤) إلى الظاهر بيبرس يقول (أقل الممالك يقبل الأرض ، وينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه ، أن رسولا وصل من والى قوص ، بسبب الراهب الذى جاءنا ، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده ، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهز لنا مطرانا يكون رجلا جسدأ عالما ، لا يحنى ذهاباً ولا فضة . . . وعندى فى عسكرى مائة ألف فارس مسلمين ، وأما النصارى فكثير لا يحصون ، والكل غلبانك وتحت أمرك . . . وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقل الممالك ، ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون . . . ونحن نحفظ كل من يأتى من بلاد المسلمين ، فسيرا ومطرانا نحفظهم^(٢)) .

(١) ص ٩٨ الدموه إلى الاسلام لسير توماس ارنولد .

(٢) ص ١٢٠ صبح الأمانى لقلقشندى الجزء ٨ .

ولكن في نفس الوقت الذي ارسل فيه الملك (يكونوا أملاك) هذا الكتاب يتذلل فيه للسلطان يبرس لكي يرسل المطران ، ويدعى فيه أنه يحافظ على المسلمين وأن يجيشه مائة ألف فارس مسلم ، في نفس ذلك الوقت كان الامبراطور (يكونوا أملاك) يضطهد جيرانه المسلمين ، ولقد جند كل ماله من قوه لمهاجمتهم ولكنه تحمل خسائر كثيره في تلك الحروب ، وخرب المسلمين جهات كثيره من بلاده^(١)

° ° °

وبالرغم مما أظهره (يكونوا أملاك) من التذلل والزلي والاعتذار ، فإن الظاهر يبرس ، تحت تأثير الظروف العصيبة التي تمر بها الدولة الإسلامية في أواخر الحروب الصليبية وتحت تأثير ما يعرفه عن عدم صدق الامبراطور في رعايته للمسلمين في بلاده ، فإنه أرسل إليه رداً يشعره بأنه غاثب التقاليد ، ورفض إيفاد المطران ، مما اضطر الامبراطور إلى الاستعاضة عنه بمطران سوري ، بالرغم من الاختلاف في المذهب الديني ، ولذلك لم يقابله الشعب بالرضا والتأييد .

° ° °

وفي عهد الملك التالي (يجبا صيون ١٢٨٥ — ١٢٩٤ Yagba Soon) ذكر (مركوبولو Marco Polo) أنه بدأ بحملة عسكرية موفقة ضد سلطنة عدل (أوزيلع) وانتهت بقبوله لعقد هدنة مع جيرانه الأقوياء ، وبعدها أرسل إلى السلطان قلاوون رسالة ذكر فيها أنه سيتخذ سياسة غير تلك التي اتخذها والده من قبل ، وأنه يزود عن حقوق المسلمين في بلاده ، وطلب إيفاد مطران مصري إذ أن المطران السوري لم يستطع أن يقوم بأعباء الكنيسة الحبشية على الوجه المطلوب ، ونظر إليه الأقباش على أنه أجنبي

(١) من ١٨٥ Bupge Vol. I P. 285

(٢) هذه الكلمات ليست أسماء ولكنها ترجمة مناهما (سيمير الله صيون) واسمه الحقيقي

عنهم وعن كنيسةهم ، وقد استجاب السلطان قلاوون لطلبه وسمح برسيم المطران وسفره^(١) .

ولم تسفر سياسة المهادنة التي اتبعها (مجااصيون) عن إيقاف الزحف الإسلامي وامتداد نفوذه ، واعتبر المسلمون (في سلطنة ايفات) ذلك مظهراً من مظاهر الضعف لدى المسيحيين وبدأوا سلسلة من الاغارات على مملكة الحبشة ، ولكن كان لهذه الحملات أثراً عكسياً إذ أنها قوت الروابط بين المسيحيين ورفعت من روحهم المعنوية ووحدت صفوفهم ضد المسلمين ، ومنذ ذلك العهد أصبحت القوة المسيحية متكاثرة مع قوة المسلمين ، بل كانت تتميز عن المسلمين بتركيزها في منطقة صغيرة قصيرة المسافات والمواصلات ، بينما تنشقت قوى المسلمين في مساحات شائعة ، تتعذر بينها وسائل الاتصال كما سبق ذكره .

ولقد استمرت الحرب بين الفريقين طوال القرنين المتتاليين ، وخصوصاً في عهود الملوك وعمداً سيدن وسيفاً أرعد ، ثم دزر يعقوب ، الذي سيأتي شرح خاص لتاريخهم .

بداية الصراع العنيف:

رأينا فيما سبق كيف كان ملوك الحبشة المسيحية يحاولون التوفيق بين عدائهم للإسلام وإصرارهم على انتهاز الفرص للقضاء على الدول الإسلامية الناشئة التي تحيط بهم من كل جانب ، وبين اعتمادهم في تثبيت أركان دولتهم على المطران وسلطة الكنيسة ، وأن المطران لا بد وأن يكون مصرحاً موثقاً بموافقة السلطان المسلم في القاهرة ، وخلال هذه الفترة كانت اعتداءات ملوك الحبشة على جيرانهم المسلمين ، وتقضمهم لعمود الهدنة وما إلى ذلك من مظاهر العدواة تصل أبنائها إلى سلطان مصر ، فأضافت عبئاً جديداً على كاهل السلاطين فوق ما يلاقونه من الحروب الصليبية وآثارها .

ولقد شهدت هذه الفترة تحصن الصليبيين في قبرص ، واتخاذها قاعدة للقضاء على تجارة المسلمين وقوافلهم البحرية ، وتعدت ذلك بالهجوم على الإسكندرية والبقاء بها ثمانية أيام ، دمروا فيها المدينة ، ثم غادروها بسرعة (١٣٦٥ م) ثم غارتهم على مدينة طرابلس الشام في ٧ يناير سنة ١٣٦٧ . ولم تكن دولة الاسلام تطيق تحت هذه الظروف العصيبة أن تتحمل وجود دولة مسيحية في جنوبها (مملكة النوبة) ودول أخرى مسيحية تعارب المسلمين بلا هوادة وتحاول القضاء على الاسلام في الحبشة ، في الوقت الذي تلمس فيه من السلطان إيفاد المطران وتسهيل مرور الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس .

ولقد كان ملوك الحبشة يعلون بغضب سلطان مصر عليهم من جراء تصرفاتهم العنيفة تجاه المسلمين ، الأمر الذي جعلهم يلجأون إلى ملك اليمن لكي يتوسط لهم لدى سلطان مصر لإرسال المطران وأرسلوا رسائلهم للسلطان عن طريقه ، وفي مرة أخرى حاولوا إرسال طلبهم عن طريق ملك النوبة . وما أن اكتشف السلاطين علاقة المسيحيين في الشرق الإسلامي بالخرابات الصليبية كما سبق أن ذكرنا ، حتى عولوا على أخذهم بالشدة . بعد أن ثبت لديهم أن سياسة التسامح التي سادت قبل ذلك في عصر الدولة الأيوبية وفي حكم صلاح الدين على وجه الخصوص ، لم تكن ذات أثر ، ولم يقابلها الصليبيون والمسيحيون في مصر والشام إلا بالجهود .

وبعد بعض الكتاب إلى إغفال ذكر كثير من ' الحوادث ' وإيرادها بصورة مشوهة ، لا تتفق مع واجب الكاتب في تحرى الحقائق والالتزام بذكرها على وجهها الصحيح ، مثل ذلك ما جاء في (ص ١٨٩ من كتاب الإسلام في أثيوبيا لزاھر رياض) من أن الأوربيين كانوا يعتقدون بأن التوابل تأتي من الجنة ، وأن الممالك يعملون من جانبهم على رواج هذه الخرافات لغرض أخفاء مصادر هذه التجارة عن الإفرنج لئلا يبلغهم خبر ملك مسيحي في الجنوب هو ملك الحبشة فيقوم بينهما اتفاق لا يأتي إلا

بأبلغ الأضرار على مصر الإسلامية التي تقع بينهما ، ويؤكد ذلك بقصة الجاسوس الحبشي التي حدثت في سنة ٨٢٢ هجرية (١٤٢٥ م) حين قبض عليه السلطان برسباى عندما كان موفداً من ملك الحبشة إلى ملك الفرنجة . إلى آخر القصة ، التي سنذكرها فيما بعد وبدل على أن القبض على ذلك الجاسوس كان لمنع وصول أخبار وجود المملكة المسيحية في أفريقيا إلى الدول الأوروبية التي كانت تجهل وجودها ، حتى لا تهتم بها وتعمل على معونتها . والمعنى الوحيد الذي يمكن أن يخرج به القارىء من إيراد الحوادث على هذه الصورة ، هو إيهام القارىء بعدم وجود أية معرفة أو اتصال بين الصليبيين وبين ملوك الحبشة من قبل ، وهذا يخالف ما أثبتته التاريخ في كثير من المراجع الهامة ، ونخص بالذكر منها ما أجمعت عليه المصادر من أن السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما استولى على بيت المقدس ١١٨٩ م ، (أى قبل التاريخ الذى جاء ذكره فى ص ١٩٨ من الكتاب المشار إليه ، بجوالى ٢٥٠ سنة) شمل دير الأحباش برعايته ، وأنه بالرغم من وعورة الطريق فقد تكاثرت أفواج الحجاج من الحبشة إلى بيت المقدس ^(١) .

ولقد وقع السير بدج Budge فى نفس الخطأ حين ناقش معلومات أوروبا عن ملك الحبشة المسيحي بما يفيد عدم وجود صلة أو معلومات عنه ^(٢) — بينما يقرر (رانسيمان) أنه كان يوجد بالأراضى المقدسة بمجمعات دينيه وأديرة للأقباط ^(٣) المصريين والأحباش وفى مدينة القدس بالذات ، وذلك قبل الحرب الصليبية ^(٤) .

ولعل فى هذه الأدلة التاريخية الهامة ما يؤكد وجود جالية حبشية مقبمة

(١) ص ٥٦ الإسلام فى أثيوبيا لترنجمان .

(٢) ص ١٢٥ سير بدج Budge .

(٣) وفى الوقت الحاضر يستخدم بين إقباط الحبشة على ملكية (دير السلطان) بالقدس وهو الدير الذى جاء لهم السلطان صلاح الدين إبان الحرب الصليبية ومنذ ذلك الوقت اشتهر بهذا الاسم — يزعم الستار عن أن الأحباش كانوا بالقدس إبان الحروب الصليبية وقبلها .
A Histry of the Crusades by Sir Steven Runciman ٢٩٥ (٤)

في بيت المقدس قبل ذلك التاريخ ، ولستنا بحاجة إلى كثير من إمعان الفكر حتى تؤمن بوجود صلة بين المسيحيين الأجاش وإخوانهم في الدين من الصليبيين قبل ذلك العهد وبعده ، مما لا يستقيم معه ما جاء في الكتاب المذكور ، وكذلك في كتاب السير بدج ، عن محاولة المماليك حجب أخبار وجود دولة مسيحية إلى الجنوب من مصر ، حتى لا تتفق مع الفرنجة فيصيب مصر الإسلامية من ذلك ابلغ الأضرار ، ومع كثرة الأدلة على الصلة القديمة والمعرفة الوثيقة ، فإنا لا نريد أن نقف كثيراً عند هذه النقطة ، مفضلين الاستمرار في سرد الوقائع التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع كادرنا عليه من تسلسل .

* * *

« والواقع أن وجود جاليه كبيرة من الأجاش مقيمة إقامة دائمة في بيت المقدس ، ووجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة ، أمر له أهميته من حيث اطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولاً بأول ، ولم تغب عن البابوية وأصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوروبا فكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية - وهي الحبشة ، في محاربة المسلمين ، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن الثالث عشر . »

ولقد سبق أن قدمنا في الفصل السادس أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين ، وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استئثار ملوك الحبشة ، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرص من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥ ، كذلك فكر اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩) في غزو مصر - وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرص وأسروا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦ م ،

وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوروبا مباحثات في هذا الشأن ولكنها باءت بالفشل - راجع المقرئى - الإلام ص ٤ ، (وكذلك النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٣٧ - ٦٤٠ طبعة كاليفورنيا) كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل مجرى النيل وتجويص مصر ، وهى الفكرة التى ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أراجون والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى (١) .

* * *

ومما يؤيد صحة وقوع هذه الاتصالات المريبة التى وقعت فى ذلك الوقت بالذات تلك الحادثة التى سبقت الإشارة إليها والتى حدثت فى عام ١٤٢٥ م (أيام حكم السلطان برسباى) عندما قبض على تاجر فارسى يدعى نور الدين على تبرئى ، اعترف بأن اسحق ملك إثيوبيا أرسله إلى ملك أراجون (الفونس الخامس) يدعوه إلى الانضمام له لمحق الإسلام ، ورفع لواء المسيحية بأن يغزوها من ناحية البحر فى الوقت الذى تغزوها فيه جيوش أثيوبيا من ناحية البر ، وأن هذا الرسول قد سافر من الحبشة فعلا إلى أوروبا عن طريق الصحراء ، وأنه الآن فى طريق عودته إلى أثيوبيا يحمل نتيجة هذا السعى ، قبض عليه فى مصر وحوكم أمام قاضى القضاة شمس الدين محمد ، وحكم عليه بالإعدام فأركب جملا وطوف به فى شوارع القاهرة والفسطاط وبولاى (...) (٢) ولقد تأيدت هذه الواقعة بالمصادر العربية ، وكذلك من ملفات نابولى ، التى ورد بها نص الرسائل المتبادلة مع ملك أراجون (عهد الإمبراطور زره يعقوب) .

* * *

(١) المصر المماليسى ص ٢٥٠ للدكتور سعيد عاشور .

الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٣ — ١٢١٤ سعيد عاشور .

Quatremer

(٢) الإسلام فى أثيوبيا ص ١٩٠ زاهر رياض - ص ٢٨٠

وذكر بعض المؤرخين الأوروبيين (أن مسيحي الشرق انساقوا مع الصليبيين ، ولكن بعد أن تخلى الصليبيون عنهم وفشلت حركتهم الصليبية أظهر المسيحيون السوريون فيما بعد شعورهم الحقيقي نحو المسلمين ، أما طائفة المارونية اللبنانية فظلت على ولائها للكنيسة الرومانية والصليبيين ، وخدم أبناؤها في جيشهم بإخلاص حتى ١١٨١ م)^(١) .

« ومهما يكن من شيء فالحقيقة التي لا يمكن أغفالها ، أن الحروب الصليبية جلبت الشر على المسيحيين الشرقيين ، ومزقت علاقاتهم الطيبة مع المسلمين ، وخلفت عندهم نوعاً من التعصب الأعمى ضد المسلمين ، قابله نوع مثله عند المسلمين ، صحيح أن السلطان صلاح الدين وأخلافه من بعده خففوا من حدة هذا التعصب ضد المسيحيين ، غير أن خلفاءهم من سلاطين المماليك ، كالوا الرعاياهم من المسيحيين الصاع صاعين ، بسبب استغلالهم على المسلمين بدمشق مدة استيلاء التتار عليها وتخريبهم المساجد والمآذن ، وشرب الخمر في نهار رمضان ورشه على ثياب المسلمين في الطرقات . . . ثم أدبرت الدنيا عن التتار ، وأقبلت على سلاطين المماليك فقتلوا عدة من النصارى وانتقموا للمسلمين منهم^(٢) ، وعلى هذه الصورة جرى الزمن ، واتسعت الهوة بين الشيعين الإسلامى والمسيحي وورث الشرق الأدنى عن هذه الحروب الصليبية ذكريات التنافس بين المسلمين والنصارى والحزازات الدينية التي لم تنطفئ جذوتها^(٣) . »

ولقد شرح جرجى زيدان ملخصاً لتلك الحوادث في الجزء الرابع من (تاريخ التمدن الإسلامى) ص ١٤١ وما بعدها وقال « على أن أفتضح ما قالناه النصارى واليهود من الاضطهاد ، إنما كان في دور الاضمحلال أو التهمقر في

(١) Grousset ; L'Empire pp. 311-313 & Runciman A. 3 p. 477.

وصنعة ١٩٦ الحرب والإسلام زمن المدوان الصليبي — د . نظير حسان سعداوى .

(٢) السلوك ج ١ ص ٤٢٥ ، ٤٣٢ وكذلك ص ١٩٧ الحرب والسلام — د . سعداوى .

(٣) تاريخ العرب للبيبي حتى ص ٧٨٠ .

العصور الإسلامية الوسطى ، وخصوصاً بعد الحروب الصليبية ، لأنها كانت سبباً كبيراً في إثارة التعصب بين الأمتين ، فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم ، وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الأفرنج سرّاً ، فبالغ أمراء المسلمين في الفتك بهم ، فنصارى (قاره) مثلاً - وهى بلدة بين دمشق وحمص كانوا يسرقون المسلمين في أثناء الحرب ، ويبيعونهم خفية للأفرنج ، فلما مر بها السلطان الملك الظاهر في أثناء عودته من بعض غزواته سنة ٦٦٤ هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم لأن الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشد منها ، وكثيراً ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل أو يتنصروا ، وإذا دخلوا بلاداً إسلامياً بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع ، ولما تغلب نصارى الأندلس على المسلمين أجبروهم على حل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن - أى المسلمين الذين يعيشون في الإمارات النصرانية - ولما غلبوهم في آخر الدولة خيروهم بين النصرانية والموت فتنصروا عن آخرهم.

وعلى أنك لو تدبرت ماكان يلحق النصارى من الأذى في أبان القندين الإسلامى لرأيت سببه في كثير من الأحوال وشايه بعض طوائف النصرانية بالبعض الآخر ، كالنساطرة واليعاقبة في العراق ، وكثيراً ماكان أهل النفوذ من النصارى أنفسهم أشد وطأة على أهل دينهم من حكامهم المسلمين ،^(١).

* * *

ولعلنا قد أفضنا في الحديث عن هذا الموضوع البغيض وهو موضوع اضطهاد الدينى ، ولكننا قصدنا أن يكون التفصيل توضيحاً لتلك الأعمال التى قام بها بعض سلاطين مصر في ذلك العهد ، والأسباب التى حفزتهم عليها وأشعلت فيهم نار التعصب الدينى .

(١) ص ١٤١ وما بعدها - الجزء الرابع - من تاريخ القندين الإسلامى لجورجى زيدان .

ولسنا بعد ذلك في حاجة إلى مزيد من الإيضاح لعلاقة الأحداث في الحبشة بالحروب الصليبية وما جرت به على العالم من تعصب أعمى ، سفكت فيه الدماء وامتنت الكرامات ودمرت المدن ومعالم الحضارة ، وتوارت الإنسانية خلالها وبرزت الهمجية والبربرية .

كذلك أصبح واضحاً - كيف استباح الملوك والحكام لأنفسهم اضطهاد مآلديهم من أقليات وكيف كان بعض ملوك الحبشة يرسل الرسائل المعسولة التي تفيض خضوعاً لسلطان مصر ، مشيداً ومتعاهداً على التسامح وحسن الجوار ، بينما هو في نفس الوقت ينزل بالعصف والشدّة على المسلمين كما حدث في عهد « يكونوا أملاك » .

• • •

لذلك لا يستغرب أن يلجأ السلطان الظاهري بريس ، وهو يعاني ما يجابهه من ظروف عصيبة ، أن يرفض إرسال المطران إلى الحبشة ، « وأن يقوم السلطان برسبای بجس البطريك وضربه وفرض ضريبة كبيرة عليه ، وأخذ تعهد ألا يقوم البطريك بالاتصال بملوك الحبشة بنفسه مباشرة ، ولا بوكيله لا ظاهراً ولا باطناً ولا يولى أحداً على بلاد أثيوبيا لا قسياً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ، ووقوفه على كتابته وأنه متى خالف ذلك وانتقض عهده ضربت عنقه » (١) .

وكما أن ماحاق بمسيحي مصر من الاضطهاد خلال الخمسين سنة الأخيرة من حكم المماليك والسنين الأولى من الحكم التركي ، لم يجعل لهم مجالاً في التفكير في أمور الحبشة فقد فرض السلطان العادل (١٤١٢ م) على الأقباط ضريبة خاصة وأنشأ لهذا الغرض مكتباً يقيد فيه أسماء مواليدهم ووفياتهم كما صرح السلطان المحمودى (١٤١٢ - ١٤٥٣) ، للمماليك

باضطهاد الأقباط فنشأت حالة من الاضطهاد البغيض ، كانت بالنسبة
للصيرين كأنها تنفيس عما لحق بهم من قسوة وعنت طال صبرهم عليهما .
تلك كانت النتيجة المنطقية المحتومة التي يتوقعها أى إنسان ، من
المسلمين بعد أن تعرضوا فى بلادهم إلى مثل ما لحق بهم أثناء الحروب الصليبية
وبعدها ، وما جره عليهم التسامح من إمعان بنى وطنهم من المسيحيين فى
مؤازرة العدو ، واستعداد الممالك المسيحية المجاورة والبعيدة على السواء ،
لمعاوتهم فى العمل على سحق المسلمين - ولا يسعنا فى هذا المقام إلا الأسف
الشديد على مظاهر الاضطهاد التى تعرضت لها طوائف الديانتين السماويتين
- وندعو الله ألا يعيد مثل هذه الأيام ، وأن يستمر الجميع فى العمل
والتعاون فى أخاء ومحبة .

* * *

وأصبح المجال مناسباً لأن نذكر فى شيء من التفصيل عهود بعض الملوك
البارزين من الأسرة السليمانية فى تلك الحقبة التى نتكلم عنها من تاريخ
الحبشة .

* * *

عهد عمداسيون الأول (Amda Seyon) (١٣١٤ - ١٣٤٤)^(١) :

وعمداسيون هو أحد الأباطرة ذوى الشأن العظيم فى تاريخ الحبشة ، وهو
فى نظر المؤرخين المؤسس الحقيقى للدولة الحبشية ، حيث أخذت مملكة
(أمراء اعمره) فى عهده فى تثبيت أقدامها وتوسع رقعتها ، وأصبح الحكم
فى الأمرة السليمانية مستقراً .

(١) عمداسيون عبارة عن جلة منهاها (عمود صهيون - أو ركن صهيون أو دعامه صهيون)
واسمه الحقيقى هو جبرا مسكال أى عبد الصليب .



المقاطعات الإسلامية في عهد عمالين

(١٣١٤ - ١٣٤٤ م)

(ص ١٦، الهندس في آسيا - ترميز بام)

ولقد امتد حكم عمدا سيون مدة ثلاثين سنة، قضى نصفها الأول في مغامرات الشباب وطيشه، فيحكى عنه أنه عاشر خليلات أبيه، وأختيه، بما أثار عليه سخط رجال الدين والمطران - ولم يأبه بهم وقبض على المطران وشربه في الشوارع - ثم أحرق العاصمة ليلاً متهماً رجال الدين بإشعال النيران، وبرر بذلك لنفسه أن يبدأ معهم سلسلة من الاضطهادات، دفعتهم إلى الهروب، والتجأ عدد كبير منهم إلى أديرة بحيرة تانا^(١) ولقد سبق أن ذكرنا في الفصل الثالث طرفاً من أنباء هذا الملك، وناقشنا ما جاء في بعض المراجع العربية عن قصة اعتناقه للإسلام، وأشرنا إلى عدم اقتناعنا بصحة هذا الخبر.

ولكنه تميز في النصف الثاني من حكمه بتهديده للمسلمين، وكذلك اشتهر عهده بما أدخله من التنظيم في شئون الدولة، وتمكن أثناء حكمه من بسط نفوذه على مقاطعة جوجام . (Gojam) التي يحيط بها النيل الأزرق، وتغطي نفوذه هذا النهر إلى إقليم بجمدير (Begemder)، وبذلك وطد أقدام مملكة الحبشة المعروفة فوق الهضبة وحدد معالمها، ووحدها في إطار واحد تحت حكم أسرته، وأصبح بذلك قادراً على توجيه اهتمامه إلى مواجهة الزحف الإسلامي والعمل على إيقاف خطره الذي بدأ يظهر في الجنوب، وامتدت حروبه إلى باقي السلطنات التي تحيط بمملكته من الشرق والجنوب تلك الحروب التي بقيت مستمرة طوال القرنين التاليين^(٢).

ولقد صادف حكمه حدوث موجة من الاضطهاد الديني للأقباط في مصر

(١) من ٢٨٨ من ج ١ Budge

وص ٦٧ The Ethlopians by Ullendorff

(٢) نفس المرجع السابق .

في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (السلطنة الثالثة التي امتدت من ١٣٠٩ - ١٣٤٠) .

فلقد قام السلطان الناصر قلاوون بتدمير كثير من الكنائس ، مما دفع ملك الحبشة عمداسيون إلى ارسال وفد إلى القاهرة (٧٢٦ هـ - ١٣٢١ م) يطلب من السلطان إعادة بناء الكنائس ، والكف عن اضطهاد الاقباط ، وأنذره باتخاذ إجراءات مماثلة ضد رعاياه من المسلمين ، وهدده بتجريح أهل مصر بتحويل مجرى النيل ، فسخر السلطان من الوفد الحبشي وطرده (٢) .

وعندما وصلت هذه الأنباء إلى سلطان ايفات (حق الدين) تشجع وحول مناوشاته مع المملكة المسيحية إلى حرب حقيقية ، أغار فيها على الحدود الحبشية . وأحرق عدداً من الكنائس وأجبر المسيحيين على اعتناق الإسلام .

وكانت هذه الأحداث سبباً في إثارة الأحباش ، فقام الملك عمداسيون في عام (١٣٢٨ م) بالقضاء على طلائع مملكة ايفات ، وأرسل الحملات العسكرية في جميع الجهات مما نشر الفوضى في الممالك الإسلامية ، وقبض على السلطان حق الدين ، ونصب بدلاً منه شقيقه (صبر الدين) .

ولكن سرعان ما تمكن الملك الجديد صبر الدين من تجميع القوى الإسلامية حوله (من ممالك هدية ودوارو) واستعان بقبائل الأجاو في داخل المملكة الحبشية ، وبينما كانوا يعدون الهجوم من ثلاثة مواقع ، علم الملك عمداسيون بالخبر ، فسبق بالهجوم على القوات الإسلامية واحدة بعد الأخرى وانتصر عليهم ، وللمرة الثانية عاد سريعاً إلى مملكة الحبشة بعد أن وضع على عرش الدول الإسلامية الشقيق الثالث (جمال الدين) .

وامتدت أثناء ذلك حدود مملكة الحبشة إلى أطراف الهضبة عند نهر أوأش) .

(٢) ص ٧١ الاسلام في اثيوبيا (المنتهج) - نقلا من المقرئى .

وفيما بين ١٣٣٣ م ، ١٣٣٨ م ، أرسل المسلمون وفداً إلى سلطان مصر تحت رئاسة عبد الله الزيلعي لكي يتدخل السلطان الناصر قلاوون لإيقاف الحملات الموجهة إليهم فلم يجد أمامه إلا أن يطلب من البطريرك بالكتابة إلى ملك الحبشة . وقد سبقت الإشارة إلى عبد الله الزيلعي الذي ينسب إليه الكثير مما كتب عن تاريخ الحبشة في هذه الفترة .

عهد سيفاً أرعد (Saifa Arlad) (١٣٤٤ - ١٣٧٢ م) :

ومعناه (وعاء المسيح) وفي عهد الملك (سيفاً أرعد) (Saifa Arad) (١٣٤٤ - ١٣٧٢ م) استمر على نهج سلفه معزراً لسلطة المملكة الحبشية .

فلقد قامت السلطنات الإسلامية مرة أخرى في ثلاث محاولات متتالية لتتخلص من سلطة مملكة الحبشة وسيطرتها ولكنها باءت جميعها بالفشل ، وانتهت باستيلاء الملك على زيلع وكان في ذلك نهاية لسلطنة إيفات ، وقتل فيها سلاطنتها (سعد الدين) الذي اعتبره المسلمون شهيداً .

وبعد زوال سلطته إيفات أخذت مكانها سلطنة جديدة تدعى سلطنة (عدل Adal) التي كانت فيما مضى جزءاً من إيفات ، تقع إلى الجنوب من زيلع .

* * *

ومن الأحداث الهامة التي تستحق التسجيل أن عدداً من الممالك الذين هربوا من مصر أثناء التنافس السياسي بينهم والذي بلغ أشده في أواخر عهد عهد الممالك ، هاجروا إلى الحبشة ، في عهد الملك (إسحق) (١٤١٤ - ١٤٣٩ م) وقاموا بتنظيم الجيش الحبشي ودربوا الأبحاش على استعمال (النيران الأعريقية) وأنشأوا الورش التي تصنع لهم السيوف والدروع وآلات الحروب الأخرى كما قام أحد المهاجرين الأقباط بتنظيم مالية الدولة ووضع نظام الضرائب .

* * *

وأهم ما تجدر الإشارة إليه هنا ، أن السلطنات الإسلامية الناشئة - وهي منتشرة ذلك الانتشار الواسع ، كانت تتعرض دائماً للغارات والهجمات الحافظة ، وما أن تنتصر فيها القوات الحبشية المسيحية المتشككة في الهضبة ، حتى تسارع إلى العودة إلى هضبتها ، وإلا فقدت ميزتها وطالت خطوط اتصالها وتعرضت للهزيمة ومن أجل ذلك سرعان ما تقوم السلطنات الإسلامية مرة أخرى في صورة أخرى أو في مكان آخر بنفس القوة والعزم والحيوية . وجاء الوقت الذي قويت فيه شوكة هذه السلطنات ، وأصبحت الغارات والهاجمات والانتصارات متبادلة بين الفريقين .

عهد زرع يعقوب (Zar'a Ya 'gob) (١٤٣٤ - ١٤٦٨ م)^(١)

ومعناه (زرع يعقوب - أو بذرة يعقوب) بلغت الأسرة السلجانية قمة مجدها في عهد الامبراطور زرع يعقوب الطويل ، الذي قام بالإصلاحات العديدة في البلاد ، مما رفعه إلى مصاف عظماء الملوك في تاريخ أثيوبيا .

ولم يقصر زرع يعقوب في تعقب المسلمين والعمل على القضاء على قوتهم بصورة قاطعة وبذله في ذلك قصارى جهده ، فعندما تجددت في عهده تلك المناوشات التقليدية ، هاجم سلطنة عدل . ولكنه لمس الحقيقة التي تكشف بعد التجارب العديدة التي مرت على من سبقه من الأباطرة ، أن تلك السلطنات الإسلامية الناشئة ما تابث أن تهزم في موقعة حتى تدب فيها الحياة والقوة بسرعة ، وتتفرض ثانية وتعود إلى عنفوانها مما أجهد مملكة الحبشة وجعلها دائماً مهددة مهما أحرزت من انتصارات .

أزاء هذا الموقف لجأ زرع يعقوب اتخاذ سياسة جديدة حكيمة ، وذلك بتركز جهوده في جمع كلبة رعاياه المسيحيين وتوحيدهم وإزالة الخلافات ، ووضع هدف واحد نصب أعين الجميع وهو الدفاع عن المسيحية والمسيكين

لها والمحافظة على ما بلغته من سيطرة وهوذ ، ولقد وجد أنه قد أصبح لازماً عليه أن يكثر شوكة قبائل الاجاز التي كانت تناوته فجرد عليها حملة عسكرية بجانب الحملة التبشيرية ، وضعت النهاية لعصيان هذه القبائل ، وعزز هذه الأعمال بالاصلاخات الإدارية ، وعين على جميع المقاطعات موظفين من عنده بجانب أمرائها يأمرون بأمره مباشرة ويبلغونه عن كل ما يروونه مخالفاً لأوامره ، ومنحهم من السلطات ما يمكنهم من تنفيذ سياسته .

وبالرغم من استتباب الأمر في الحبشة للمرة الأولى في التاريخ على هذه الصورة فإن الامبراطور زره يعقوب شعر أيضاً أنه لا سبيل لروال الخطر نهائياً عن المملكة المسيحية إلا إذا عزز جانبه بتوثيق صلاته مع الدول المسيحية الخارجية .

وفي نفس الوقت كانت غارات المغول على البلاد الإسلامية قد اتهمت بما فتح الطريق أمام ضغط الإسلام على أوروبا وكانت بادرت الأولى استيلاء المسلمين على القسطنطينية في عام ١٤٥٣ م ، مما جدد عزم الدول المسيحية إلى تنامي الخلافات بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية ، لتدبير أمورهم أمام القوة الإسلامية الجديدة ، وكان قد انعقد مؤتمر فلورنسة (١٤٣٩-١٤٤١ م) لمحاولة إزالة الخلافات بين روما والقسطنطينية ، حضره مندوبون عن كنيسة الاسكندرية ، ولقد جاء في أخبار هذا المؤتمر أنه حضره وفد حبشي أرسله الامبراطور زره يعقوب ، ويدل هذا الاجتماع على الاتصال الوثيق الذي بدأ يتخذ شكلاً عملياً بين امبراطور الحبشة والدول المسيحية في أوروبا ، وأن كان قد سبقته اتصالات أخرى كذلك التي أرسلها الملك إسحق يستحث فيها الفرغ على الهجوم على مصر من الشمال بينما يهاجمها من الجنوب ليقضى على مصر والإسلام - كما سبق ذكره ، كما أنه ثابت من (ملفات نابلي) أن إسحق أرسل التماساً إلى الملك الفونسو الخامس (ملك اراجون) (١٤١٦ - ١٤٥٨) مقترحاً عليه التعاون في القضاء على المسلمين ، إذ يهدد مملكته فريق منهم في سلطنة عدل .

ولقد تأيد حدوث هذه الاتصالات وإيفاد الرسل ، بذلك الخطاب الذى أرسله القونسنو إلى زره يعقوب فى عام ١٤٥٠ يقترح فيه عقد تحالف، ويشير إلى العلاقات القديمة التى كانت تربط الدولتين^(١) ، والثابت أن هذا الاتصال لم يكن الأول من نوعه إذ تفيد الأنباء أنه سبقه اتصال فى ١١٧٧ ثم فى السنوات ١٢٩٧ ، ١٣٠٧^(٢) وهذه السنوات تتفق مع أوقات الحروب الصليبية وما أعقبها من مناوشات .

وبوفاة الامبراطور زره يعقوب فى عام ١٤٦٨ م ، انتهى العهد الأول من حكم الأسرة السليمانية ، الذى تميز بالصحة الكبيرة للمملكة المسيحية ، وحروبها المتوالية وصراعا الطويل مع السلطنات الإسلامية الناشئة الذى انتهى بامتداد نفوذها وسيطرتها ، ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية من حكم الأسرة السليمانية — وهى مرحلة الدفاع .

برمنجهام .

(١) ص ٧٦ من الاسلام فى أثيوبيا

La Poitica Orientale di Alfonso di Argona Archivio Storico
Per le Province Napolitane XXVii (1902) 39-43 & 65-66.

(٢) ص ٣١١ سيريدج Budge .

الفصل البشام

صراع الإسلام فى أوربا

امتد سلطان الإسلام وعظم شأنه ودخل إلى أوربا من جهات ثلاثة .
أولها إلى أسبانيا حيث دخلها فى عام (٧١م - ٥٩٣) وخرج منها فى (١٤٩٠م)
بعد أن قضى بها ما يزيد عن سبعة قرون ، والثانية باستيلائه على صقلية فى
عام (٨٢٧ م) ومعها جزر سردينية وكريت (أقريطش) وامتدوا فى جنوب
إيطاليا إلى أن بلغوا روما ، وانسحبوا منها خلال القرن الحادى عشر- والثالثة
بواسطة الأتراك العثمانين الذين زحفوا على الامبراطورية الرومانية الشرقية
واستولوا على آسيا الصغرى ودخلوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ، وجعلوا
منها قاعدة لغزو أوربا ووصلوا إلى مدينة فيينا ثم تراجعوا وبقيت القسطنطينية
فى أيديهم إلى الآن .

وفى الحقيقة أن الإسلام كان لابد وأن يصطدم مع المسيحية منذ بزوغه ،
وحدث هذا الصدام فعلا فى الجولات الأولى للجيوش الإسلامية فى فجر
الإسلام ، وكانت موجة إلى الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ولكن الخلاف
العقائدى بينها وبين كنيسة روما وصراعهما الداخلى على النفوذ ، جعل الدول
الأوربية الغربية غير حافلة بما تعرض له الامبراطورية الشرقية من خطر
المد الإسلامى .

ولكن لم يمض على ذلك قرن من الزمان حتى كان الإسلام بطرق أبواب
أوروبا بنصف ، مما أيقظ دولها النائمة ، وبعث فيها من الحركة والعمل ما لمسنا
آثاره العظيمة فى عهد النهضة بعد ذلك .

المسلمون فى أسبانيا :

كانت أسبانيا قبل الفتح العربى تعاني من الاضطراب الداخلى والتفكك ،

فأمراؤها يكيدون لبعضهم البعض ويترصد كل منهم بالآخر حتى ضعفت سلطة كبيرهم على صغيرهم ، بينما بلغت الفوارق الطبقة حداً مزق كيان الدولة .

قسم الأشراف ورجال الدين البلاد إلى إقطاعيات كبيرة وملكوا القصور الفخمة ، وانصرفوا إلى اللهو وماتت فيهم حمة آبائهم الشجعان ، وتركوا الصناعة والزراعة في أيدي الأرقاء والفلاحين الذين كانوا يعيشون في ذل وضعة ، كما أنفقوا كاهل الطبقة الوسطى من الزراع والتجار بالضرائب .

وكانت الطبقة الدنيا — التي يتكون منها أغلب السكان — تشمل العبيد والفلاحين الذين انصرفوا إلى الزراعة ، بينما كانت الطبقة الوسطى تلاقى من ضنك العيش أشد مما كان يلاقيه العبيد ، فكان يقع عليهم عبء الإفاق على الدولة ، فهم الذين يؤدون الضرائب ويجمعون الأموال للأمراء ، مما جر الخراب والإفلاس إلى هذه الطبقة ^(١) .

تلك كانت حال أسبانيا في الوقت الذي كان الحكم الإسلامي قد استقر في شمال أفريقيا ، ونشر العدل والمعرفة وجمع القبائل والممالك حول عقيدة واحدة وأصبحوا أمة واحدة ، رفعت من روحهم المعنوية وعززت فيهم عوامل الكرامة والطموح ، ولا بد وأن أخبارهم قد انتقلت عبر المضيق وبلغت أسماع المظلومين والمهانين ، حتى أنه عندما عبر المسلمون إلى الشاطئ الأسباني ، لاقوا أجمل ترحيب وتأيد من الشعب . من طبقة الكادحين والأرقاء ، خصوصاً وأن معلوماتهم عن الدين المسيحي كانت سطحية لعدم عدم عناية الحكام بأمورهم . وكذلك من الطبقة الوسطى ومن اليهود ، وما زاد في تهديد الأمور أمام انتشار الإسلام أن الجيش الإسلامي وجد من بعض الأمراء المسيحيين تأييداً ، انتقاماً من منافسيهم من الأمراء الآخرين .

١- الدكتور حسن إبراهيم حسن -
المير توماس أرنولد

(١) ص ٨ ، ٣ ، ٣٠٩ من تاريخ الإسلام
ومن ١٠٤ ، ١٠٥ من الدعوة للإسلام

ولقد كان تأثير الإسلام في أسبانيا باهراً منقطع النظير، فإنه سار لايلى على شئ، ببنى حضارة فائقة في أنحاء البلاد مستندة إلى تقدم في العلوم والآداب والفلسفة حتى أصبحت الأندلس عروس أوروبا ومركز الإشعاع العلمى والحضارى . وبالرغم من ارتداد الجيوش إلى ما وراء الحدود الفرنسية بعد أن استولوا على نصف فرنسا على أثر معركة تور وبوايقه حيث صدتهم قوات شارل مارتل الفرنسية ، فإن العلوم والآداب والفلسفة والحضارة الإسلامية اخترقت الحدود وغمرت جميع دول أوروبا . ولم ترتد مع ارتداد الجيوش الإسلامية .

* * *

وأخذ نجم العرب السياسى في أسبانيا يأفل بعد أن مضى على سلطانهم ثلاثة قرون بلغت الحضارة العربية فيها ذروتها ، وشرع النصارى الذين تكتلوا في الشمال يستفيدون مما كان يقع بين المسلمين من الفساد والفن وصاروا يغيرون عليهم .

د واستغاث عرب أسبانيا بالبربر مرا كش في عام ١٠٨٥ م ليحولوا دون توالى انتصارات ملك قشتالة وليون ، ولم يلبث البربر الذين جاءوا إلى أسبانيا حلفاء العرب أن ظهر وانهم بمظهر السيد ، وأسفر تنازع العرب والبربر عن انقسام الدولة إلى عشرين دولة ، وعن قبض المرابطين والموحدين وغيرهم من البربر على زمام الأمور وعن انكاش العرب وتدرج الحضارة في الانزواء .

د وانتزع النصارى تلك الفرص ، فوسعوا دائرتهم على حساب المسلمين ، وأقاموا دويلات كثيرة ، تكتلت في النهاية في أربع دول وهى : البرتغال ونبره وأرجونه وقشتالة .

ولم يبق للعرب في أواخر القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة، ولما تزيج ملك أرجونه (فرديناند الكاثوليكي) مملكة قشتالة (ايزابلا) حاصر

غرناطة في سنة ١٤٩٢ م ، التي كانت آخر معقل للإسلام في أسبانيا وفتحها ، ثم ضم إليه مملكة نبرة فأصبحت جميع أسبانيا — خلا البرتغال — تابعة لعرش واحد .

« ودامت دولة العرب في أسبانيا نحو ثمانية قرون ، وأدى انقسامها إلى زوالها أكثر مما أدت إليه الغارات الأجنبية ، وظهر أن العرب وأن كانت عبقريتهم الثقافية من الطراز الأول ، إلا نبوغهم السياسي لم يكن على مستوى ثقافتهم خصوصاً في عهدهم الأخير عندما سادت الخلافات بين طوائفهم وأمرائهم . »

* * *

وبالرغم من أن فرديناند قد عاهد العرب على منحهم حرية الدين واللغة ، فإنه لم تكد تحل سنة ١٤٩٩ م حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قروناً . والذي لم ينته الا بطرد العرب من أسبانيا . . . وكان تعميد العرب كرها فاتحة هذا الدور ، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المومنين ، ولم تتم عليه التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة ، ونصح كرينال طليطلة التقي ، الذي كان رئيساً لمحاكم التفتيش ، بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالاً ونساء وشيوخاً وولدانا ، ولم يكتف الرهاب الدومنيكي — « بليدا » — بذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ، أيضاً « فن المستحب ، إذن قتل جميع العرب بحمد السيف لكي يحكم الرب بينهم في الحياة الأخرى ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم » ، ولم تر الحكومة الأسبانية أن تعمل بما أشار به الرهاب الدومنيكي وأيده فيه الأكليروس ، وخشيت الحكومة مما قد يبديه الضحايا من مقاومة ، وإنما أمرت في سنة ١٦١٠ بإجلاء العرب عن أسبانيا فقتل أكثر مهاجري العرب في الطريق ، وأبدي ذلك الرهاب — « بليدا » — ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين أثناء هجرتهم ، وهو

الذى قتل مائة ألف مهاجر في قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠.٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى أفريقيا .

« وخسرت أسبانيا بذلك مليون مسلم من رعاياها في بضعة أشهر، ويقدر كثير من المؤرخين ، ومنهم « سيدبو » ، عدد المسلمين الذين خسرتهم أسبانيا منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلالهم الأخير بثلاثة ملايين ، ولا تعد مذهبة بارتليو ازاء تلك المذابح سوى حادث تافه لا يؤبه له ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤخذ على اقترافه مظالم قتل كذلك التي اقترفت ضد المسلمين (١) .

المسلمون في صقلية وإيطاليا :

في الأعوام الأولى من فجر الإسلام (حوالي ٥٣٢ هـ - ٦٥٢ م) عندما تحطم أسطول الامبراطورية الرومانية الشرقية أمام الإسكندرية ، بدأت قوة العرب البحرية في الظهور . ومنذ ذلك التاريخ بدأ الصراع البحري بين القوتين ، متخذاً أساليب القرصنة التي كانت أسلوب التنافس السائد في البحار عند المسلمين والمسيحيين على السواء في تلك العصور .

وما أن جاء القرن الثامن الميلادي حتى بدأت الغارات العربية على جزر الدولة الرمانية الشرقية وكان من بينها غارة على صقلية (١١١ هـ - ٧٢٩ م) وأخرى على سردينيه (١١٧ هـ - ٧٣٥ م) وثالثة على صقلية مرة أخرى (١٢٣ هـ - ٧٣٩ م) مما يشير إلى أن القوة البحرية العربية قد بلغت من القوة والبأس وسرعة الحركة ما جعلها تسود البحر الأبيض المتوسط .

أرسل العرب إلى صقلية حملة كبيرة في عام (٨٢٧ م) واستمرت في حروب داخل الجزيرة مدة خمس سنوات ، واستقرت خلالها أوضاعهم بالجزيرة -

(١) صفحات ٢٦٦ ، ٢٧٢ من حضارة العرب لفوستاف لوبون (مترجم) .

وتأيدت قواتهم في عام (٨٣١ م) بالقوات الإسلامية التي وصلتها من الأندلس .
فأتموا فتح « بالرمو » في نفس السنة ثم مسينا في (٨٤٣ م) ثم سيراكوز
في (٨٧٨ م) .

وفي عام (٨٣٧) استنجد أمراء نابل بالعرب فتمزقوا بها (١) ، وأخذوا
يعملون لحسابهم واتخذوا من نابل قاعدة لهم ، وسرعان ما أصبح جنوب
إيطاليا تحت نفوذهم .

وفتح المسلمون باقي جزر إيطاليا وكورسيكا ومالطة وجميع جزر البحر
الأيض المتوسط وأصبحوا سادة البحر المطلقين ، ولم يسع البندقية لإزاء
ذلك إلا أن تعدل عن محاربتهم زمناً طويلاً (٢) .

وما أن جاء القرن العاشر حتى دب الخلاف بين المسلمين في صقلية
وإيطاليا ، خصوصاً بين عرب الشرق وعرب الأندلس ، حتى عرب الشرق
تنازعوا فيما بينهم على نحو ما كانت تتنازع القبائل المختلفة قبل الإسلام .

فلما ظهرت في ذلك الوقت قوات النورمنديين ، وجدت هزيمة المسلمين
هينة ميسورة فاستولت على مسينا في ١٠٦٠ م ثم بالرمو في ١٠٧٢ م ثم
سيراكوز في ١٠٩١ م ، أما مالطة فقد استولى النورمنديون عليها في ١٠٩٠ م .

* * *

اقتصروا النورمنديون على احتلال صقلية وما تبعها من البلاد التي دخلها
المسلمون واحتفظوا بالمسلمين في مختلف الأعمال والوظائف ، محافظين بذلك
على نظم الإدارة والحكم التي أدخلها المسلمون ، ونشأت من ذلك حضارة
من نوع جديد ، خليط من (العربية والنورمندية) وكان هذا النوع من
الحضارة هو الذي انتقل وتغلغل بعد ذلك في كثير من دول أوروبا .

(١) ص ٦٠٤ تاريخ العرب تأليف فيليب حتى الطبعة الثامنة (ماكيلان) .

(٢) ٣٣ حضارة العرب لغوستاف لوبون (مترجم) .

وبذلك أصبحت صقلية مركزاً هاماً للاشعاع الحضارى ، ولعبت دوراً كبيراً فى دفع النهضة الأوربية إلى الأمام (١) .

دخل العرب صقلية فى عام (٨٢٧ م) وتم استيلاء النورمنديون عليها فى ١٠٧٢ ولكن العرب استمروا بالعمل فيها تحت حكم النورمنديين ، ناشرين للثقافة العربية حتى أجلوم عنها فى عام ١١٩٤ م أى أنهم بقوا فى صقلية قرنين ونصف من الزمان حكماً ، وقرناً آخر معلمين ومرشدين .

* * *

الإسلام فى أوروبا وأثره فى الحروب الصليبية :

اشتعلت الحروب الصليبية أثناء حكم المسلمين لأسبانيا ، وعقب جلائهم عن صقلية بعد أن حكموها قرنين من الزمان .

وعما لاشك فيه أن نجاح المسلمين فى النفوذ إلى أوروبا على الصورة التى ساد فيها الموقف فى أسبانيا وصقلية وهدد فرنسا وإيطاليا ، ونفذ إلى روما ، لا بد وأن يكون فى كل هذا دافع خفى يملأ نفوس البابوات والملوك بالرغبة فى الانتقام ، ولا بد أنهم كانوا خلال تلك العصور يشفقون على زوال الديانة المسيحية والمذهب الكاثوليكي بالذات - فإ أن دوت صرخة (بطرس النامسك) واهتزت أوروبا لخطبة البابا حتى تحركت ما انطوت عليه النفوس خلال تلك القرون واتحدت تحت هدف واحد وهو القضاء على الإسلام . والاستيلاء على الأراضى المقدسة والإقامة فيها بصورة دائمة ، واندفعوا إلى الشرق فى جحافل وأساطيل ترفرف عليهم راية التعصب الدينى . ولكن كان الفشل نصيب تلك الحملات المتوالية التى استمرت ما يزيد عن قرنين من الزمان .

* * *

(١) ص ٦١١ - ٦١٢ تاريخ العرب لفيليب حى .

غارات التتار :

ما أن زال خطر الصليبيين وانسحبت جيوشهم من البلاد الإسلامية في عام (١٢٥٠) حتى زحف على الدولة الإسلامية خطر داهم من الشرق . وهو خطر التتار المغول .

وكان مركز القوة في الدولة الإسلامية وقتئذ في مصر والشام ، وإليهما يرجع الفضل في الانتصار على الصليبيين وإجلأهم عن البلاد ، بفضل السلاطين الأيوبيين ومن بعدهم سلاطين المماليك ، وأما الخلافة فكانت طوال تلك السنين باقية في بغداد في أواخر عهد العباسيين ، حيث كان الخلفاء يحملون اللقب دون أن يكون لهم أثر أو سلطة .

وصل المغول إلى شمال العراق في عام (٥٦٣٤هـ - ١٢٢٦م)

وفي عهدهم لولاكو التفتوا إلى بغداد فدخلها المغول في (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) وأعلوا فيها القتل والتخريب فحطموا المدينة وبلغ عدد القتلى مليون قتيل ، وانتهى بذلك عهد بغداد الذهبي وزال سلطانها ومجدها الذي استمر خمسة قرون منذ إنشائها وعندما أتى تيمورلنك في أواخر القرن الرابع عشر قضى على ما تبقى منها ، وفر كثير من أهلها إلى مصر .

وجاء دور الشام ، فهاجمها المغول في (٦٥٧هـ - ١٢٥٩م) وسقطت مدنها وأحدها بعد الأخرى وآخرها دمشق ، وكان من أبرز الأمور في حملة المغول على الشام وعلى الأخص دمشق - تحالف الأرمن ، وبقايا الفرنج من عتقات الغزوات الصليبية في سوريا وجبل لبنان - على توقيع أشد العقوبات بالشام العربي .

أراد هولاكو أن يكمل رحلته الدموية بغزو مصر فأرسل إلى سلطانها قطز (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) يهدده وينذره ، فرفض قطز التهديد والإنذار وأعد العدة للقاء هولاكو بجيش مصرى تحت قيادة الأمير بيبرس . ووقعت بينهم عدة مواقع انتهت بانتصار المصريين على المغول في موقعة عين جالوت

(يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٣٥٦٥هـ / سبتمبر ١٢٦٠م) وتعتبر هذه الموقعة من أشهر مواقع التاريخ، إذ أنها فضلاعن تدمير الجيش المغولي فإنها أوقفت زحفه وخطره على باقي أنحاء العالم . واستمر زحف الجيوش المصرية فحررت دمشق وحلب ، واتحدت مصر والشام على إسلام المغول .

وأغار تيمورلنك بعد ذلك على سوريا في عام (١٤٠٠م) حيث استولى على حلب في ثلاثة أيام وأقام هناك هرما آخر من هاجم عشرين ألفا من القتلى ، ودمر مدارسها ومساجدها ثم سقطت في يده حماة وحمص وبلبك . وانتصر على الجيوش المصرية التي سارعت لنجدة الشام واستولى على دمشق في (فبراير ١٤٠١ م) ، وجرى في دمشق ما أصاب غيرها من التدمير والحريق ولكنه قبض على مهرة الصانع فيها وأرسلهم إلى عاصمته (سمرقند) ولكن تيمورلنك توفي في عام ١٤٠٤م أثناء حملته على الصين ، وبموته اهتزت دعائم امبراطوريته وزال خطر المغول ، وانتهى عهدهم .

* * *

لا جدال في أن ما لاقته الدولة الإسلامية في مصر والشام خلال أربعة قرون متتالية من الحرب الطاحنة المدمرة والغارات العاتية التي تعرضت لها من الصليبيين من الغرب مدة قرنين من الزمان ، ثم من التتار من الشرق مدة قرنين آخرين ، أنهكت قوى الدولة الإسلامية ، وما هو جدير بالذكر أن الدولة الاسلامية دافعت عن كيانها دفاع الأبطال وقدمت أرواح أبناءها وجميع إمكانياتها في سبيل الدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين ، ولقد كتب لها النصر على الصليبيين ثم على التتار ، ولكنها كانت قد استنفذت قوتها ودب الوهن والضعف إلى كيانها ، وكان هذا العهد نهاية لمرحلة هامة من تاريخ الإسلام والعرب ، وبدأت المرحلة التي زال فيها سلطان العرب وأصبحوا فيها تابع للامبراطورية العثمانية الإسلامية .

* * *

ظهور الامبراطورية العثمانية :

عندما زال خطر التتار وكانت دولة مصر والشام على ما وصلت إليه من ضعف وإنهاك ، وزالت الدولة العباسية في بغداد ، أصبح الجو خاليا للأتراك العثمانيين لكي يرثوا جميع البلاد الاسلامية . ويتجاوزوا ذلك إلى الاستيلاء على الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) .

ولقد بدأ العثمانيون جولاتهم داخل أوروبا واستولوا على جانب كبير من دولها حتى وقفوا على أبواب فيينا ، وكانت هذه الفتوحات في قلب أوروبا عاملا جديدا من عوامل التأثير الإسلامي الكبير على أوروبا . دهم أوروبا من الشرق عقب زوال خطرهم في أسبانيا وصقلية ، مع فارق واحد وهو أن الخطرين الأولين كانا للعرب الذين يحملون معهم بجانب الدعوة للإسلام ، حضارة وثقافة ومدنية نقلت أوروبا من عهد الممجية إلى عصر النهضة والنور ، أما الزحف الإسلامي من الشرق فقد جاء على يد الأتراك العثمانيين الذين حملوا معهم الدعوة إلى الاسلام فقط ، ولم يكن معهم إلا تعاليمه وقوانينه وتقاليده ولكن لم تكن معهم ثقافته وحضارته .

* * *

أخذت دولة المماليك في مصر والشام تهتز أمام هذه الدولة الاسلامية الناشئة التي أخذت تخرج من نصر إلى نصر في أوروبا . وحاول سلاطين المماليك واحدا بعد الآخر تعزيز سلطتهم ، وتلصق وسائل الوقاية من العثمانيين ، وبدأت بينهم المناوشات في عهد السلطان قايتباي في مصر والسلطان بايزيد الثاني العثماني (١٤٨١ - ١٥١٢ م) .

* * *

وفي عام (١٥١٦ م) التقت جيوش العثمانيين مع جيوش مصر والشام في عهد السلطان قنصوه الغوري ، في مرج دابق - بالقرب من حلب - وانتصرت الجيوش العثمانية - وتابع سليم الأول زحفه حتى دخل القاهرة

في (١٥١٧ م) وانتهى إلى الأبد عهد المماليك في مصر ، وأصبحت مكة والمدينة وباقي بلاد الحجاز تابعة للإمبراطورية العثمانية . بعد أن تنازل الخليفة المتوكل آخر خلفاء بني العباس إلى السلطان سليم عن مخلفات الخلافة .

ومرعان ما امتد سلطان الامبراطورية العثمانية إلى باقي الدول الاسلامية الجزائر (١٥١٨ م) ثم تونس (١٥٣٤ م) واليمن في (١٥٦٨ م) وعدن في (١٥٤٧) ومسقط في (١٥٥١ م) وطرابلس الغرب في (١٥٥١) ^(١)

* * *

نما تقدم يتضح أن القوة البحرية العثمانية في البحر الأحمر بدأت في أوائل القرن السادس عشر ، ويمكن أن نستنتج أنها أصبحت ذات شأن في جنوب البحر الأحمر في منتصف القرن السادس عشر عندما تم لها الاستيلاء على عدن واستقرارها في حكم اليمن والجزيرة العربية .

دور البرتغال :

منذ أن تقلص حكم العرب في أسبانيا في أواخر القرن الثالث عشر مقتصرًا على مملكة صغيرة حول غرناطة ، ومملكة البرتغال تهبز بخطوات واسعة حتى تمكنت من التفوق في فنون الملاحة والبحار .

وتتميز تلك الفترة من التاريخ بأهميتها الكبرى لكثرة حوادثها وإفراق الجديدة - التي شملتها ، إذ فتحت البحار والمحيطات أمام المغامرين ، وتفوق البرتغاليون في هذا المضمار ، وسيطروا فترة طويلة من الزمن على تجارة الشرق بجهود قوة بحرية لم يشهد لها العالم مثيلا من قبل ، وبدأت حملات البرتغال البحرية في مياه البحر الأبيض المتوسط ضد مسلمي شمال أفريقيا ثم انتقلت بعد ذلك إلى شاطئ أفريقيا الغربي يراودهم الأمل في تحقيق

(١) ص ٧٠٢ - ٧١٢ تاريخ العرب لبلبيب حتى (الطبعة الثانية ما كيلان) .

أهدافهم الجديدة، وهي الوصول إلى مصادر التجارة التي سببت ثراء الدولة الإسلامية، عن طريق آخر غير طريق البحر المتوسط الذي تنافسهم فيه القوات الإسلامية وتقطع عليهم السبيل فيه .

وأخذوا يتقدمون سنة بعد أخرى على طول الشاطئ الغربي لأفريقيا وخلال ذلك تقدمت معلوماتهم البحرية وخبرتهم بأعلى البحار، وتعدلت على أساسها تصميمات السفن . فكبرت في حجمها وزادت أشرعتها وكان يطل التقدم البحري البرتغالي في مرحلته الأولى هو الأمير هنري (المتوفى في ١٤٦٠ م) .

وأخيرا تمكن البحار البرتغالي باثولوميو دياز من اكتشاف الطريق المشهور حول أفريقيا في رحلته الكبيرة (١٤٨٦ - ١٤٨٨ م) حول رأس الرجاء الصالح .

وسرعان ما أتمت البرتغال تجهيز حملة بحرية كبيرة تتعقب اكتشافات دياز، واستغرقت في رحلتها عامين (١٤٩٧ - ١٤٩٩ م) تحت إمرة فاسكودى جاما، وعادت بحمولة ثمينة وعلبت البرتغال من دى جاما أنه لكي يمكن المساهمة في تجارة البهار والتوابل فلا بد من قدر كبير من الصراع لأن تجارة الهند كانت في يد المسلمين من بلاد العرب منذ قرون، ويعتمدون على تأييد سلطان مصر الذي حصل على مكاسب ضخمة مما يجبهه من ضرائب على البضائع الهندية التي تمر ببلاده ليشتريها البنادقة لتوزيعها في أوروبا، ولم يكن من المنتظر أن يسمح السلطان بسهولة بزوال هذا الاحتكار، وكانت لديه قوة بحرية كاملة التسليح^(١) .

وصمم ملك البرتغال أمانويل (Emmanuel) على الفوز بسيادة البحار

(١) من ٢٨٧ وما بعدها الجزء السادس من «تاريخ العالم» (المقالة من وضع الدكتور أ .

ب . نيوتن) .

فجهر أعدادات بحرية منقطعة النظير وأغدق عليه البابا لقب (سيد الملاحه والفتح والتجارة في أنيوييا وبلاد العرب وفارس والهند) ، وبرزت خلال المعارك والصراع البحري بطولته فرانسيسكو دى الميدا (Francisco de Almeda) ثم الفرنسودى ألبوكيرك (Alfonso de Albuquerque) .

أسس البرتغاليون مراكزهم الهامة في كلكتا وجوا في شرق الهند وغربها ومنهما بدأت أساطيلهم في السيطرة على البحار ، فاستولى الميدا على سوقطرة وهرمز اللتين تحرسان المداخل الضيقة للبحر الأحمر والخليج العربي وجاء من بعده البوكيرك الذى ضرب عدن بالمدافع .

ونشبت المعركة الحاسمة بين أليدا والأسطول المصرى (في فبراير سنة ١٥٠٩ م) أما ميناء (ديو Diu)^(١) انتصر فيه البرتغاليون انتصارا حاسما وتمكنت مدفيعتهم الحديثة من إبادة الأسطول المصرى إبادة تامة . وبذلك خلا الجو للبرتغاليين ، وتسلم البوكيرك القيادة . فأخذ يعمل في همة ونشاط للاستيلاء على جميع النقاط الاستراتيجية حتى يمهّد للاستيلاء على مكة ومصر . ولاستعادة بيت المقدس والأماكن المسيحية المقدسة من المسلمين ، وبالرغم من ضخامة هذه الآمال ، فانها تدل على مغزى كبير وهو أن قادة البرتغال لم يفسوا بعد تلك الأفكار الصليبية . بل اعتبروا أنفسهم مكلفين بالنار للحمولات الصليبية الفاشلة ، وحلوا لواء الأهداف التى عجز عن تحقيقها ملوك أوروبا الصليبية السالفين .

وبالرغم من عدم تمكن البرتغاليين من تحقيق هدفهم الكبير فانهم تمكنوا من تحقيق عمليتين كبيرتين .

الاولى : تطويق البلاد الاسلامية ، بالسيطرة على منافذ الخليج العربي والبحر الأحمر ، والمحيط الهندى .

(١) ميناء الهند شمال بومباي .

الثانية : تحطيم الأسطول المصرى بحيث لم يعد له أية قيمة حربية يخشى منها ، وتم كل ذلك فى أوائل القرن السادس عشر .

وتذكر المراجع التاريخية أن قادة البرتغال فى حملاتهم البحرية كانت تدفعهم الآمال للالتقاء بالملك القديس جون (Prester John) وهكذا كانوا يسمون ملك الحبشة . تلك المملكة المسيحية التى يعملون على معوتها وتحليصها من سيطرة المسلمين^(١)

ولقد أوفد ملك البرتغال (جون الثانى) حوالى عام (١٤٩٤ م) مندوبين للاتصال بملك الحبشة ، انقطعت أخبار أحدهما ، أما الآخر وهو (كوفيلهام Covilham) فقد وصل إلى داخل الحبشة حيث استقبله الامبراطور استقبالا حسنا واقطعه مساحة من الأرض وأسبغ عليه ألقاب الشرف ، ولكنه لم يسمح له بالعودة ، فزوج من حبشية واتقن لغات الحبشة وعاداتها ، وكانت هذه المعلومات فائدة كبرى بعد ذلك بثلاثين سنة ، عندما وصل إلى بلاط امبراطور الحبشة وفد ملك البرتغال برئاسة رودريجو دى لىما Rôdrigo de Lima عام (١٥٢٠ م) بناء على طلب الملكة هيلينا ملكة الحبشة للاستعانة بهم على حرب المسلمين الذين أخذوا يهددون ملكة الحبشة . ولكن الأمور استتبت قبل وصول الحملة ، فلم يعد لبقائهم مبرر فغادروا الحبشة فى (١٥٢٦ م) .

ولقد كان وفد دى لىما على هيئة حملة عسكرية ، نزات فى مصوع وحولت مسجدها إلى كنيسة ، ثم أخذت طريقها إلى داخل البلاد حتى وصلت إلى النجاشى ، وبذلك تأسس الاتصال بين الحبشة والعالم المسيحى ، وكان من نتائج هذه الحملة أن أرسل ملك البرتغال (جون الثالث) إلى نائب الملك فى

(١) صفحات ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ Portugal in Africa by James Duffy
وكذلك ص ٢٨٤ الجزء السادس من تاريخ العالم ، وكذلك الجزء الثامن ص ٤٠ من دائرة المعارف البريطانية .

الهند لتجيز حملة عسكرية وإيفادها إلى الحبشة لمساعدة النجاشي ضد الزحف الاسلامي الذي حدث بعد ذلك ، ووصلت الحملة عام (١٥٤١ م)^(١) تحت قيادة كريستوفر دي جاما (Christopher Di Jama) .

* * *

ولم تكن باقي دول أوربا بغافلة عن الحبشة ، بل كانت توليها من اهتمامها ما جعلها تعنى بأخبارها وشؤونها ، وبينما كان البرتغاليون يجهزون الحبشة ويوطدون علاقاتهم بأهلها ويحصنون مراكزهم ، فإن الدول الأوروبية الأخرى كانت قد بدأت أبحاثها ودراساتها ، وكانت روما مركزا لهذا النشاط فلقد مر بنا ذكر أعضاء الوفد الحبشي الذي حضر مؤتمر فلورنسة (١٤٤١ م) الذي تلاه بعض الوفود الأخرى ، وأخذ بعض الحجاج الأحباش يعرجون على روما في طريق عودتهم من بيت المقدس ، وتحوى الوثائق البابوية ما يؤيد تقديم المعونة المالية لهؤلاء الحجاج ، وفي عام (١٥٢٩ م) خصصت لهم كنيسة روما مركزا خاصا بهم بجوار الكنيسة ، وأصبح منذ ذلك الحين مركزا للدراسات المتعلقة بالحبشة ، ونشطت حركة التأليف والترجمة التي كانت قد بدأت قبل ذلك باللغة الحبشية (الجعر)^(٢)

تمكن البرتغاليون من تعزيز مراكزهم على الشواطئ البحرية وأصبحت لهم السيطرة الفعلية على الخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي ، وعندما استولى العثمانيون على الدولة الاسلامية لم يتمكن من تحسين موقعها وظهر ذلك واضحا بعد فشلها في حصار (ديو Din) عام (١٥٣٨ م) .
(شمال بومباي بالمحيط الهندي) .

* * *

لعل القارىء قد لمس بما أوردناه في هذا الفصل ، أهمية الحوادث التي

(١) من ١٥٠٥ إلى ١٥٤١ The Ethiopians by Ullendorff

(٢) من نفس المرجع .

حدثت في أوروبا في تلك العهود ، وصراع الاسلام بها ، وكيف أن تسلسل
الحوادث قد انتهى إلى ظهور دولتين كبيرتين كان لهما أبلغ الأثر في مجريات
الأمور بالعهود التي تلت ذلك في الحبشة ، وهما مملكة البرتغال والامبراطورية
العثمانية ، ولم يكن من المستساغ أن نقفز بالقارىء مباشرة إلى شرح دور
هاتين الدولتين دون أن نخصص فصلا يشرح في اختصار الظروف التاريخية
التي سبقت ظهورهما على مسرح التاريخ ، خصوصاً وأن تأثيرهما على مجرى
الحوادث في الحبشة ومنطقتهما كان بالغ الأهمية .

* * *

الفصل التاسع (الغزو الإسلامي في الحبشة) في القرن السادس عشر

رأينا في ختام الفصل السابع كيف تمكنت مملكة الحبشة من توحيد صفوفها أمام المد الإسلامي ، وكيف انتصر ملوك الحبشة المسيحية على القوات الإسلامية ووصلنا إلى عهد الإمبراطور زره يعقوب الذي بلغت المملكة الحبشية في عهده أوج قوتها بحيث أصبح وهو في عاصمته على الهضبة يسطر سلطانه على الممالك الإسلامية التي تحيط به إلى شواطئ البحر الأحمر والمحيط الهندي .

ولكن بعد وفاة الإمبراطور زره يعقوب (١٤٦٨ م) لم تستمر الأمور على ما كانت في عهده ، من سيطرة خلفائه على الممالك الإسلامية واستتباب الأمن ، بل عادت الأمور إلى سابق عهدها من مناوشات واشتباكات وحروب صغيرة . وسرعان ما أصبحت سيادة الإمبراطور على الممالك الإسلامية إسمية وشكلية لا تتعدى في أحسن أحوالها دفع الجزية السنوية ، وكان من أهم أسباب ذلك اتساع الرقعة الإسلامية وتراعى أطرافها ، واستمرت الاضطرابات خلال عهود عدد من ملوك الحبشة تنقلت أثناءها الانتصارات من فريق إلى آخر ، حتى كان عهد الملك هيلينا التي بنيت من معاونة السلطان قنصوة الغوري آخر سلاطين المماليك في مصر ، في إقرار السلام بين المسلمين والمسيحيين في الحبشة ، فاجتمعت إلى طلب المعونة من البرتغاليين لأجل التعاون على قهر المسلمين (القساة الكفرة) وهزيمة الجيش الذي يجهزه سلطان مصر والقضاء قضاء تاما على (جرثومة الكفار) الخ . الخ في نفس الوقت كان سلطان عدل قد وصلته بعض الأسلحة من العثمانيين

في الجزيرة العربية ، فتشجع وقام منفردا بحاربة مملكة الحبشة ولكن الامبراطور هزمه واجتاح مملكة عدل وفي نفس الوقت قام الاسطول البرتغالي من البحر بحرق ميناء زيلع .

بعد كل التحام من هذا النوع ، كان الناس يعتقدون أنها آخر المعارك ، وأن الهدوء والاستقرار سيبسودان البلاد ، ولكن سرعان ما تتغير الأوضاع وتجدد الحروب وفي هذه المرة بدأت مرحلة هامة أخذت فيها الحرب مظهرا جديدا اكتسح فيها المسلمون جميع بلاد الحبشة واستولوا على السلطة فيها كاملة بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد وبطلق المؤرخون على هذه العملية اسم (الغزو العظيم) .

* * *

الغزو العظيم :

في أعقاب الأحداث السابقة ظلت أحوال البلاد في اضطراب فترة من الوقت ، لم يقتصر الأمر فيها على الاشتباكات بين الملوك والولاة ، ولكن نشطت في البلاد حركة قطاع الطرق ، مما صرف الملوك والولاة إلى بذل جانب كبير من مجهوداتهم للقضاء عليهم .

وفي عام (١٥٢٠ م) نقل السلطان أبو بكر بن محمد عاصمته إلى مدينة هرر وكون جيشاً من الصوماليين واستولى به على زيلع وقتل أميرها في عام (١٥٢٥ م) ، واستمرت الاضطرابات بعد ذلك ^(١) .

وأهم المراجع التاريخية التي تسجل أحداث هذه الفترة ، هو (فنوح الحبشة) لشهاب الدين الشهير بعرب فقيه ، وبالرغم مما يبدو في كتاباته من بعض الخناس للمسلمين فإنه ولا شك أوفى المراجع وأكثرها دقة .

ولقد بدأ شهاب الدين روايته عن أبناء هذا العهد . بقصة كثيراً ما تتردد أمثالها في عصور الاضطراب والفوضى تعبر عما يخالف الناس من آمال في ظهور رجل يخلصهم مما هم فيه .

(١) عن كتاب الإسلام في إثيوبيا تأليف سبسر ترمنجهام الصفحات (٨٤) وما بعدها

فيقول نقلا عن بعض من يثق بهم من الرواة أن أحدهم رأى في منامه (التي «ص» وعن يمينه أبو بكر وعن يساره عمر بن الخطاب وبجوارهم علي ابن أبي طالب وبجانبه الامام أحمد بن إبراهيم - فسأل من هذا يا رسول الله - فقال - هذا هو الرجل الذي سيصلح الله به بلاد الحبشة) وكان الإمام في وقت هذه الرؤيا جنديا بسيطا وعندما زار صاحبها مدينة هرر ووقع نظره على أحمد بن إبراهيم عرفه على الفور . . . الخ) .

ولعل الخيال قد لعب دورا كبيرا في القصص التي حاكمها الناس حول أحمد بن إبراهيم ، وحرص المؤرخ على إيرادها ، ولعله في ذلك كان يهدف إلى تسجيل كل ما يدور في ذلك العصر ، وعلى الأخص شدة تعلق الناس بالإمام أحمد بن إبراهيم الأشول .

ويبدو أن الخيال قد امتد إلى مولد أحمد ونشأته ، بأنه قد روى عن نفسه أنه كان ابنا لأحد قساوسة إيجو ، ولكنه ترك موطنه إلى عدل إحدى بلاد سلطنة أوفات حيث اعتنق الإسلام ، ولو أن هذه القصة قد وردت على لسان مؤرخ هذا العصر في كتابه (فتوح الحبشة) إلا أن سننسر ترمينجام لم يقيم لها وزنا ، وأورد عنه نشأة أخرى قد تكون أقرب إلى الحقيقة .

* * *

الإمام أحمد بن إبراهيم : الملقب (بالأشول أو الأعسر) ويطلق عليه (أحمد قران Gran) (١٥٠٦-١٥٤٣) هو الذي قاد المسلمين وبسط نفوذهم على جميع أرجاء الحبشة .

ولقد قضى نشأته الأولى في هوبات (Hubat) وهي المنطقة الواقعة بين جلديسا وهرر التي أصبحت فيما بعد مركزاً لعمليات العسكرية ، ولقد وضعه والده تحت رعاية أحد عبيده الذين حررهم يقال له (عدلى أو عدولى) الذي أصبح فيما بعد من كبار مؤيديه ، ولقد تزوج أحمد من (باني) ابنة محفوظ إمام زيلع وكسب بذلك تأييد اتباع الامام محفوظ .

* * *

وكان الصراع في ذلك الوقت قائماً بين العثمانيين والبرتغاليين للسيطرة على البحر الأحمر ، بعد أن قضى البرتغاليون على تجارة العرب في الخليج العربي والبحر الأحمر ، وسببت زيارات البرتغاليين للملوك الحبشة قلقاً كبيراً للعثمانيين الذين بادروا بالاستيلاء على سواكن وزيلع - وأقاموا العلاقات مع مسلمي مصوع التي كانت في تلك الفترة تحت حكم البرتغاليين .

وفي نفس ذلك الوقت كان الأسبان قد بدأوا يدخلون إلى الميدان منافسين للبرتغاليين ويروى أنهم عمدوا إلى إمداد المسلمين بالسلاح عن طريق ميناء زيلع في إحدى محاولتهم للتغلب على تفوق البرتغاليين ، ولكنهم لم يعاودوا الكرة ، وليس بعيداً أن تكون الكنيسة قد تدخلت لإيقاف هذه المساعدة ، ولكن الأغلب أن الأسبان كانوا قد فضّلوا الاختفاء من الميدان الأفريقي وتركيز جميع نشاطهم في فتوحاتهم في العالم الجديد (أمريكا) .

* * *

أمضى أحمد سنواته الأولى في صراع مع السلطان أبو بكر في هرر ، وانتهى ذلك الصراع بقتل السلطان وقام أحمد بتنصيب شقيق القنيل ملكاً على هرر وتابعاً له ، وعندما فرغ من هذا الأمر أخذ يعمل على تحقيق الهدف الأكبر الذي شعر بأنه قد خلق له ، وهو أن يكون (إماماً للمسلمين) ويستولي على جميع أرجاء الحبشة . وسرعان ما أعلن رفضه لدفع الجزية للملك الحبشة وعندما أصبح قيام الحرب بينهما أمراً لا مفر منه ، وعندما تحركت الحبشة واجتاحت سلطنة عدل ، تصدى لها الإمام أحمد وهزمها شر هزيمة. وعندما اشتعلت في نفوس المسلمين حماسة الجهاد في سبيل الله ، والتي كانت كلمنية في نفوسهم وقتاً طويلاً .

رأى الإمام أن يبدأ بوضع حد لحركات الأمراء الصوماليين وبوطد أركان حكمه في الصومال ليحمي ظهره ، ثم بدأ في تنظيم صفوف القبائل

التي انضمت له ، في مهارة فائقة ، وجعل منهم قوة ضاربة منيعة ، وعندما تم له ذلك ، بدأ الجهاد .

ويروى أن بعض المسلمين خاطبوا الإمام قبل إحدى المعارك ، يحذرونه من مغامراته التي لم يقدم عليها أباه أو ما سبقه من الملوك والسلاطين الذين كانوا يكتفون بمناوشة المملكة الحبشية بالاغارات التقليدية على حدودها فقط ، أما حربهم داخل بلادهم ففيه خطر كبير قد يعود على المسلمين بالخسران ، ولكن الإمام أحمد أجابهم بأن الجهاد في سبيل الله لا يمكن أن يعود بالخسران على المسلمين .

* * *

ولقد حاز الإمام أحمد نصراً كبيراً على الأقباش في (١٥٢٩ م) ، ولكنه كان قلقاً من (الجالا البدو) الذين يشكلون جانباً هاماً من قوته ، لما يتصرفون به من خصال يصعب ترويضها ، فبالرغم مما بذله معهم من مجهودات ، فضل كثير منهم العودة إلى مواطنهم حاملين معهم ما غنموه من أسلاب ، لذلك أخذ في تكوين جيشه من جديد معتمداً على العناصر التي تدن له شخصياً بالولاء دون غيره . واستغرق ذلك منه عامين وأصبح على استعداد للقيام بغزوته الكبرى .

ومنذ ذلك التاريخ وانتصارات الإمام أحمد سلسلة متصلة فاستولى في (١٥٣١ م) على دوارو وشوا ، ثم أمهره ولاستا في ١٥٣٣ م ، وفي طريقه استولى على السلطنات الإسلامية - نالي وهديه وسيداما وجوراجي .

ولقد اتسمت غزوات الإمام أحمد بالسرعة والمفاجأة والحماس والشدة التي لا تقاوم وتخلاتها كثير من مظاهر القسوة ، وما أن جاءت سنة ١٥٣٥ م إلا وكان الإمام أحمد قد سيطر على وسط الحبشة وجنوبها ، وبدأ في غزو مقاطعة تيجري التي دانت له بالرغم مما بذلته من مقاومة عنيفة ، وامتدت

سلطته إلى شواطئ البحر من الشرق حتى مدينة كسلا من الغرب . وهناك اتصل بالمقاطعات الإسلامية التي كانت وقتئذ بشرق السودان .

وقد أدت هذه الانتصارات المتوالية التي أحرزها الإمام أحمد بن إبراهيم إلى انضمام كثير من أعداء الامبراطور (لنا دنجل) إليه ودفعهم اعجابهم بالإمام أحمد إلى اعتناق الإسلام ، كذلك عاد إلى الدين الإسلامي جميع الذين أرغمهم أباطرة الحبشة في السابق على ترك الإسلام ، كما فعل أحد القواد ومعه عشرون ألف مقاتل إذ كتب إلى الإمام أحمد يقول (أنا مسلم ابن مسلم ولكتمهم أسروني ونصروني وما زال قلبي مطمئناً بالإيمان ، وأنا الآن جار الله وجار رسوله وجارك ، إن تقبل توبتي ولا تؤاخذني بما عملته ، فآنا تأب إلى الله وهذه جيوش الملك الذين هم معي ، أنا احتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا)^(١) .

وأمام هذه الانتصارات المتلاحقة أصبح امبراطور الحبشة (لنا دنجل) طريداً ينتقل من جبل إلى آخر ويهرب من مقاطعة إلى أخرى ، ولقد أحس في آخر الأمر بحكمة الملكة هيلينا وبعد نظرها عندما نصحت الامبراطور بطلب النجدة من البرتغاليين ، واضطر أثناء فراره أمام قوات الإمام أحمد إلى إرسال مندوب إلى ملك البرتغال يطلب منه العون السريع ، ولقد استجاب ملك البرتغال بسرعة وأرسل أسطولاً وعليه أربع مائة فارس وعندما وصلت الحملة البرتغالية (١٥٤١ م) كان الامبراطور لنا دنجل قد مات وحل محله ابنه الامبراطور (جلاو ديوس Clawadewos) - ١٥٤٠ - ١٥٥٩ ،^(٢) (يسميه الكتاب الغربيون كلوديوس) .

* * *

ويؤكد المؤرخ الإسلامي في (فتوح الحبشة ج ٢ ص ١٧٦) على أن جميع

(١) الدعوة للإسلام للسير توماس أرتولد ص (١٣٨) وعرب فقيه ص (١٨١-١٨٢) .

(٢) ص ٨٧ في الإسلام في أثيوبيا اترمنجهم .

سكان الهضبة الحبشية اعتنقوا الإسلام ، ويبدو أن بعضهم قد اعتنقوه تمسحاً مع الأمر الواقع ، واتباعاً لعقيدة القائد المنتصر كما يظهر ذلك من قوله « لم يعتنق سكان (جان زلق Jan Zalaq) الإسلام والتجأوا إلى الوديان والجبال ، فأرسل الإمام لهم قوة عسكرية بقيادة خالد الوردى الذى اضطرهم إلى اعتناق الإسلام .

كما أن المؤرخ كونزلمان^(١) يقول أنه « لم يبق على مسيحيتهم أكثر من العشر وهؤلاء هم الذين فضلوا دفع الجزية ، ولقد حاول بعضهم مقاومة الإمام وتحصنوا في بعض الأماكن فهجم عليهم الإمام فاستسلمت الغالبية وقبلت دفع الجزية ، أما من رفضوا فقد قضى عليهم الإمام » .

بعد أن أتمم الإمام غزو (جوجام Cojjam) في ١٥٣٣ م حتى بحيرة تانا ثم منها إلى حدود السودان ، حاول الامبراطور جمع شتات جيوشه المنهارة وهاجم ، فهزمه الإمام هزيمة منكرة وتقدمت جيوش الإمام واستولت على أكسوم وحرقتها بعد أن غنمت ماكانت تحويه كنائسها من كنوز ، ثم احتلت شمال الهضبة ثم انحدرت إلى إقليم ييجمدين وتم له بذلك الاستيلاء على شمال الهضبة .

وبعد أن اجتاحت جيوش الإمام جميع أرجاء الحبشة عاد إلى عاصمته هرر (١٥٣٧) وأصبحت الحبشة كلها ، من ممالك إسلامية ومسيحية ، تحت إمرة الإمام وأصبح الامبراطور الحقيقي للبلاد ، وأخذت المسيحية في الانهيار تحت ضغط انتصارات المسلمين المتوالية ، وامتدت آخر مظاهر المقاومة في أقصى الشمال بين أعوام ١٥٣٨ - ١٥٤٠ ، وعندها بلغ الامبراطور (لبنا دنجل) أقصى حالات اليأس ، وألح عليه الاجهاد والمرض ومات وهو في أسوأ حالات البؤس والعوز^(٢) .

(1) Conzelman, Chronique de Clawadewos

(١) ص ٢٢٤ II Budge vol

وعندما استتب الأمر للإمام أخذ ينظم البلاد ويرسي قواعد الحكم في
إمبراطوريته فقسم البلاد إلى ولايات وأوفد لكل منها وال، لحكمها وتصريف
شئونها وجباية الضرائب والأموال ، وبما تجدر الإشارة إليه أن الإمام أحمد
ابن إبراهيم الأشول الذي أصبح في ذلك الوقت إمبراطور الحبشة
وصاحب السيطرة الكاملة على جميع ممالكها وسلطانها لم يكن قد بلغ بعد
الرابعة والثلاثين من العمر .

* * *

وأهم ما تجدر ملاحظته أن الإمام أحمد قد تمكن من تلك الانتصارات
الهاائلة بعد أن نجح في توحيد كلمة السلطنات الإسلامية وسيطرته عليها ،
والقضاء على أسباب الخلاف والتنافس بينها ، فحقق بذلك ما سبق أن أشرنا
إليه في هذا الكتاب (عما قاله عبد الله الزيلعي) من أنه (إذا اتحدت السلطنات
والممالك الإسلامية فسوف تكون خطراً كبيراً على مملكة الحبشة المسيحية)
ولقد تحقق ذلك على أكمل وجه بواسطة الإمام أحمد الذي جعل من قوة
المسلمين المتحدين قوة ساحقة اجتاحت مناطق الحبشة في مدة يسيرة لا تتجاوز
العشر سنوات ، كانت فيها الجيوش الإسلامية منتصرة على طول الخط
ولا تكاد الجيوش المسيحية تتجمع حتى تنهار .

* * *

تدخل البرتغال:

وصلت الحملة البرتغالية التي طلبها الإمبراطور لبنا دنجل قبل وفاته ،
إلى ميناء مصوع في (١٥٤١ م) وكان لوصولها صدى كبير في البلاد ، وكانت
تتكون من ٤٥٠ من المحاربين المسلحين بالأسلحة والمدفعية الحديثة .
وسرعان ما انضم إليهم بعض الأمراء القديى وأتباعهم (مثل اسحق -
يحر نجش - أى أمير المقاطعة البحرية) وتمكنوا من الحصول على مؤازرة

قبائل التيجرى ، ووجد الإمام أحمد نفسه مضطرا للحيلولة دون اتصال الجيش البرتغالي مع القبائل المعادية التي تضرر التأيد للملك الحبشة في مقاطعة شوا ، ولكن عندما نشبت المعركة مع هذه التشكيلات الجديدة التي تستعمل من الأسلحة ما لم تعهده الحبشة من قبل لحقت الهزيمة بقوات الإمام أحمد في ١٥٤٣ م وأصيب بجراح .

وفي معركة لاحقة - بعد بضعة أيام - لحقته الهزيمة مرة أخرى وتمكن بأعجوبة من الإفلات من الأسر ولم تكن لدى البرتغاليين من الفرسان من يمكنه تعقبه والقبض عليه .

ولقد كان لهاتين الهزيمتين أسوأ الأثر على الإمام أحمد الذي سارع إلى العودة إلى الجبال (زوبول) المطلة على وادي الدناكل ، لكي يعمل على جمع قواته وتنظيم صفوفه ، ووجد نفسه مدفوعا إلى طلب المعونة من الوالي العثماني المقيم في زبيد بالين . وكذلك من شريف مكة فأرسلوا له قوة مؤلفة من ٩٠٠ فارس وعشرة مدافع ، فقام الإمام أحمد بالهجوم على القوات البرتغالية والحبشية وانتصر عليهما وقبض على القائد البرتغالي كريستوفر دى جاما وقتله . وفي هذه المعركة فقد البرتغاليون نصف قوتهم وكية كبيرة من الأسلحة والذخائر .

توهم الإمام أحمد أن مركزه قد توطد ثانية - فوقع في غلطة كبيرة عندما ظن أن الأمر قد استتب له وأعاد الجنود العثمانيين والعرب إلى بلادهم ، وعاد هو إلى مركز قيادته بجوار بحيرة تانا . ولم يكن على يئنه بما أصاب مركزه من ضعف وما تعرضت له قواته من انهماك ، وسرعان ما جمع البرتغاليون صفوفهم الباقية مع قوات الامبراطور (جيلادويوس) . وانتصروا على الإمام أحمد الذي توفي في تلك المعركة وتفرقت جيوشه (أكتوبر ١٥٤٣ م) وبذلك تغير مجرى التاريخ في الحبشة . وسارعت أقاليم الهضبة لتقديم فروض الولاء والطاعة مرة أخرى للامبراطور ،

وعادت الأمور إلى سابق عهدها قبل عهد الإمام أحمد بن إبراهيم الأشول^(١).

ولقد كانت الحروب الصغيرة التي امتدت عدة قرون بين الإسلام الناشئ والمسيحية القديمة في بلاد الحبشة التي انتهت بهذه الغزوة الكبيرة في عهد الإمام أحمد، قد اتخذت طابعاً من القسوة والوحشية من الجانبين. فلقد درجت جيوش المسيحيين كلما أتيت لهم الفرص عند دخول بلاد المسلمين أن يخربوا المساجد وأماكن العبادة بالإضافة إلى الإفراط في القتل، كذلك حذت جيوش المسلمين حذوها وطاردت في أثناء زحفها رجال الدين المسيحي وخربت الكنائس وأفرطت في القتل والانتقام. ولم تكن جيوش البرتغاليين بخير من هذين المتحاربين فقد عملت على تحطيم المساجد منذ دخولها مصوع في طريقها إلى داخل البلاد.

ولما كانت الحرب سجالات بين الطرفين خلال تلك القرون تنقل فيها النصر بين الفريقين لذلك كان التخريب شاملاً ممتداً.

* * *

وما تجدر الإشارة إليه، أن غزوة الإمام أحمد كانت الغزوة الأولى في تاريخ الحبشة التي أمكن فيها لقائد أو ملك أو لأميراطور أن يوطد فيها أركان حكمه بغير منازع على جميع أرجاء الحبشة، وكان عهده في ذلك فريداً في بابه لم يتيسر لأحد من الملوك إلا في أوائل القرن العشرين في عهد الامبراطور هنريك الثاني - كما سيأتي ذكره فيما بعد.

* * *

ولقد كانت معونة الأتراك العثمانيين للإمام أحمد قصيرة ومبتورة، ولم يكن مركزهم في البحر الأحمر قوياً، بل كانت تحكم

فيه القوة البرتغالية بشكل واضح ، الأمر الذى كان يمكن البرتغاليين من استعمار ميناء مصوع والنزول منها إلى أرض الحبشة فى سلام واطمئنان .

وكان لدخول هؤلاء البرتغاليين وحماهم فى حروبهم بجانب امبراطور الحبشة ضد المسلمين ، أكبر الأثر فى انتصارهم وإيقاف زحف القوات الإسلامية ، ولقد حققوا بذلك هدفهم من معاونه الملك المسيحى (Prester John) وكانوا فى عملهم هذا محققين لبعض الآمال التى قصرت الحروب الصليبية عن تحقيقها .

• • •

وينحى المؤرخون باللائمة على العثمانيين لتدخل وضعهم الاستراتيجى فى ذلك الوقت الذى بلغت فيه امبراطوريتهم الفتية عتفوان قوتها .

فبينما امتدت الامبراطورية العثمانية فى قلب أوروبا إلى أبواب فيينا ثم سيطرت على أقاليم شمال إفريقيا ، فإنها وقفت عند حدود مرا كش ولم تتعداها بدون سبب أو مبرر مفهوم ، وكانت الضرورة الاستراتيجية تلزمهم بضرورة احتلالها لكى تظل على المحيط الأطلسى ، فكانت نتيجة توقعهم عند هذا الحد أن أصبح الجو خاليا للأساطيل البرتغالية ثم بعدم الأسباب فاهولنديين فالإنجليز والفرنسيين لكى تتجول وتصل فى شواطئ أفريقيا الغربية، وما أن عبر البرتغاليون رأس الرجاء الصالح حتى وصلوا إلى شواطئ العرب والمهند وطوقوا الامبراطورية العثمانية فى الشرق وسدوا عليها السبل . عن ذلك الطريق الطويل .

وكان ارتياد هذه البحار المتراصة حافزا للبرتغاليين ومن بعدهم باقى الأساطيل الأوروبية على ادخال التحسينات على سفنهم لمواجهة الأسفار فى

أعلى البحار ، فكبر حجمها وازدادت أشرعتها وأدخلت التحسينات العديدة على تصميماتها وصناعتها ووسائل تسليحها ، مما كان له أكبر الأثر في تفوقهم العسكرى البحرى .

• • •

نتائج الغزو العظيم على المسيحيين والمسلمين :

لم تكن الخسائر في الممتلكات والأرواح التى صاحبت الغزو العظيم مهما عظمت بذات بال بجانب التغيير السياسى الذى غير وجه الامبراطورية ، التى بذل الامبراطور زره يعقوب وخلفاؤه الجهد فى تأسيسها وتوحيدها حول الديانة المسيحية .

فلقد كان تأثير هذا الغزو على نفوس الاحباش بالغ الأثر ، إذ اعتنق الشعب الإسلام فى جماعات غفيرة ، وليس من اليسير تغيير ديانة الناس ثم العودة مرة ثانية إلى ديانتهم الأولى ، ولم تكن الكنيسة الحبشية ورجال الدين بقادرين على مواجهة هذا الموقف ، خصوصا وأن فترة الخمسة عشر عاما التى سيطر فيها الإمام أحمد على الحبشة — بالرغم من قصرها ، قد فصمت عرى الروابط التى كانت تربط أفراد الشعب بملوكهم .

وعندما أرادوا أن يجمعوا شملهم ، كان الملوك يشعرون بضرورة اعتمادهم فى تعزيز ملكهم ، على الدول الأوروبية الغربية ، بينما شعرت الكنيسة بما فى هذا الاتجاه من خطورة على كنيستهم مما أوجد جفوة بين الامبراطور وبين الكنيسة واتخذ رجال الدين موقفا منعزلا محافظا أقرب ما يكون إلى الجلود .

• • •

ولم يكن تأثير تلك الحروب على المسلمين بأقل من ذلك خطرا . فقد شعر المسلمون أن حالتهم بعد الغزوة كانت أشد ضعفا من حالة أعدائهم .

المسيحيين بل أصبحت من الضعف بحيث صارت أرضها مهددة لأن تكسبها قبائل الجبال من الجنوب . فلقد انتهكت البلاد حروب الامام أحد وتسببت هزيمته في فقد كثير من الأموال والأرواح وخصوصا بين قبائل (الفار Afar) والصومال الذين اعتمد عليهم الامام في غزواته .

• • •

صحوة مؤقته :

بعد انتهاء الغزوة الكبرى ، أخذ الامبراطور جلاوديوس في إعادة تشكيل جيوشه وتنظيمها ، بينما كان (الوزير عباس) يجاهد في تكوين دولة اسلامية من مقاطعات دوارو وفاناجار وبالي ، ولكن جلاوديوس قضى على تلك المحاولات وقام باحتلال تلك المقاطعات ولكنه كان احتلالا سريع الزوال ، حيث وصلت طلائع قبائل الجبال إلى بالي وجعلوا منها مركزا للدراجات التي أخذت تلبث منها بعد ذلك .

وكان من أثر ذلك أن أخذت عوامل الاتحاد تظهر بين المسلمين في هرر وخصوصا تحت تأثير زوجة الامام أحمد التي عزمت على الانتقام لزوجها ، وكان نصيبها الفشل في محاولتها الأولى ، ولكن في عام (١٥٥١ م) (١٩٥٦ هـ) تولى القيادة (نور بن الوزير مجاهد — أحد أقارب الإمام) الذي تزوج من أرملة الامام بعد أن تعهد لها بالانتقام له ، فقام نور بتحصين مدينة هرر وبني سورها الذي لا يزال يحيط بها إلى الآن ، وكانت محاولاته في غزواته الأولى غير موفقه ولكن سرعان ما تغير موقف المملكة المسيحية ، عندما أصبحت مهددة من الجنوب من قبائل الجبال — ومن الشمال بواسطة الأتراك .

في عام ١٥٥٧ م كانت أحوال الأتراك العثمانيين قد أخذت في التحسن في البحر الأحمر فاستولوا على مصوع وحرققو وتغلغلوا داخل الايتريا وبنوا قلعة في (داباروا Dabarwa) وقام القائد التركي بعدة مناوشات

عسكرية فاشلة انتهت بعودته إلى قواعده في سواكن ومصوع وحرق قو
التي بقيت تحت الحكم العثماني .

وفي أثناء ذلك كان نور بن مجاهد يعزز قواته في هرر واشتبك مع قوات
الامبراطور جلاوديوس في معركة انتصر فيها على جلاوديوس وقتله (٢٣
مارس سنة ١٥٥٩) ، وتوفي نور بن مجاهد في عام ١٥٦٧ ، ودفن في هرر ،
ويزور مسلمو اثيوبيا قبره إلى اليوم .

* * *

الفصل العاشر

(قبائل الجالا GALLA)

في الحقيقة التي وصلنا إليها من تاريخ الحبشة ، أخذت تظني قبائل الجالا على مسرح الحوادث ، وأصبحت إحدى العناصر الهامة التي يتكون منها سكان الحبشة . وتميزت بكثرة العدد وانتشارها في مساحات شاسعة في أغلب المناطق ولقد سبق أن تكلمنا في الفصل الثاني عن نشأتهم والعوامل التي أدت إلى هجرتهم . التي بلغت ذروتها في القرن السادس عشر وفي تلك الفترة التي نحن بصدددها بما يدعو إلى تفصيل الحديث عنها وعن الدور الكبير الذي بدأت تلعبه في تاريخ الحبشة .

وكما سبق أن قدمنا — تفرعت قبائل المهاجرين إلى ثلاثة فروع كبيرة — صومال وعفار ساهو — وجالا وسرعان ما نشأت بين هذه الاجناس في تكاثرها نزعة إلى التنافس والاستئثار بمناطق الرزق ، وأدى هذا التنافس إلى اضطراب قبائل الجالا التي بدأت تتسكثت بشكل كبير إلى الهجرة إلى داخل الحبشة .

وبدلت تأثرت قبائل الصومال وعفار ساهو بالثقافة السامية ، واعتنقت الاسلام منذ ظهوره ، بقيت قبائل الجالا تسيطر عليها الطبيعة البدوية ، مما جعلها بعيدة عن التأثير بالاديان أو بالحضارات المتقدمة ، وبقيت عدة قرون في وثنية وهمجية منعزلة عن جيرانها . لما جميع خصائص البدو الرحل الذين يتجولون في جماعات صغيرة منتشرين في أنحاء البلاد .

وعندما أسلمت قبائل الصومال وعفار أصبحت في القرن السادس عشر قوة متماسكة تمكنت من دفع أبناء عموماتهم قبائل الجالا إلى الماضي في هجرتهم

إلى الشمال ، وفي نفس الاتجاه الذي اتخذته الفتوحات الاسلامية من الصومال والشواطيء إلى داخل الحبشة . وكان لانتشار قبائل الجالا أثناء هجرتهم في أنحاء الحبشة أكبر الأثر في أحوال البلاد وتكوينها . وأصبح لها أثرها الفعال فيما مر بالبلاد بعد ذلك من أحداث تاريخية .

ولقد امتلأت بهم مقاطعات الروسى وهور . وامتدوا إلى نهر ديدسا (Didessa) وسيطروا في طريقهم هذا على مقاطعة سيداما ، بينما بلغت موجة هجرتهم إلى الانتشار في مقاطعة شوا ومقاطعة والو واستقروا في مجتمعات وثنية في قلب أقاليم مملكة الحبشة المسيحية .

وسرعان ما استقرت بعض قبائل الجالا في مقاطعات (والو - شوا - جيبا - وهرر) وتركوا البداوة وأصبحوا يعملون في الزراعة وتربية المواشى ومنذ عهد هذا الاستقرار أخذ الإسلام ينتشر بينهم^(١) وفيين فيها إلى تفصيل العوامل التي رافقت انتشار الإسلام بين الجالا - سواء من استقر منهم أو من بقى على بدوته .

* * *

الإسلام بين قبائل الجالا :

تكاثرت قبائل الجالا في الحبشة وانتشرت في البلاد على النحو الواسع المتراعى الذى سبق ذكره ، وأصبحت في بعض الاحصاءات تقدر بثلث سكان الحبشة أو يزيدون ، ومن هنا نشأت أهميتهم ، وأهمية البحث في شئونهم والتعرف على مدى انتشار الإسلام بينهم .

ولقد رأينا فيما قدمناه من مختصر عن ما أورده ترمينجهام في كتابه (الاسلام في اثيوبيا) وكذلك أولندورف في كتابه (الاثيوبيون) من أن غالبية قبائل الجالا قد اعتنقت الاسلام ، إلا أن السير توماس أرنولد (في كتابه الدعوة إلى الاسلام) قد أولى هذا الأمر عناية خاصة مستندا

(١) ص ٨ ، ٩ الاسلام في اثيوبيا ترمينجهام .

إلى كثير من المراجع الحديثة العهد . مما يجدر توضيحه هنا فيمايلي حيث يقول في ص ٣٨٤ من كتابه المغرب :

« أما قصة دخولهم في الاسلام فيكتنفها الغموض ، فينما يقال إن بعضهم أدخلوا كرها في الديانة المسيحية ، نجد أن الأمر على عكس ذلك بالنسبة للإسلام لعدم وجود أية سلطة سياسية في أيدي المسلمين تسهل إمكان القيام بأي نشاط أو ضغط في تحويل الناس إلى الإسلام على هذا النحو ، وفي القرن الثامن عشر قبل إن معظم الذين في الجنوب يعتنقون الاسلام أما الذين أكانوا في الجهات الشرقية والغربية فمعظمهم وثنيون ، وتشير أخبار أحدث من تلك إلى زيادة أخرى في عدد المسلمين ، وفي سنة ١٨٦٧ تنبأ موتسنجر (Munzinger) بأن كل قبائل الجالا ستدخل في الاسلام في مدة قصيرة ^(١) . وإذ قد قيل عنهم (أنهم متعصبون جدا) فانا نستطيع أن نستنتج أنهم لم يكونوا بحال ماغير متحمسين أو متراخين في اعتناقهم هذا الدين ^(٢) » .

« وبعض السكان ، في قبائل الجالا التي تقيم في بلاد الجالا الصميّة مسلمون » (إذ كانت بعض القبائل قد تحولت إلى الاسلام حول سنة ١٥٠٠ م) ^(٣) ، وبعضهم الآخر وثنيون ماعداء تلك القبائل التي تقيم على حدود الحبشة مباشرة والتي أرغها ملك هذه البلاد على اعتناق المسيحية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ^(٤) والمسلمون بين الجبال قلة أما في السهول فقد صادف دعاة الاسلام نجاحا رائعا ، ولقيت تعاليمهم قبولا بين الناس أخذ ينمو نمو اسريعا في خلال القرن الماضي . ويذكر انطوينوستشي (Antonio Cecchi) الذي زار مملكة (ليو) الصغيرة في سنة ١٨٧٧

(١) Munzinger ص ٤٠٨

(٢) I.L.Krapf Vol. 2 p. 106 (1898) ص ١٠٠

(٣) Morie Vol. 2. p. 408

(٤) Reclus, tome X P. 309 & Basset

قصة عن اسلام (أباباغيبو Abba Baghibo) والد الأمير الذى كان يحكم
إذ ذاك، على أيدي مسلمين ظلوا عدة سنين يجدون فى نشر الدعوة فى هذه البلاد فى
زى التجار ، وقد حذا حذوه رؤساء ممالك الجالا المجاورة ورجال حاشيتهم
وظفرت العقيدة الاسلامية بعدد من العامة كذلك - واستمرت تتقدم بينهم ،
ولكن السواد الأعظم منهم كان ينشئ بعبادته القديمة ، وكان بقاء التجار
فى البلاد مددا طويلة سببا فى تهيئة الفرص الكثيرة التى عرفوا كيف
يتنهنونها للعمل فى نشر الدعوة الاسلامية - وحظيا وضعوا أقدامهم كان
من المؤكد أن يظفروا بعدد كبير من الداخلين فى الاسلام فى مدة قصيرة من
الزمن^(١) .

وقد دخل الاسلام هنا فى نزاع مع مبشرين مسيحيين من أوروبا ،
صادفت جهودهم نجاحا ضئيلا . على الرغم مما ظفروا به من تنصير نفر قليل
- وحتى الذين نصرهم (الكاردينال مساجا Cardinal Massaga) فانهم
(بعد أن طرد من هذه البلاد) إما أسلوا ، أو عادوا مرة أخرى إلى الوثنية
حتى قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن يبدو أن عبادة الطبيعة القديمة
بين الذين كانوا فى أقصى الغرب ونعى بهم قبائل الليجا ، قد أخذت فى
طريقها إلى الزوال ، وقد أخذ تأثير الدعاة المسلمين فى النمو وأصبح دخول
كل قبائل الجالا فى الديانة الاسلامية فى مدى سنوات قليلة أمر محتمل .

ولعل فى التفصيل السابق ما يؤيد أقوال ترمنجهام وأولندورف المشار
إليها من أن أكثرية الجالا يعتنقون الاسلام - ولقد عني ترمنجهام فى ص ١٦
من كتابه بتقديم جدول شامل لتوزيع مختلف قبائل الحبشة بين المسيحية
والاسلام والوثنية وفى رأينا أن لهذا الجدول أهمية كبيرة سوف نرجع إليه
فيما بعد ولكننا ونحن نتكلم عن قبائل الجالا نكتفى الآن بأن نلفت النظر إلى

(١) ص ١٠٢ ج ٤ من كتاب الكاردينال مساجا Massaga

ما جاء من توزيعهم في هذا الجدول مما يؤيد من النظرة الأولى اعتناق غالبية الجالا للدين الاسلامى .

° ° °

ويعود ترمينجهام^(١) ويتعرض لنقطة هامة في تاريخ الأديان في الحبشة ويقول « لما كانت المسيحية هي الدين الرسمى للدولة وللقاضين على الحكم فيها ، فإن زعماء قبائل الجالا قد تعرضوا للضغط من الحكام حتى يتحولوا الى المسيحية ، وكانت أبرز عهود هذا التحول الدينى فى حكم الامبراطور منليك وعلى الأخص فى مقاطعة (وللامو Wallamo) . ولا يغيب عن البال أن جميع موظفى الدولة وجميع القوات العسكرية وقوات الأمن من المسيحيين ، ولقد كانت مقاطعة هرر خالية من المسيحيين فى عهدها السابق ولكنها بعد استيلاء منليك عليها فى ١٨٨٧ م أصبح عدد المسيحيين بها ٣٠٦٠٠٠ نفس من بين مجموع السكان البالغ عددهم ١٥١٧٠٠٠ نفس » .

ولقد أجبرت الحكومة قبائل (الوالوجالا) القاطنين بالهضبة على ترك الاسلام فى عهد الامبراطور يوحنا ، ولكن الحقيقة أن غالبيتهم بقيت سرأ على دين الاسلام ، ولقد أحرزت المسيحية بعض النجاح بين قبائل الجوراجى وكباتا وكيفيشيو وازداد نشاط بعثات التبشير الغربية الكاثوليكية والسويدية .

كان لابد أن نستطرد فى البحث وننتدى ماوصلنا إليه فى الفترة التاريخية الهامة فى القرن السادس عشر . لى نبين أهمية قبائل الجالا - وخطورة الدور الذى لعبته فى تاريخ البلاد . وأصبح لزاما علينا أن نعود ثانية إلى المرحلة التى وقفنا عندها فى تاريخ الصراع داخل الحبشة .

° ° °

الهجرة الكبيرة لقبائل الجالا :

كانت غزوة الإدام أحد مرحلة هامة فى تاريخ الحروب المتصلة المتوالية

(١) ص ٢٤ الاسلام فى اثيوبيا .

بين القوتين المتصارعتين في الحبشة وكانت هذه الحروب بالغة الشدة والضرارة مما أجهد الفريقين، وأحدث دمارا شاملا في البلاد وخسارة كبيرة في الأرواح، وعادت قوات الفريقين إلى قواعدهما منخنة بالجراح محطمة القوى، الأمر الذي أدى إلى زعزعة سلطة الملوك والسلاطين والرؤوس على أتباعهم، ولم تكن سلطة أى منهم تتعدى حدود المدينة التي يقيم بها. وأصبحت البلاد فيما بين تلك المدن المتباعدة خالية من السلطان وسيطرة الحكومات.

وخلال الأحداث السابقة كانت قبائل الجالا المشتتة قد بدأت تتجمع ووجدت فرصتها الذهبية في ملء الفراغ الذي حدث بعد حروب الإمام. وبدأت في غزوها لبلاد الحبشة، ولم يكن ذلك الغزو على هيئة هجرة غزيرة الأعداد في مبدأ أمرها، ولكنها اتبعت في حركتها تلك العادات المتأصلة في القبائل البدوية، بأن تشن غارة على جارتها وتعود منها بسرعة، وبعد قليل من الوقت كبرت هذه الغارات وأصبحت حروبا احتلت فيها كثيرا من أقاليم الحبشة. وبالرغم من هزيمتها في بعض المعارك إلا أن هذا لم يؤثر كثيرا في عملية الزحف التي قامت بها القبائل. فاستولت على دوارو وبالي فيما بين عامي ١٥٤٥، ١٥٤٧ م ثم استقروا قليلا في إقليم بالي حيث المرعى الخصيب والمياه الوفيرة، وبعد ذلك ولوا وجوههم شطر هرر واستولوا عليها في عام ١٥٦٧ وانزلوا بها كثيرا من الخراب والدمار كإفعلوا بمقاطعة شوا واما جاورها من الأقاليم.

وفي ذلك الوقت أخذوا يجهزون قوات الفرسان المشهورة، بعد حصولهم على الخيل من أبناء عموماتهم في الصومال، وتمكنوا من السيطرة على البلاد التي دخلوها وأصبح مركز الأمراء والسلاطين مزعزعا، ولم يعدوا مقدورهم تعزيز مراكزهم أو استعادة نفوذهم.

وما أن قارب القرن السادس عشر من نهايته حتى كانت قبائل الجالا قد توغلت في بلاد الحبشة واخضعت تحت سلطانها جميع الأراضي الخصبة في شرق الهضبة، ونفذت إلى مقاطعات أمهره وبيجمدير التي تتكون منها قلب مملكة الحبشة، وفي نفس الوقت بدأ زحف جانب آخر من قبائل الجالا في

الأقاليم الغربية والجنوبية فاستولوا على (واللاجا Wallaga) (وسيداما Sidama) وشوا وأصبحت قوات الامبراطور عاجزة تماما عن صد تيارهم ، ومأان بدأ القرن السابع عشر حتى كانت قبائل الجالا تحتل ثلث الامبراطورية الحبشية^(١) واضطربت الأحوال في ملكة الحبشة المسيحية ، كما اضطربت في الممالك الاسلامية وبذل الامبراطور جهودا كبيرة في محاولة جمع الشمال ، ولكنه كان تأثها في وسط بحر هائج من أفواج الجالا في كل مكان فعادت حروبه منهم على دولته بمزيد من الخسائر .

وفي نفس الوقت أخذت سلطنة هرر وقواتها في الاضمحلال وكانت قد انهكتها حروب الامام أحمد ، فلم تعد تقوى على الصمود أمام زحف الجالا . الذين قطعوا الطريق بين هرر ومينازيلع وبذلك ساءت حالة هرر التجارية .

ولكن أحد حكام هرر (ويدعى عثمان) تمكن من إنقاذ الموقف ، بأن عقد معاهدة مع الجالا صرح لهم فيها بارتداد أسواق هرر ، فكانت هذه الاتفاقية فاتحة لترويض الجالا ودفعهم إلى طريق السلام والتفاهم ، وبعد سلسلة من القلاقل الداخلية القصيرة الاملد في هرر استتب الأمر وهدأت الأحوال في عهد (محمد الخامس) الذي سرعان ما راودته فكرة الحرب . فجهز جيشه وتقابل مع قوات ملك الحبشة المسيحية عام ١٥٧٧م في معركة كان نصيبه فيها الهزيمة والقتل . وكانت هذه المعركة خاتمة القوة العسكرية لهرر التي لم تقم لها قائمة بعد ذلك .

وبينا كان الجيش الهرري يخوض تلك المعركة سالفة الذكر ، انتهزت الجالا الفرصة وأغارت على حدود هرر وحطمت ما يفوق عن مائة قرية وحاصرت مدينة هرر نفسها . ومنذ ذلك الحين وهرر شجا وحكاما يعيشون تحت تهديد دائم من قبائل الجالا مما زاد في اضطراب الأحوال الداخلية وانتقال الحكم من إمام إلى آخر .

(١) ص ٩٣ ، ٩٤ الاسلام في اثيوبيا اثر منجمام .

وهكذا تضاءلت القيمة العسكرية لآقوى السلطات الإسلامية في شرق أفريقيا، والتي عرفت في بداية عهدها باسم إيفات التي استولت في أوج قوتها على إقليم شوا، وعرفت بعد ذلك بمملكة عدل وعاصمتها زيلع، وعرفت في آخر عهدها بسلطته هرر، وتوقف عهد الازدهار والتقدم والمدنية التي كانت تتمتع بها هرر مما لم يكن له مثيل في جميع أرجاء الحبشة، وانقطعت عنها القوافل التي كانت تجلب إليها البضائع من مختلف البقاع، وتعطلت وسائل التقدم الفنى والحضارى الذى جلبه إليها الدين الإسلامى . ووقف الإسلام جامداً، وتوقفت قدرته السابقة على الامتداد والتغلغل . وفقد حيويته التي كانت تهدد جميع أرجاء الحبشة، ولا بد من الإشارة بأن الخلافات الداخلية بين أمراء هرر كان لها كبير الأثر في الوصول إلى هذه الحالة من الركود .

* * *

وفي خلال تلك الفترة التي قاست فيها السلطنات الإسلامية ما قاست من هزيمة وتشبث ، كانت الحبشة المسيحية مشغولة بأحداثها وحروبها ضد قبائل الجالا وقبائل الأجاو والفلاشة وسيداما، ثم بعد ذلك وقعت الحروب بينهم وبين الأتراك العثمانيين في مصوع ، انتهت بعقد صلح بينهما ، انسحب بعده الأتراك بعد أن اكتفوا بتعيين نائب في مصرع وحرق بقو مع بقاء هذه المنطقة تابعة للحكم العثمانى .

وسرعان ما دب الخلاف داخل المملكة الحبشية المسيحية وعادت المنازعات القديمة بين الأمراء ، الذين أخذ كل منهم ينزع إلى الاستقلال . في الوقت الذى كانت فيه المملكة تحت تهديد دائم من قبائل الجالا ، التي انتهرت فرصة هذه الخلافات وأمعنت في تغلغلها داخل المملكة الحبشية^(١) .

وبذلك سادت الحبشة كلها - بمناطقها الإسلامية والمسيحية مرحلة

(١) صفحات ٩٢ - ٩٨ الإسلام في اثيوبيا لمرنجم .

جديدة من الاضطراب والعزلة - وانقطعت أخبارها عن العالم مدة قرنين من الزمان كانت فيها البلاد نهبا للاضطرابات ، وتنافس الأمراء على السلطة والنفوذ ، وتفتت البلاد إلى عدد كبير من هذه الامارات التي ظل ينازع بعضها البعض إلى منتصف القرن التاسع عشر - عندما خرجت الحبشة من عزلتها مرة ثانية في عهد الملك تيودور^(١).

الفصل الحادى عشر

العلاقة بين الديانتين

فى القرنين

السابع عشر والثامن عشر

حدث فى عهد العرلة التى ذكرناها فى ختام الفصل العاشر ، أمر لم يكن فى الحسبان ، وهو تحالف بين القوى الاسلامية والمسيحية فى الجبهة ضد النفوذ الاجنبى . وهو بالرغم من غرابته فانه يعث الامل فى إمكان تحقيقه مرة أخرى فى الوقت الحاضر ، ولذلك فهو جدير بإستحققه من تفصيل .

° ° °

الدعوة الكاثوليكية ومقاومتها :

لم تكن الإمبراطورية الرومانية الشرقية — بعد أن حطما الاسلام الناشئ . ثم من بعده الأتراك العثمانيين — بقادرة على نجدة الجبهة المسيحية التى تعتنق مذهباً قريب الشبه لمذهبهم وإن اختلف فى بعض التفاصيل ، لذلك وقع واجب الدفاع عن مسيحية الجبهة على عاتق الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت فى حملها لهذا الواجب داعية إلى امتداد الحروب الصليبية عن طريق آخر ، قد يودى إلى نتائج تخفف من وقع المزايم التى لحقت بالصليبيين الأوائل .

وكان البرتغاليون هم الذين وقع عليهم عبء تنفيذ هذه المهمة الدينية ، فعملت على تحقيقها بكل ما أتبع لها من قوة وتضحية . وتم لهم النصر على الإمام أحمد ، وأعادت المملكة المسيحية إلى عرشها ، ومكنت لها من وسائل

المنعة ببناء القلاع والحصون وتدريب القوات المسيحية على أحدث وسائل الحروب وتزويدها بالأسلحة الحديثة .

وبعد أن استتب الأمر على هذا المنوال ، تحركت في نفوس البرتغاليين كوامن النزعات المذهبية ، وأخذت تعمل جاهدة على تحويل الحبشة المسيحية إلى المذهب الكاثوليكي ، وفصم عرى الصلات التي تربط الكنيسة الحبشية بالكنيسة المصرية ، ولقد ذكرنا طرفاً من هذه الأمور فيما سبق من الكتاب بقدر ما كانت تستدعيه المناسبات ، وأصبح الآن من الواجب إيفاء هذا الموضوع حقه من التفصيل .

* * *

بعد أن انتهت غزوة الإمام أحمد وانتهى أمر المناوشات والحروب المحلية التي تلتها وأخذت البلاد تعود إلى نوع من الهدوء الذي فرضه التعب من الحروب . وسادت عوامل الضعف والإنهاك . تحرك البرتغاليون يريدون انتهاز الفرصة لتحقيق هدفهم الكبير .

ولقد كان باقياً بالحبشة عدد لا بأس به من البرتغاليين ، الذين تزوجوا وأنجبوا وأصبحوا هم وأبناؤهم يشكلون الصفوة الممتازة بين الأجاش ، وكان نفوذهم بناء على ذلك خطيراً ، ولقد ازدادوا أهمية عندما استقر رأى حكومة البرتغال على اتخاذ الخطوات الجديدة لإتمام كشلكة المسيحيين في الحبشة ، بأن أرسلت عدداً كبيراً من القساوسة الجزويت لتوجيه الجانب الروحي من عملية التحويل .

وكان استقبال البلاد لهؤلاء القساوسة ودياً ، وفي عام ١٦٢٢ م تمكن أقدر هؤلاء القساوسة (بيدرو باز Pedro Paz) من إقناع الامبراطور باعتناق المذهب الكاثوليكي ، وأخذ ذلك الامبراطور يحاول إقناع شعبه ، فكانت النتيجة أنه فقد ولاء الشعب وأثار عليه رجال الدين .

ولقد كان البرتغاليون قد شغلوا منصب المطران قبل ذلك في عهد غزوة

الإمام أحمد واضطروا الأميراطور لتعيين مطران كاثوليكي برتغالي (برمودز ١٥٣٨ م) ولا جدال في أن الهزائم التي كانت تتوالى على المملكة المسيحية وتعرضها للزوال ووصول البرتغاليين لنجدتهم ، جعلت الظروف غير مواتية لرجال الدين للاحتجاج في ذلك الوقت ، خصوصاً وإن علاقتهم مع كنيسة الأسكندرية كانت مقطوعة منذ وقت طويل .

ولكن موقفهم في هذه المرة كان مخالفاً تمام المخالفة ، فلم تكن هناك حروب تشغلهم ، لذلك أخذت تستثيرهم التعاليم الكاثوليكية وإجراءات تطبيقها على الشعب داخل الكنائس وخارجها ، مما أدى إلى قيام ثورة شاملة بين جميع طبقات الشعب حتى أن بعض أمرائهم نادى (بأنه يفضل اعتناق الاسلام عن أن يخضع لمؤلاء البرتغاليين) (١) .

وتأزمت الأمور إلى الحد الذي اضطّر الأميراطور إلى إصدار بيان على الشعب يعتذر فيه عن اعتناقه للذهب الكاثوليكي ويعلن عودته وعودة شعبه إلى مذهب آبائهم وأجدادهم ورأى الأميراطور أن يتخلى عن العرش لنجله الأميراطور (فاسيلاداس (Fabiladas) (١٦٣٢ - ١٦٦٧ م) .

* * *

بعد هذه الحوادث لم يعد هناك محل للتسامح المذهبي الذي كان سائداً في العصور السابقة ، وازدادت حساسية الشعب المسيحي وتعلقه بالمذهب (الأرثوذكسي البعقوبي - التابع للكنيسة المرقسية بالأسكندرية) ، وترتب على ذلك طرد الجزويت من الحبشة ، وعندما وصلوا إلى الهند (جوا) أرسلوا إلى ملك أسبانيا (كانت أسبانيا في ذلك الوقت قد فاقت البرتغال في القوة) يقولون أن الوسيلة الوحيدة لتحويل الأحباش إلى المذهب الكاثوليكي هي تجريد حملة عسكرية عليهم .

(١) ص ٩٩ الاسلام في اثيوبيا لترمنجام .

التحالف مع المسلمين :

اهتزت كنيسة روما لهذه الحوادث فحاولت التدخل في هذا الصراع وأرسلت بعض الرسل الفرنسيين مما أزعج الإمبراطور فاسيلاداس ، ودفعه ذلك إلى عقد اتفاقية مع الولاة العثمانيين في سواكن ومصوع لإعدام جميع القسس الذين يحاولون دخول الحبشة (١٦٤٨ م) ، وكانت هذه الاتفاقية أكبر دليل على فشل سياسة الكنيسة الكاثوليكية في الحبشة ، وذهاب مجهوداتها ومساعداتها هباء . ومن المؤكد أن معالجتهم للعملية كانت تنطوى على سوء تصرف وتسرع وقصر نظر ، فإن الشعب المسيحي بالحبشة رفض تغيير مذهبه ، في الوقت الذي كان في الإمكان لإجراء هذا التغيير بوسائل طابعها العلم والمعرفة وكسب مودة الشعب واتخاذ الوسائل البعيدة المدى التي تنسرب إلى نفوس الشعب تدريجياً ، فرمما كانت تلك السياسة تلقى النجاح . إذا تهيأت لها بعض الظروف الأخرى وأهمها سكوت كنيسة الاسكندرية عن هذا النشاط .

ولم يقتصر فاسيلاداس على اعتماده على العثمانيين ، بل عمد إلى توثيق الصلة مع جيرانه المسلمين ، بأن أرسل مندوباً إلى إمام اليمن (الموحد بالله) عام ١٦٤٢ يطلب منه أن يطرد أو يقتل أى برتغالي يمر ببلاده ، وأرسل مندوباً آخر في عام ١٦٤٨ للإمام الذي تلاه على عرش اليمن (المتوكل على الله) يعرض عليه صداقته ويقترح تبادل السفراء ^(١) .

* * *

ولقد كان اعتماد الإمبراطور فاسيلاداس على المسلمين لحماية الحبشة من التدخل الغربي قلباً للأوضاع القديمة ، التي كانت الحبشة تعتمد فيها على البرتغاليين لحمايتهم من المسلمين ، وذلك بواسطة استيلاء البرتغاليين على

(١) ص ١٠٢ من الاسلام في أنيويلا لترمجهام .

موانئ البحر الأحمر ، وأصبحنا الآن نشاهد ظرفاً جديداً تقطع فيه علاقات الحبشة مع العالم الغربي ، ويصبح المسلمون حلفاء للحبشة ضد من أخذ الأحباش يعتبرونه خطراً أكبر - ذلك الخطر الذي يهددهم ويعمل على القضاء على مذهبهم الديني الذي تلتف حوله جميع الروابط القومية للشعب المسيحي ، ولقد ظهرت في هذه التصرفات نزعة الأحباش إلى المبالغة في الاعتداد بالنفس والتمسك بأهداب الكرامة ، فوجدوا في موقف المتصلب ضد الكنيسة الكاثوليكية تعبيراً عن استقلالهم وعدم الرضوخ لأي قوة تفرض عليهم .

* * *

عودة الاسلام إلى الانتشار :

في أثناء تلك الاضطرابات ، عاد الاسلام مرة أخرى ، ووجد طريقه إلى الانتشار بعد أن وقف زحفه فترة طويلة من الزمن نتيجة الصدمات العنيفة التي تعرض لها في الماضي القريب ، وظلت المملكة الحبشية لاهية عن عودة الاسلام إلى الانتشار ، ولكن الصراع مع الكاثوليكية كان قد انتهى بانسحاب الجيزويت وانقطاع الصلات بهم ، بعد أن تركوا في البلاد أثراً كبيراً وهو انتشار عادة مناقشة الآديان وتعاليمها ومقارنة الفروق بين المذاهب والتفسيرات المتضاربة ، مما استمر يشغل رجال الدين ، ويلهمهم عن الانتباه لاستمرار الاسلام في التغلغل ، وفي هذه العهود كان انتشاره يتوذه وثبات لا يعتمد على القوة أو الحروب ، وأثناء ذلك كانت حدود المملكة المسيحية تنكش بالتدريج ، حتى أن (مانويل دالميدا Manuel de Almeida) الذي عاش في الحبشة من (١٦٢٤ م - ١٦٣٣ م) كتب يقول إن في فترة وجوده بالحبشة كان المسلمون منقرضين في جميع أنحاء الإمبراطورية وكانوا يشكلون « ثلث السكان » ^(١) - ملحوظة : (كان

(١) س ١٠١ الاسلام في أنيوبيا لترمينجام .

الوثنيون في ذلك العهد لا يزالون يشكلون ما يقرب من نصف السكان مما يثبت أنه منذ ذلك العهد أخذ عدد المسلمين يزيد عن عدد المسيحيين في الحبشة ، وذلك يؤيد ما سوف نصل إليه من معلومات في مكانها المناسب من الكتاب .

* * *

عندما أثار الكاثوليك المناقشات المذهبية التي استمرت بعد رحيلهم تشغل تفكير الشعب ووجد فيها الكثيرون مادة للمقارنة والنقاش ، لم يتألك الناس من إظهار إعجابهم بالاسلام الذي يتميز ببساطته وتمشيه مع المنطق السليم وخلوه من التعقيدات وكان لذلك أثره الكبير على أفراد القبائل التي كانت لا تزال على وثنيها .

وعما زاد في ترحيب الوثنيين بالاسلام أنه كان في نظرهم الدين الذي يهدد سلطة الجنس الأمري الذي يفرض سلطانه على القبائل الوثنية ، ولقد فتح الاسلام ذراعيه لاستقبال هؤلاء الوثنيين كأخوة ، ثم هو لا يكلفهم من الطقوس أو التعاليم لاعتناقه سوى ترديد جملة واحدة هي « النطق بالشهادتين » ولقد كان مما يغري الوثنيين باعتناق الاسلام أنهم يصبحون بعد اعتناقه أخوة لهذا العنصر القوي المثقف المتحضر الذي تتحطم لديه جميع الحواجز العنصرية ^(١) .

* * *

العودة إلى الخلاف مع المسلمين :

ما أن تولى الإمبراطور يوحنا الأول العرش (١٦٦٧ - ١٦٨٢) حتى هاله ما وصل إليه المسلمون من تقدم وانتشار ، فدعا مجلساً للانعقاد في جوندار ليقرر السياسة التي يجب اتباعها للتغلب على الاضطراب الديني ،

(١) ص ١٠٢ الاسلام في اثيوبيا لترمينجام .

ولقد أسفر هذا المؤتمر على اتخاذ قرار هام . بالفرقة الدينية . وذلك بإجبار بقايا الافرنج (سلاطة البرتغاليين) إما اعتناق مذهب الحبشة أو مغادرة البلاد . أما بالنسبة للمسلمين فلم يكن في الامكان طردهم وقد أصبحوا جزءا هاما من البلاد - عديدا واقتصاديا - فقرضت عليهم الدولة ألا يعيشوا في مكان واحد مع المسيحيين ، فعليه أن يسكنوا في قرى مستقلة بهم ، أما في المدن فعليه أن ينتقلوا إلى أحياء خاصة بهم كذلك حرّموا من امتلاك الأراضي ، ويبدو أن هذا القانون لم يطبق بدقة في أول الامر مما أدى إلى إعادة إصداره ثانية في عام ١٦٧٨ (١) .

ولقد كانت هذه القوانين سببا في زيادة خطورة الاسلام ، بدلا مما قصد بها من إضعاف للمسلمين . فنشأت مع تلك القوانين بعض العادات التي تهدف إلى تحقير المسلمين ومعهم اليهود الفلاشة والارمن والمجوس ، كان يتمتع النصراني عن مشاركتهم في الطعام ، أو الجلوس معهم والاختلاط بهم ، ومخاطبتهم بصورة تدل على التحقير .

قابلهم المسلمون بالمثل وانضم إليهم في ذلك اليهود والارمن ، ولما حرمتهم الدولة من مملك الاراضي الزراعية ، اتجهوا إلى التجارة والحرف فأصبحت قاصرة عليهم وملكوا عن طريقها زمام البلاد ، وكان إحترافهم للتجارة وسيطرتهم عليها عاملا جديدا لتنقلهم بين مختلف البلاد والأقاليم للتعامل في أسواقها مما جعلهم يتصلون بكثير من القبائل ويزيدون رقعة الإسلام وتعدد المسلمين .

الانقسامات الإقليمية : (٢)

لما كان هدفنا هو العناية بتفصيل أخبار الاسلام في الحبشة ، فسوف

The Ethiopians by Ullendorff

(١) من ٧٩ ، ٨٠

(٢) الاسلام في إثيوبيا لترينجهام متر في ١٩١٤ وما بعدها

(٢ - الحبشة)

تتصى من حقائق هذه الفترة من تاريخ البلاد مايتعلق بموضوعنا الأصلي ومايكفى لإبراز الصورة التي كانت عليها أحوال تلك البلاد .

أتى لإنشاء مدينة جوندار وتركيز العاصمة بها بنتائج عكسية لم تكن متوقعة إذ أنه قبل انشائها لم تكن للامبراطور عاصمة محددة ، بل كان ينتقل من مقاطعة إلى أخرى ومعه حاشيته ورجال حكمه ، وكانت بذلك تنتقل معه السلطة من مكان إلى مكان حتى تشمل جميع المقاطعات ، فما يكاد يصل الامبراطور إلى أية مقاطعة حتى يتخذ من الاجراءات مايقم بها العدل ويقضى على المنازعات ويوطد أركان حكمه ، وما أن تصبح الحاجة ماسة إلى إقرار النظام مرة أخرى في أى مقاطعة حتى يكون قد أتى دورها من زيارات الامبراطور .

فما أن أقام الامبراطور فاسيلاداس في جوندار حتى قلت زيارته للأقاليم الأخرى ، وقصرت مدة إقامته بها وعلى الأخص تلك المقاطعات البعيدة عن العاصمة ، ولم يعد في إمكان الامبراطور السيطرة الحقيقية إلا على المقاطعات القريبة منه وهى مقاطعات أمرا ويجمدير ، وعلى درجة أقل سيطرة في مقاطعات جوجام وداموت . بينما فقدت باقى المقاطعات شعورها بسلطة الامبراطور .

وبتركيز الحاشية ورجال البلاط في العاصمة طوال الوقت ، بدأت فيها بينهم التكتلات والمؤامرات التي لعبت فيها الاطماع دورا كبيرا حتى أصبحت الانقلابات وحوادث القتل والاعتداء على الملوك من الأمور الشائعة ، وبذلك بدأت قيمة مملكة جوندار في التدهور ، وتهيأت الفرصة للجنود المرتزقة ، وأسرى قبائل الجلال لكي يلعبوا أدوارا بالغة الأثر في تاريخ الدولة حتى جاء الوقت الذي أصبحت فيه العاصمة تحت سيطرتهم .

* * *

تعاقب على العرش عدد من الأباطرة الذين دبت في عهدهم عوامل

الفوضى والاضلال ، وكانوا يجاهدون في يأس ، ويتلسون الوسائل التي تقوى من شوكتهم وتحفظ لهم سلطانهم .

وتعرضت هيبة الامبراطور (إياسو الثاني) إلى كثير من الضعف عندما لحقت بجيوشه الهزيمة الساحقة من جيوش ملكة الفونج الإسلامية (في السودان) على النيل الأزرق عام (١٧٣٥ - أو عام ١٧٤٤ م) ، وكذلك عندما تعرض وفد ملك الحبشة إلى مصر للحصول على مطران ، لاعتماد الأتراك العثمانيين في حريقو ومصوع في ذهاب الوفد وفي عودته .

ولقد عمدت والدة الامبراطور وقتئذ على تقوية مركز نجلها بتزويجه من ابنة أحد زعماء الجالا الأقوياء ، وبذلك اختلط دم الأسرة المالكة بعنصر جديد ، واكتسبت الجالا مقاماً سامياً بعد أن أصبح من أبنائهم من ارتقى إلى مركز الإمارة ، وأصبح من بين ملوك الحبشة المسيحية من يجرى في عروقه دم قبائل الجالا ، وما أن حدث هذا الاختلاط حتى أمعن الجالا في الحصول على النفوذ والثروة وازدادت قوتهم واكتسبوا المزيد من السلطة وأصبحت لهم خطورة من نوع جديد ، وتسمنوا من المناصب الكبرى ما كانت في السابق وفقاً على أمراء البيت المالكة ، ومن ذلك تعيين اثنين منهم محافظين للمقاطعات ^(١) .

أدت هذه الأحداث إلى ما ليس منه بد ، وهو إقسام الامارات وقويت شوكة بعض الأمراء بحيث أخذ كل أمير يتصرف مستقلاً عن الملك أو الامبراطور ، ودارت بين هذه المقاطعات المناوشات والحروب الصغيرة والغارات . ومنذ ذلك الوقت بدأت دولة الحبشة تتخذ شكلها القديم وهو عبارة عن مجموعة من الممالك المستقلة التي يتنافر بعضها مع بعض ، على رأسهم نجاشي لا يملك إلا السلطة الرمزية التي لا تمتد في حقيقتها خارج حدود عاصمته جوندار .

(١) ص ١٠٤ — ١٠٥ الاسلام في اثيوبيا لترتجمام .

تفكك الامبراطورية وسيطرة الجالا على العرش :

لم تكن الامبراطورية الحبشية في أى عهد من عهودها متجانسة من الوجهة السياسية ، بل كانت دائماً عبارة عن مجموعة من الإمارات أو السلطنات ، ومن هنا جاءت تسمية الامبراطور (بملك الملوك) ، ولذلك كان توحيد الدولة بطيئاً ، ولم يصل في التاريخ إلى الوحدة الحقيقية الكاملة ، والحقيقة أن سلطة الحكومة المركزية لم تكن تبرز وتنبأ إلا كلما كان هناك خطر مشترك يحاول الجميع دفعه كالاتحاد بين الممالك المسيحية لمواجهة الزحف الاسلامى . أو كلما تسلم العرش ملك قوى وعاونته الظروف على السيطرة على أنحاء البلاد المختلفة - بالقوة -

وبما كانت الوحدة بعيدة ، بطيئة التحقيق كذلك كانت التفرقة الكاملة بين الإمارات المسيحية بعيدة التحقيق أيضاً ، إذ كانت سلطة الأسرة السلطانية التاريخية وكذلك نفوذ الكنيسة من العوامل التى حالت دون حدوث التفرقة الكاملة في المملكة المسيحية .

وبالرغم من ذلك كانت سلطة الامبراطورية تتضاءل كلما امتد زحف قبائل الجالا التى تمكنت من الانتشار بحيث أحاطت بكثير من الإمارات وعزلتها عن جاراتها مثل مملكة سيداما ، وامتد انتشارهم إلى منطقة النيل الأزرق وشمل أغلب إقليم شوا ، بينما تسلك فريق منهم منطقة البحر الكبير في الغرب كان الفريق الآخر يمتد إلى شرق مملكة الحبشة إلى نهر أوأش ، وفيما بينهما توغلا في صميم الهضبة وتمكنوا من تكوين مجموعات قوية من قبائلهم مثل (واللو Wallo) و (الياجو Yajjo) و (الرايا Raye) .

ولم تقتصر أهمية الجالا على تغلغلها في البلاد وتمزيق الروابط بين مختلف الممالك وسيطرتهم على الحرس الامبراطورى ، وإنما ازدادت خطورتهم لأنهم اعتنقوا الاسلام^(١) ، وعندما استقروا وتركوا طبيعتهم

(١) ١٠٦٠ الاسلام في اثيوبيا لترمفهام .

البدوية وأصبحت لهم مراكز ثابتة واشتغلوا بالزراعة والرعي - تكونت منهم كتل قوية مركزة تتميز بصفاتها الحربية الممتازة ، مما جعل الامبراطور يستزيد من اعتماده عليهم ، وحذا حذوه باقي الامراء والملوك ، أما من جانبهم فقد حافظوا على استقلالهم وتكتلاتهم وفي القرن الثامن عشر عززوا استقلال شخصيتهم باعترافهم الاسلام^(١) .

وبالرغم من اشتراك جميع قبائل الجالا فوق الهضبة في اعتناق الإسلام إلا أن فروعهم المختلفة لم تفكر في الاتحاد مع بعضها تحت هدف واحد بل كانت مكتفية بما وصلت اليه من نفوذ . ولم يطرأ من الحوادث ما يدفعها إلى التفكير في الاتحاد والتكتل ، ولقد كتب في ذلك الميجر هارس (Major Harris) الذي أوفد في مهمة إلى ملك شوا عام ١٨٤٠ وقال . (ولقد كان الجالا يكرهون المسيحيين والوثنيين على السواء ، ويعاملونهم بقسوة وشدة كلما أتحت لهم الفرصة لذلك ، ولو أن قبائل الجالا المذكورة ثبات لها الظروف للاتحاد ووقعت الحبشة تحت سلطة حاكم مسلم لا اكتسحت قبائل الجالا جميع البلاد وقضت على ما عداها من سلطات) .

ولكن قبائل الجالا لم تفكر في مثل هذه الأمور ولم تنطلق إلى العرش وبذلك بقيت مملكة الحبشة - على ضعفها - محافظة على عرشها الرمزي ؛ بالرغم من أن المملكة انقسمت إلى أربع مقاطعات هامة فوق الهضبة تتمتع كل منها بقدر كبير من الاستقلال ، ولم يكن يجمعهم إلا الولاء الاسمي للامبراطور وولايتهم جميعاً للكنيسة الحبشية . وهي مقاطعات أمهره وتيجرى وجوجام وشوا .

ومرت بهم كثير من الأوقات التي زالت فيها سلطة الامبراطور الرمزية وأخذت الإمارات الأربع تتصل مع الدول الأجنبية مباشرة وتقدم معها المعاهدات السياسية . ولكن هذه الظروف ما لبثت أن انتهت ، بعد أن بدأ

(١) ص ١٠٧ الاسلام في أنيويلا لترميجام .

أمراء الحبشة يشعرون بالخطر الذي يتهددهم بازدياد النفوذ الإسلامى وقوة الممالك الإسلامية التى زاد نشاطها فى مصر والسودان والبحر الأحمر .

كذلك بدأ الأمراء يشعرون أيضاً بخطر آخر يهددهم من ازدياد قوة الدول الأوربية وأطماعها التى أخذت مظهرأ خطيراً منذ بداية القرن الثامن عشر .

كل هذه الظروف مجتمعة هأت الظروف لظهور شخصية كبيرة فى الحبشة وقضت على سلطة الجالا ، وتغلّبت على أمراء المقاطعات المختلفة ووحدت المملكة الحبشية المسيحية فوق الهضبة تحت سلطاتها وقطعت تسلسل الحكم من الأسرة السلمانية وهذه الشخصية الهامة هى 'شخصية ملك الملوك النجاشى تيودور الثالث الذى تولى العرش فى عام ١٨٥٥م^(١) .
للتى سيأتى تفصيل ذكرها فى فصل قادم مستقل .

* * *

تقدم الإسلام أثناء الانقسامات الاقليمية (٢) :

كان الإسلام فى بداية القرن التاسع عشر يمر بفترة ركود . فقد أثناءها حماسه ونشاطه نحو التقدم والانتشار ، ولكن هذا لم يمنع من استمرار انتشاره بين قبائل الجالا وقبائل الباتو .

وأما ممالك سيداما فانها بعد مقاومة دامت قرنين من الزمان اعتنقت الإسلام ، وأهمها ممالك (جيميا Jimia) (وجوما Gomma) (ولماأيناريا LimmaEnarya) (وجيوما Guma) وجميعها فى الجنوب الغربى من الحبشة ولم يكن اعتناق هذه الممالك للإسلام راجعاً لنفوذ قبائل الجالا وحده ، بل كان يعود إلى النشاط الذى بذله التجار المسلمون وتقدير شعوب هذه الممالك لهم ، لما كانوا يجلبونه للبلاد من خير ورواج ، ولقد عاش هؤلاء التجار

(١) من ١٠٥ وما بعدها الإسلام فى أثيوبيا لترمنجهم .

(٢) من ١٠٩ وما بعدها نفس المرجع .

بينهم واختلطوا بهم وتزوجوا منهم ولم يكونوا ليفادروا تلك البلاد لإمارة واحدة كل عام ، إما إلى السودان أو إلى الشاطئ الشرقي من أفريقيا ، وبذلك أتاحت لهم الظروف وساعدتهم الوقت على نشر الدعوة الإسلامية ، فما أن جاء منتصف القرن التاسع عشر حتى كان ملوك هذه الممالك والغالية الكبرى من شعوبهم قد اعتنقت الإسلام .

ولقد تمكنت مدينة هرر في تلك الأثناء من استعادة نشاطها كمرکز للاشعاع الإسلامي في أنحاء المقاطعة وعلى وجه الخصوص بين قبائل الجالا التي كانت تعيش إلى الجنوب والغرب من هرر ، أما منطقة العروسي فلم ينتشر فيها الإسلام إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وأما في مملكة الحبشة نفسها (فوق الهضبة) فقد بلغ انتشار الإسلام فيها مبلغا كبيرا عن طريق إسلام قبائل الجالا الذين استقروا فوق الهضبة كما سبق أن قدما وزاد على ذلك أن ظهر من بينهم كثير من الأمراء الأقوياء الذين حببوا سلطة الامبراطور الاسمية في جوندار ، وأصبحت اماراة بعض الامارات وراثية بينهم في بعض المقاطعات مثل مقاطعة بيجمدير . ولكن للحصول على لقب الامارة أو تسمي الملك حتى ذلك العهد كان من التقاليد والقوانين القديمة في مملكة الحبشة ألا تكون الامارة إلا بين المسيحيين لذلك كان المسلمون الذين يطعمون في لقب الامارة يختصرون الطريق ويوفرون على أنفسهم كثيرا من المشاكل والعقبات ويعلمون اعتناقهم الدين المسيحي ، وما كان ذلك منهم إلا تمثيل ظاهري يقتضيه الموقف ، وكانوا في حقيقة الأمر محافظين على اسلامهم ويظهر ذلك منهم في تصرفاتهم وشعورهم وسياساتهم التي يتبعونها بين رعاياهم بتأييد الإسلام والمسلمين ، ولذلك كان من أظهر الشواهد على ذلك انتشار اسم «علي» و«الإمام» بين هؤلاء الأمراء . ولقد كان من نتائج هذه الطريقة العجيبة أن زاد - الإسلام في داخل مملكة الحبشة المسيحية حتى بلغ حسب تقدير (ماسايا Massala) إلى ثلث السكان مما ينع عن انتشار الإسلام بين الممالك المسيحية بشكل لم يكن متظرا .

وبينا يعتقد البعض في أن التقدير السابق يميل إلى المبالغة ، فإن التقديرات الأخرى التي تميل إلى التقليل (كـ تقدير ستيرن H.A'Stern, 1860) يقول أنه ولو أن أتباع النبي العربي ليسوا عديدين إلا في العاصمة جوندان فإن هذا لا يمنع وجودهم في تجمعات صغيرة منتشرة في جميع أنحاء البلاد (كل هذه التقديرات السابقة تتعلق بانتشار الإسلام فوق الهضبة داخل مملكة الحبشة المسيحية ولا تتعلق بتعداد السكان في باقي مناطق الحبشة التي تشكل ثلاثة أرباع البلاد وينتشر فيها الاسلام انتشارا واسعا ، ويشمل من بينها ممالك بأكملها)^(١)

* * *

ولقد أتت الفرصة للإسلام في عهد الاضطرابات التي سبق ذكرها أن ينتشر بين قبائل التيجري التي تسكن شمالي الحبشة وكذلك جزءا من المنطقة المعروفة لدينا الآن باسم (اريتريا) ، ولقد كانت هذه القبائل التي بالأريتريا تنتمي المسيحية قبل ذلك ، ولكن جانبا كبيرا منها تحول إلى الإسلام وكان ذلك عائدا إلى سببين أساسيين ، ذكرهما (بلاوذين Plowden)^(١) ، أولها انتشار الفوضى والاضطرابات في المنطقة وتخاذل الحكام المسيحيين وثانيهما نشاط التجار ومعهم الدعاة المسلمون ، وكانت أحوال الكنيسة ورجال الدين المسيحي في ذلك العهد تمر بمرحلة من الضعف والاضطراب بلغت بهم إلى حد اليأس ، فتضافرت جميع الظروف إلى دفع السكان إلى أحضان الإسلام. وظهرت في ذلك الوقت جهودات دعاة الإسلام المشهورين من أمثال الوهايين والسيد / أحمد بن إدريس القاسمى ، اللذين امتد أثرهم حتى شمل جميع القبائل التي تتكلم اللغة التيجرية ، بالإضافة إلى قبائل بني عامر وباقي فروع البجة التي سبقتهم إلى الإسلام بتأثير مملكة الفونج السودانية ، وبلغ نشاط دعاة الإسلام ذروته في عهد محمد عثمان الميرغنى الذى أوفده أحمد بن

(١) المؤلف .

ادريس في عام ١٨١٧ م وما أن جاء الفتح المصرى حتى تم اسلام جميع هذه المناطق .

ولقد ذكر الرحالة الذين زاروا هذه البلاد ، أن السبب في نجاح الإسلام في المناطق المسيحية هو التفوق الروحي الذي تميز به المسلمون عن المسيحيين^(١) وذكر (روبل Ruppel)^(٢) أن المسلمين « الجبرته » كانوا يتميزون عن المسيحيين بالنشاط ، ولقد كان أطفالهم يقبلون على تعلم مبادئ القراءة والكتابة بينما لم يكن يعنى المسيحيون بتعليم أبنائهم أى شيء ، اللهم الا بعض هؤلاء الذين كانوا يعدونهم للخدمة بالكنيسة . ولذلك كان من الطبيعي أن يتولى المسلمون جميع المناصب التي تتطلب الكفاءة والثقة .

* * *

وما ساعد على انتشار الاسلام في الحبشة كما حدث في المناطق الأخرى من افريقيا ، أن الحبشى المسيحي يعتبر نفسه محاربا أو راعيا ، ويحتقر التجارة والتجار ، لذلك سيطر المسلمون على التجارة الداخلية والخارجية مما جعلهم يتميزون بالصفات التي تكتسب من الحركة والسفر والاتصال .

ولكن انتشار الاسلام في تلك الفترة كانت تسوده العوامل الطبيعية الهادئة في التغلغل ، ولم تسرب إلى الأذهان نزعات التكتل والاتحاد التي تثيرهم المسيحيين ضدهم . فلم يأبه المسيحيون بما يجرى حولهم ، ومع ذلك فانهم أخذوا يشعرون بالخطر الذي يداهمهم من جهة قبائل الجالا وتسلمهم إلى معازل المسيحية فوق الهضبة ، ولكن الكنيسة كانت في حالة من الضعف والاضلال فلم تتمكن من إيقاف هؤلاء الجالا المسلمين عند حدم فتحطمت الملكية وساد عهد الانقسامات الاقليمية فترة من الزمن .

(١) ص ١١٣ الاسلام في اثيوبيا لترمنجهام .

E.Ruppel, Reise in A bysinien (1388) 327-8, 366, (٢)

وقد ذكر الكاردينال (ماساجا) الذى أمضى خمسة وثلاثين عاما يعمل فى التبشير فى الحبشة ، (أن نفوذ الاسلام فى ختام هذا العهد قد وصل إلى الحد الذى لو أتيح له وجود إمام آخر مثل الامام أحمد الاشول ، ليرفع راية الرسول لتحولت جميع الدولة إلى الاسلام) ويدل تصريح ماساجا هنا على مقدار ما وصل إليه نفوذ الإسلام فى ذلك الوقت ، ولكن الخطر جاء إلى البلاد بعد ذلك من الخارج ^(١)

الفصل الثاني عشر

الامبراطور تيودور

والحملة الإنجليزية

وصلنا في تسلسل الحوادث إلى نهاية القرن الثامن عشر عندما انقسمت مملكة الحبشة المسيحية (على مرتفعات الهضبة) إلى عدة ممالك كل منها تتمتع بقسط كبير من الاستقلال وتضاملت سلطة الامبراطور ولم تكن تتمتع بحدود مدنيته جوندادار . عاصمة مملكةه ، واستمر هذا الانقسام في المملكة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى اتبع للمملكة من وحدها ، ظهر فجأة واختفى فجأة فكان حكمه كالشهاب ، ما أن سيطر على البلاد في سرعة خاطفة حتى اختفى بنفس السرعة — وكان حكمه للحبشة لحظة من لحظات التاريخ .

ولد كاسا (الذي سمي نفسه فيما بعد — تيودور) في عام ١٨١٨م وكان والده من موظفي الحكومة وكانت والدته من امرة متواضعة ، وكانت ولادته بين قبائل الاجاو في غرب الحبشة سبياً في معرفته للغة (كوارو) بجانب معرفته للمأهرية ، ولقد مات أبوه وهو لا يزال طفلاً صغيراً ، وعندما شب التحق بالدير ليتلقى التعليم التقليدي لرجال الدين . مما كان له شأن كبير في تقانيه وتعصبه في خدمة الديانة المسيحية فيما بعد . وشاءت الظروف التي سادت البلاد في ذلك العهد أن يحطم الدير ، فدفعت به الاقدار لكي يكون زعيماً لاحدى عصابات قطاع الطرق (الشيفتا Shitta) التي كانت مقصورة على الشباب الذي يتمتع بالشجاعة والجرأة والقدرة على الحركة والقتال ، ولقد كانت تلك الفترة أهم أثر في حياته ، إذ كانت أساساً لنبوغه فيما بعد كجندي قدير وكقائد وزعيم .

ولقد حازت غاراته وغنائمه شهرة واسعة لفتت إليه الأنظار وجعلته أهلاً لكي يتزوج من ابنة الرأس على أمير يجمدير . واستمر في جولاته وغاراته حتى تمكن من هزيمة كثير من الأمراء وعلى رأسهم أمراء قبائل الجالا ومن بينهم والد زوجته ، وبذلك قضى على سلطة الجالا ونفوذهم ، وبعد ذلك أخضع مقاطعة تيغرى ، وما أن جاء عام ١٨٥٠ حتى كان قد قضى على جميع الملوك والأمراء المتنافسين .

ونصب نفسه امبراطوراً في عام ١٨٥٥ ، وسمى نفسه الامبراطور تيودور الثالث^(١) وأدعى بأنه نسل الأسرة السلطانية الحاكمة وهذا يخالف ما عرفت عن حقيقة نشأته ، كذلك زعم أنه هو المقصود بنبوة قديمة تقول : يظهر ملك اسمه تيودور يحطم الإسلام وينعيد الاستيلاء على بيت المقدس^(٢) ، ولذلك رسخ في ذهنه أنه بطل جديد لحروب صليبية ضد المسلمين وسيطرته هذه الفكرة عليه واستمرت بارزة في جميع تصرفاته .

* * *

ولقد كان النفوذ البريطاني قد بدأ في الظهور في هذه الجهات منذ وقت غير بعيد ، وبدأ نشاط بريطانيا في إنشاء العلاقات مع مختلف الممالك وتوطد صلاحها فأوفدت إلى الحبشة قنصلها يدعى (بلاودن Walter C. Plowden) الذي عاصر الامبراطور تيودور وعرفه عن قرب وكان موضع ثقته وعاش بالحبشة مدة طويلة ويعود اليه الفضل في كتابة تفصيل هام لتاريخ هذه الفترة ، ولقد كتب بلاودن في وصف تيودور ما يعتبر أدق وصف لشخصيته العجيبة المليئة بالتناقض .

ولقد كان تيودور في كثير من أفعاله قريب الشبه بإيفان الرهيب ، وفاق

The Blue Nile by Alan Moorehead

(١) ص ٢٠٧

Islam in Ethiopia by Trimmingham

(٢) ص ١١٧

في قسوته جميع المقاييس الحبشية ، ولكن تمر به بعض المناسبات الطيبة التي تظهر عليه فيها لمحات من النبل ، ولقد كان سريع الغضب والانفعال ، ولذلك لم يكن ذلك الشرير الذي يدبر الشر ، ولكنه يقوم بأفعاله الجنونية دون سابق تحضير أو تفكير .

و عندما كان تيودور صغيراً كانت تغلب عليه سمات اللباقة والرفقة ، ولما كبر وتسلم زمام السلطة أصبح عنيف الغضب ، يرتجف منه الجميع ، ولكنه كان جم النشاط والحزم منديناً - بالغ الكرم - متحمساً بجميع الصفات التي يتحلى بها كثير من الزعماء من شجاعة وطموح وخيال وتفاؤل في تحقيق الإصلاح والتقدم ، ولكنه بجانب هذا لم يكن يتحمل الفشل (١) .

ولقد كانت تلك الصفات العنيفة المتناقضة سبباً جوهرياً في اضطراب تقديره للأموال وعواقبها ، ولم تسمح له بأن يتبين طريقه بحيث يعلم أين يتوقف ، وعندما لحقته المزعومة أخذ في ثورة هوجاء يضرب ذات اليقين واليسار محطماً أعوانه كما حطم أهداه ، يتملكه شعور الأطفال الذين يرتكبون الأخطاء وهم يعلمون أنها أخطاء ثم يندمون بعد ذلك ويطلبون المغفرة .

. . .

تمكن الامبراطور تيودور من السيطرة على مملكة الحبشة وتوحيدها ، وقضى على سلطة الملوك والأمراء وأعاد إلى الكنيسة هيبتها ومكانتها بين الناس ، وعاد الشعب للانفاس حولها ، وبذلك أخذت تبرز إلى الوجود شخصية الدولة الحبشية الحديثة .

ولقد بادر بإجراء كثير من الإصلاحات في شئون الدولة . بأن النى

تجارة الرقيق وتعدد الزوجات : وإن كان تحقيقهما الكامل لم يتم ، إلا أن اتجاهه في سبيل الإصلاح لمثل هذه الأمور يتم عن حبه للعدل وشغفه بحماية رعاياه .

ولقد شعر تيودور بأن اتخاذ جوتندار عاصمة للدولة كانت له آثاره السيئة في انهيار سلطة الأباطرة ولذلك نقل عاصمة ملكه إلى (مجدلا Magdala) التي تتوسط الدولة وتميز بحصانة موقعها ، وعاد إلى عادات الأباطرة القدامى بكثرة التنقل بين الأقاليم حتى تظل سيطرته قائمة ، ويظل الأمن مستتباً والولاة له مستمراً وساعده على تنقلاته وسرعة حركته ما كسبه في شبابه من خبرة عندما كان زعيماً لحدى عصابات قطاع الطارق (الشيفتا) ولقد أضاف إلى تنقلاته مظهر أجديداً ، وهو استعماله للمرة الأولى عدداً كبيراً من الخيाम له ولأفراد حاشيته وجنوده .

. . .

علاقته مع بريطانيا :

في عام ١٨٦٠ توفي القنصل البريطاني (بلاودن) وهناك اعتقاد بأنه مات مقتولاً فأرسلت بريطانيا في عام ١٨٦٢ قنصلاً آخر يدعى (كابتن كامبرون Captain Cameron) وحمل معه خطاباً إلى تيودور من الملكة فيكتوريا ، وحرر تيودور رداً إلى الملكة ، ولأهمية هذا الكتاب وما نشأ عنه من سوء تفاهم وما ترتب عليه من أحداث جسام نورد فيما يلي ترجمته السكاملة .

(باسم الأب والابن والروح والقدس — الإله الواحد في الثالوث ، من ملك الملوك المختار . من الرب — تيودور ملك أثيوبيا إلى صاحبة الجلالة ملكة إنجلترا) .

ه أتمنى لجلالتك الصحة الطيبة — وأتى في خير حال بمشيئة الله . إن

آبائي الاباطرة بعد أن نسوا الخالق فإنه قد أعطى ملكتهم إلى الجلالا والأتراك، ولكن الله قد بعثى ورفعني من التراب ووضع هذه الامبراطورية تحت حكمي ، ومنحني من القوة ما مكنتني من الوقوف في مكان أجدادي ، وبهذه القوة تمكنت من التغلب على الجلالا ، أما بخصوص الأتراك فإنني أخطرتهم بترك بلاد أجدادي ولكنهم رفضوا ولذلك سوف أتصارع معهم .

« ولقد دأب مستر بلاودن وكذلك مرافقي الخاص الإنجليزي بل (Bell) على إخباري بأنه توجد ملكة مسيحية عظيمة تحب المسيحيين . وعرضوا على أن يعملوا على تعارفنا وعقد الصداقة بيننا ، مما ملأني سروراً بحصولي على نوايا جلالتكم الطيبة . »

« والموت مقدر على جميع الرجال ، ولقد قام أعدائي بقتل أصدقائي (بلاودن وبل) ولكني بمشيئة الله قضيت على هؤلاء الأعداء ولم أترك منهم أحداً ، بالرغم من أنهم كانوا من أفراد عائلتي ، حتى أحطى بصداقتكم بمشيئة الله ، وأن الأتراك الذين يسيطرون على شواطئ البحر يمنعونني من إيفاد بعثة إلى جلالتكم عندما أكون في شدة . ولقد وصل القنصل كاهيرون ومعه كتابكم وهداياكم ، ولقد سررت بسماع أخباركم وتأكيد صداقاتكم ، وأشكركم على هداياكم . »

« ولإني أخشى إذ أنا أرسلت وفداً من عندي يحمل هداياي إليكم أن يقبض عليهم الأتراك ، ولذلك أرجوكم أن تقوموا بالمحافظة على سلامة رسلي في جميع مراحل الطريق ، وأود أن أتلقى رداً على كتابي هذا عن طريق القنصل كاهيرون الذي يحمل رسالتي إلى انجلترا ، انظري كيف يظلم الإسلام المسيحيين . »

ولقد وجد هذا الكتاب طريقه إلى لندن ، وشاءت الظروف أن يهمله أحد موظفي وزارة الخارجية ، ولم يصل تيودور رد في الوقت المناسب مما أثار غضبه . واعتبره إهانة ، زادت في نظره خطورة عندما علم أن

كاميرون قد عاد من لندن إلى شرق السودان ، كسلاء ، لكي يدرس إمكان زراعة القطن بها بعد أن قص الوارد منه إلى إنجلترا بسبب الحرب الأهلية الأمريكية . وكانت السودان في ذلك الوقت العدو للدودللامبراطور تيودور . وتبلغه بين الحين والآخر أخبار استعداد (المصريين) في السودان وتآمهم لغزو الحبشة .

ولقد كانت حمى التنافس الاستعماري قد بدأت في الحبشة ، وكان بها عدد من الأوروبيين من مختلف الجنسيات . بدرت من بعضهم نزعات التربص . وانتهاز الفرص ، وأساء البغض الآخر فهم العقلية الحبشية وكانت بعض تصرفاتهم تسيء إلى أهل البلاد وعلى الأخص نشاط البعثات التبشيرية التي حاولت تحويل الشعب إلى المذهب الكاثوليكي ، دفعت جميع هذه الأمور مجتمعة الامبراطور تيودور إلى الريبة في جميع الأوروبيين واتخاذ الحيلة من أساليبهم وغضب الامبراطور غضباً شديداً عندما بلغه أن المبشر الانجليزي شيرن (Stern) ألف كتاباً فيه إهانة للامبراطور وأمرته - وتطوع الفرنسيون بترجمته للامبراطور .

وعندما تخيل تيودور من كل ما سبق من أحداث أن الإنجليز يتآمرون مع الأتراك والمصريين للقضاء على الحبشة . انقض على الارشاليات الأوروبية الموجودة في جونداد وكلمهم بالاغلال ووضعهم في السجون . وما أن عاد كاميرون في ١٨٦٤ إلى الحبشة حتى قبض عليه الامبراطور ووضعه في السجن مع الآخرين .

فشلت جميع وسائل الشرح والاقناع والتفسير مع الامبراطور تيودور الذي تغلب عليه أسوأ صفاته واحتدمت نيران غضبه وأمر بتعذيب كاميرون ، ووصلت أخبار تلك الحوادث إلى عدن في ١٨٦٤ م ومنها إلى لندن ، وأدت إلى تحرير كتاب من الملكة فيكتوريا إلى الامبراطور تيودور تقول فيه : -

(بلغنا أخيراً أن جلالته قد سحبت ثقتكم وعطفكم من خادمنا ، ونحن على ثقة من أن ذلك يعود إلى تفسيرات خاطئة يديها إليكم أشخاص لا يحملون لكم مودة وبهمهم أن يعكروا صفو العلاقات وشعورنا الطيب نحوكم ، وليس هناك دليل على حسن نوايا جلالتهكم أبلغ من إطلاق سراح خادمنا كامبيرون ومن معه من الأوربيين ومساعدتهم وحمايتهم في طريق عودتهم إلى الأماكن التي يرغبون العودة إليها) .

ولكن تيودور استمر في عناده ولم يقم وزنا لكتاب الملكة فيكتوريا . وأمعن في إهمال وفودها ثم حجزهم في بلاده ومنعهم من العودة ثم أمر بسجنهم ، ووضع الأغلال في أيدي وأقدام أغلب المعتقلين ، واستعمل مع عندوبي انجلترا أساليب المزاوغة التي اشتهر بها الأحباش ، وبلغ في ذلك أقصى ما عرف عنهم في هذا الشأن ، واستمر تعذيبه لندوبي انجلترا ومن معهم من الأوربيين ما ينوف عن أربع سنوات - مما لم تجد انجلترا معه بداً من الالتجاء إلى القوة . فجرت عليه الحملة الشهيرة تحت قيادة (سير روبرت نايير Sir Robert Napier) . التي سنرى تفصيلها فيما بعد .

* * *

وكان تيودور يعتبر الحبشة والمسيحية صنوان لا يفرقان ، لذلك جعل همه بعد انتصاره على الجالا وإخضاعه جميع الممالك ، أن يستعمل القوة في إجبار المسلمين والجالا وكذلك الفلاشة والآجاو على اعتناق المسيحية . ولكنه فشل في تحقيق ذلك ^(١) بالرغم من قوة الإجراءات التي اتخذها في هذا الشأن .

ولقد ساءت علاقة تيودور مع الكنيسة القبطية في عهد البطريرك كيرلس الرابع لأنه استجاب لرغبة خديوي مصر في السفر إلى الحبشة للتوسط

(١) الاسلام في اثيوبيا لترنجهام ص ١١٨

لدى الأمبراطور تيودور لتحسين العلاقات بين مصر والحبشة ، ولقد كانت هذه أول مرة يقوم فيها بطريك بزيارة الحبشة ، ولكن تيودور لم يكن على استعداد للاقتناع بمهمة البطريك وكيف يمكن أن يكون وهو رأس الكنيسة القبطية رسولا لدولة مسلمة ، ولذلك قابله ببرود في ديسمبر سنة ١٨٥٦ م ، ثم سجنه بضعة أيام ولم يسمح له بالعودة إلى مصر إلا في نوفمبر سنة ١٨٥٧ م ، وسوف يأتي تفصيل لموقف مصر من الحبشة خلال تلك الفترة في الفصل القادم ^(١) .

* * *

فنعلم أن تيودور قام بكثير من الإصلاحات الجريئة ، وكان من الواضح أن تلك الاصطلاحات قد لاقت الترحيب من الشعب ، بينما وقف منها الأمراء الإقطاعيون موقف العداء ، ولكنهم أمام سلطة تيودور وبطشه اتجه عداؤهم له يتخذ طابع التآمر السري ، وتمكنوا من إثارة بعض القلاقل التي قعها تيودور بمنتهى الشدة والقسوة ، وعندما شعر بأنه وحيد ولا يؤازره أحد من الأمراء ، أمعن في البطش والعنف ، وأصبح ضارياً لا يمكن تهدئته أو التفاهم معه ، وطلعت قسوته على ما كان لديه من صفات حميدة ، وسيطرت عليه عصبية بلغت حد الجنون .

لذلك لم يكن توحيد الحبشة ذا فائدة أو معنى حقيقي ، إذ أنه وحده البلاد بالقوة ، واكتسب عدا جميع الأمراء الذين أخذوا يتجهينون الفرص للنيل منه . مما اضطره للاعتماد الكامل على قواته العسكرية ، يقفز بها من مكان إلى آخر لإخماد الفتن والثورات .

* * *

طغيان تيودور :

عندما أصبح تيودور في أوج قوته عمل على تحقيق ثلاثة أهداف هامة :

(١) ص ١١٨ نفس المرجع .

- ١ - القضاء على سلطة الطبقة الأرستقراطية والإقطاعية في البلاد .
- ٢ - القضاء على الجلالا أو اعتناقهم المسيحية .
- ٣ - طرد جميع المسلمين الذين لا يعتنقون المسيحية .

بدأ حروبه مع الجلالا وفي طريقه استولى على علكه شوا ، ولما مات ملكها استولى على ما عنده من مدافع ، (التي كان قد أهداها الميجر هاريس إلى سلفه مهلا سلامى) وأسر زوجة الملك وابنها منليك — ولكنه أحسن معاملة منليك وعامله كابن له . بالرغم من أنه إحتياط وحدد إقامته داخل قلعة مجدلا .

وفجأة ركب تيودور الغرور وتغيرت أخلاقه وأصابته لوثة من الجنون في القتل والفتك بالناس . فكان يجمعهم (٧٠٠٠ في إحدى الممرات) ويحرقهم مرة واحدة ، ثم أمر مرة أخرى بإطلاق النار على ٤٥٠ قيس خرجوا بالطبول لاستقباله فقتل عليهم دفعة واحدة — بدون سبب — وأحرق في إحدى نزواته ١٧٠٠ من الفلاحين والعمال ، وأمر جنوده بالاستيلاء على ما في مدينة جوندان من غنائم — واعتدى جنوده على الأديرة وسلبوا ما فيها من كنوز وتحف ولم يبقوا فيها شيئاً حتى ملابس الرهبان والآلات والصلبان والستائر الحريرية والحلي الذهبية ، وتقلوها جميعاً إلى دبرا تابور ، ثم نقلت فيما بعد إلى مجدلا .

وتقول المصادر الأثيوبية التي سجلت هذه الحوادث أن تيودور قد أسكرته خمر النصر والقوة ، فتعدت وحشيته جميع الحدود المألوفة حتى بين العصابات المتوحشة في الجبشة .

ولكنه استمر يعامل منليك معاملة طيبة وزوجه من ابنته — ولكن منليك والدته تمكنا في إحدى الليالي من الهروب من قلعة مجدلا — ويدور أن ذلك تم بمعاونة باقي الأسرى ومعظمهم من قبائل الجلالا وكان معهم المطران

الذى كان معتقلا وقتئذ ، وعاد منليك إلى مملكته شوا واستقبله الشعب هناك استقبالا رائعا - فثار غضب تيودور واستدعى أمامه ٢٤ رئيساً من زعماء الجبال وقطع أيديهم وأرجلهم ثم قذف بهم من ربوة عالية فتحطموا ^(١) .

تجمع زعماء الجبال وقرر والعصيان ، ووجدوا قواتهم (١٨٦١ - ١٨٦٢) وقاموا بثورتهم - وعند وصول منليك إلى شوا أعلن استقلاله ، وفى وسط هذه المجازر التى يقيمها تيودور أخذ الشعب ينظر إلى منليك فى إعجاب وأمل - ولقد كانت نفس تيودور تراوده على الاستيلاء على مصر والسودان والنوبة وأواسط أفريقيا - ولكن الحكومة المصرية سبقته إلى ضم السودان إليها ، وبدأت تهدد حدوده ، وفى نفس الوقت كانت قوات الدول الأوروبية البحرية تنتشر فى البحر الأحمر وتتزعزع الموانئ الهامة من العثمانيين واحدة بعد الأخرى ، وأصبح تيودور محصوراً ، وأخذت منطقة نفوذه داخل بلاده فى الانكماش .

وكان أم الملوك الذين ظهروا فى الحبشة فى ذلك الوقت واستقلوا عن الحكم التيودورى - منليك ملك شوا - ويوحنا ملك تيجرى - وجوباز ملك امهرا . ولقد أخذوا فى مراوغة تيودور وتحاشوا مجابهته فى معارك حربية . بل كانوا يفسحبون ويتحصنون فى الجبال عندما تقدم قواته ، فكان تيودور يصب جام غضبه على الفلاحين ويقتلهم ويمرّق منازلهم . ولقد أنهكته هذه المطاردات وقضت على جنوده الذين أباهم البرد والجوع ، وانخفضت جيوشه من ٥٠٠ ر ٥٠ إلى ٥٠٠٠ جندي ^(٢) .

* * *

(١) المئعات ٤٩٣ وما بعدها - السير بذج Budge

(٢) من ٥٠٠ سير بذج Budge

حملة نابيير (Napier Expedition) (١)

أثناء هذه الظروف التي كانت سائدة بالحشة تحت حكم تيودور ، وصلت الحملة البريطانية تحت قيادة نابيير ونزلت في ميناء (زولا) جنوب مصوع في عام ١٨٦٧ وكانت قد سبقت ذلك عدة اتصالات وافق بعدها خديو مصر على أن يمد يد المعونة للإنجليز ، وأمر عبد القادر باشا الطوبجي محافظ مصوع وقتئذ بمعاونة الجيش الانجليزي في نزوله إلى البر ، ووضع الأسطول المصري تحت تصرف الانجليز ينقل مهماتهم ومؤنهم من السويس إلى مصوع (٢) . ولقد كان من أسباب منح بريطانيا هذه التسهيلات ، سوء العلاقات التي نشبت في ذلك الوقت بين تيودور وسعيد باشا والى مصر .

وقد قامت الحملة من يومى بعد دراسة مستفيضة لجميع الظروف المتوقعة وغير المتوقعة ومتطلبات الحرب من أسلحة وأغذية ووسائل المواصلات الحديثة ، وأصبحت العناصر الأساسية للحملة تتألف من ٣٢٠٠٠ رجل منهم ١٣٠٠٠ جندي والباقي لأغراض الحملة المختلفة ومن بين الجنود ٤٠٠٠ أوربي فقط ، وكان للحملة ٥٥٠٠٠ من الدواب للركوب ونقل الأغذية والعنادر ، وكذلك ٥٠٠٠٠ طن من اللحوم المملحة ومثلها من اللحم الخنزير و ٣٠٠٠٠ جالون من الخمر وكميات كبيرة من الخضروات المكبوسة والبن المجفف .

ومن أهم مستحدثات الحملة احتوائها على ٤٤ من الأفيال المدربة لحمل المدافع وكذلك معدات كاملة لمد خط سكة حديد طوله ثلاثون كيلو مترا

(١) هذه الحملة تفاصيل مطولة شائعة جديره بالإطلاع عليها وعلى الاخص في

C. R. Barkham - History of the Abyssinian Expedition

وكذلك المصحات من ٢٠٥ - ٢٧٤ من The Blue Nile by Alan Moorehead

وأما هنا فكتبي بما ورد فيها باختصار في ص ١٨ ، ٨٨ ، ٨٩ من كتاب

The Ethiopians by Ullendroff

(٢) ص ١٤١ من كتاب مصر إسماعيل بقلم عبد الرحمن الرافعي .

(من زولا إلى سينافيه) ومعدات كاملة لإنشاء رصيفين لرسو البواخر ،
وجهازين من أجهزة تقطير مياه البحر لإعداده للشرب ، ولم ينس قائد الحملة
أن يجهز معه سلاحاً من أهم الأسلحة وهو نصف مليون ريال حبشى (ماري
تريزا) الذى له فعل السحر فى الحصول على معونة الشعب (ملحوظة -
استعمل الطليان نفس السلاح فى عام ١٩٣٦ ، واستعمله الانجليز مرة أخرى
فى الحرب العالمية الثانية فى حملتهم لطرد الطليان من الجديشة عام ١٩٤٣)
وكان إعداد الحملة على هذه الصورة فريداً فى بابها واستحداثاً فى أساليب الحرب
والتجهيز الحربى .

* * *

ولقد استفادت الحملة الانجليزية فى اجتيازها للثمانية كيلو متر الى كان
عليها أن تقطعها لتصل إلى مجدلا عاصمة تيودور ، من المساعدات والتسهيلات
التي قدمها لها رؤساء القبائل التي مرت بها لاسترداد كرايمتهم لتيودور وحكمه
وعلى رأسهم الملك كاسا ملك التيجرى ، ولم تصادف فى طريقها إلا بعض
المنافشات البسيطة ، ولم تقع إلا معركة حربية كبيرة واحدة بالقرب من مجدلا .
لنى فيها كثير من المحاربين الأجاش مصرعهم .

تبادل نايبير بعد المعركة بعض الرسائل مع تيودور لم يكن لها نصيب
من التوفيق ويبدو أنها لم تؤد الغرض المطلوب منها لما طرأ عليها من تحريف
فى الترجمة ، وعدم إلمام الانجليز بعقلية الأجاش وعاداتهم . واضطر نايبير
إلى الهجوم على مجدلا ودخلها فى أبريل سنة ١٨٦٨ ، وعندئذ انتحر الأميراطور
تيودور بأن أطلق على نفسه الرصاص .

ولقد اختار تيودور لنفسه خاتمة عنيفة تتفق مع حياته العنيفة ، وليس
هناك من شك فى شدة تعلقه بيلاده وأندفاعه فى حبها وشغفه بتوحيدها
ورفعة شأنها ونشر الدين المسيحى بين رعايا وتأييده وتثبيت أركانه ، ولكن
صفاته الأخرى التي جعلت منه حاكماً طاغياً لا حدود لقسوته طغت على

صفاته الطيبة ، فانطقات شعله حياته فجأة ، ومر عهده بالحبشة كالغهاب الخاطف .

* * *

استولى نايبير على الكنوز والنفائس التي جمعها تبودور من جميع الكنائس والأديرة والقصور وكدسها في قلعة مجدلا ، ومن بينها المخطوطات والكتب والمراجع - التي بلغت حوالى ١٠٠٠ مخطوط ، وزع نايبير بعضا منها على الكنائس مرة ثانية ، ونقل الباقي - وهو الجزء الأهم منها إلى لندن - وأودعت النفائس في متحف فيكتوريا والبرت - أما المخطوطات فوضعت في المتحف البريطاني .

ومن بين النفائس التي حملها معه نايبير تاج تبودور - الذي أعيد إلى الحبشة مرة أخرى إلى الرأس تقرى (هيلاسلاسى) ^(١) .

* * *

هدية الاسلحة الانجليزية للرأس كاسا (الامبراطور يوحنا)

قبل أن نختم هذا الفصل ، حرى بنا أن نتعرض لذكر أمر بالغ الخطورة في تاريخ الحبشة ، وله أكبر الأثر في الانتصارات الحربية التي أحرزتها مملكة الحبشة على السلطنات الاسلامية وأخضاعها فيها بعد ، وهو أمر هدية الاسلحة الانجليزية الحديثة للمملكة الحبشية المسيحية التي سبقت الإشارة إليها ، وقبل أن نمضي في ذكرها نرجو من القارئ أن يضيفها إلى قائمة الخطط البريطانية التي سنفصل ذكرها في الفصل القادم عند الكلام عن الحملات المصرية على الحبشة .

* * *

ذكرنا عند الكلام عن عهد تبودور كيف تجهزت حملة نايبير وكيف تفننت فيها اتجهلترا فاحتوت على مقادير هائلة من أحدث أسلحة الحرب

وأكثرها ملاءمة للحروب في البلاد الجبلية مثل أراضي الحبشة - وكيف كانت حملة نابيير مقتصرة على إنقاذ الأسرى الأوروبيين وعندما تم لها ذلك عادت إلى بلادها بسرعة .

ويبدى الكثيرون عجبهم من هذه السرعة التي انسحبت بها حملة نابيير بعد نجاحها الساحق وانتصارها على تيودور وقتله وخطو الجيوش تماماً لسيطرتها التامة على البلاد ، ولم نعهد في بريطانيا ولا في غيرها من الدول الاستعمارية في ذلك الوقت أن تنسحب من بلاد حققت مثل ذلك الانتصار فيها ، ولطالما تعللت بأفقه الأسباب للبقاء ، وهكذا كونت امبراطوريتها الواسعة .

لقد كانت مهمة حملة نابيير تحرير الأسرى الأوروبيين من سجون تيودور وأعلنت ذلك وأكدت في كل مناسبة ، وكان يبدو أنه لا يعنيتها أمر الحبشة أو من الذى سيملا الفراغ الذى تركه تيودور ، ولم يكن بالبلاد في ذلك الوقت غير بعض الأمراء ذوى النفوذ وأهمهم ثلاثة كما قدمنا - وهم منليك ملك شوا - وكاسا ملك تيجرى - وجوباى ملك أمهرا .

ولا يمكن أن يسلم الانسان براءة هذه السياسة التي أعلنتها بريطانيا ، وجميع المنطقة تغل بالصراع بين الدول الكبرى للحصول على مناطق نفوذ ومستعمرات بشكل جنونى . ولابد وأن يكون انسحاب بريطانيا من الحبشة بعد انتصارها الكبير هناك ، أمراً اقتضته الظروف السياسية في ذلك الوقت ولكنه في نفس الوقت انسحاب مدروس مخطط ، تمهد معه بريطانيا للحصول على مآبئتيه . وكانت انظارها متجهة إلى جميع المنطقة ، وأصابعها ممتدة إلى صميم الدول المحيطة بالحبشة ، فهي متغلغلة في السودان تحت اسم الحكومة المصرية . وتعمل على انتزاع أوغندا والافراد بها بعد أن فتحنا الجيوش المصرية . ثم تجوب أساطيلها شواطئ البحر الأحمر لتمكن من سيادتها وتحتجز لانتهاز الفرص . وفوق كل ذلك فهي لاتخرج عن إجماع الدول

الأوروبية على تعزيز مملكة الحبشة المسيحية ، والعمل على تأييدها وبسط نفوذها .

ومما لاشك فيه أن بريطانيا قد أخذت في اعتبارها طبيعة البلاد الجبلية بالحبشة وطبيعة أهلها ، وماسوف يكبدها ذلك من مجهود ونفقات للبقاء في تلك البلاد ، ومع أن هذه النفقات والمجهودات في مقدورها ، ألا أن الموقف على هيئته الشاملة في المنطقة لا يستدعى بقاء القوات البريطانية في الحبشة . ومما لاشك فيه أن بريطانيا فضلت اتباع خطة أعظم فائدة وأكبر أثرا بالاستيلاء على مصر وتوابعها في السودان وأوغندا والصومال والبحر الأحمر وركزت جهودها في هذا السبيل .

ومما يؤيد يقيننا بخطة بريطانية بعيدة المدى مترامية الأطراف ، ذلك التناقض العجيب في المظاهر الواضحة للخطة . فبينما يتم لها الانتصار الساحق على الحبشة تسارع إلى الانسحاب وترك هدية لا تقدر بمال من الأسلحة الحديثة لملك الحبشة ، وتبين للعالم أجمع بأنها لم تدخل الحبشة لالانتفيدعمل بطولى وهو انقاذ الأسرى الأوربيين وأنها أوفت بعهدها بعد انتهاء مهمتها بسرعة الانسحاب .

وفي نفس ذلك الوقت كانت تحيك الدسائس وتدير الخطط حول مصر وما أن استنجد بها الخديو توفيق حتى دخلت بمجوشها لتثببت عرشه في ١٨٨٢ على أن تغادر البلاد بعد ذلك ولكنها بقيت أكثر من سبعين عاما .

فان بريطانيا كانت في ذلك الوقت تنصب الفخاخ للخديو اسماعيل وتضيق الخناق عليه وتفرض عليه من رجالها حكاما على المناطق المصرية الهامة وأهمها السودان الذى أرسلت إليه صمويل بيكر ثم من بعده جوردون الذين حكما السودان خلال الفترة التى تسلكم عنها ، وظهرت نوايا بريطانيا واضحة جليلة من اعجاب جوردون بالامبراطور يوحنا لمجهوداته في تصير المسلمين وكذلك رفضه تلبية أوامر الخديو اسماعيل لمعاونة الحملة المصرية التى نزلت

على شواطئ الصومال تماما لخطه تثبيت أقدام الفتوحات المصرية -- كما سيأتى ذكره فيما بعد .

* * *

لقد لعب السكولونيل (ميرويندر Merewethor) المقيم البريطانى فى عدن دورا بارزا فى حملة نابيير على الحبشة واليه يرجع الفضل الأكبر فى تسجيل تاريخ هذه الحملة ، وهو الذى قام بالجانب السياسى منها وكان محورا للرسائل المتبادلة فى كل مايتعلق بالحملة منذ قيام الازمة حتى نهايتها ، وكان المشرف الأول على جهاز المخابرات البريطانى فى تلك المنطقة الذى مهد للحملة على الشاطئ . وفى داخل البلاد ثم رافق الحملة عند وصولها وكان دائما فى مقدمتها .

ومنذ اللحظة الأولى ركز ميرويندر اعتماده على زعيم قبائل التجرى الثائر على حكم تيودور وكان يدعى وقتئذ (كاسا Kassa) ثم أصبح فيما بعد الامبراطور يوحنا الرابع ، ومن المعلوم أن الحملة كان عليها أن تمر فى كل إقليم تيجرى لكي تصل إلى مجدلا حيث يتحصن الامبراطور تيودور .

انتصرت حملة نابيير ولم تستعمل مماجلبته معها من اسلحة وعتاد إلا النزر اليسير ، وبقيت لديها مقادير هائلة منها . قدمتها هدية إلى كاسا زعيم تجرى فأصبح بفضل هذه الاسلحة قويا لا يمكن منافسته فى الحصول على العرش وبسط نفوذه على البلاد ^(١) وكانت هذه الهدية عبارة عن مجموعة من مدافع الميدان الحديثة ، ومدافع المورتار وبنادق حديثة الصنع تكفى لتسليح فرقة كاملة ^(٢) .

وليس بالعسير على الفهم أن نتصور ما مثل هذه الاسلحة من الاثر فى صد الاعتداءات التى تعرضت لها الحبشة من المهدى فى السودان ومن الايطاليين فى الاريتريا ، وكذلك فى تقوية ساعد الامبراطور فى البطش

بالمسلمين والتنكيل بهم على النحو الذى ستميز به العمود المقبلة ، والتي لم يتمكن فيها الاسلام فى الحبشة من أن تكون له أية قوة أو قيمة عسكرية .

* * *

ويشرح (آلان مورهد Alan Moorehead) ^(١) الموقف فيقول :
« لقد كافأت بريطانيا (كاسا) على معاونته للحملة بأهدائه كمية هائلة من البنادق والذخيرة والمعدات الحربية . وسواء كان وراء هذه الهدية هدف سياسى أم لم يكن لها هدف ، فإن مستقبل كاسا قد تحدد بحصوله عليها ، إذ أصبح أقوى زعيم فى الحبشة كلها . وكل رجل يحوز مثل هذه الأسلحة فى تلك البقاع الجبلية حرى بأن يستعملها ويستولى على البلاد » .

« ولأنه لمن العسير أن يصدق الإنسان أن ميرويدر لم يكن يقدر هذه الأمور ويعلم عواقبها ، ولو أنه كان متحفظا عندما أورد فقرة عابرة فى تاريخه الرسمى الذى كتبه عن الحملة تلتقى بعض الضوء على الموضوع عندما قال (أحسن ما يمكن توقعه من آمال فى تمتع الحبشة بالسلام هو أن تقسم مقاطعاتها بين حاكمين على الأقل ... فإنه من المستبعد أن يقوم كاسا بمهاجمة (واجشام جوباز Wagsham Gobaze) بينما يحتمل أن يحاول واجشام مد نفوذه على مقاطعة تيجرى ، وعندئذ تصبح هدبة الأسلحة التى حصل عليها كاسا ذات فائدة فى الدفاع عن نفسه - وعلى أى حال فقد كان صديقا حبيبا للحملة البريطانية ، ويمكن الاعتماد على أن يكون حليفا عظيم الشأن فى المستقبل » ^(٢) . ولا يمكن لبريطانيا أن تنسحب على هذه الصورة ، إلا إذا كانت على ثقة تامة من نجاح يوحنا فى تحقيق مآربهم وتوطيد أركان حكمه ، وهو لهم حليف ومؤتمر بأمرهم ، ولعل فى الموقف الدولى الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ، تنصارع فيه الدول الكبرى على الحصول على النفوذ فى المنطقة مادفع بريطانيا إلى اتباع تلك السياسة الباردة . وبما يؤيد ذلك ، عقد معاهدة التحالف بين يوحنا وبريطانيا (١٨٨٤) .

مزيد من الأسلحة — من روميا :

لم تشأ روسيا أن تتعد عن هذا الصراع - فأرسلت في ١٨٨٥ مندوباً عنها إلى الملك يوحنا ، فأستقبله استقبالا حسنا ، ومنحه تصريحاً ببناء كنيسة وأقطعته مساحة كبيرة من الأرض ، أطلق عليها اسم (موسكو الجديدة) -
وانتهز الملك يوحنا الفرصة وطلب تسليح الجيش الحبشي وحصل بذلك على ٥٠٠٠٠ بندقية طويلة ، ٥٠٠٠٠ بندقية فرسان ، ٥٠٠٠ مسدس ، ٤٠ مدفع ، ٥٠٠٠ سيف ، كمية وافرة من الذخيرة ^(١)

الفصل الثالث عشر

عهد الامبراطور يوحنا الرابع (١٨٧٢ - ١٨٨٩ م)

لختام هذه المرحلة يجب الكلام عن عهد الامبراطور يوحنا الذى دام سبعة عشر عاما . لأنه كان شديد التعصب للسيحية ، متطرفاً فى كراهيته للإسلام ، مما جعل عهده سلسلة متواصلة من الحروب ضد المسلمين الذين يتاخمون مملكته ، وفى نفس الوقت يعمل على حماية بلاده من تسلل الأوروبيين ولقد استفاد أيما فائدة من هدية الأسلحة الضخمة التى سبقت الإشارة إليها والتي تركتها له بريطانيا بعد حملة نابيير .

وهو الامبراطور الذى قال عنه جوردون — كما سبق أن قدمنا — « من الغريب أن يوحنا يشبهنى — فإنه متعصب دينى — وله رسالة لابن وأن يحققها وهو تنصير جميع المسلمين » .

ولقد تميز عهده بشدة ضغطه وقسوته على المسلمين والوثنيين واليهود ، وحدد للجميع فترة أقصاها ثلاثة سنوات يتحتم أن يتحول الجميع أثناءها إلى الدين المسيحى ، وبطبيعة الحال اختص المسلمين بمزيد من القسوة ، وفرض عليهم أن يبنوا كنائس على نفقتهم بجوار مساكنهم ، وأن يدفعوا عشورا خاصة للقسس والكنائس التى فى منطقتهم ، وأخذ يستعمل مختلف الوسائل لتعذيبهم والخط من شأنهم ، فلجأ كثيرون منهم إلى الفرار من الحضرة إلى المناطق البعيدة عن سلطانه . يذنا اضطد الكثيرون إلى النظار باعتراف المسيحية حتى بأمنوا على أنفسهم وعلى أرزاقهم ، ولكنهم ظلوا فى ضمير قلوبهم مسلمين متسترين على اسلامهم ، حتى إذا حانت ساعة وفاة أحدهم نطق بالشهادتين ، وأصبحت هذه عادة معروفة لدى جانب كبير من المسلمين الذين يعيشون فى المناطق المسيحية أو المناطق التى تزداد فيها سلطة الامبراطور

وكان الامبراطور يوحنا على وشك أن يقضى على شوكة الإسلام .
لولا أنه انشغل في ابان حكمه بصد الهجمات التي تعرض لها ، وخصوصا من
الغارات والحروب التي وجهتها إليه جيوش المهدي في السودان . وكذلك
الغلات التي بدأت إيطاليا في توجيهها ضده من الاريتريا وكانت قد استولت
عليها بعد جلاء المصريين عنها .

• • •

صراع يوحنا مع الاسلام :

استلم يوحنا حكم الحبشة والاسلام يتقدم في ثبات ، ونفوذه يزداد في
جميع المناطق وبين جميع الأجناس حتى نفذ في قوة إلى داخل الهضبة - معقل
المسيحية ، ولقد أيد مستر بلاودن هذه الحقائق ووصف الكيفية التي كان
ينتشر بها الاسلام . « وهناك شهادات مماثلة أدلى بها رجالون آخرون
(Peka 51 Isenberge p-36) تؤيد تقدم الاسلام في أوائل القرن التاسع
عشر الميلادي ، فقد وجد هؤلاء الرجالون جموعا من المسيحيين في تحول
مستمر إلى هذا الدين ... وقدم هذا الدين الآن جذورا بعيدة الغور في
أرض الحبشة ، حتى أن أتباعه ملكوا ناحية التجارة كلها ، كما ملكوا المدن
الصغيرة بأنواعها في البلاد ، ونعموا بأملاك واسعة وسيطروا على مدن
كبيرة وأسواق هامة ، وظفروا بنفوذ قوى على جمهرة الشعب ، وقد قدر
مبشر مسيحي عاش في الحبشة خمسة وثلاثين عاما نجاح دعاة المسلمين وحماستهم
تقديرا عظيما بقوله ، لو أن هناك أحمد قرآن آخر (الامام أحمد الأشول)
ينفض رأية النبي لعبارات بلاد الحبشة مسلبة بأسرها (مساجا

Massaja Vol. IV p. 124

« وفي سنة ١٨٧٨ عقد الملك يوحنا مجمعا يضم رجال الكنيسة الحبشية ،
ونادوا به حكما أعلى في المسائل الدينية ، وقرروا وجوب الاقتصاد على دين
واحد في كافة أنحاء البلاد . وأعطى المسيحيين على اختلاف طوائفهم الذين
لا يعتنقون مذهب اليعاقبة . مهلة عامين ليصبحوا بدها متفقين في الرأي مع

كنيسة البلاد ، ، وألزم المسلمين باعتماد المسيحية في خلال ثلاث سنين والوثنيين في خلال خمس . وأذاع الملك مرسوما بعد ذلك بأيام قليلة ، أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث التي منحها للمسلمين ليست بذات أهمية ، وذلك أنه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس مسيحية في مناطقهم كلها احتاج المسيحيون إليها وكذلك دفع العشور للقساوسة الذين في مقاطعاتهم فحسب ، بل أنه أُنذِر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا في خلال ثلاثة شهور بين قبول التعميد واعتناق المسيحية أو التخلي عن مناصبهم ، وكان يمثل هذا التنصير الاجباري الذي لا يشمل إلا على طقوس العباد ووضع العشور ، عديم الأثر بطبيعة الحال ، ففي الوقت الذي تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا في الخفاء يؤكدون ولا هم لديهم القديم . وقد شاهد مساجدا Massajala ، بعضا من هؤلاء يخرجون من الكنيسة التي عمدوا فيها قاصدين المسجد ، يلتمسون فيه رجلا مباركا من رجال دينهم يحو عنهم بالحرقم من التعميد الذي أرغموا عليه ، وأن ما جعل كل هذا التنصير أضعف أثرا وأقل قيمة هو أنه كان مقصورا على الرجال دون النساء ، وهي حالة ربما دلت على معنى كبير فيما سيحدث بعد في مستقبل الإسلام في بلاد الحبشة كما أن مساجا يقيم البرهان الساطع على ما قامت به النساء المسلمات من دور خطير في سبيل نشر دينهم والحفاظة عليه في هذه البلاد .

ويقول « مساجا » أن الملك جون (يوحنا) أرغم حول سنة ١٨٨٠ ما يقرب من خمسين ألف من المسلمين على التعميد كما أجبر عشرين ألفا من أفراد إحدى القبائل الوثنية ونصف مليون من قبائل الجالا ، ولكن لما كان تنصيرهم لم يتجاوز التعميد ودفع العشور ، فلا عجب إذا عرفنا أن هذه الوسائل التي تقوم على العنف والأرهاب ، لم تؤد إلا إلى زيادة العداوة والبغضاء في نفوس الأحباش المسلمين والوثنيين جميعا نحو الدين المسيحي^(١) وقد اغتنم ملك كافافا Kaffala فرصة ارتباك الملك يوحنا الذي هدده الايطاليون واتباع المهدي في وقت واحد فأعلن استقلاله واعتنق الإسلام ليكون بذلك

(١) ص ١٤٣ الدعوة للإسلام لـ سير توماس أرنولد ترجمة د . حسن إبراهيم حسن -

أقوى نفوذا ، وقد أفلح في مقاومة كل هجوم حتى سنة ١٨٩٧ حين غزا
الامبراطور منليك بلاده . (الذى كان قد وطد سلطانه في جميع أنحاء بلاد
الحبشة بعد وفاة الامبراطور يوحنا سنة ١٨٨٩ وعاد الدين المسيحى دينا
رسميا في ولاية كافا) ... ولكن هذه التداير للصارمة التى اتخذت لصالح
المسيحية قد اخفقت في وقف نمو النفوذ الاسلامى في حلال القرن التاسع
عشر ، فقد أسلبت قبائل بأجمعها كانت يواما تدين بالمسيحية ، ولا تزال تحمل
اسماء - مسيحية مثل قبائل تاكليه Takies (أى نبات يسوغ) وهبتيه Hapties
(أى عطية يسوع) وتيا ريام Temaryam (أى عطية مريم) وكذلك
قبيلتنا منساع Mansa حول منتصف القرن التاسع عشر ، ثم دأن السواد
الاعظم منها بالاسلام في مستهل القرن العشرين وبلوح أن اليهود التى قام
بها دعاة المسلمين الذين أدخلوهم إلى الإسلام ، كانت عمدة السبيل بسبب
جهل رجال الكنيسة . كذلك قامت حركة ماثلة بنشر الاسلام ظلت مستمرة
بعض الوقت بين قبائل أخرى^(١)

والحديث عن عهد يوحنا بقية - تتصل بما يشمل الفصل القادم من
تاريخ الحملات المصرية على الحبشة .

(١) من ١٤١٠ / ١٣٤٠ نفس المرجع .

وكذلك Littman pp 68-70 No4 - & Cederouist, Islam and
Christianity in Abyssinia p. 154

الفصل الرابع عشر

الحملة المصرية

— على الحبشة —

ترتبط مصر بالحبشة بروابط قل أن نجد لها مثيلاً بين دول العالم، وترجع هذه العلاقة إلى أقدم عصور التاريخ. فهناك شريان هائل يقد من الحبشة إلى مصر ويغذيها بالقدر الأكبر من مائها وطميها وهو النيل الأزرق — وتتدفق مياه الحبشة في نيل مصر سنة بعد أخرى في نظام رتيب وتوقيب يحكم دارت حوله عجلة الحياة في مصر. وتغفل في صميمها متحكماً في أعمال الناس جميعاً ونشاطهم، محدداً لهم صورة حياتهم، وهو في أغلب تاريخه مخلص أمين يأتي إلى البلاد بالقدر المعلوم الذي ألفه الناس ويترقبونه عاماً بعد عام ويستقبلونه بالأفراح، ولكنه يشع أحياناً فيعم القلق، بينما يزيد عن معدله أحياناً أخرى فيفيض على البلاد، ويحطم الجسور وينشر الخراب ويدفع بجميع الناس إلى العمل الدائم ليل نهار لمكافحة ثورته. تعلقت حياة الناس وآمالهم به ولا حديث لهم إلا عنه حتى مرت عصور جعلوا منه إلهاً يعبدونه.

وحول هذا النيل كتب العالم أولى سطور الحضارة، ونشأت الأسس الأولى للبلدنة والعلم والمعرفة، وعندئذ بدأ المصريون القدماء يحجبون لهذا النهر ويتطلعون إلى معرفة مصادره، فانتشرت حوله الأساطير فترة من الزمن، ولكن سرعان ما نشطت حركة الاستكشاف، فاختلفت الشعوب وتزاوجت وحاربت وأثرت حضارة أحداها على الأخرى، واستمرت العلاقات بين مد وجزر خلال العصور المتعاقبة.

ولعل من أهم ما نشأ من صلات حول هذا النهر العظيم ، انتقال الاديان وتجاوبها بين مصر والسودان والحبشة ، وكان أظهرها أثراً انتقال الديانة ، المسيحية في عصورها الأولى من مصر إلى السودان والحبشة ، ثم بعد ذلك انتشار الإسلام في مصر أولاً ثم في الحبشة ثم في السودان .

وفي كل مرحلة من تلك المراحل تبرز علاقة مصر بالحبشة بشكل يحجب ما عداها من الصلات . سواء كان ذلك لاشتراكهما في قارة واحدة أم لوجود أهم مصادر لمياه المصرية داخل الحبشة ، أم للارتباط الوثيق بين الحبشة بمصر التي تزعم العالم الإسلامى في هذه المنطقة وتتركز فيها دعائم الإسلام ومعاهده ومراكز الدعوة إليه .

* * *

فليس بغريب بعد كل ذلك أن تكون مصر شديدة العناية والاهتمام بكل ما يجرى في الحبشة وما يدور فيها ، وإنا وإن كنا قد عرضنا الكثير مما حدث في الماضي ، إلا أن عصر النهضة قد شهد نشاطاً هائلاً في تطوّر وسائل المواصلات ، اتسعت معها الأطلاع ودخلت إلى الميدان كثير من الدول الأوروبية الاستعمارية ، وانتقلت العدوى إلى الدول القديمة مثل مصر التي سارعت إلى امتداد سلطاتها وتثبيت أقدامها ، ولا أقل من أن يكون نشاطها هذا متركزاً على حماية مصادر حياتها في السودان والحبشة ، وأصبح لزاماً عليها أن تعمل لتحقيق ذلك بمختلف الوسائل من حملات عسكرية في البر ، وأساطيل بحرية تسيطر على الشواطىء وأهمها البحر الأحمر . وكان الهدف الأول لنشاط مصر هو تأمين مصادر المياه التي يتوقف عليه حياتها . خصوصاً وأن ملوك الحبشة كثيراً ما هددوا مصر بتحويل مياه النيل عنها .

* * *

تم فتح السودان في عهد محمد على في بداية القرن التاسع عشر ، وإن كان الإسلام قد دخله قبل ذلك بكثير أيام المماليك وعن طريق المهاجرين

العرب الذين استقروا بالبلاد ، وكذلك سبق اعتناق فريق كبير من قبائل البيجة للإسلام كما قدمنا إلا أن فتح المصريين للسودان عجل بانتشار الإسلام في غربي الحبشة والأريتريا ، ومنح المسلمين في الحبشة نوعاً من الطمأنينة كما كانوا دائماً في حاجة إليها .

ثم لا يجوز أن ننسى ذلك النشاط الكبير الذي بذله دعاة الإسلام من شرق أفريقيا وشرق السودان ، الذي تميز بالنجاح الباهر المعتمد على الدعوة السلمية ، ولم يعتمد على سلاح أو حملات عسكرية وحقق نتائج عظيمة وكان له الفضل في اسلام طائفة كبيرة من مملكة النوبة وامتد أثره إلى كردفان .

* * *

عندما ظهر محمد علي في مصر ارتفع بها إلى مصاف الدول الكبرى واكتسبت من الثروة والقوة ما جعلها تتفوق على الدولة العثمانية التي كانت لها السلطة الاسمية على جميع بلاد الإسلام في الشرق الأوسط والمغرب العربي . ولما عجزت هذه الدولة عن الاحتفاظ بامبراطوريتها المترامية الأطراف اضطرت إلى الاستعانة بمصر ، وأوكلت إليها شئون جزيرة العرب ثم بعد ذلك استعانت بها في غير ذلك من الأقطار - التي لا يعنينا أمرها في هذا الكتاب . وعندما سيطرت الجيوش المصرية على الحجاز ونجد ، تخلت الدولة العثمانية عن سيطرتها على وادي البحر الأحمر وأهمها ، صوع للحكومة المصرية . بدأت الحملة المصرية على السودان في عهد محمد علي في ١٨٢٠ م وفي عام ١٨٢٢ كانت قد دانت له جميع بلاد شرق السودان إلى حدود الحبشة . وكانت تراوده آنذاك أطماعه في الاستيلاء على الحبشة .

وذكر محمد علي لقنصل بريطانيا العام بالقاهرة (مستر سولت Salt) أنه يفكر في الاستيلاء على الحبشة بعد سنار ، فأخبره سولت ، أن الدول الأوروبية سوف لا تتساهل أو تتحمل مهاجمة الدولة الأفريقية الوحيدة التي حافظت على مسيحياتها (١)

(١) ص ١١٥ الاسلام في أنثوي

لترجمه

ولا ندري هل كان لهذا التهديد الصريح الأثر الذي منع محمد علي من متابعة زحفه واستيلائه على الحبشة ، أم أنه كان أشد اهتماماً في ذلك الوقت بالأحداث والحملات التي تعمل في سورية فصرف نظره مؤقتاً عن مغامرة الحبشة ، ويبدو أن التعليل الأخير هو الأقرب إلى الصواب ، إذ أن محمد علي — بعد انسحابه من سوريا لأثر تدخل القوات الأوروبية التي تشكلت ضده وحصرته في داخل القاهرة الأفريقية — ذهب في آخر عهده في عام ١٨٣٨ في رحلة شاقة خلال السودان ووصل إلى حدود الحبشة . رغم تقدمه في السن .

قامت القوات المصرية بعد هذه الزيارة مباشرة بالهجوم على الحبشة ولكنها لم توفق ، فأعدت العدة لمعاودة الكرة ، مما أدى إلى تدخل الحكومتين الانجليزية والفرنسية وأجبرتاً محمد علي — على التخلي عن فكرة الحبشة . واستمرت الحال كذلك إلى عهد سعيد باشا .

الحلاف بين تيودور وسعيد باشا وإلى مصر :

عندما استتب الأمر لتيودور ، أخذ ينظر بعين القلق إلى مركز المصريين في مصوع شرقاً وفي السودان غرباً ، وخصوصاً لما سمعه بأنهم يطمعون في إنشاء خط حديدي يربط بين الجنتين وكانت محاولة محمد علي للاستيلاء على الحبشة لا زالت ماثلة في الأذهان ، بجانب ما تحرك في نفس تيودور من أطماع بالقضاء على الدولة الإسلامية . وإعادة مجد الامبراطورية الحبشية القديمة ، الذي حد لها بنفسه حدوداً لم تكن موجودة من قبل ، ولكنها في الواقع تعزز مركز دولته الجديدة ، فتعددت غارات رجاله على السودان وكان الاعتقاد الدائع في تلك المرحلة هو أن الانجليز هم الذين كانوا يحرضونه على العدوان ، ويشيرون كوا من حقه على الإدارة المصرية بالسودان على خلاف ما كان يدعيه قناصلهم في مصر وقتئذ من أنهم إنما يريدون أن يسود السلام بين مصر والحبشة .

« ولقد تحدث عن أطباع تيودور - القنصل الفرنسي في مصر ، بنديتي Benedetti » فذكر في رسالته إلى حكومته في ٥ ، ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٦ أن الامبراطور تيودور يهدد بالاغارة على السودان المصري، ويريد تحويل مجرى النيل حتى يجعله يجرى صوب البحر الأحمر ، وأكد وجود هذه الأطماع لدى تيودور القنصل الانجليزي المقيم بالحبشة، بلاودن Plowden الذي كتب في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٥٦ يقول « أن تيودور يطلب البلاد العربية الواقعة على حدوده الشمالية حتى سنار ، كما أنه يريد مصوع وكذلك مرتفعات البوغوض والمنسا والحباب وغيرها . . . » وأما عن تحرير الانجليز لتيودور ، فقد تحدث عنه أيضاً القنصل النمساوي « هوبر » عندما قال في رسالته إلى حكومته من الإسكندرية في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٥٦ « أن سعيد باشا كثير القلق من ناحية هذه الحركات التي يقوم بها تيودور الجري والنشاط وخصوصاً ما يذاع في القاهرة من أن وسوسة الانجليز في أذن تيودور تزيد زعماً وغضباً من الادارة المصرية في السودان ، والواقع أن تيودور قد حصل على بعض المدفعية والبنادق لعساكره من عدن ، وفي هذه الرسالة ذكر « هوبر » أن سعيد باشا يريد في رحلته التي يزعم القيام بها إلى السودان تعيين حدود السودان التي لا تزال غير واضحة المعالم وموضع نزاع ، وذلك لتأمينها ضد هجوم يأتي عليها من جيرانها المتأخمين لها في الشرق وهم الأجاش وفي الغرب من سلطنة دارفور » (١) .

لذلك وجد سعيد باشا نفسه مضطراً إلى المبادرة بمعالجة الموقف واتخاذ الإجراءات الكفيلة بإيقاف اعتداءات تيودور على حدود السودان ، فأمر حاكم السودان بأن يكتب إلى امبراطور الحبشة كتاباً رقيقاً جاء فيه (فيلزم التبصر عن طلب لإزالته في سلك مكاتبة المودة التي تحركونها) (٢) .

(١) ص ٧٥ مصر والسودان د . محمد فؤاد شكرى .

(٢) سامى باشا - تقويم النيل - المجلد الأول ج ٣ ص ١١٩ - ١٢٠ .

ويبدو أن مطران الحبشة كان يلقي الكثير من المتاعب من الإمبراطور تيودور ، عندئذ رأى سعيد باشا أن يوفد البطريرك كيرلس الرابع إلى الحبشة ليعمل على تهدئة الأمور وإحلال السلام محل الحرب وربط أو أصر الصداقة بين الدولتين وإيقاف المناوشات على حدود السودان وتعزيز مركز المطران المصري ، وسافر البطريرك مزوداً بهدايا ثمينة وزود بالخطاب التالي إلى حاكم السودان .

« جناب بطريرك الأقباط عرض لأعتابنا أن مطران بلاد الحبشة المقيم في طرفه هناك حاصل له عى شديد ترتب على عطل أشغاله ويرغب التوجه بنفسه لإجراء ما يقتضى لضبط وملاحظة أشغال الملل ، والتمس الإذن له بالإجابة له فيما يطلب .

ومن حيث أنه من الوجوب ملاحظته ، ومراعاته كما هو من مقتضيات شميم مراحمتنا وأن يصير له الاستعداد والمساعدة في جميع الجهات التي يمر في الذهاب والاياب أصدرنا أمراً بهذا إليكم . . . (١)

ولم يكن سعيد باشا معامتنا إلى نتيجة مسعى البطريرك فسافر إلى السودان لتفقد الشئون الحربية وتظاهر بأنه يقصد بزيارته الوقوف على أحوال أهل السودان ، ووضع وتأسيس المنظمات اللازمة لعمارتها ولرفاهية تلك البلاد . وفي الوقت نفسه أرسل لحكمदार السودان أمراً عالياً . نصه كالآتي :

« في ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٧٣ (١٨٥٦) .. أعلموا أن ارادتنا اقتضت تحريك ركابنا . من جهة مصر المحروسة بقصد الحضور إلى جهة السودان .. فيلزم حالاً وسرياً تجمعوا كافة العساكر الجهادية الموجودين في جهة

(١) نفس المرجع .

التنودان ليسكونوا حاضرين جميعاً بآلاتهم في الخرطوم ، كذلك تجمعوا فيها كافة المدافع الموجودة المهيئة المطقمة ...»^(١)

وكان استقبال البطاريك بالحيشة عظيماً — إذ أن هذه هي المرة الأولى التي يأت فيها الرئيس الأعلى لكنيسة الاسكندرية أرض الحيشة . ولكن الامبراطور تيودور لم يكن يستسيغ أن يقوم بطاريك الأقباط ورأس الكنيسة المسيحية بالتوسط من أجل سلطان مسلم، وسرعان ما بدأ الامبراطور يعامله ببرود وغلظة ووجد البطاريك صعوبة في إقناعه بالكف عن الاعتداءات على الحدود السودانية ، وكان الأجانب الموجودون بالحيشة يوغرون صدر الامبراطور ويمتنعون في دساتيمهم وادعائهم .

وانتهز هؤلاء ما بلغهم من زيارة سعيد باشا للخرطوم وتجمع الجنود بها لاستقباله لإقامة الدليل على سوء نية المصريين — خصوصاً وأن البطاريك كان قد توسط للامبراطور ونصحه بمعاملة المسلمين بالعدل والاحسان حتى يعامل سعيد باشا أقباط مصر ومسيحي السودان بالمثل ، عندئذ خامر الشك تيودور وقويت ريبته من البطاريك فأمر بالقبض عليه ومن معه وأودعهم السجن .

وعندما بلغ سعيد باشا ما حدث للبطاريك — أراد أن يطمئن الامبراطور فكتب له في ٩ جمادى الأولى ١٢٧٣ — ما يفيد به بأن زيارته للسودان هي (بقصد النظر فيما عليه أهلها من أحوال)^٢ . هذا غاية قصدنا ولا قصد لنا سواه) فاطمان الامبراطور وعرف خطاه وندم على تسرعه . واعتذر للبطاريك وأفرج عنه ومن معه .

ولكن الامبراطور لم يسمح للبطاريك بالعودة ، فأرسل له سعيد باشا كتاباً آخر بعد عام (في ٢٨ ربيع الثاني) يبدى فيه قلقه وقلقى أقباط مصر .

(١) سامى باشا - تقويم النيل - المجلد الاول ج د ص ٣٠١ .

.. وإنما دعت الحاجة للسكينة الآن فيما يأتى لإيضاحه ، وهو أن رئيس الطائفة العيسوية الأقباط بمصر عرض علينا مضمونه ، أن البطريرك تقدم توجهه إلى الحبشة زائراً من مدة شهور وحضرتمكم أقيمتوه هناك ولو أنه محترم عنكم . . . إلا أنه نظراً لغيابه تلك المدة تعطلت إقامة شعائرهم الدينية والدينية نوعاً ، والتمسوا المخاطبة من طرفنا لحضرتكم أملاً في برجوعه ليقوم إليهم بأداء تلك الوظائف . . . ومنه برد الجواب ليتواصل الود والاستحباب ، ودمتم كما رمتم ، ^(١) .

وعاد البطريرك إلى مصر بعد أن غاب عنها سنة كاملة يحمل إلى سعيد باشا كثيراً من الهدايا ووعداً بالصدقة بين مصر والحبشة .

* * *

عهد اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) :

تسلم اسماعيل عرش الخديوية المصرية بعد وفاة سلفه سعيد باشا وورث عنه دولة أشبه ما تكون بمسرح تتنافس فيه قناصل الدول الأوروبية ووراء كل منهم مجموعة من التجار والمغامرين والمرايين . وتم في عهد سلفه أمران على جانب كبير من الخطورة — أولهما : استدانته . . . ر ١٦ ر ١١ جنيه وبذلك بدأت سيطرة الحكومات الأوروبية على مصر عن طريق مراياها ، وثانيهما : [منح امتياز حفر قناة السويس لفرديناند ديلسبس الفرنسي ، ذلك العمل الذى كان له أبلغ الأثر في تاريخ العالم وأسوأ الأثر في تاريخ مصر .

جاء اسماعيل إلى الحكم ووجد أمامه هذين الأمرين الخطيرين . وكان بإمكانه أن يخفف من وقعهما ويرتب أمور الدولة بما يعود عليها بالخير ويحى آثار الأخطاء السابقة ولكن شخصية اسماعيل كانت كامنة على نقيصين حطم أحدهما الآخر وحطم معه البلاد ، فبينما كان طموحاً مفرطاً في

الطموح - شديد الاعتداد بنفسه وثقته بإمكان الإرتفاع بمصر إلى مصاف الدول الكبرى وإنشاء امبراطورية كبرى ودفع البلاد في سبيل الرقي والتقدم والقوة ، فإنه كان في نفس الوقت مثلاً قصير النظر في كل ما يتعلق بأمر المال والاقتصاد . متساقاً وراء اللذات والمظاهر .

سار في سياسته العمرانية على أحسن ما يمكن أن يسير فيه حاكم عصرى متطور فتقدمت البلاد في عهده في جميع نواحي العمران والنشاط . وأصبحت لمصر امبراطورية ضخمة تمتد من قمايو في جنوب الصومال إلى البحر الأبيض المتوسط ، وتنوغل داخل أفريقيا شاملاً أوغندا ومنطقة البحيرات ، وأصبحت له الأساطيل البحرية القوية التي تجوب بحار هذه الامبراطورية معززة لأركانها . وفتحت في عهده قناة السويس واحتفل بافتتاحها احتفالاً بعيد إلى الأذهان أبهة ملوك فرنسا ، ولكنه بجانب ذلك ظهر قصر نظره في أمور المال والسياسة وبني القصور الرائعة بجانب مشروعاته الكبرى ، فتجاوزت أهدافه بذلك ومارافقها من إسراف وإفلاق على المظاهر والملاذات ، جميع امكانياته ، وقفر الدين المصرى في عهده إلى ما يقرب من ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ ر. ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه ويقدر المليون المبالغ الحقيقية التي وصلت إلى خزينة الحكومة منها بما لا يزيد عن نصف هذا المبلغ ، أما الباقي فقد بقي في جيوب المراهبين وخزائن البنوك الأجنبية على صورة أو أخرى من أتعاب وأرباح وفوائد .

وكانت هذه هي نقطة الضعف التي أمسك بها الأجانب وقضوا بها على الامبراطورية المصرية وفرضوا على مصر الوصاية بالتحكم في مالية الدولة . وعن طريق ذلك تدخلوا في صميم شئوننا الداخلية ، وأوفدوا من رجالهم من يتحتم على اسماعيل تعيينه في أسمى المناصب وأخطرها ، وتدخلوا في تعيين الوزراء ممن يتوسمون فيهم الطاعة والولاء لهم ، أما من يعتز بمصريته ويحاول إصلاح بعض الفساد وإيقاف الأجانب عند حدهم ، فعمره قصير في الحكم ، وليس للخدو خلال كل ذلك إلا الإذعان .

وسياسة الدول الأوروبية الكبرى . معروفة واضحة — فإنها تتنافس وتتصارع فيما بينها وتتسابق في الحصول على المستعمرات ومناطق النفوذ والسيطرة على الأسواق ، وتبلغ في منافستها مع بعضها حد الحروب ، وتترقب الواحدة منها بالأخرى . وعلى الأخص بين إنجلترا وفرنسا حيث كان لهما التصيب الأكبر في الصراع الاستعماري في القرن التاسع عشر . والذي زادت حدته بافتتاح قناة السويس .

ومهما بلغ هذا العداء والصراع بين الدول الأوروبية الكبرى ، فإنها سرعان ما تتحد مع بعضها وتشككتف للقضاء على مصر إذا رفعت رأسها ، وبدأ منها ما يشير إلى استرداد قوتها . وليس تاريخ تلك الدول من مصر في عهد محمد علي يبعيد حين تألفت جميعها واتحدت بالرغم مما بينهما من تنافر وصراع لكي تقضي على القوة المصرية وتختم عملياتها بتحطيم الأسطول المصري التركي في موقعة نصارين . ولم يكن انسحاب الأسطول الفرنسي من المعركة وهو حليف لمصر — إلا انصياعاً للأهداف الأوروبية المشتركة التي يتضام أمامها في نظر فرنسا أي تحالف منعقد مع مصر .

* * *

تحت هذه الظروف التي سبق شرحها كان اسماعيل يعمل على تحقيق آماله ، ولسنا نريد أن نطيل في سرد تفاصيل أعماله ، فهذه أمور لها مرجعها الحافلة المستفيضة ، ولكن يعيننا أن نذكر منها ما هو متصل بموضوع كتابنا هذا .

وكانت رأس اسماعيل مليئة بالآمال والمشروعات والأطماع الكبرى ، ولم يتوان في اتخاذ العدة لتنفيذها ، وبدأ في عام ١٨٦٥ باستصدار فرمان من السلطان بإحالة قائممقامي سواكن ومصوع إلى عهده ثم جعلهما فرمان ٢٧ / ١٨٦٦ من ملحقات مصر وشملت مساحتها جميع السواحل حتى باب المندب .

* * *

وانجحت أنظار اسماعيل إلى قلب افريقية ومناج النيل . ولكنه مع الأسف اعتمد في تنفيذ ذلك على قواد من الأجانب - ونخص بالذكر منهم صمويل بيكر الانجليزى الذى عمل في خدمة اسماعيل حتى عام ١٨٧٣ ، ثم تلاه جوردون في منصب مدير خط الاستواء (١٨٧٤ - ١٨٧٦) وهي فترة خدمته الأولى بحكومة مصر - ثم فترة عمله الثانية (١٨٧٧ - ١٨٧٩) ثم الفترة الأخيرة من ١٨٨٤ التى إنتهت بقتله في ١٨٨٥ .

ومن الغرب أن يتعاقب على هذا المنصب الخطير انجليزيان لهما مقام معلوم لدى الحكومة الانجليزية ، ولا يمكن أن يكون ذلك من قبيل المصادفات فإن الجو في ذلك الوقت كان زاخراً بالأحداث الحفية . وثبت فيما بعد أن لانجليترا كانت تعمل على تنفيذ خططها للتدخل في شئون السودان وتنفذ منه إلى قلب افريقية وعن طريق ذلك تتحكم تحكماً كاملاً في مصر . وليس من قبيل المصادفات أيضاً أن يقع اختيارها الكولونيل جوردون بالذات ، فإنه كان الرجل الذى يفيض قلبه وطنية وإخلاصاً لبلاده ، ومن أبرز صفاته التى رشحته لهذا المنصب شهرته بالتعصب الشديد للدين المسيحى وتفانيه في سبيل نشر مبادئه ، وعدائه السافر للدين الإسلامى .

* * *

ولقد أميط اللثام عن المآزق التى وقع فيها اسماعيل ومحاولاته اليائسة للتغلب عليها ، وعمل في الخفاء على أن يسبق الانجليز في أطماعهم ويستولى قبلهم على مناطق أعالي النيل . فكيف يتأتى له ذلك وجوردون الانجليزى يحكم باسمه في السودان ؟

كان في خدمة اسماعيل ضابط أمريكى يدعى القائم مقام شاليه لونج بك . فعينه اسماعيل رئيساً لأركان حرب الجنرال جوردون في ٢٠ فبراير سنة ١٨٧٤ في نفس الوقت الذى تم تعيين جوردون فيه مديراً عاماً للمديرية خط الاستواء .

ولقد سجل شاليه لوغج مايلي في كتابه (حياتي في أربع قارات
ج ١ ص ٦٧ My Life in Four Continents)^(١)

« كان الخديو اسماعيل يزرع قاعة الاستقبال بخطوات واسعة وهو متجهج
تهيجا عصبيا عندما دخلت عليه يصحني طوينتو بك الشرقياني الثاني ليقوم
بواجب المحافظة عليه - فسألني الخديو هل رأيت جوردون ؟

فأجبت : نعم رأيت يامولاي وقضيت معه المزيغ الأكبر من الليل :
فقال الخديو حسن جداً والآن اصنع لي ما أقول .

« ولقد وقع الاختيار عليك لتكون رئيس أركان حرب لعدة أسباب
أهمها حماية مصالح الحكومة . واعلم أن القوم في لندن على وشك أن يجهزوا
حملة تحت قيادة رجل متستر بالجنسية الاميركية يسمى استانلي Stanley
وهو في الظاهر ذاهب ليمد يد المعونة إلى الدكتور ليفينجستون Livingstone ،
أما في الباطن والحقيقة فلرفع العلم البريطاني على أوغنده ، فعليك الآن أن
تذهب إلى غندوكورو ، إلا أنه يلزمك ألا تضع شيئا من الوقت بل يعم
في الحال أوغنده واسبق هناك حملة انجلترا واعقد معاهدة مع ملك تلك
البلاد . وعصر لا تنسى لك أبر الدهر هذا الجميل أذهب وليسر عقبك
النجاح إنشاء الله . »

وسافر الكولونيل شاليه لوغج عملاً بهذه الأوامر إلى أوغنده وأنجز
مهمته . وعقد معاهدة مع متيسا ملك أوغنده الذي وضع مملكة تحت حماية
مصر ، التي سارعت بإعلان ضم جميع الأراضي الواقعة حول بحيرات فيكتوريا
والبرت الكبرى .

ولقد قام شاليه لوغج بإثبات اكتشاف بحيرة فيكتوريا باسم الحكومة
المصرية ورفع العلم المصري هناك وسجل ذلك في الجمعية الجغرافية
المصرية .

(١) تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية - الجزء الثالث - ص ٣٧٨

عند احتلال إنجلترا لمصر . وضعت يدها على دار المحفوظات المصرية بالقاهرة . ونقبت واستولت على كل مايتعلق بهذه الحملة من رسائل ووثائق حتى لا يبقى لدى مصر أى مستند عن حقوقها فى تلك المناطق . ولكن شاليه لونغ عنى بتسجيل جميع تفاصيلها فى الكتب التى وضعها .

وفى نفس الوقت ظهرت نيات الإنجليز واضحة عندما رفض جوردون أوامر الخديو بمقابلة الحملة البحرية التى أرسلها اسماعيل إلى شرق أفريقيا (الصومال) لفتح الطريق إلى أوغندة من تلك الجهات . حتى تصبح منابع النيل تحت السيطرة المصرية من جميع الجهات ، بل على العكس من ذلك تماماً فقد كان جوردون هو الذى أمر الحاميات المصرية بإخلاء أوغندة بعد ذلك . حتى تستولى عليها بريطانيا فيما بعد .

* * *

كانت زيلع وبربرة من أملاك تركيا ، تابعتين للواء الجديدة فى اليمن ، فسكر الخديو اسماعيل فى ضمهما إلى أملاك مصر حينما عزم على فتح سلطنة هرر لأن زيلع هى ميناء حرر الطبيعى ، فسعى إلى ذلك لدى الحكومة العثمانية وصدر له فرمان أول يولية سنة ١٨٧٥ بالتنازل له عن زيلع وملحقاتها مقابل زيادة فى الجزية مقدارها ١٥٠٠٠ جنيه عثمانى سنوياً ، ويدخل فى ملحقات زيلع ثغور بربرة وبوطا وتاجوره .

وجعل منها اسماعيل محافظات عين لسكر منها محافظا من كبار قواده . وقامت بها فى الحال أعمال العمران ومباني الحكومة والجاراك والشكنات العسكرية والمساجد ومشروعات المياه ومكاتب البريد - ووصلت الشواطى التى تحت النفوذ المصرى جنوباً إلى رأس جردفوى على المحيط الهندى .

* * *

فتح هر (١٨٧٥) :

في عام ١٨٦٦ تولى الحكم في هر سلطان تحالف من قبائل الجالا واستعان بهم على توطيد حكمه باضطهاد شعب هر فاستنجدوا بالهندو اسماعيل . فأرسل إلى رؤوف باشا قائد الحملة المصرية على زيلع وبربره الذي توجه إليها (٣٦٠ كيلو مترا) واستولى عليها في ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ بدون أن يلقى أية مقاومة تذكر ، وكان استيلاء المصريين على هر لا يقتصر على كونه مرحلة من مراحل التقدم المصرى داخل البلاد ، بل كان له أثره البالغ في انتشار الإسلام ، إذ أن الحملة المصرية عملت على كسر شوكة قبائل الجالا المحيطة بمدينة هر والتي درجت على تهديدها وكان جانبها كبيرا منهم في تلك المنطقة لا يزال وثنيا . ولم تأل الحملة جهداً في إدخالهم إلى الدين الإسلامى .

وعادت هر مركزا لبعث الدعوة الإسلامية منها وانطلقت مجموعة من الفقهاء لارشاد الناس إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة . وكذلك انتهى عهد الجالا وسيطرتهم في هذه المناطق وأصبحت المنطقة كلها في فترة قصيرة متجانسة .

° ° °

فتح الصومال ١٨٧٥ (١) :

اعتزم الهندو اسماعيل فتح بقية بلاد الصومال فجرد لذلك حملة بقيادة الاميرال ماكيلوب باشا ، وكانت القوات البرية بقيادة شابى لونج بك مكلفة بفتح باقى شواطئ الصومال والوصول إلى مصب نهر جوبا (الجب) ثم فتح الطريق من هناك إلى منطقة البحيرات - لكن يتم اتصال أملاك الإمبراطورية المصرية حول شرق أفريقيا ونهر النيل من منبعه إلى مصبه . ووصلت الحملة إلى رأس حقون ورفع العلم المصرى عليها ثم غادرها إلى بربرة ثم استمر

(١) ص ١٢٧ ج ١ . عمر اسماعيل عبد الرحمن الرافى

في طريقه إلى بلدة قسمايو وعسكرت الحملة بها استعدادا للسير غربا قاصدة بحيرة فيسكتوريا وفقا للخطة المرسومة لها من قبل .

وكان اسماعيل قد كتب لجوردون حاكم خط الاستواء وقتئذ لكي يقابل الحملة ويهد لها ويعمل على نجاح المهمة . ولكن الحملة عادت مرة ثانية إلى قسمايو ويقول قائدها أن من أسباب اخفاقها إغضاء جوردون عن الاتصال بها رغم الأمر الصادر له من الحديو اسماعيل ، وظهر فيما بعد من كتابات جوردون أنه فوجئ عندما وصلته أنباء خضوع أوغندا للقوات المصرية مما يؤيد أصرار جوردون على ألا يمتد النفوذ المصرى إلى تلك الجهات ومن البديهي أنه كان يعمل في ذلك بتعليمات من الحكومة الانجليزية .

ولم يحاول الإنجليز اخفاء نواياهم فان الحملة قد ازعجت الإنجليز فأوعزوا إلى حليفهم سلطان زنجبار لكي يحتج على نزول القوات المصرية في قسمايو قريبا من حدوده ، وخارت بريطانيا اسماعيل في الكف عن الحملة وأرسل وزير خارجية إنجلترا إلى الحديو مذكرة بهذا المعنى ، فخشى عواقب المشاكل بينه وبين الحكومة الانجليزية وكان في الوقت نفسه يحجز الحملة على الحبشة . فأمر بانسحاب الحملة من الجوبا في يناير سنة ١٨٧٦ وعادت إلى مصر بعد أن اخفقت في تنفيذ مهمتها .

على أن الحكومة الانجليزية اعترفت بامتلاك مصر لبلاد الصومال الشمالية الواقعة على خليج عدن بمعاهدة ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ التي اعترفت فيها بامتلاك مصر سواحل بلاد الصومال لغاية رأس جردفون ثم رأس (حفون) الواقع جنوبيه على المحيط الهندي . وقبلت مصر أن تبقى بربره وبولهار ثغرين حريين ، وأن لا تعطى فيها أى امتياز أو احتكار لأحد ما^(١) .

• • •

(١) من ٣٠١ ، ٣٠٢ الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الاحمر .
د . شوقي عطا الله الجبل .

الحرب بين مصر والحبيشة :

عما تجدر الإشارة إليه أن الحملات المصرية قد سيطرت على بلاد يسود فيها الدين الإسلامي ، فقد كانت قد ربطت بين مصوع وبين كسلا وسنار في شرق السودان مسيطرة بذلك على الاريتريا ثم انتشرت قواتها على الساحل إلى رأس جردفون فشمل نفوذها بلاد الصومال وتوغلت في الداخل واستولت على هرر وبدأت تبسط نفوذها مرتكزة في هرر . وحاصرت بذلك الدولة المسيحية .

ويبدو أن نجاح هذه الحملات كان سريعاً خاطفاً للدرجة التي أدهشت كثيراً من المؤرخين والكتاب ، خصوصاً وأن جميع الحملات كانت مصحوبة بخطة مدروسة لإدخال الحضارة وال عمران واستئباب الأمن ورفق البلاد وتقدم الزراعة والتجارة . مما جعل الحكم المصري فريداً في بابهِ بالمقارنة مع الدول الاستعمارية .

ومن عجيب الأمر أن مصر كانت تقوم بتلك الحملات الباهظة في وقت كانت فيه مالبثها تسوء من يوم لآخر ، ويقوم على رعاية شئونها في السودان وخط الاستواء ولايات هرر وبربرة وزيلع أجانب مفروضون عليها من أمثال الجنرال جوردون . وفي الوقت الذي كان من المفروض أن تستقر الأمور فيما يسيطر عليه المصريون من أقاليم وسلطنات حتى تنهيا الفرصة للصحيحة للإقدام على الخطوة الأساسية وهي الاستيلاء على مملكة الحبيشة . في هذا الوقت الذي يحتاج إلى الاستقرار وإلى خبرة القواد العظام الذين حققوا تلك الانتصارات السابقة ، أخذ جوردون يفصلهم واحداً بعد الآخر مبتدأ برؤوف باشا فاتح هرر ورضوان باشا وأبو بكر باشا متصديداً للأخطاء . ومتعللاً بأنفه الأسباب ، ويمتنع عن تلبية أمر الخديو لمقاومة الحملة المصرية المتجهة من قسمايو إلى منابع النيل في أوغندا ، مما أدى إلى فشل الحملة وبقاء أطراف الامبراطورية الجديدة بدون اتصال .

لا غرابة أن تصادف الحملة التي جردتها الجيوش المصرية في عام ١٨٧٥م بالهزيمة على يد الامبراطور يوحنا . الذي تشجع بهذا النصر ونادى في البلاد بطلب المعونة وقام بجواره رجال الدين بالدعوة لتجنيد أكبر قوة ممكنة ، وانضم إليه الملك منليك ملك شوا ، وأوقعوا بالمصريين هزيمة ثانية بالقرب من (قورع Gura)^(١) (١٨٧٦) وانتهت بعقد هدنة . ظلت مصر بعدها تسيطر على منطقة كيرين سنهت (Keren) في الاريتريا — بالإضافة إلى ما كان تحت يدها قبل تلك المعارك وهي الصومال وهرر والمناطق الساحلية .
وما هو جدير بالذكر أن الأمير حسن نجل الحديو اسماعيل كان من بين الأسرى فأمر الملك يوحنا برسم صليبيين على ذراعيه (بالوشم) وطالب بقدية مقدارها (٢٥ مليون ريال) — دفعها اسماعيل عن طريق قروض جديدة^(٢) .

ويذكر المؤرخ المصري الكبير عبد الرحمن الرافعي حرب الحبشة بشيء كثير من التفصيل ، ومع أن أراءه لا تختلف كثيراً عن الآراء التي سبق شرحها ، والظروف التي أدت إلى هزيمة المصريين ، إلا أنه يضيف إليها رأياً خاصاً حين يقول : هي الحرب العقيم التي غاضتها مصر في عهد اسماعيل . والعقبة الكأداء التي اصطدمت بها فتوح مصر في حوض النيل وملحقاته . ومن أى ناحية نظرنا إليها نجد أن مصر لم تكن في حاجة إليها ، ولا مصلحة لها في خوضها ، وإنما ساق إليها النزق ، وسوء التدبير فانتهد بالهزيمة والخسران^(٣) .

(١) بلغت خسائر مصر في معاركها بالحبشة عدداً من القتل والأسرى والجرحى وكميات كبيرة من العتاد ومبالغ ضخمة من الأموال ، وبقيت لها في النهاية بلاد البوغوس (الاريتريا) التي كانت تملكها في السابق ، وكانت جميع تلك المناطق كافية لإرسال السودان بالبحر — ولم يكن هناك مبرر للتطلع إلى احتلال الحبشة ، في تلك الظروف التي كانت المالية المصرية أثنائها على أسوأ حالتها .

(٢) م — ٢٢٠ سيرج Budge

(٣) م ١٤٣ ج ١ مصر اسماعيل عبد الرحمن الرافعي

(١٥) — الحبشة

« رأيت مما تقدم بيانه ، أن مصر قد ضمت الجهات الواقعة بين الحبشة والبحر الأحمر وفتحت سنهت (كبرين) وبلاد البوغوصي (الاريتريا) شماليها وهرر المجاورة لها من الجنوب الشرقي ، فأحاطتها من الشمال والشرق والجنوب ، فضلاً عن مجاورتها لها من الغرب منذ عهد محمد علي » .

« فهذه المواقع كان يكنى مصر أن تثبت سلطتها وتدعم نفوذها فيها ، وبذلك تبقى الحبشة مسالمة لها ، إذ تحتاج إليها للوصول إلى البحر ، ولكن اسماعيل حدثه نفسه بفتح الحبشة ، واكتساحها من طريقه ، دون أن يقدر صعوبة هذه المهمة وعواقبها الوخيمة ، فالحبشة كما يعرفها الذين جاورها وسبوا غورها ، بلاد جبلية لا يسئل على دولة أجنبية أن تحتلها أو تتجسس جبالها الوعرة ومناورها الجرداء ، فضلاً عن أن حريها لا تفيد مصر بحال من الأحوال ، بل تخلف لها من المشاكل وتكبدتها من الخسائر والاضحايا ما هي في غنى عنه » (١) .

ولا شك في أن الحرب بين مصر والحبشة كانت مغامرة عقيمة ، قامت بها مصر في وقت يتحكم فيها الإفلاس ، واعتمد إسماعيل في حكم مناطق امبراطوريته الجديد وقيادة جيوشه على مجموعة من الأجانب المغامرين ، ويبدو واضحاً للعيان كيف أن بريطانيا قد استفادت من جميع الظروف وبسطت نفوذها في الخفاء وفرضت رجالها على الخديو ليتقبلوا أخطر المناصب . وإذا جمعنا ما لدينا من معلومات وما حدثت في تلك الفترة من أحداث وما فعله الآن عما كانت تدبره بريطانيا في الخفاء ، وعن الإزدياد نفوذها في البحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس ، وما تم فعلاً بعد ذلك فإنه يظهر واضحاً جلياً أن هذه الأعمال والحوادث لا يمكن أن تكون من قبيل الصدافات (٢) .

* * *

(١) نفس المرجع

(٢) راجع خطابات جوردون من ٣١٥ وما بعدها الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر تأليف د . شوقي عطا الله الجمل .

خطط بريطانيا :

بعد أفول نجم البرتغاليين ، تنافست الدول الأوروبية الكبرى في المنطقة واشتدت بينهم الخلافات والمناوشات . فازداد نشاط الهولنديين في المحيط الهندي والخليج العربي ، وحاول الأسبان الظهور في المنطقة ولكن نجاحهم في الكشف الأمريكي حول جميع جهودهم إلى ذلك الاتجاه ، أما أمر فرنسا فهو معروف منذ حملة نابليون على مصر وخططة المشهورة لقطع طريق الهند وتثبيت أقدامه بالشرق الأوسط ، وكانت الخطط البريطانية أبعد الخطط نظرا وأكثرها خطورة وتركيزا . لذلك كان النصر في النهاية لبريطانيا . حيث تمكنت من الانفراد بالسلطة والسيطرة على جميع أنحاء منطقة الشرق الأوسط .

لذلك لا نرضى للقارىء أن يتتبع أخبار منطقة من المناطق أو يدرس سادثة تاريخية في نطاقها الضيق ، بل يتحتم الإلمام بجميع العوامل المحيطة بها والمقدمات التاريخية الطويلة التي تؤدي في النهاية إلى النتائج المدونة ، وفي خطط الدول الكبرى ما يشير دائما إلى سياسة مرسومة لا محل للصادفات فيها . ولكنهم في تنفيذ سياستهم الأساسية البعيدة المدى ، يعالجون كل ما يعترضهم من مشا كل وعقبات حسب ما تقتضيه تلك الظروف ، ونصب أعينهم دائما لتحقيق السياسة الأساسية البعيدة المدى التي لا يغفلون عنها أبدا .

ويعود نشاط بريطانيا في تلك المنطقة إلى القرن السادس عشر عندما بدأ البريطانيون في ارتياد تلك المناطق ، يلتمسون وسائل الانقضاض عليها والتفوق على البرتغاليين . ومرت مجروداتهم في هذا السبيل في عدد من المراحل الهامة التي تميزت بأحداث محددة مسجلة ، واحدة هنا وأخرى هناك شاملة لجميع أنحاء المنطقة . ولو أن الدارس لتاريخ تلك المناطق عني بمقارنته أحداثها في مختلف أنحائها ورسم لها صورة واحدة ، لانتضحت له حقيقة

التنظيم الاستعماري والتخطيط الواسع البعيد المدى ، ولا ترتبط الحوادث ببعضها بما لا يترك أى مجال لافتراض المصادفات .

* * *

لم تتحقق السيادة البريطانية الكاملة على مياه الخليج العربى إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وذلك لأن السياسة البريطانية كانت قد ركزت اهتمامها فى النصف الأول من ذلك القرن على قهر نابليون فى أوروبا والقضاء على آماله فى تكوين علاقات مع إيران وبلاد العرب وأفغانستان وتركيا ، بالإضافة إلى المتاعب التى كانت شركة الهند الشرقية مشغولة بها فى الهند . ولذلك بقيت السيادة على ربوع الخليج فى يد عرب الخليج ، سواء كانوا عرب مسقط وعمان بزعماء سعيد بن سلطان أو عرب القواسم فى ساحل عمان . . وفى سنة ١٨٠٣ كان سلطان بن صقر زعيم القواسم قد اشتهر فى جميع أنحاء الخليج بقوته وشجاعته وقسوته فى حروبه مع سفن شركة الهند الشرقية الإنجليزية . مما اضطر إنجلترا إلى إرسال قوة بحرية (١٨٠٦ م) بمساعدة إمام مسقط تمكنت من القضاء على أسطول سلطان بن صقر . ولكن الأمور لم تهدأ بينهما واستمرت المناوشات البحرية تتوالى وتمكنت بريطانيا من إجبار القواسم على توقيع معاهدة ١٨٢٠ م ، ولكن الحروب بين القبائل العربية استمرت حتى وقع الشيوخ فيما بينهم ، وتحت رعاية بريطانيا وهدنة بحرية ، عام ١٨٢٩ - وانتهت المناوشات البحرية والبحرية - تحت رعاية بريطانيا أيضا - بتوقيع معاهدة السلم فى عام ١٨٥٢ التى لازالت نافذة المفعول حتى يومنا هذا ^(١) .

وبعتبر سعيد بن سلطان من أهم شخصيات الخليج العربى وكان حاكما لمسقط من ١٨٠٤ إلى ١٨٥٦ ، امتاز حكمه خلالها بالفتوحات الواسعة التى قام بها فى الخليج العربى وشرق أفريقيا ، فلقد استولى فى ١٨٠٥ على مستعمرات عيباسا وزنجبار ، على الساحل الشرقى لافريقيا . . وهذا هو الذى دفعنا إلى

(١) ص ١٩ الخليج العربى والعلاقات الدولية . الجزء الأول د . محمود على الداود

العناية بالكتابة عنه هنا . وكان سعيد بن سلطان على صفاء تام مع السياسة البريطانية وعاونها في مشروعاتها وخططها بناء على المعاهدات المعقودة بينهما منذ عام ١٨٧٩ .

وعند وفاة الأمير سعيد بن سلطان تنازع ولده على الحكم ، فنوسط (لورد كاتنج) نائب الملك في الهند ، وقسم بينهما أملاك السلطنة ، حصل أحدهما على سلطنة مسقط في الخليج العربي ، بينما كانت زنجبار ومباسا وباقي ممتلكاتها في شرق إفريقيا من نصيب الثاني (١) .

ولقد انتهت عملية التقسيم هذه إلى نتيجة المحتومة وهي إضعاف الجانبين وتضاؤل سلطتهما إلى الحد الذي أصبح فيه يعتمدان اعتمادا كلياً على بريطانيا للاحتفاظ برشيهما ، حتى أن سلطان مسقط وصل إلى حالة من الضعف بحيث أصبح يعتمد على إعانة مالية بريطانية تدفع له سنوياً من حكومة الهند ، أما سلطان زنجبار فقد أصبح في الحقيقة تابعاً لبريطانيا يعمل بارشادها ويطيع أوامرها وإن كان استقلاله قد نصت عليه معاهدة (١٠ مارس ١٨٦٢) المعقودة بين إنجلترا وفرنسا .

* * *

ذكرنا هذا المختصر لتاريخ هذا الجزء الهام من شرق إفريقيا في ذلك العصر الذي تسكلم عنه لنبين كيف كانت خطط بريطانيا تنفذ على مجال واسع ، ويمكننا بذلك أن نكمل رسم الصورة الحقيقية للوقوف في المنطقة :

١ - التنافس بين فرنسا وإنجلترا على مصر وانتصار بريطانيا الذي أدى إلى انسحاب حملة نابليون من مصر .

٢ - تحالف جميع القوى الأوروبية المتصارعة للقضاء على القوة المصرية الناشئة (مع القوة التركية) وتحطيم الأسطول المصري التركي في معركة نافارين البحرية وإجبار محمد علي على الجلاء عن سوريا وبلاد العرب ، وحصره في مصر وإفريقية .

٣ - عندما عزم محمد علي على فتح الحبشة حذره القنصل العام البريطاني (سولت) من أن اعتدائه على الحبشة سوف يثير عليه الدول الأوروبية للدفاع عن الحبشة على اعتبار أنها المملكة الأفريقية الوحيدة التي لازالت تحتفظ بمسيحياتها . ولهذا التحذير دلالة الكبرى على حماية الدول الأوروبية للحبشة بمختلف الوسائل .

٤ - عندما انتعشت الأحوال في مصر ثانية - دخلت الدول الأوروبية من باب جديد وهو باب المزاين والقروض ، وتمكنوا من الانتفاع إلى أقصى حد من امراض الخديو اسماعيل ونزقه ووصول الدين المصرى إلى ماينوف على ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ ج وأصبحت بريطانيا تتحكم في جميع مقدرات مصر وامبراطورتها الجديدة التي امتدت على الشاطئ الأفريقى بأجمعه إلى بلاد الصومال ، وتغلخت في داخل القارة الأفريقية حتى وصلت إلى حدود مملكة الحبشة فوق الهضبة ، وعن طريق النيل وصلت إلى قلب افريقيا وبسطت سلطانها حتى شمل مملكة أوغندة .

٥ - فرضت بريطانيا على مصر مجموعة من الحكام والقواد ، على الأجزاء الهامة من الامبراطورية الذين أخذوا يتصرفون ظاهرياً كوظفين في الحكومة المصرية ، وفي حقيقة الأمر ينفذون المخطط الاستعماري الانجليزي .

٦ - عندما أراد الخديو لإكمال الحلقة الأخيرة التي تربط أطراف امبراطوريته وتثبيت أقدامها رفض جوردون تنفيذ الأوامر الصادرة إليه من الخديو . وتذكر المصادر البريطانية أن سلطان زنجبار قد احتج على نزول القوات المصرية في قسمايو قريبا من سلطنته ، ولقد علنا مما سبق شرحه كيف كان سلطان زنجبار عميلا لبريطانيا مرتبطا معها بمعاهدات من الحماية والولاء ، وأن شكوى السلطان قد تأيدت بتدخل الانجليز ومعارضتهم لبقاء الحملة المصرية ، فكانت معارضة بريطانيا من الطرفين ، من جهة جوردون ومن جهة سلطان زنجبار .

٧- رأينا فيها سبق شرحه كيف عبر جوردون عن عدم رضائه عن اخضاع أوغندة للحكم المصرى ومنذ أن أصبح حاكما للسودان باسم خديو مصر - أخذ يعمل على عزل أوغندا من هذه الامبراطورية المصرية الجديدة .

٨- ورأينا كيف تمكنت بريطانيا من فرض جوردون على الخديو اسماعيل ، وامتداد نفوذه حتى شمل جميع الأقاليم التي فتحها مصر في افريقيا الشرقية والحبشة ، فبادر بفصل القواد المصريين العظام الذين لهم فضل الفتوحات والانتصارات وأصبحت لهم الخبرة والدراية بتلك المناطق وأحوالها . وعين بدلا منهم كثيرا من الأجانب الذين يدينون له بالولاء .

٩- عندما فازت فرنسا بالمشروع العظيم - مشروع قناة السويس - أخذت بريطانيا تترصد حتى تمكنت من التسلل إلى القناة عن طريق شراء نصيب مصر من أسهم الشركة (٤٧ ٪) بعملية الشراء التاريخية التي قام بها دزرائيل على مسئوليته الخاصة ، وعندما وقف أمام مجلس العموم البريطانى يدافع عن تصرفه قال : « بغير القناة سوف لا تسيطر على مصر وإذا لم تسيطر على مصر فسوف نفقد الهند » .

١٠- عندما بدأت إنجلترا تتفرغ للعمل على بسط نفوذها في هذه الأرجاء كانت الدولة العثمانية والحكومة المصرية تسيطران على أغلب الموانئ والشواطئ على جانبي البحر الأحمر ، فجاهدت إنجلترا للحصول على مركز لها تعتمد عليه وتجعل منه نقطة لانطلاقها ، وتمكنت من التحالف مع بعض شعوب المناطق النائية وصغار الأمراء ووقعت معهم سلسلة من معاهداتها التقليدية المشهورة بالتنازل عن بعض الأماكن ، وبهذه الطريقة استولت إنجلترا على عدن في سنة ١٨٣٨ م وأصبحت منذ ذلك التاريخ تعتبر (جبل طارق الشرق) ومنها أخذت تراقب حركات البحر الأحمر واستولت في ١٩ أغسطس سنة ١٨٤٠ على جزيرة موسى التابعة للسلطان محمد والى تاجوره ، وفي ٣ سبتمبر سنة ١٨٤٠ استولت على جزيرة أوباط التابعة لحاكم زيلع . وحذا الفرنسيون

حذو بريطانيا واشترى في ١٨٦٢ (أوبوك) التي أصبحت تعرف فيما بعد بالصومال
الفرنسي (جيبوتي) وابتاع الطليان ميناء عصب سنة ١٨٧٠ من القبائل
المحلية ، وكان اسماعيل يطعن في صحة البيع ويطالب انجلترا باخلاء الجزر
حتى لا تمنع الدول في الجرى على سنها ولكن احتجاجات الحذو اسماعيل
ذهبت أدراج الرياح ، وكانت هذه الأماكن التي يبع بطريق غير مشروع ،
أساساً لتقسيم الامبراطورية المصرية بين تلك الدول فيما بعد (١٨٨٤)^(١)

١١ - في الوقت الذي كانت فرنسا تتفاوض للحصول على امتياز قناة
السويس كانت بريطانيا تعمل جاهدة للحصول على امتيازات أخرى لا تقل
أهمية ، وهي مرور الأملاك البرقية البحرية الشهيرة التي تربط الامبراطورية
البريطانية من استراليا إلى لندن . مارة بستغافورة والهند (بومباي) وعدن .
ولما كانت باقي الموانئ تحت الحكم العثماني والمصري فقد عمدت بريطانيا
على بذل الجهود للحصول على حق مرور هذه الكابلات البحرية في موانئ
جدة وسواكن وبورسودان ثم السويس ومنها عبر الأراضي المصرية إلى
بور سعيد والإسكندرية ومنهما إلى مالطة إلخ . إلخ . (ليس لهذه المجموعات
مراجع مستقلة بها ، ولكن المؤلف عنى بجمعها وينوى إصدار كتاب مفصل
عنها بإذن الله) .

١٢ - وذكرنا في عدة مواضع كيف أن جوردون وهو يعمل لحساب
مصر أميناً على مصلحتها كان يؤيد الامبراطور يوحنا عدو مصر الأول في
هذه المنطقة . وما لا جدال فيه أن جوردون وهو يتبوأ أخطر المراكز ،
بسيطرته الكاملة على مصالح مصر في ملحقاتها في أفريقيا ، كان يعمل قلبه
وقالباً لمصلحة بريطانيا - وضد مصلحة مصر التي يعمل باسمها وموظف بها -
١٣ - كل ذلك يحدث وأحوال مصر المالية تسير من سيء إلى أسوأ ،

(١) ص ١٧ مصر في شرق أفريقيا د . محمد صبري .

وتتحسن معها الظروف أمام المخطط البريطانية من حسن إلى أحسن .
وخصوصاً بعد أن تمكنت من شراء الأسهم المصرية في قناة السويس وبذلك
أصبحت شريكة لفرنسا فيما حصلت عليه من نصر بحصولها على امتياز القناة .

١٤ — سنحت الفرصة ونضج المحصول وحن قطافه، فاستولت بريطانيا
على مصر في سنة ١٨٨٢ م وأصبح حكمها لمصر وما يتبعها من السودان وأوغندا
وشرق أفريقيا — حبشة وصومال وأريتريا ، سافرا واضحا ، لا محل فيه
للغموض ، وما أن تم ذلك حتى قررت بريطانيا أن تنسحب مصر من
السودان . معتمدة على ثورة المهدي .

١٥ — هدية الأسلحة الانجليزية للامبراطور يوحنا التي شرحناها في
الفصل السابق ليعزز بها يوحنا حليف بريطانيا مركزه .

١٦ — استولى المهديون على القضاة في ١٨٨٤ ولكن كسلا بقيت في
أيدي المصريين .— ولقد حافظوا عليها خوفاً على أن يؤدي التخلي عنها إلى سقوط
أريتريا بأكملها حتى مصوع وكانت جميعها في أيدي المصريين . وهنا تدخلت
بريطانيا لمساعدة الحبشة وكسب صداقتها فدفعتم المصريين إلى التخلي عن
منطقة (سنهيت — يلين) للحبشة وأمرت بإخلاء منطقة القلابات —
وكنتيجة لذلك لم تتمكن كسلا من المحافظة عليها .

• • •

منذ احتلال بريطانيا لمصر في ١٨٨٢ ، بادرت إلى القضاء على الجيش
المصري والبحرية المصرية ، فلم يكن يستقيم الأمر أن تحتل بريطانيا مصر
ويبقى لمصر ذلك الجيش وتلك البحرية عماد الامبراطورية المصرية الناشئة ،
ثم لماذا هذه الامبراطورية ، لابد من تحقيق المخطط البريطاني والاستيلاء
عليها ، وفي يد بريطانيا مبرر تستعمله كيفما تشاء وهو إفلاس الخزينة
المصرية واضطراب أحوالها المالية، ولو أن احتفاظ مصر بالآريتريا والصومال

والسلطنات المصرية في الحيشة وشرق أفريقية بعد أن ثبتت أقدامها فيها كان يبشر بالحصول منها على موارد تسدد تكاليف الحملات العسكرية التي كلفت مصر الكثير من المال والعتاد والأنفس ، وبشكل ما أنفق عليها جانباً كبيراً من الدين العام الذي استندت عليه الدول الكبرى في فرض الوصاية على مصر وانتهت باحتلال بريطانيا لها .

جميع الأسباب المنطقية كانت تؤيد ضرورة بقاء الحكم المصرى لهذه المناطق ولكن هذا المنطق لا يتفق مع المخطط الانجليزي . فلما بدأ تسحب مصر من هذه البقاع . فصدر إليها الأمر بذلك وتم انسحابها في ١٩ فبراير سنة ١٨٨٥ م وكانت بريطانيا قد أمرت بأن يكون على باشا حاكم هرر نحت أوامر الميجر هنتر . الذي كلفته بريطانيا بتنفيذ عملية الانسحاب من هرر ، وقام نوبار باشا بتبليغ هذا الأمر إلى حاكمى زيلع وهرر في أغسطس سنة ١٨٨٤^(١) .

تقاسمت الدول الكبرى — على عاداتها في تلك الأزمنة — الامبراطورية المصرية — متعلقة كل منها بسبب أو بآخر وكانت النتيجة أن البلاد التي أخضعتها مصر للمرة الأولى في التاريخ ونشرت بين ربوعهم الاستقرار والمدنية والعمران ، وأنفقت في سبيل ذلك كل غال من أرواح أبنائها وأموالها — تقسمت بين الدول الاستعمارية بالاتفاق مع بريطانيا التي حصلت منها على نصيب الأسد . استولت إيطاليا على الاريتريا والصومال الإيطالى ، واستولت فرنسا على الصومال الفرنسى واستولت بريطانيا على الصومال الانجليزي وأوغندا . وعملت على استرداد السودان بحيث يكون لها فيه السلطة العليا (٢) .

° ° °

(١) ص ٢٣٢ الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر د . شوقي عطا الله الجبل
ص ١٢٣ التنافس الدولي في بلاد الصومال د . جلال يحيى .
(٢) دخلت ألمانيا في ذلك الوقت في حلبة الصراع الاستعماري — وتمكنت من الحصول على نيجيريا في شرق أفريقيا باحتلال المنطقة التالية للصومال الانجليزي .

في هذا التقسيم بقيت هرر بدون صاحب . مما يدعو إلى العجب ، وقد كانت هرر أغنى هذه المناطق وتتمتع بموقع ممتاز وتبشر بمستقبل باهر ، الأمر الذي جلب إليها عدداً كبيراً من التجار الأجانب الذين أزعجهم نبأ انسحاب القوات المصرية ، وكأنما قد تعمدت بريطانيا بموافقة الدول الكبرى الأخرى على ترك هرر في فراغ حتى تهىء الفرصة لقوات الحبشة باحتلالها — كحل طبيعي لما تشده من القضاء على الإسلام وتعزيزاً لسلطة المملكة المسيحية في تلك البلاد . ولا يمكن أن يكون عملها هذا من قبيل الصدف — بل يدعونا توافق الحوادث إلى اليقين بأن ترك هرر على هذه الصورة إنما كان عملاً مدروساً مبيتاً ومتفقاً عليه ، يكمل قصة الأسلحة التي تركت هدية لملك الحبشة ، وليس لكل ذلك إلا معنى واحد تهدف إليه بريطانيا وسكت عنه باقي الدوى الكبرى لموافقتها عليه ، وهو تأييد ملوك الحبشة في السيطرة الكاملة على المناطق الإسلامية .

* * *

استغرقت هذه الأحداث جميع عصر اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) وجانباً كبيراً من حكم توفيق الذي تم فيه احتلال مصر وتصفية امبراطوريتها .

وفي أثناء ذلك أيضاً قامت ثورة المهدي في السودان — ورأت بريطانيا أن تنجبر مصر على الانسحاب من السودان . ولما اعترض المصريون على ذلك لثقتهم في إمكان السيطرة على الموقف والقضاء على الثورة المهدية . أقاموا الوزارة وعينوا وزارة جديدة تحت رئاسة نوبار باشا الأرمي الشهير الذي أقر الجلاء عن السودان . ثم تلاه عدد آخر من رؤساء الوزارات الخاضعين للنفوذ البريطاني .

حروب الحبشة مع المهاديين :

قامت كثير من المناوشات والحروب والغارات بين قوات المهدي والحبشة

ولجأت الحبشة إلى شن هجوم كبير على القلايات وأوقعوا بها هزيمة كبيرة وأحرقوها . وقتلوا حاكمها في المعركة وكان ذلك في أول يناير سنة ١٨٨٨ .

عندئذ اهتم الخليفة عبد الله التعايشي وأرسل لها جيشاً كبيراً معتبراً القلايات باب السودان الشرقي الذي يجب أن يحفظه مسدوداً . منذ ذلك الحين أخذت الحرب بين يوحنا والتعايشي تتخذ طابع العنف . وهناك من يعتقد أنها لم تكن لازمة ، وكان من السهل تلافيها . ويعودون باللائمة على الأحباش لأنهم هم الذين بدأوها . مما دعا الخليفة عبد الله التعايشي إلى الكتابة إلى يوحنا في مارس سنة ١٨٨٧ يحمله مسؤولية اعتداءاته المتكررة بالقتل والأسر والنهب والضرر . الذي يوقعه بضعفاء المسلمين الذين بالقرب من بلاده^(١) .

وفي يناير سنة ١٨٨٨ خرج جيش المهدي لغزو الحبشة ، وتوغل في أرضها واتخذ الأحباش خطة الانسحاب حتى يبعدوا الدراويش عن قواعدهم ويسهل عندئذ القضاء عليهم ، ولكن خططهم فشلت ، وتمكن الدراويش من دخول جوندار العاصمة في ٢١ يناير سنة ١٨٨٨ وسلبوها وأحرقوها وعادوا بغنائمهم إلى القلايات ثم عادوا مرة أخرى وقاموا بنفس العملية في يونيو ١٨٨٨ .

ولقد انهكت هذه الحروب قوى الأحباش والمهديين على السواء ، وفي ٢٥ ديسمبر عام ١٨٨٨ اتصل يوحنا بالقائد السوداني يعرض عليه الهدنة وكان الدافع ليوحنا إلى هذا العمل هو تعرضه إلى اعتداءات الإيطاليين في الشمال من جهة الاريتريا وأصبح يوحنا يخشى منهم على بلاده . ولكن الخليفة رفض الصلح وطلب من يوحنا إذا شاء الصلح أن يعتنق الاسلام^(٢)

(١) من ٢٨٩ مصر والسودان تأليف د . محمد فؤاد شكرى .

(٢) نفس المرجع السابق .

واستعد الفريقان لمعركة حاسمة وقعت (في المتعة) كان فيها النصر الحاسم
لقوات السودانية وأصيب الملك يوحنا بجرح مميت وتوفي في المعركة (٢٩
مارس سنة ١٨٨٩) .

* * *

كلمة ختامية عن الحملة المصرية :

لم تكن العمليات العسكرية والمدنية التي اتبعت في انشاء الامبراطورية
المصرية مرتجلة أو معتمدة على المصادفات ولكنها كانت مدروسة دراسة
دقيقة ، مجهزة بأحدث التجهيزات ، متبعة أحدث الوسائل وأدقها في شئون
الادارة والحكم .

فلقد أدخلت الخدمات التلغرافية التي كانت تربط أطراف الامبراطورية
بعضها وجعلت منها الليرة الأولى عماد الاتصال بين المركز في القاهرة وبين
باقي أنحاء الامبراطورية ، وجعلت من الأسطول البحري - الحربي والتجاري -
وسيلة النقل الأساسية التي تسير من ميناء إلى آخر في رحلات منتظمة -
ولليرة الأولى في التاريخ أيضا يجرى نظام دقيق للتعاون الدائم بين القوات
البحرية والقوات البرية .

وأدخلت مصر نظم الادارة الحديثة وعينت المديرين والرؤساء والشرطة
ورجال الادارة ، فاستتب الامن وانتعشت الزراعة والتجارة وأصبحت البلاد
تنطلع إلى مستقبل مشرق ورخاء لم يكن لها أمل فيه في الماضي .

ولقد فام جماعة من المهندسين المصريين بأجل الاعمال في انشاء خطوط
التلغراف والمواني وأرصفتها ومستودعاتها وغير ذلك من المنشآت الحكومية
وخططوا المدن وشقوا الشوارع المعبدة وبنوا المساجد ، ووصلوا المياه
العذبة إلى مختلف الأماكن وبنوا المستشفيات والصيدليات والمخابز والمطاحن
وأنشأوا مكاتب البريد ، ولقد برز في هذه الاعمال الجليلة عدد كبير من رجال
مصر العسكريين والمدنيين الذين يضيق المقام هنا عن ذكرهم بالتفصيل ،

وتحليل القارىء إلى المراجع المتخصصة في هذه الأمور للوقوف على المزيد من أعمالهم . مثل تقويم النيل ومؤلفات الرافعى والدكتور صبرى وغيرها .

واعتنى المصريون بإنشاء المحطات فى طريق التجارة بين المدن والمراكز الكبرى بحيث تجد القوافل فيها وسائل الراحة ، وكانت فى نفس الوقت مراكز حفظ الأمن وسلامة التجار والمسافرين .

وعنى المصريون بنشر أسس الحضارة فأخذت فى نشر التعليم وتحسين وسائل الزراعة وتشجيع الحرف والصناعات ، مما أثار إعجاب جميع من اطلع على الأمور فى ذلك العهد ، وجميع من كتبوا عن هذه الإمبراطورية ومدنها زيلع وهرر ومصوع وبربرة وغيرها من المناطق ، الأمر الذى لم تقم به على هذه الصورة الانسانية أى دولة من الدول الاستعمارية المعروفة فى ذلك العهد .

وهذه الحقيقة يعترف بها كل كاتب منزه عن الهوى ، وقد فطن إليها الرحالة الألماني « هلد براند » فى كتاب بحث به فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ إلى الدكتور شفاينفورت رئيس الجمعية الجغرافية المصرية قال بعد أن أظهر أسفه لوقوف إنجلترا فى وجه الحملة المصرية على نهر الجب (الجوبا) (التى سبق ذكرها) « يلوح لى أن مصر لن توفق إلى بسط نفوذها فى أفريقيا الشرقية وهذا أمر يحزن له إذ لا توجد أمة أصلح - فى اعتقادى من مصر لرفع مستوى المدنية فى أفريقيا » (١)

* * *

أنفقت مصر فى فتح هذه البلاد ونشر ما ذكرنا من عمران ، المبالغ الطائفة والمجهودات العظيمة ، وزاد بها عبء الدين المصرى ، ثم أمرت بريطانيا بجلاء القوات المصرية واقتسمت مع زميلاتها هذه الغنائم القيمة بطريقة بالغة اليسر والسهولة .

(١) ص ٧٦ مصر فى أفريقيا د . محمد صبرى ..

تلك الدول التي ورثت هذا الميراث العظيم - هي نفسها الدول التي تدين مصر بدينها الثقيل - وهنا لاتمالك من التعبير المؤلم عن عجبنا - كيف لم تقدر هذه الغنائم وتخصم تكاليفها من الدين المصرى .

فإذا كان انسحاب جيوش مصر أمرا محتوما - ولم يكن كذلك كما قدمنا فلا أقل من أن يرفع عن كاهل مصر جانب من الدين العام يقابل ما حصلت عليه تلك الدول الأوروبية من مستعمرات وغنائم وعلى رأسها بريطانيا التي كانت تحتل مصر آنذاك وتتولى عنها رعاية شئونها .

الفصل الخامس عشر

عهد منليك MENELIK

(١٨٦٥ - ١٩١٣)

ولد منليك في عام ١٨٤٤ م وكان والده ملكا على اقليم شوا ، وعندما ظهر تيودور وأخذ في القضاء على منافسيه من ملوك المقاطعات انتصر على ملك شوا الذي مات في المعركة في عام ١٨٥٥ ، وقبض تيودور على منليك وأخذ رهينة واحتفظ به في قلعة مجدلا . ولكنه رعاه وعامله معاملة طيبة كما سبق أن قدمنا . ثم زوجه من ابنته ، ولكنه مع ذلك ، احتفظ به داخل قلعة مجدلا بمحدد الإقامة .

وفي أواخر عهد تيودور عندما بدأت الامور تضطرب ، ويزداد عدد المقبوض عليهم في قلعة مجدلا ومنهم الأسرى الأوروبيون والمطران (ايونا سلامة) وكانت العلاقات بين الانجليز و تيودور بالغة السوء وتنذر بالخطر ، وبدأ كثير من الملوك والأمراء باظهار عداوتهم لتيودور ، خلال كل ذلك تمكن منليك من الهرب من قلعة مجدلا - وغالبا بمساعدة المطران وذهب إلى مقاطعته شوا وأعلن نفسه ملكا عليها في عام - ١٨٦٥ فاستقبله الشعب استقبالا حافلا ، وانهقدت حوله الآمال لتخليصهم من مجازر الامبراطور تيودور .

وعندما انسحبت حملة نابيير (١٨٦٨ م) وبعد موت تيودور ، احتدم الصراع على الملك بين الأمراء الكبار انتهت باستيلاء الامبراطور يوحنا الذي توج ملكا للبلوك في ١٨٧٣ ، ولكن منليك ملك شوا بقي يتمتع باستقلال ذاتي وينافس الامبراطور ، الذي رأى ازام ما يهدد الدولة من

الآخطار الخارجية أن يوحدها ، فقد تحالفا مع منليك يجعله وريثا للعرش بعد وفاة يوحنا ، ووطد العلاقات بينهما بأن تزوج نجل يوحنا إحدى بنات منليك (زاوديتو) التي منحها مقاطعة والو ، كهدية زواج ، على أن يحمل زوجها (ابن يوحنا) لقب ملك ، وتحمل هي لقب ملكة ، وبذلك وضعت أسس السلم بين العاهلين ، وتركت لمنليك حرية العمل في كثير من الأقاليم .

لذلك تبدأ أهمية منليك في تاريخ الحبشة منذ عام ١٨٦٥ عندما أصبح ملكا على إقليم شوا ، إذ أنه أصبح منذ ذلك الحين خطير الشأن ، وبدأت حروبه وفتوحاته تلقى نصرا على الأقاليم الجنوبية وأخذت قوته في الازدياد ، وفي تلك الأثناء تقرب الايطاليون من منليك وزودوه بمقادير كبيرة من الأسلحة - كما سيأتى ذكره فيما بعد - ولقد كان لهذه الأسلحة الفائدة الكبرى فيما حققه من انتصارات .

ولقد أتاحت لمنليك خلال تلك الفترة كثير من الفرص التي سارع لاغتنامها وأهمها ذلك الفراغ الذى نشأ في مقاطعة هرر التي تقع إلى الشرق من مملكته مباشرة ، وذلك بعد أن انسحب منها الجيش المصرى وأصبحت لقمة سائغة ، وسرعان ما انتهر الفرصة واستولى عليها في عام ١٨٨٧ م

وكان قبل ذلك قد حاز نصرا كبيرا على ملك جوجام ، وكذلك على مناطق والالو جالا . مما دفع الامبراطور يوحنا إلى التدخل لوضع حد لازدياد نفوذ منليك ، وعقد معه المعاهدة التي سبق أن أشرنا إليها ، وكان أهم أسسها أن يتولى الامبراطور يوحنا السلطة في مقاطعات جوجام والوالو جالا التي استولى عليها منليك ، وأن يستمر ولاء منليك وتعاونه في نظير توليه عرش الامبراطورية بعد وفاة يوحنا .

وعندما انتصر المهديون على يوحنا وقتلوه في معركة المئمة عام ١٨٨٩ ، تولى منليك العرش الامبراطورى وورث معه الجيش الذى كان لئدى سلفه (١٦ - الحبشة)

يوحنا ، والكميات الضخمة من الأسلحة الحديثة والعناد الذي أهدته بريطانيا إليه ، وتلك التي حصل عليها يوحنا من روسيا ، وتلك التي حصل عليها من إيطاليا ، وهذه الكميات المتزايدة من الأسلحة تمكن منليك من تحقيق الانتصارات التي حدثت في عهده ، وتم له إخضاع جميع الأمراء والسلاطين الذين لا يملكون السلاح .

ولقد شملت فتوحات منليك وانتصاراته خلال عهده الأول كملك لشوا وعهده الثاني كإمبراطور الحبشة ، جميع أنحاء البلاد . وكانت أهم أهدافه القضاء على قبائل الجالا التي ازداد خطرها وأصبحت تقرب من نصف السكان وبلغت من القوة والسلطة شأنًا كبيراً في كثير من المناطق الهامة ، وأصبح منها الأمراء والحكام والقواد .

ويتميز حكم منليك بخواص ثلاثة بالغة الأهمية — الأولى : امتداد إمبراطوريته إلى الجنوب والجنوب الغربي مستولياً على الممالك الإسلامية والوثنية — والثانية : احتفاظه باستقلال الحبشة ودفاعه عنها ضد الحملة الإيطالية ١٨٩٦ م . وثبتت حدود إمبراطوريته بالمعاهدات التي عقدها في هذا الشأن ، (في ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ للحدود بين الحبشة والسودان المصري . الانجليزية — ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٧ للحدود الجنوبية مع أفريقيا الشرقية البريطانية) — والثالثة : القضاء على سلطة الملوك والأمراء وجعل الدولة وحدة واحدة وأصبحت الممالك والسلطنات عبارة عن إقاليم يعين لها حكاماً مؤقتين ينتقلون في وظائفهم من مقاطعة إلى أخرى ، وبذلك قضى على تنافس الأمراء فيما بينهم ، الذي كان سبباً في تمزيق البلاد وإشاعة الفوضى والاضطراب الذي شاهدها في جميع أدوار التاريخ .

* * *

لقد كان لتعاون الإمبراطور يوحنا مع منليك أكبر الأثر في توطيد أركان الإمبراطورية الجديدة ، فما أن تولى منليك العرش في ١٨٨٩ حتى كان

يسيطر سيطرة تامة على الممالك المسيحية في شوا وتيجرى وأمره وجو جلم وأخضع لسلطانه جميع الممالك والسلطنات الإسلامية المحيطة بالمهضبة مثل هرر وسيداما وجيما وغيرها من المناطق ، وأن كانت بعضها قد ظلت تقاوم في بسالة قرة من الوقت مثل (مملكة كافا Kaffa) التي لم تسلم إلا في

١٨٩٧ .

وكان أهم أهداف منليك هو القضاء على قبائل الجالا . ولقد تم انتصاره عليها أثناء مواقعه ، مع ماسبق ان قدمنا ذكره من ممالك لان الجالا كانوا منتشرين فيها ، ولكن أهم نصر مركز تم على تلك القبائل هو انتصاره على اللوالو جالا الذين يقيمون في قلب الهضبة وسط الممالك المسيحية (حول مدينة ديسى Desse) القريبة من مجدلا عاصمة تيودور . وانتصر فيها منليك على « السلطان محمد علي » رغم مناعة موقعة بفضل ما حصل عليه منليك من أسلحة حديثة ، وخبراء عسكريين من الدول الأوروبية الذين وفدوا إلى البلاد بغتاد كثير حديث تحت تشجيع البعثات التبشيرية التي عاونت منليك وقدمت له المساعدات الكبيرة .

* * *

كان انتصار منليك على السلطان (الرأس) محمد علي أكبر انتصار احرزه منليك على السلطنات الإسلامية ، وحسب التقليد المتبع ، خير السلطان بين أن يعتنق الدين المسيحي أو يقتل ، فتنصر وتسمى بالرأس ميخائيل . فزوجه منليك من ابنته (اريجاش Aregash) وانجب منها ولد أسماه « ليسع ياسو » (قلب يسوع Lijj Yasso) ولم يكن لمنليك أبناء ذكور — ولذلك أوصى بأن يكون حفيدة وليا للعهد . كما سيأتي تفصيله في الفصل التالي .

* * *

أسباب انتصارات منليك :

أول الأسباب التي ساعدت منليك على انتصاراته المتعاقبة وتوجيه

جميع بلاد الحبشة تحت سلطانة ، هي صفاته الشخصية ، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة ويتمتع بكفاية نادرة في تصريف شئون الدولة الحرية والمدنية ، ولولا تلك الصفات لما تمكن من انتهاز الفرص التي أتت له . وبجانب ذلك تجمعت لديه من الكميات الضخمة من الأسلحة الحديثة التي لم تعدها الحبشة من قبل ، الأمر الذي يسر له القضاء على جميع أعدائه ^(١) .

أما الأسباب الأخرى التي شادت الظروف بأن تتجمع في وقت واحد ومهدت السبيل أمام منليك ليحصل على ما حصل عليه من نصر في أقصر ما يمكن من الوقت ، ويخضع تلك البلاد المستعصية بسهولة لم يكن يتوقعها أحد ، فإنها كانت أسباباً غاية في الأهمية .

كان الصراع بين الدول الاستعمارية الأوروبية قد بلغ أوج شدته في أفريقيا وعلى الأخص في شرقها . وكانت تلك الدول تتسابق سباقاً محموماً ، لامتلاك المواقع والموانئ والسواحل ، وعقد المعاهدات مع رؤساء المناطق المحلية ، وكسب الصداقات وتقديم الهدايا والرشاوى ، واستعراض العضلات بالأساطيل البحرية التي تجوب البحار في رحلات متتالية لا تكاد ترسو في ميناء حتى تقفز إلى آخر ، تنافس كل دولة غيرها من الدول وتضع العراقيل أمامها ، ولقد تصادمت هذه الدولة مع بعضها وتبادلت من الرسائل ما لا حصر له ، وعقدت بينها الاجتماعات المتوالية بغية تقسيم الشواطئ والموانئ ومناطق النفوذ ، واستغرق ذلك من تلك الدول وقتاً طويلاً وجهداً شاقاً . وتركزت أدوار هذا الصراع في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا . في الوقت الذي كانت مصر تسيطر على أهم الموانئ ويمتد نفوذها على الشاطئ امتداداً مستمراً حتى قسايو في جنوب الصومال .

ولم يكن هذا المركز الممتاز الذي تحتله مصر يرضى تلك الدول الاستعمارية

خصوصاً أنها كانت تقاسى من الاضطراب المالى ، وإذا كانت بفتوحها التى حققتها فى ذلك العهد قد فتحت أمامها أبواب القوة وأصبحت قادرة على جنى ثمار فتوحاتها وتسديد ديونها والتغلب على صعاها ، فليس من مصلحة تلك الدول الاستعاريه أن تصبر عليها حتى يتحقق لها ذلك ، بل يجب أن تلتهم الفرصة وتقضى عليها قبل أن تحاول استعادة قوتها .

ولقد كانت إنجلترا قد جعلت من نفسها فى ذلك الوقت وصيه على مصر ثم بعد ذلك قامت باحتلالها . فصرعان ما أمرت بسحب الجيوش المصرية والأسطول المصرى وخلا الجو لتلك الدول الاستعاريه لى تقاسم الغنيمة ، وإن كانوا قد تنازعوا عليها واتخذ النزاع بينهم مظاهر متعددة ليس هنا مجال شرحه ، إلا أنه انتهى بتقسيم الامبراطورية المصرية فيما بينهم ، وأخذ كل منهم قطعة ثمينة بدون مقابل .

وكان الصراع بين الدول الاستعاريه مركزاً على السواحل قبل الداخل لأن السواحل هى المنافذ ، ولم تكن أية دولة منها تبنى بتبديد جهودها فى الاستيلاء على المناطق الداخلية بل ركزت جهودها على الاستيلاء على أكبر قدر من الساحل ، ومنه يمكنهم التسلل إلى الداخل عندما تستقر أمورهم . وكان الأمر بالنسبة لبريطانيا يمتاز عن غريماتها ، بأنها كانت قد توغلت فى داخل القارة الإفريقية كورثة للسلطة المصرية التى كانت قد بلغت فى توسعها داخل القارة إلى أن شملت أوغندا .

لهذه الأمور مجتمعاً كان انسحاب الجيوش المصرية التى كانت تعزز جميع السلطنات الإسلامية ، وتعمل عبء حمايتها ، أكبر كارثة حلت بالمناطق الإسلامية إذ أنها تركتها مقسمة مزوغة السلاح لا نصير لها ولا توجد قوة تربطها مع بعضها ، مما جعلها فريسة سهلة لى يسطر عليها الامبراطور منليك سلطته فى يسر وسرعة وبدون مقاومة .

وبما لا شك فيه أن الدول الكبرى كانت تبارك هذه الحركة ، وتمدها بالمعونة فقد رأينا كيف تركت حملة نابيير المقادير الهائلة من الأسلحة والعتاد الحديث للإمبراطور يوحنا -- الذى استعملها أولاً لتوطيد حكمه -- ثم حارب بها المسلمين بعد ذلك -- وورثها عنه خلفه منليك. الذى استعان بها فى حملاته على المناطق والسلطنات الإسلامية حتى تم استيلاؤه عليها ، بالإضافة إلى الكميات الأخرى من الأسلحة التى منحتها له إيطاليا وتلك التى حصل عليها الإمبراطور يوحنا من روسيا . وكذلك تلك التى حصل عليها منليك من إيطاليا فى عهد الإمبراطور يوحنا .

وتحدثنا الوثائق العديدة التى رافقت إخلاء هرر ، عن إصرار الميجر هنتر ، الذى كلفته بريطانيا بالإشراف على انسحاب الجيوش المصرية -- على سرعة إخلائها فى لفة ، بالرغم مما تقدم له وللحكومة البريطانية من التماسات واحتجاجات من أن انسحاب القوات المصرية بهذه الصورة وعدم إحلال قوة أخرى مكانها سيدفع بالبلاد إلى الفوضى والخراب . ويعرض مصالح التجارة والأجانب إلى الخطر .

ولم تكن الدول الأخرى تتعارض مع انجلترا فى هذا الاجراء ، بل كانت تباركه حتى تتيج الفرصة للإمبراطور ليقضى على الاسلام فى تلك البلاد ، وكانت تلك الدول شديدة الاهتمام بمستقبل المسيحية بالحبشة ، شديدة القلق من انتشار الاسلام ، وكانت البعثات التبشيرية الفرنسية برئاسة المنسنيور (تورهان كاهان) تقيم فى الحبشة منذ أجيال وكذلك البعثات السويدية ، وكان من أبلغها أثراً تلك البعثة التى يرأسها الكاردينال (ماساجا Massaia) الذى كان وثيق الصلة بالإمبراطور منليك ، وهو الذى كتب عن الحبشة وتاريخ هذه الحقبة من الزمن ، مرجعاً من أهم المراجع -- ولقد أشرنا إليه فى كثير من المواضع فى هذا الكتاب ، ومن المعروف أن جميع هذه البعثات التبشيرية كانت مؤيدة من حكوماتها ، لذلك كان الهدف مشتركاً وهو إتاحة

الفرصة للامبراطور منليك لإتمام السيطرة على جميع الأقاليم الإسلامية والعمل على كسر شركة الإسلام . ولقد كان المبشرون ومن جلبوهم من المدوين والعسكريين خير المستشارين لمنليك وبفضل خططهم تمكن من تحقيق انتصاراته .

وعندما تمكن منليك من توحيد جميع أنحاء امبراطوريته الجديدة التي شملت جميع المناطق والممالك المسيحية والإسلامية على السواء ، نقل عاصمته إلى قلب البلاد . وفي مملكته القديمة شوا ، وأنشأ مدينة أديس أبابا (الزهرة الجديدة) العاصمة الحالية للامبراطورية .

• • •

حرب منليك مع إيطاليا :

وعندما كان منليك لا يزال ملكا على شوا وينافس الامبراطور يوحنا ، كان الايطاليون قد استقروا في الاريتريا بعد انسحاب الجيش المصري منها ، وكانت آمالهم معقودة على الانطلاق من مستعمرة الاريتريا الفقيرة إلى الحبشة الغنية ، فشنت بعض الحملات التي تمكن الامبراطور يوحنا من ردها .

في عام ١٨٨٧ وقعت أول معركة بين الايطاليين ومنليك الذي كان في ذلك الوقت ملكا على شوا ، وكانت المعركة في دوجالا ، وانتصر فيها منليك مما حفز الايطاليين على تجريد حملة أخرى قوامها ٢٥٠٠٠ مقاتل ، ولجأوا في هذه المرة إلى الاستعانة بالأساليب السياسية ، فعرضوا على منليك أن يعترفوا به ملكا على الحبشة ويتركوا له مقاطعة التيجري ، شريطة أن يعاونهم على القضاء على الامبراطور يوحنا . وترك لهم بلاد البوغوص (الاريتريا) وكيرين عاصمة الخمسين .

وقدم الايطاليون لمنليك المال ومعه كميات ضخمة من الأسلحة الحديثة والذخيرة ، بقصد معاونتهم في محاربة يوحنا ، ولكنه لم يجاربه . وفي نفس

الوقت أبى أن يجارب الإيطاليون عندما طلب يوحنا منه ذلك^(١) وبذلك فضل منليك الاحتفاظ بما حصل عليه من سلاح ، ووقف على الحياد بين الإيطاليين والامبراطور يوحنا .

وعندما أصبح منليك امبراطورا ، فضل أن يتعاقد مع الإيطاليين في سبيل الحصول على مزيد من الأسلحة والمال لكي يتيسر له التغلب على أعدائه وعلى الأخص المقاطعات الإسلامية ، ووافقه الإيطاليون على ذلك بينما اضمروا أن يقدموا له المساعدة والأسلحة حتى إذا تم له النصر انقضوا عليه واستولوا على امبراطوريته الجديدة الموحدة .

معاهدة أوشياالى :

تمكن الإيطاليون من اقناع منليك بتسوية الخلافات بينهما وتوصلوا إلى عقد معاهدة تنظم العلاقات بينهما ، ولقد عقدت تلك المعاهدة (معاهدة أوشياالى Ucciali) في مايو سنة ١٨٨٩ ، وفي أكتوبر أوفد منليك الرأس ماكونن إلى إيطاليا حيث عقد معاهدة إضافية وافق فيها الإيطاليون على أقراض منليك ٤ مليون فرنك بضمانه لإردات جمارك هرر ، وفي حالة عدم السداد تصبح كل مقاطعة هرر ملكا لإيطاليا ، وأهدت إيطاليا إلى الامبراطور مزيدا جديدا من الأسلحة مقداره ٣٨٠٠٠ بندقية ، ٢٨ مدفعا وأعلنت إيطاليا على العالم أن الحبشة أصبحت تحت حماية إيطاليا .

وفي عام ١٨٩٠ عندما بدأ منليك اتصالاته مع بعض الدول الأوروبية الأخرى ، نفت الإيطاليون نظره إلى المعاهدة التي بينهما ، ولكن منليك رفض الاعتراف بأن المعاهدة المعقودة تضطره لأن يكون الإيطاليون وسطاء وبين الدول الأخرى . وظهر عنده أن النص الإيطالي يقول (يجب على الحبشة أن تكون اتصالاتها مع الدول الأخرى عن طريق إيطاليا) بينما يقول النص الحبشى (يمكن للحبشة أن تتصل بالدول الأخرى عن طريق

(١) ص ٥٢٧ سبريدج Budge

إيطاليا) . فرفض منليك المعاهدة وألغاه ، ورد مبلغ الأربعة ملايين فرنك إلى إيطاليا ولكنه احتفظ بالأسلحة ، وفي ١١ فبراير سنة ١٨٩٣ أبلغ الدول الكبرى أنه لم تعد له ارتباطات مع إيطاليا ، وبدأت علاقته تسوء معها ، بينما أخذت تتوطد مع بريطانيا وفرنسا^(١) .

وكانت كفة فرنسا راجحة في علاقتها مع منليك ، وعقدت معه خطة للاستيلاء على المناطق الاستوائية ، واتفقت معه على الاستيلاء على السودان الجنوبي ، بأن تتقابل القوات الفرنسية القادمة من الغرب عبر أفريقية مع قوات الحبشة القادمة من الشرق عند « فاشودة » ، وفعلا وصلت جيوش الحبشة (٥٠٠٠ مقاتل) إلى النيل الأبيض تحت قيادة (الرأس تساما Ras Tasamma) ومعه نفر من المستشارين العسكريين (فرنسي وسويسري وروسي) ولكن لم يتم التقاء تساما مع القائد الفرنسي مارشان في الموعد المحدد لتأخر مارشان في الوصول في الوقت المتفق عليه - ولم يطلق الجنود الأحباش البقاء في تلك البلاد الحارة الرطبة التي لم يتعودوا على جوها - وانتشر بينهم الموت . مما اضطر تساما إلى سرعة العودة إلى الحبشة .

وفي أثناء ذلك وصل كتشنر إلى فاشودة وأعادها إلى حكم مصر ، ولقد أعجب منليك بكتشنر مما كان له أثر كبير على العلاقات بين منليك وبريطانيا فيما بعد .

* * *

كان منليك يتوقع الشر من الإيطاليين ، فاستمر في شراء الأسلحة سرا من جميع الأسواق ، وعزز جيشه حتى بلغ في عام ١٨٩٦ إلى ٢٠٠٠ ر ٢٠٠ حارب .

وعندما اكتملت عدة جيوشه أرسل أول طلابها تحت قيادة (رأس ماكوتين Ras Makonnen) وهو والد الامبراطور هيلاسلاسي . حيث

(١) ص ٢٩٩ نفس المرجع السابق .

التحتم بهم وانتصر على الإيطاليين في موقعة (أمبا ألاجي Amba Alagi) في ديسمبر ١٨٩٥ ثم سلمت الحامية الإيطالية في (ما كالي Makelle) في يناير ١٨٩٦ .

جمع الإيطاليون شمل قواتهم وجددوا هجومهم بالقرب من (عدوه) بجيش يبلغ تعدادة ٢٧.٠٠٠ جندي ، على الجيوش الحبشية التي بلغت ٨.٠٠٠ مقاتل ومن عجائب القدر أن يكون هذا الجيش الحبشي الضخم مسلحا تسليحا قويا مما سبق أن حصل عليه من أسلحة وعتاد من الإيطاليين أنفسهم أيام معاهداتهم السابقة . وبلغت خسائر الإيطاليين ١٠.٠٠٠ قتيل وجريح ، ٧.٠٠٠ أسير ، ٣٢ مدفع وكميات كبيرة من الذخيرة وجميع معدات المعسكرات .

ولقد احتدمت المعركة في حماس بالغ من الجانبين وتم النصر فيها للحبشة . وقضى بذلك على آمال الإيطاليين في الحبشة . على الأقل في الأربعين سنة القادمة .

انتهت هذه المعركة الفاصلة بمعاهدة وقعتها الطرفان في أديس أبابا في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ م ، ومن الغريب أنه بعد هذا النصر الكبير اعترف منليك بحق الإيطاليين في الارتياك كما كان .

تفرغ منليك بعد ذلك لتسكلة وحدة بلادة والقضاء على جميع عناصر القلاقل ، وعقد اللجان مع الدول الكبرى لتحديد حدود بلادته من جميع جهاتها ، كذلك انصرف إلى ادخال الأساليب الحديثة في الدولة ، والعمل على ترقية البلاد وانتزاعها مما هي فيه من تخلف .

• • •

اتفاق الدول الأوروبية الثلاثة :

كان كل شيء يسير على مايرام بناء على الخطط الذي اتفقت عليه الدول الأوروبية ، طالما يسيطر منليك على امبراطوريته الموحدة . ولكنه وقد

تقدم في السن فقد تحركت أطماع تلك الدول ، كل منها تبغى لها نصيبا من خيرات الحبشة ، لذلك فان انجلترا وفرنسا وإيطاليا عندما شعروا باعتلال صحة الامبراطور منليك ، وخشية من انحلال المملكة في حالة وفاته ، تفاهمت فيما بينها وعقدت اتفاقا في (١٩٠٦) أكدت فيها رغبتها في المحافظة على استقلال الحبشة على ، أن يعترف كل طرف بمنطقة نفوذ خاصة بكل من الشركاء الثلاثة في حالة انهيار الامبراطورية وتفكك أوصالها وكانت مناطق النفوذ كالآتي .

(أ) المنطقة البريطانية : وتشمل اقليم بحيرة تانا - وحوض النيل الأزرق .

(ب) المنطقة الفرنسية : وتشمل الخط الحديدي الممتد من أديس أبابا إلى جيبوتي .

(ج) المنطقة الإيطالية : وهي عبارة عن شق من الأرض تربط الصومال الإيطالي بالآريتريا .

ولقد أعرب الامبراطور عن شكره للدول لاتفاقها على المحافظة على استقلال بلاده ، ولكنه اعترض على الاتفاق قائلا أنه لا يوافق بأى حال من الأحوال على تقييد سيادته وسلطانه^(١) ولقد كان لهذا الأمر شأن كبير فيما بعد أمام عصبة الأمم .

* * *

أشد المرض على منليك في عام ١٩٠٨ ولم يعد قادرا على مباشرة سلطاته ولكن الامبراطورة (طايتو) وقفت إلى جانبه تعاونه وكان مرض الفالج الذي أصيب به شديدا بالاضافة إلى أن قلقه على مستقبل الامبراطورية كان يستبد به لعدم وجود وريث له يتولى الملك من بعده . مما دفعه إلى اختيار حفيده وليج ياسو ، وليا للعهد في ١٩٠٩ .

(١) ص ٦٢ ، ٦٣ الحبشة د . راشد البراوي .

ومنذ أن مرض منليك ، أخذت عناصر القلق والمنافسة تعمل في البلاد وبدأت سلسلة من المناورات وامتلاء الجو بالذسات والمؤامرات ، وجاهدت الدول الأجنبية ، كل منها تحاول التأثير على ولي العهد الصغير .

° ° °

ومات منليك في ١٩١٣ - وتولى ليچ ياسو عشر الامبراطورية وهو لا يزال في السابعة عشر من عمره .

° ° °

الفصل السادس عشر

ليج ياسو Liij Yasso

(الامبراطور المسلم)

عندما زاد خطر قبائل الجالا تمكنت من النفوذ إلى قلب مملكة الحبشة المسيحية فوق الهضبة وتوغلت فيها . لأن سرعان ما تكونت منها مستعمرات وتجمعات انتشرت فوق جميع جهات الهضبة . ولكن بعض هذه التجمعات قد اتخذ طابعاً خاصاً من الانتشار والسيطرة بحيث أصبح يشمل المنطقة الوسطى من الهضبة بأكملها ، وامتدّت به تلك المنطقة الكبيرة التي تمتد من سهل الدناكل إلى بحيرة تانا والنيل الأزرق ومدينة جوندار العاصمة القديمة للحبشة ، وهذه المنطقة التي تتوسطها مدينة ديسى القريبة من مجدلا الشيرة يجودها في عهد تيودور .

ولم يقتصر خطر الجالا على ذلك بل اتخذ شكلاً شاملاً بعد أن أصبحوا يشكلون نصف سكان ممالك الحبشة وسلطناتها ، وبلغوا في بعض المناطق من القوة بحيث أصبح منهم الحكام والأمراء . وازدادت قوتهم الحربية حتى اضطرت الأباطرة لمهادتهم حيناً ومحاربتهم أحياناً ، وهم بين هذا وذاك يستمرون في الانتشار والتوغل في البلاد .

ثم ازدادوا خطراً عند إقبال هذه القبائل على اعتناق الإسلام حتى أصبحت غالبيتهم الكبرى تدين بالدين الإسلامي وتعصب له ، مما جعلهم كل امبراطور قوى العمل على القضاء عليهم ، فكانوا تحت التهديد والضغط يتنصرون ظاهرياً وهم في واقع الأمر يحافظون على إسلامهم سرّاً ويترقبون الفرص للجر بعقيدتهم الإسلامية .

وكانت أقوى قبائل الجلالا شانا وأكثرهم تماسكا ، قبائل « الوالوجالا »
التي امتلأت بها المنطقة الوسطى من الهضبة ، لذلك كان من أهم آمال الامبراطور
تيودور ثم يوحنا ثم الامبراطور منليك من بعدهما القضاء على هذه السلطنة
الإسلامية . ولقد أتاحت لهما الفرصة بفضل ما سبق أن شرحناه في الفصل
السابق من تجمع الظروف التي مكنتهم من القضاء عليها وأهمها معاونة الدول
الأوروبية المسيحية بتزويد الأباطرة الواحد بعد الآخر بالكميات الضخمة
من الأسلحة الحديثة .

وكما سبق أن قدمنا تمكن منليك من التغلب على الرأس محمد على ملك
الوالوجالا . وحسب التقاليد المتبعة خيره بين أن يقتله أو يعتق الدين
المسيحي ، ففضل اعتناق المسيحية ، ظاهرياً كما هي العادة - ولكنه بقي في
الحقيقة مسلماً وإن كان قد اتخذ اسماً جديداً حتى يحفظ لنفسه سلطانه على
قبائله وملكته ، وأصبح يدعى . الرأس ميخائيل — وكان الرأس محمد على
يتميز بالمرکز السامى بين أتباعه وكان قويا وشجاعا — مما جعل الامبراطور
يوحنا يعتمد عليه في محاربة الإيطاليين والمهديين في السودان ، ولذلك رأى
منليك أن يوطد علاقته معه وبكسب ولاء شعب الجلالا بأن زوجة من
ابنته (أراجاش Aragassh) ^(١) ورزق منها بولد أطلق عليه اسم (ليج ياسو
Lilj Yasso) أى قلب تسوع .

* * *

نشأ ليج ياسو في بيت أبيه المسلم الذي يحكم قبائل الوالوجالا المسلمة
وإن كانت الظروف السياسية قد أجبرته على التظاهر باعتناق المسيحية
لذلك شب الصبي وترعرع والدين الإسلامى يجرى في عروقه . ويرفرف
على المنزل الذى نشأ فيه .

(١) مما تجدر ملاحظته أيضا أن والدته هذه الاميرة كانت من قبائل الوالوجالا
السلمة أيضا .

وسرعان ما استردّ الرأس ميخائيل (محمد علي) سلطانه وأخذ يعمل على أن يتولى نجله ليح ياسو العرش ، وكان يهدف إلى عودة السلطة إلى قبائل الجالا الإسلامية مرة أخرى . ولذلك بدأ يوطد علاقاته مع باقي القبائل والمقاطعات الإسلامية التي أصبحت في ذلك الوقت تحت حكم الامبراطور منليك .

ولم يكن ينافس الرأس ميخائيل في التطلع إلى السلطان إلا الرأس ماكونين حاكم هرر في ذلك الوقت ، ولكن هذا التنافس زال عندما توفي الرأس ماكونين في عام ١٩٠٦ تاركا ولدين أصغرهما يدعى (تفرى Tafari وهو الذي أصبح فيما بعد الامبراطور هيلاسلاسي ^(١) .

° ° °

وعندما أصيب الامبراطور بالقالج ، ولم يكن له أبناء ذكور ، نادى بحفيده ليح ياسو وليا للعهد ، وعندما توفي في عام ١٩١٣ ، أصبح ليح ياسو امبراطورا للحبشه وهي في السابعة عشرة من عمره ^(٢) . وفي الحال عادت قوة والده الرأس ميخائيل إلى الظهور مرة أخرى على هيئته الإسلامية السابقة . وكان الامبراطور الجديد قد عينه نجاشيا على ممالك والالو والتيجري . في ١٩١٤ ، وفي السنة التالية على تيجمدير وجوجام .

كان ليح ياسو قد بدأ يعلن عن حقيقة عقيدته ويأتي من التصرفات ما يعبر بها عن ميله للإسلام وما أن تولى العرش حتى أعلن إسلامه ^(٣) .

وخلافا للتقاليد التي كانت تدفع الأباطرة إلى الادعاء بائحدارهم من نسل سليمان حتى ولو لم يكونوا كذلك — كي يوطدوا ملكهم ويكسبوا تأييد الشعب ، فإن ليح ياسو بادر ونفى عن نفسه أي صلة بالأسرة السليمانية ،

(١) ص ١٣٠ الاسلام في اثيوبيا لترمنجهام .

(٢) ص ٩٤ The Ethiopians by Ullenborff

(٣) ص ١٣٠ الاسلام في اثيوبيا لترمنجهام .

وتزوج يرضع فتيات مسلمات ، وأخذ يعمل على إثبات نسبة إلى النبي محمد^(١) .

ولا شك في إسلام ليح ياسو ، فهو ابن ملك مسلم ينتمى إلى قبائل الجالا المسلية ، وما إعلان والده لاعتناقه المسيحية إلا انصياعاً لما هو مفروض على كل ملك يهزم في الحرب ، وأمر المسلمين الذين تجبرهم السلطات على اعتناق المسيحية معلوم ومشهور في الحبشة ، حيث يستمرون على عقيدتهم سرا ، وينطقون بالشهادتين عند الوفاة .

ولا شك أيضاً في أن إعلان الامبراطور (ليحياسو) إسلامه قد أصاب رجال الكنيسة والقبائل المسيحية بصدمة كبيرة ، وأصابهم القلق البالغ من انهيار قوائم السيطرة التي أقامها يوحنا ومنليك للدولة المسيحية في الحبشة . ولقد كان من أشد أسباب قلقهم تلك السهولة التي يمكن أن تتحول بها البلاد إلى الإسلام ، وغالبية البلاد تدين أصلاً بالإسلام وينطى ثلاثة أرباع مساحة الامبراطورية ، فلن يحتاج الإسلام في عودته إلى السيطرة والنفوذ أى مجهود ، وأما اعتماد المسيحية على القوة والأسلحة ومساعدة الدول الأوروبية فقد أصبح أمامها حاجز كبير وهو الامبراطور الذي اعتنق الإسلام .

* * *

ومن أذهلتهم المفاجأة أيضاً - الدول الأوروبية - التي سبق أن شرحنا كيف أنها عاونت يوحنا ومنليك على القضاء على الإسلام - وبعثاتهم التبشيرية لا زالت في بلاد الحبشة تعمل في صبر وأناة لتحقيق القضاء على هذا الدين .

وهذه الدول الأوروبية هي التي تمسك بزمام القوة في العالم في ذلك

الوقت وتسيطر سيطرة تامة على الشرق الأوسط وأفريقيا على وجه الخصوص .

أما الدول التي يمكنها الدفاع عن الإسلام فكانت قد بلغت إلى حضيض الضعف ، إذ أصبحت الامبراطورية العثمانية في آخر مراحلها وتحمل لقب (الرجل المريض) وتتخلف الدول الأوروبية وتتفاوض فيما بينها لتقسيم ممتلكاتها ، ومصر لا حول لها ولا قوة وقد استبد بها الاستعمار البريطاني منذ ١٨١٢ م وجردها من أملاكها وسيطر على مقدراتها حتى أصبحت عاجزة غير قادرة على الحركة .

* * *

استمر الامبراطور ليج ياسو في طريقه لا يلوى على شيء ، يعزز الإسلام والمسلمين ويبني المساجد (في دبر داوا — وجيج جيجا الخ) . واتخذ نفسه علما جديدا بإضافة الحلال إليه وأرسل منه هدايا إلى حكام بلاده المسلمين طالباً منهم الاستعداد للجهد الذي ينوي القيام به لنصرة الاسلام والمسلمين ، وأرسل علما من هذه الأعلام إلى القنصل التركي في أدريس أبابا .

* * *

وفي تلك الأثناء قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) وسرعان ما تكاثفت قوى الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا ، مع رجال الكنيسة وأوعزوا إلى بطريك الأقباط في مصر . والأنبا متاؤس مطران الحبشة ، لكي يعزلوا الامبراطور ليج ياسو ، فأخذوا يحبكون الدسائس حوله ويحركون الأمراء المسيحيين ويطلقون الشائعات عن خيل الامبراطور وسوء تصرفاته ، بينما يثيرون ثائرة الدول الأوروبية ضده من أنه يتعاون سرا مع الأتراك الذين كانوا يحالفون الألمان في الحرب الكبرى الأولى وبالفعل (١٧ — الحبشة)

فإن الحلفاء - إنجلترا وفرنسا وإيطاليا - تعاونت لإقصائه على العرش^(١) ولقد اجتمع قناصل تلك الدول وقدموا له احتجاجات على تصرفاته واتهموه بمآلاه الألمان ، ولما لم يأبه بهم ، تحفزت ضده القوات العسكرية الفرنسية في جيبوتي والإنجليزية في بربره ، والإيطالية في مصوع وحرضوا أمراء شوا على إعداد جيوشهم ضده^(٢) ،

ولقد كان قلق هؤلاء يزداد كلما طال الوقت ببقاء الامبراطور لييج ياسو على العرش ، لأن في هذا خطر كبير لسهولة تثبيت أركان حكمه ، لذلك سارعوا إلى اتخاذ الوسائل العاجلة للقضاء عليه بالتعاون بين جميع القوى المعارضة له . خصوصاً وأن لييج ياسو كان في الحقيقة ذكياً سريع الفهم نشيطاً يحيد العربية والفرنسية . وكان من الحكمة وبعد النظر رغم صغر منه ، مما كان يدهش له رجال الدولة لدقة استنتاجاته وتفهمه للأمور^(٣) الأمر الذي حفز الدول الأفريقية إلى العناية بتدبير وسيلة التخلص منه في أقصر وقت .

وعندما كان الامبراطور في إحدى جولاته في هررو وكان والده في انكوبار أوعر بطريك الأقباط في مصر (بإيعاز من بريطانيا التي كانت قد فرضت الحماية على مصر) إلى المطران متاؤوس بإعلان عزال الامبراطور لييج ياسو وحرمانه ، وأظهر المطران أن إجراءه هذا بناء على طلب تقدم به رؤساء وحكام مقاطعة شوا يقولون فيه (نلتمس إحلالنا من قسمنا بالولاء للامبراطور ، لأننا سوف لا نخضع للإسلام ، ولن نسمع بأن يستولى الأجانب على بلادنا عن طريق خيانه لييج ياسو ، الذي يقود مملكتنا إلى الخراب^(٤)) ولن نسمع

(١) ص ٩٥ . The Ehippians by Ullendorff .

وصفحة ٢٦٣ . Inside Africa by John Gunther .

(٢) ص ٤٥٥ . سيريدج Budge

(٣) ص ٤٣٠ . سيريدج Budge

(٤) من ١٣١ الإسلام في اثيوبيا أثر متجهام .

ملك ترك ديننا أن يحكمنا . . وأضافوا ، وسوف تصبح زاوديتو ابنه منليك ملكه علينا — والرأس تقرى ولياً للعهد (٥) .

وتم عزل الامبراطور ليج ياسو في ٢٧ سبتمبر ١٩١٧ وأعلن المطران تنصيب زاوديتو ابنة منليك الأخرى امبراطورة ، وتعيين الرأس تقرى بن الرأس مكونيين وصيا على العرش وولياً للعهد .

قبض على الامبراطور ليج ياسو بعد بضعة مناوشات وبقي في سجنه إلى أواخر الحرب الحبشية الإيطالية عام ١٩٣٦ ، وتناقلت أسلاك البرق نبأ وفاته وقتئذ . ويؤكد من سمعناهم في أديس أبابا أن الامبراطور هيلاسلاسي أمر بقتله حتى لا يستعمله الايطاليون وينصبونه امبراطورا مرة أخرى ، ويكسبون بذلك عطف المسلمين وتأييدهم ، ويذهب البعض إلى أن الامبراطور هيلاسلاسي هو الذي ذهب إلى سجن ليج ياسو بنفسه على حدود كينيا وقتله ، ونحن نستبعد هذه الرواية لبعد المسافة بين أديس أبابا وموقع سجن ليج ياسو ، وصعوبة المواصلات ، مما يستغرق الوصول إليه وقتاً طويلاً لا يمكن للامبراطور هيلاسلاسي تضييعه في تلك اللحظات الأخيرة من الحرب الحبشية .

وقد يكون كل ما سمعناه من هذه الأمور من قبيل الشائعات ، ولكن الذي لا شك فيه أن الامبراطور ليج ياسومات في سجنه: قبيل دخول الطليان إلى العاصمة أديس أبابا في عام ١٩٣٦ ، وأنه من المعتقل لو أن الطليان أدركوه حياً لتصبوه امبراطورا . وبذلك يكون قد بقي في سجنه عشرين عاماً .

* * *

(٥) من ٤٥٣ سيريدج Budge الذي قال أيضاً أن الامبراطور ليج ياسولم يعزل لانه مال للإسلام ولا لانه أخذ يتقرب إلى رجال الدين المسلمين وإلى الألمان في أفريقية الشرقية — ولكنه عزل لأنه حاول النفاء على السكتية الوطنية الحبشية ومن الواضح أن آراء السيريدج في مجموعها في حاجة إلى الانحجام والتعديل . بالنسبة لهذا الموضوع .

الفصل السابع عشر

العهد الأول للإمبراطور

« هيلاسلاسى »

كان جده الأكبر الملك سولاسلامى الذى كان ملصكا على إقليم شوا قبل منليك ووالده الرأس ماكونين الذى قاد الجيش الحبشى الذى انتصر على الإيطاليين فى موقعة أمبا الاجى فى ديسمبر ١٨٩٥ . وكان يمت بصلة القرى إلى الامبراطور منليك . وكان والياً على مقاطعة هرر .

ولد نفرى Tafari فى ٢٣ يولية سنة ١٨٩١ فى إحدى قرى مقاطعة هرر حين كان والده والياً عليها . ونشأ بها وتلقى تعليمه الأولى فى مدرسة للارسالية الفرنسية ولذلك ظلت الفرنسية لغته الأوربية الأولى . وتوسم فيه منليك النجابة فعينه وهو لم يبلغ العشرين بعد ، حاكماً على مقاطعة سيدامو . وعندما توفى والده وأخوه الأكبر ، عينه الامبراطور حاكماً على مقاطعة هرر مسقط رأسه (١٩١٠ م) وفى عام ١٩١١ تزوج من (ويزارومين Woyzaro Menen) التى جلست معه على عرش أثيوبيا .

ولم يكن تشب نفرى مكونين المباشر يؤهله لأن يقطع فى العرش ، لبعده عن سلسلة التوارث السلجانية المباشرة ووجود من هو أقرب منه إليها ، ولكنه ازداد قريباً إلى العرش بزواجه من من ، ورجع الفضل الأكبر فى تخطية العقبان وقفزه إلى مكان الصدارة إلى صفاته الشخصية التى حجت جميع منافسيه .

وعندما أزفت الساعة الخامسة فى عام ١٩١٢ بزل الامبراطور ليج

ياسو قام بدور حاسم تميز بالدهاء والحزم ، أدى إلى اختياره وصيا على العرش ووليا العهد بجوار الامبراطوره زاوديتو لإحدى بنات منليك (١) .

ولذا كان منليك قد تمكن من جميع شمل البلاد وتوحيدها تحت حكم واحد ، فإن الفضل يعود إلى هيلاسلامى فى تثبيت أركان هذه الامبراطورية الموحدة وتحويل التقسيمات العنصرية إلى أقسام إدارية على هيئة محافظات ، يتناوب عليها المحافظون مثل باقى مناصب الدولة ووظائفها .

ولقد كانت بداية عمله فى الحكم المشترك بينه وبين الامبراطور مزوديتو محفوفاً بالمشاكل والتعقيدات ، فبينما تمسك الامبراطورة بالتقاليد القديمة ولا تعطى تقدم البلاد ما يستحقه من عناية ، كان الرأس تفرى عصرىاً يتوق إلى اتخاذ أسرع الاجراءات لدفع البلاد إلى الأمام ، ولم يحدث بينهما أى خلاف فى مبدأ الأمر إذ اقتصرت زاوديتو بالأمور الداخلية واقتصت تفرى بفلاقات الدولة الخارجية . ولقد حاله التوفيق عندما تمكن من تحقيق الاعتراف الدولى للحبشة وأصبحت عضواً فى عصبة الأمم .

وسرعان ما وجد نفسه مضطراً للاهتمام بالشئون الداخلية ، وكان بنوى العمل على القضاء على جميع عوامل التفرقة والانقسام التى حطمت البلاد خلال العصور الماضية . وكذلك كان يهدف إلى تطبيق النظم الحديثة فى شئون الحكم والحياة الاجتماعية فى البلاد . ولقد كان نشاطه وشبابه وحامسه وشخصيته أقوى من أن تقف أمامها الامبراطورة زاوديتو . وتمكن من أرغام الامبراطورة على منحه لقب نجاشى عام ١٩٢٨ . وفى عام ١٩٣٠ ، تمكن من أخضاع ثورة قام بها الرأس (جوكسا Cogsä) وتوفيت الامبراطورة بعد القضاء على تلك الثورة بيومين . وتولى الرأس تفرى العرش وأصبح ملكاً للملوك وسمى نفسه الامبراطور هيلاسلامى الأول .

موقفه أمام عصبة الأمم :

ولقد لفت الرأس تفرى - قبل أن يصبح امبراطورا - أنظار العالم إليه وإلى دولته عندما وقف أمامها يدافع عن بلاده ضد بريطانيا وإيطاليا في عصبة الأمم .

فقد ذكرنا أنه في أواخر عهد منليك خشيت الدول الأوروبية من تفكك امبراطورية الحبشة بعد وفاة منليك فأرادت أن تنفق على طريقة حماية مصالحها وتقسيم مناطق نفوذها . فاتفقت في ١٩٠٦ على أن يكون لبريطانيا نفوذ على منطقة تشمل بحيرة تانا وحوض النيل الأزرق وتشمل المنطقة الفرنسية الخط الحديدى الممتد من أديس أبابا إلى جيبوتي بينما تحصل لإيطاليا على شرط من الأرض بعرض ٥٠ كيلومتر تنشئ فيه طريقا يربط بين الصومال الإيطالى والأريتريا .

ولقد علم منليك بالاتفاق وشكر الدول المذكورة على تفكيرها في المحافظة على استقلال بلاده ولكنه اعترض على الاتفاق حتى لا يقيد بأى حال من الأحوال سيادته وسلطته .

وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى عاودت الدول الأوروبية نشاطها وعلى الأخص بريطانيا وإيطاليا ، وفي هذه المرة كانت بريطانيا تهدف إلى أن تكون منطقة نفوذها هي غرب الحبشة حيث تقع بحيرة تانا والنيل الأزرق والأقاليم المتاخمة للسودان ، بينما تشمل منطقة النفوذ الإيطالى الجزء الشرقى من الحبشة حيث يقع الطريق البرى المزمع انشاؤه .

وتبدلت الرسائل والمذكرات بين بريطانيا وإيطاليا بهذه الخصوص^(١) وما أن وصلت تلك الرسائل إلى عصبة الأمم حتى بادر الرأس تعزى واحتج على تلك الرسائل التى تبادلها الدولتان للتأمر على تقسيم الحبشة بينهما لكل

(١) ص ٢٢٥ وما بعدها C.F. Rey by In the Country of the Blue Nile

منهما منطقة نفوذ خاصة بها ، واتهمهما بالعمل على الاعتداء على استقلال بلاده . وفضح أساليهما الاستعمارية . مما أدى إلى وضع حد حاسم لتلك المحاولات .

نشاط هيلاسلاسى فى عهده الأول :

بعد موقعة المشرف أمام عصابة الأمم ودفاعه عن حق بلاده واستقلالها عقد معاهدة صداقة مع إيطاليا فى عام ١٩٢٨ حتى يأمن جانبها . ووافق على أن تقوم شركة أمريكية بدراسة منطقة بحيرة تانا والنيل الأزرق بناء على طلب حكومة السودان (١٩٣٠) ، وعقد اتفاقات مع انجلترا وإيطاليا وفرنسا للحصول على الأسلحة ؛!

ولقد قام فى ١٩٣١ بمنح البلاد دستوراً . ولم يكن لهذا الدستور أهمية لدى الشعب ، ولكنه كان مظهرأ من المظاهر التى أراد الامبراطور أن يرفع به شأن بلاده أمام الأجانب ويبرر به بقاءه عضوا بعصبة الأمم ، ومن جهة أخرى فإنه كان يهدف منه إلى زيادة الروابط بين مختلف الأقاليم فى الامبراطورية . حيث يجتمع النواب الذين عنهم بنفسه ، مرة أو مرتين كل عام فى أديس أبابا فيوطد الروابط معهم وينبهم ، ويجعلهم يشعرون بأهمية أديس أبابا عاصمة الامبراطورية ويلتفون حولها . لما عرف عن قبائل الحبشة على مر العصور من عدم اهتمامهم الاهتمام الكافى بالولاء لعاصمة البلاد .

وقام بعد ذلك بتعيين الوزراء وتوزيع الاختصاصات والواجبات وتنظيم قوى الأمن ووضع الأسس للإدارة المالية والجمارك والضرائب ، وكل ما عدا ذلك من مستلزمات الحكومات الحديثة ، ولكنه اصطدم بالعقبة الكبرى وهى فقر البلاد الشديد فى أنبائها المتعلمين الذين يمكن أن تسند إليهم وظائف الدولة ، ولذلك وجه همه إلى نشر التعليم وأوفد عددا من البعثات على نفقة الدولة إلى البلاد الأجنبية ، وبلغ من عنايته بهم أنه كان يستقبل أفراد البعثات قبل سفرهم وعند عودتهم .

وبدأ نفس الجهود في نشر العناية الصحية ، وتحسين طرق المواصلات ، وكان في جميع هذه الاعمال يدفع الأمور بنفسه مركزاً السلطات في يديه يتابع جميع الإجراءات صغيرها وكبيرها ، لذلك كان الجهود الذي يبذله هائلاً ، كان حراً بأن يصل إلى أحسن النتائج في أقصر وقت ، لولا ما تلبد من غيوم دفعت بالبلاد إلى كارثة الحرب الإيطالية الحبشية في عام ١٩٣٥ (١) .

* * *

حالة المسلمين في عهد هيلاسلامى :

أما بالنسبة للمسلمين فإنه لم يلجأ إلى الأساليب السافرة من الاضطهادات الدينية الاجبارية التي كانت سائدة في عهد تيودور ثم يوحنا . بل تظاهر بأن حرية الدين مكفولة وألغى ما يتعارض مع ذلك من قوانين .

ولكنه أتبع نفس الاجراءات السابقة وأقرها بطريقة مستترة بأن سمح لهم بمزاولة النشاط التجارى - على أن يبعدوا عن الوظائف والمناصب العامة ومن جميع ما يتعلق بحياة البلاد السياسية - وجعل بين المسلمين وبين الطبقة الحاكمة فاصلاً واضحاً ، وكان وضعهم على هذه الصورة ما يمكن التعبير عنه (بالتسامح الدينى البسيط) ، كما يفسره بعض الكتاب الأوروبيين - ولكنه في الواقع ومن الوجهة العملية امعان في التفرقة الدينية على أوسع نطاق - وتميز عن خطط الاضطهاد السابقة انها تطبق الآن في هدوء وسكون .

وتبذل الحكومة الحبشية الجهد لكي توحى إلى العالم بأن حالة المسلمين متحسنة وأنهم يتمتعون بالحرية والمعدل في عهد هيلاسلامى ، ولكن موقعهم بقى كما هو في السابق من جميع الوجوه وعلى الأخص بالنسبة للوظائف والمناصب والحكم ، بل أن أساليب التفرقة أخذت طابعاً رسمياً . إذ أن الدستور الجديد ربط بين الجنسية الحبشية والدين ربطاً متيناً قضى على آمال المسلمين في تحسين مستواهم ، وأن كانوا تحت الحكم الخالى أصبح في أمكانهم امتلاك

الأراضي ، وتولى بعض المناصب في البلاد التي تكون غالبيتها من المسلمين^(١) ويتنصت الأمر وجودهم في تلك المناصب مثل الأعمال التي تتعلق بالقضاء الشرعي .

* * *

عبر المستر ترمينجهام بالفقرة السابقة في اختصار ورفق عن حالة المسلمين في العهد الأول من حكم هيلاسلاسي . وهي تعبر عن حالة المسلمين في الحبشة تعبير صحيحا ، وهي أن كانت تشير إلى التفرقة الدينية الصارخة وما يتعرض له المسلمون من ظلم وحرمان ، فانها بالرغم من كل ذلك أقل من الحقيقة بكثير ، ونحن وأن كنا ندخر ماسوف يفصله عن هذا الموضوع إلى ما نعتزم تخصيصه له في فصل مستقل من هذا الكتاب ، إلا أننا نود أن نشير إلى نقطة واحدة وهي الوحيدة التي ذكرها مستر ترمينجهام عن مدى التحسين في معاملة المسلمين في عهد هيلاسلاسي والتي عبر عنها في رفق بكلمة (التسامح الديني البسيط Simple Tolerance تلك الظاهرة الوحيدة التي تغيرت في معاملة المسلمين وهي السماح لهم بامتلاك الأراضي .

فن المعروف أن الحبشي (ساكن الهضبة حيث تتركز المسيحية) لا يميل إلى الزراعة ويعتمد على تربية المواشي ، ولا يزرع حول كوخه إلا ما يكفي لسد رمقه [] : بخلاف المسلمين الذين يملأون السهول والوديان فهم يتميزون بالنشاط والدأب على العمل ، وكما نبغوا في التجارة وسيطروا عليها فانهم كانوا في نفس الوقت العماد الأكبر للزراعة ، لإقبالهم عليها ونشاطهم وكثرة عددهم واتساع الرقعة التي يعيشون فيها بحيث تشمل ثلاثة أرباع مساحة الحبشة كلها .

وعندما لجأت الدولة في أوج عصور الاضطهاد إلى حرمانهم من تملك الأراضي كما سبق أن قلنا ، تحول كثير منهم إلى التجارة ، وتأثرت الزراعة وتضائل دخل البلاد منها وأصبحت أرضها الخصبة مهملة طائلة عن الانتاج

(١) ص ١٢٦ الاسلام في اثيوبيا لترمينجهام .

لم يكن هناك يد من العودة إلى السماح للمسلمين بتملك الأراضي لتشجيعهم على الزراعة . لما يعود ذلك على الدولة بالخير العميم . ولكن المسلمين وقد عادوا ثانية إلى تملك الأراضي أخذوا يتعرضون لدفع الضرائب الباهظة المفروضة عليهم علاوة على أن تلك الضرائب تجبى منهم عدة مرات في العام الواحد . فلما شاء حاكم المنطقة أن يجمع لنفسه أو لاتباعه بعض المال . كذلك لا يسلم المسلمون من سطوة رجال الحكومة ورجال الأمن الذين يتقاضون منهم - ما يفرضونه عليهم من أتاوات لا ينص عليها القانون .

لذلك يجاهد المسلمون في نشاط وصبر وكد في فلاحه الأرض ، ويعملون بذلك على رخاء البلاد وزيادة دخلها ، ولكن ما يفتق لهم يشاركهم فيه الحكام ورجال الأمن . ولنا إلى ذلك عودة .

الفصل الثامن عشر

الاحتلال الإيطالي

لم تكن إيطاليا لترضى بما حصلت عليه من مستعمرات فقيرة لا تبشر بأى كسب ولا تعود على الخزينة الإيطالية أو الشعب الإيطالي بالفائدة المنشودة ، وإذا كانوا يتحملون جهداً كبيراً في ليبيا الفقيرة وقشتد ، فإنما كان يرادهم الأمل في أن تكون ذات فائدة كبرى عند الطرف المناسب لتكون نقطة انطلاق إلى غيرها من جاراتها الغنية ، ثم هي على مسيرة يوم واحد من الأرض الإيطالية مما يجعل موقعها مثالياً ، تتضاءل بجانبه المنفعة المادية العاجلة ، ويكفي منها أن تغطي تكاليف حكمها وإدارتها .

أما أن تسكت إيطاليا على بقائها في شرق أفريقية في مستعمرة فقيرة في الإريتريا ومستعمرة أخرى أفقر منها في الصومال الإيطالي وفيما بينهما بلاد شاسعة مفرطة في الخصب والإمكانات التي لا حدود لها ، معتدلة في الجو طوال السنة ، وليس لهم عليها أى سلطان فإن هذا أمر لا تستسيغه النزعة الاستعمارية الإيطالية .

لذلك أخذوا منذ اللحظة الأولى التي استقروا فيها في الإريتريا والصومال في مناوشة الأحباش ، ووقعت بينهم المواقع الحربية التي انهزمت فيها إيطاليا شرهزيمة ، علمت بعدها أن تحقيق أهدافهم يحتاج إلى اتهاج أساليب أخرى . فآخذوا يسامون بريطانيا وفرنسا وعقدوا فيما بينهم اتفاقيات على تقسيم مناطق النفوذ ، ثم عاودوا الكرة بعد الحرب الكبرى الأولى ونشطوا في الاتفاق مع بريطانيا على تقسيم الحبشة بينهما ، ولم تجد تقتنع بشرط من الأرض للنشء فيه طريقاً يوصل بين الصومال وأريتريا . ولكن امتدت

أطاعها بأن تصبح جميع المنطقة الشرقية من الحبشة منطقة نفوذ تنفرد فيه بالتجارة والاستقلال بينما تنفرد بريطانيا بالمنطقة الغربية . التي يقع فيها النيل الأزرق وبحيرة تانا .

وعندما فضح الامبراطور هيلاسلامى (الرأس تفرى وقتئذ) هذه المؤامرات الخفية أمام عصبة الأمم عام ١٩٢٦ ، وأوقف العمل بها . لجأت إيطاليا لعقد معاهدة صداقة معه عام ١٩٢٨ ، ولكن هذا لم يكن ليثنى الإيطاليين عما يبيتونه من نيات وآمال . فأخذوا يعدون العدة ، ويتقنونها . في هذه المرة ويعززونها بأحدث ما وصلت إليه أساليب الحرب ، ويرتبون خطة الحملة بحيث يكون عملها سريعاً وفعالاً وخاطفاً ، حتى لا تدع لدول العالم الفرصة لإيقافها أو عرقلة أعمالها . . . وأخذت تحجिन الظروف . المناسب .

* * *

موقف الدول الكبرى :

في الوقت الذي كانت فيه الحبشة مهددة بسيطرة المسلمين الكاملة عليها . تعاونت الدول الأوروبية الكبرى في حماية الحبشة المسيحية وتمكينها من الانتصار على المسلمين والاستيلاء على جميع السلطنات الإسلامية وتوحيد جميع هذه المناطق تحت سلطة الامبراطور وتساقطت الدول في تقديم المساعدات - وعندما تحققت النتائج التي تعاونت من أجلها بدأت كل منها تتصارع مع الأخرى وتتنافس حتى تنال من النفوذ في تلك الدولة الناشئة المتحدة فوق ما يناله غيرها .

وليس هذا بالموقف الأول التي تفقه الدول الأوروبية - ولقد مرنا في التاريخ بعديد من الأمثلة على ذلك ، وأبرزها وأعظمها شأنًا ما حدث في الحروب الصليبية . ولكن أقربها إلى أذهاننا في عصرنا الحديث ، ذلك التحالف الذي عقدته الدول الأوروبية فيما بينها - رغم ما بينها من تنافس.

وحروب - تحالفت لكي تقضي نهائيا على القوة الإسلامية في الشرق الأوسط التي تمثلت في قوة المسلمين التي تعززت فجأة وعلى غير انتظار من الدول الأوروبية بتلك القوة الناشئة الفتية لمصر في عهد محمد علي وتلك الامبراطورية الجديدة التي أخذت تمتد أطرافها وتتمركز قوائما بما يهدد مصالح الدول الأوروبية وآمالها في التوسع والاستعمار . تحالفت تلك الدول حتى تمكنت من القضاء على القوة الإسلامية (معركة نفاارين البحرية) وبعد أن تم لها ذلك عادت تلك الدول إلى تنافسها وتصارعها على مناطق النفوذ والاستغلال والاستعمار .

* * *

وبعد أن تمكن منليك من القضاء على السلطنات الإسلامية بفضل ما حصل عليه من مساعدات عسكرية وأسلحة من الدول الغربية - واستتب أمر البلاد - أخذت نفس تلك الدول الأوروبية تعمل وتتنافس فيما بينها على الاستيلاء على الغنيمة . وظهر ذلك واضحا في عام (١٩٠٦) عندما ضعفت صحة الامبراطور منليك - ثم بعد ذلك في المؤامرات التي حاكمتها بريطانيا وإيطاليا بعد الحرب الأولى وافترض أمرها أمام عصبة الأمم (١٩٢٦) .

ولم يكن الأمر يقتصر على الحبشة في ما يدور بين الدول الكبرى من حراع وتنافس بل كانت أطماعها تتشعب وأظافرها تمتد إلى غيرها من مناطق نفوذ ومستعمرات . لذلك دخلت تلك الدول في ميدان المساومات فأصبحت المسألة الحبشية مرتبطة بغيرها من المشاكل من وراء ظهرها وبغير علم منها .

ولقد احتدمت تلك المساومات وأصبحت الشغل الشاغل للدول الكبرى ، وبلغت ذروتها في الثلاثينيات وعلى الأخص في عام ١٩٣٢ عندما استقر عزم إيطاليا على غزو الحبشة وهو نفس العام الذي استولى فيه التاويون

على زمام الحكم في ألمانيا . ومنذ ذلك الحين ارتفعت حرارة التنافس إلى درجة الحمى ، وتورطت كثير من الدول في عدد من الارتباطات التي أملت بها أطرافها ، وازدادت بذلك حدة الصراع حتى انتهى بالعالم إلى كارثة قيام الحرب العالمية الثانية .

* * *

ولكل من الدول الكبرى وجهة نظر خاصة مرتبطة بمصالحها ويدافع عنها مؤرخوها ولسنا هنا في مقام مناقشة تلك الآراء المختلفة ، خصوصاً وأن جميع تلك الدوافع والآراء تعود في رأينا إلى أساس واحد ودافع واحد وهو الجشع والصراع على اقتراس الشعوب الضعيفة - ولا يعنينا بعد ذلك تعدد الوسائل التي تتبعها تلك الدول ، ولا الظروف التي تصادفها في تحقيق أغراضها وكيفية معالجتها والتغلب عليها ، ولا كيف تتقاتل تلك الدول فيما بينها لاقتسام الغنائم .

ولكننا ونحن بصدد المسألة الجبشية ، جدير بنا أن نشير في اختصار إلى بعض العوامل البارزة التي سادت المعسكرات الأوروبية في تلك الفترة ، والتي كانت وثيقة الصلة كبيرة بالآثر فيما حل بالجبشة . والتي تمكنت إيطاليا من استغلالها وتلدس الثغرات فيها وانتهاز الفرص خلالها للإقدام على مغامرتها .

* * *

فقد كشفت اعترافات « المارشال إميليو دي بونو » أن موسوليني قرر غزو الجبشة في خريف عام ١٩٣٣ ومنذ ذلك التاريخ أخذت إيطاليا تعمل في همة ونشاط دائبين على تحقيق ذلك في ميعاد أقصاه عام ١٩٣٦ .

وكانت الخطة أن يسبق الغزو العسكري سلسلة من التآمر والرشاوى مع زعماء الاتحاش مما كان له فيما بعد أثره الفعال في تيسير مهمة الجيش

الإيطالي . حيث تمكنت تلك السياسة من تفتيت الحبشة سياسيا في الداخل .

ولقد كان السنيور موسوليني قد استعرض مختلف المناطق التي يمكنه أن يحقق فيها توسعا لنفوذه ، وميدانا يستوعب نشاط السكان الإيطاليين المتزايدين . فلم يجد أمامه خيراً من أثيوبيا . فهي فضلاً عما بها من ثروات كامنّة هائلة فإنها تربط بين مستعمرته الفقيرتين - الاريتريا والصومال - ولا يريد أن ينسى معاهدة أوشاللي (١٨٨٩) التي جعلت من الحبشة في يوم من الأيام محمية إيطالية - وأن كان منليك قد بادر وألغاهها (١٨٩٣) وأعقب ذلك بإيقاع هزيمة منكرة بالقوات الإيطالية في موقعة عودة (١٨٩٦) .

وبالرغم من أن منليك رفض الاعتراف بمعاهدة (١٩٠٦) التي تقاسمت فيها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا مناطق النفوذ - إلا أن تلك الدول الكبرى بقيت فيما بينهما تحترم نصوصها - فهي وإن كانت تحفظ للحبشة استقلالها إلا أنها تعترف لكل من تلك الدول بمنطقة نفوذ تزاوّل فيها نشاطها ، وليس في تلك المعاهدة ما يخول لأي دولة من تلك الدول بغزو الحبشة عسكرياً .

ولكن أطماع إيطاليا التي سبق ذكرها . واحتدام الحوادث والصراع على المسرح الأوروبي خصوصاً بعد ظهور هتلر وصحوة ألمانيا تحت الحكم النازي وإلغائها لمعاهدة فرساي وتنازحها . خلق جوّاً من القلق . دعا فرنسا إلى العناية بمسألة الحبشة ، كذلك لم تكن بريطانيا بأقل اهتماماً من فرنسا بهذا الأمر .

وفي ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤ وقعت إحدى حوادث التحرش الشبيهة ، بأن اصطدمت بعض القوات الإيطالية مع قوات الحبشة بالقرب من (Walwa) مما أدى إلى مقتل ٣٠ وجرح ١٠٠ من القوات الإيطالية ، بينما

كانت إصابات الأجاش أكثر عدداً ، ومهما قيل عن أسباب ذلك الاشتباك من الطرفين في ذلك الوقت ، فإنه ظهر بما لا يقبل الشك - وخصوصاً بعد الاطلاع على الأسرار التي أذيعت بعد الحرب الثانية . أن إيطاليا هي التي تمحرت بالحبيشة تنفيذا لحظتها التي رسمتها لتبرير غزوها للحبيشة . ولقد كان ذلك واضحاً حتى في ذلك الوقت ، إذ رفضت إيطاليا أى نوع من أنواع المتوسط والتصالح ، ورفضت الخوض في بحث موقع الاشتباك . وهل هو في داخل الأراضي الحبيشية أو خارجها وأين يقع خط الحدود ؟ . وأصرت إيطاليا على موقفها السلبى حتى بعد إثارة موضوع الحادثة أمام عصبة الأمم . وفي نفس الوقت أخذت امتدادات إيطاليا للحملة الحبيشية تتضح للعيان واشتهر أمرها في أوروبا .

وما أثار دهشة العالم وقتئذ إقدام وزير خارجية فرنسا مسيو بير لافال على زيارة روما لتسوية ما بين الدولتين من خلافات والتعاون في المجال الدولى . ويعتبر البريطانيون هذا العمل من لافال خيانة صريحة لبلاده لمصلحة هتلر وموسوليني^(١) ووصفه اللورد فانيسنارت بأنه « أحد القلائل الذين لم يتمكن الميكروسكوب من أن يكشف فيهم إلا الانحلال » فلقد هيأته الطبيعة لكي يكون فصاباً وخائناً .

ولقد تمكن لافال في خلال ثلاثة أيام من زيارته لروما أن يصل إلى اتفاق مع إيطاليا تتنازل لها فرنسا فيه عن بعض المناطق الأفريقية تضاف إلى الأريتريا وليبيا - ولو أنها قليلة القيمة من الوجهة الاقتصادية إلا أن فائدتها العسكرية كانت ذات قيمة . وكذلك منحها ٢٥٠٠ سهما (٢٠٪) في الخط الحديدى الذى تملكه فرنسا والذى يصل أدبس أبابا بالبحر عند جيبوتي - والذى تعتمد عليه الحبيشة اعتماداً كلياً في تجارتها الخارجية -

The Ethiopian Crisis by
Ludwig Schaefer

(١) ص ١ من كتاب الأزمة الأثيوبية

والنزال بقلم . G. M. Gathorne - Hardy

وفي نظير ذلك حصلت فرنسا من إيطاليا على تسوية في المسألة التونسية ، بأن تنازلت إيطاليا عن تمسكها باحتفاظ الإيطاليين الموجودين في تونس بالجنسية الإيطالية .

والمنتجع لهذه الأمور يجد أن هذين الأمرين اللذين تمخض عنهما الاتفاق من التفاهة بحيث لا يمكن أن يكون لهما شأن في المسرحية التي تمثل في أوروبا في ذلك الوقت ، ولكن الأمر الخطير الذي حدث في هذه الزيارة هو تقارب فرنسا من إيطاليا واتفاقهما على التعاون والتفاهم ومراعاة مصالح الطرفين . وجاء ذلك اعترافا من فرنسا وتصريحا منها لإيطاليا لكي تكون لها حرية العمل في الحبشة .

* * *

لم تكن بريطانيا لتقف مكتوفة اليدين على المسرح والحوادث تتوالى أمام عينيها لذلك قام مستر أيدين وزير خارجية بريطانيا وقتئذ بزيارة روما أيضا في يونيه ١٩٣٥ واقترح على الدوتشي أن تتنازل الحبشة لإيطاليا عن جزء من منطقة الأوجادين في مقابل منح الحبشة ممرا إلى ميناء زيلع الواقعة في الصومال البريطاني ، ولقد كان نصيب هذا الاقتراح الرفض من الجانب الإيطالي .

ولقد كان من ضمن الاقتراحات التي لم تتعد مرحلة التليخ ، أن يكون لإيطاليا في الحبشة مركزا مشابها لمركز بريطانيا في مصر - أي حماية ونفوذ تحت ستار استقلال ظاهري للحبشة - وقد كان من المعتقد وقتئذ أن موسوليني سوف يستجيب لهذا الاقتراح ويكتفي به - ولكن الكتاب الإيطاليين^(١) ينحون باللائمة على تصرفات بريطانيا بعد ذلك التي جعلت موسوليني يركب رأسه ويندفع في عملية الغزو والاحتلال الكامل . فان الإيطاليين يهتمون بريطانيا بأنها شجعت هيبلاسلامي ضد إيطاليا ودفعته إلى رفض جميع

(١) ص ١٤٦ ، ٦٤٧ تاريخ أوروبا الحديث تأليف فيشر ترجمة أحمد نجيب هاشم .
(١٨) — الحبشة)

الحلول - ولولا تلك لكان قد قيل بسهولة أن يصبح مثل خديو مصر تحت سلطة بريطانيا أو باني تونس تحت سلطة فرنسا .

وخلال كل تلك الأحداث لا ننسى أن فرنسا ومعا إيطاليا ، كانت تنقسم على بريطانيا اتفاقا المنفرد مع ألمانيا في يونيو ١٩٣٥ الذي سمحت فيه لألمانيا ببناء أسطول يحتوى على غواصات مما يتعارض مع معاهدة فرساي ويقلب ميزان القوى ويهدد كيان فرنسا .

* * *

تلك كانت الحوادث التي تتعاقب على المسرح الأوروبي - وجميعها مؤامرات ومناورات ومعاهدات تعقد خارج عصبة الأمم مما أدى بالعصبة أن تفقد قيمتها وتهتز هيبتها ، وكان لاختراقها في محاولاتها لتسوية حوادث منشوريا وعجزها عن إيقاف الغزو الياباني لها . أكبر الأثر في تشجيع بنيتو موسوليني دكتاتور إيطاليا على الأقدام على غزو الحبشة ، وامتناع الحسام في وجه دولة صغيرة ضعيفة ، وأصبحت إيطاليا على أهبة الاستعداد لهذا الغزو في عام ١٩٣٣ إلا أنها كانت تتربص بالظرف المناسب . وكانت على تمام الثقة بأن الموقف الدولي المتأزم سوف يمنع الدول الكبرى من التعرض لها وأنقاذ الحبشة خشية أن يؤدي ذلك إلى وقوع ما هو أشد خطرا على العالم أجمع وهو نشوب الحرب العالمية ^(١) وبذلك أصبحت الحبشة ضحية وحيدة لاسند لها .

* * *

الغزو الإيطالي :

أرسل موسوليني قواته المعززة بمعدات حربية هائلة ، ومعه من المعدات المدنية المدروسة بعناية فائقة ما يلزم للبدء في الحال في استثمار البلاد ، وكانت تتكسد تلك المعدات في أريتريا في انتظار اليوم المئشود ، وزحفت كتابته

(١) ص ٢٤٥ تاريخ أوروبا في العصر الحديث تأليف فيشر ترجمة د . أحمد نجيب هاشم .

إيطاليا في أكتوبر سنة ١٩٣٥ على تلك البلاد البدوية الضعيفة . وكانت نتيجة القتال أمرا مفروغا منه ، واستصرخ النجاشي هيلاسلاسي عصبة الأمم والأمم الكبرى لتدله يد الغوث - ولكن صراخه ذهب أدراج الرياح ، بينما كانت بلاده تتعرض لفتك جميع المعدات الحربية الحديثة لدولة أوروبية من الدرجة الأولى في المصفحات والطائرات والغازات السامة.

وكان الجيش الإيطالي تحت قيادة المارشال بادوليو يتكون من ٢٠٠.٠٠٠ جندي و ٤٠٠٠ طائرة ومقادير هائلة من الغازات .

أما عصبة الأمم ، وقد فشلت في تهدئة الأحوال قبل الغزو الإيطالي فانها أعلنت في أكتوبر أن إيطاليا دولة معتدية وقررت في الشهر التالي توقيع «العقوبات الاقتصادية» التي يفرضها عهد العصبة ، فطلبت من الدول الأعضاء أن تمتنع عن مدها بالسلح والمال ، وقررت فرض الحصار البحري عليها ، بيد أن إيطاليا كانت تملك الأسلحة والمواد . بينما كانت تفتقر إلى البترول -- وحدث أن رفضت أغلبية الدول الأعضاء أن يكون من ضمن قائمة المواد المحظورة الحديد والصلب والقصدير وزيت البترول -- الأمر الذي جعل من «العقوبات الاقتصادية» مهزلة كبرى ، وأضعف إلى مدى بعيد نفوذ العصبة الأدبي والقانوني .

وما أنى شهر مارس سنة ١٩٣٦ حتى كان الإيطاليون قد قضوا على كل مقاومة حربية جديّة من جانب الحبشة ، ودخلوا أديس أبابا فاتحين في شهر مايو وكان الامبراطور هيلاسلاسي قد أكره على الفرار منها في أوائل مايو وأعلن موسوليني في ٩ مايو ضم الحبشة كلها إلى إيطاليا ونادى بالملك عمانوئيل الثالث امبراطورا على الحبشة ، وأظهرت إنجلترا وفرنسا أنهما تؤثران «سياسة التهديد الملتوية» ، ومالبت عصبة الأمن أن أقرت بعجزها ، ورفعت العقوبات الاقتصادية عن إيطاليا في منتصف عام ١٩٣٧ (١) .

• • •

(١) ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ تاريخ أوروبا في العصر الحديث تأليف فيشر ترجمة أحمد نجيب هاشم

تأثير الاحتلال الإيطالي :

لسنا من أنصار الاستعمار ولا يمكن أن نوافق على اعتداء القوى على الضعيف ، ولكن لامناس لنا من الاعتراف بأن الحبشة التي ظلت تعيش في دياجير الظلام ، وتدافع عن بلادها بما أوتيت من قوة وبقيت خلال تاريخها الطويل بينا تتقلب في احضان الجهل والهمجية ، لم تتح لها فرص رؤية النور إلا على يد الغزاة الفاتحين . فلقد نقل إليها العرب عندما دخلوها مسلمين كثيرا من نواحي التقدم والمدنية التي عاصرت القرون الأولى من الاسلام ثم كان لدخول البرتغاليين لنجدهم ضد المسلمين أثر بالغ في تعريفهم بالعالم الخارجي وما به من وسائل المدنية وأساليب الرقي ، ثم كان الفتح المصري الذي أدخل إلى البلاد حضارة من نوع جديد تعتمد على الاستقرار وحسن الادارة ونشر الوعي والتعليم والتدريب بين طبقات الشعب وتوحيد الجهود في سبيل رفعة البلاد بالقضاء على الخلافات والمشاحنات .

ولا شك أن الاحتلال الإيطالي كان — في العصر الحديث — كبير الأثر في إفاقة الحبشة من نومها — وبقدر ما صاحبه من فظائع الحرب والاستعمار فإنه أدخل أحدث أنواع المدنية التي لم تكن لتدخل تلك البلاد لولا الفتح الإيطالي .

ولم تكن إيطاليا تتصور أنها سوف تخرج وشيكا من الحبشة ، لذلك دخلت إليها ومعها برنامج واسع شامل لجعل هذه البلاد جزءا زاهرا من الامبراطورية الإيطالية ، واتخذت سياسة تحالف ماجرت عليه بريطانيا وفرنسا في مستعمراتهما ، فقد عولت على أن تزدهر البلاد ، ويتعاون في ذلك المستعمرون وأهل البلاد بحيث توثق تلك البلاد الشاسعة ثمارها في أسرع وقت ممكن حتى تحقق لنفسها أكبر فائدة في أقصر وقت ، وجعلت هدفها أن تمتلئ جميع نواحي النشاط بالإيطاليين الذين يستوطنون بصفة دائمة ويجعلون منها وطننا دائما لهم تابعا للدولة الأم إيطاليا ، لذلك كان الإيطاليون يشغلون جميع

الدرجات في مختلف مرافق الحياة ، فمنهم سائق السيارة والصانع والسكراتب والموظف والمهندس والمدير ونائب الملك ، وكان الايطاليون في المراكز الدنيا يشغلون جنبا إلى جنب مع زملائهم الأجانب الذين أغروهم وجلبوهم إلى حلبة العمل . حتى يستفيدوا من مجهودهم البشري في بداية الاستعمار ، ثم يتحولون فيما بعد إلى طبقة كادحة مستعبدة عندما تستقر الأمور للايطاليين وتزدهر مشروعاتهم .

ومن أجل ذلك كانت سياسة الايطاليين الرئيسية ادخال العموان المستقر في جميع النواحي ، فكانت المباني الفخمة والمكاتب الأنيقة والأثاث المريح والتجهيزات الحديثة في كل مكان ، على صورة لم تعدها افريقيا من قبل في المستعمرات الفرنسية والانجليزية التي سبقت بما يقرب من خمسين عاما .

ولقد وضعت إيطاليا لتعمير الحبشة ثلاثة برامج متعاقبة مدة كل منها خمسة سنوات وكانت تهدف أن تصبح البلاد بعدها جنة تتلأأ في قلب أفريقية ومصدرا هائلا من مصادر الثروة للامبراطورية الإيطالية . ولم يتم من هذه البرامج الثلاث إلا الجانب الأكبر من البرنامج الأول . فجاء رغم الصعوبات التي داهمتها من جراء قيام الحرب العالمية الثانية في ١٩٥٩ ، تحفة من روائع العمل الهندسي والفني والاداري .

انتشرت في جميع أنحاء البلاد طائفة من المشروعات الصناعية، وقامت الحكومة الجديدة في الحال بإنشاء المزارع الحديثة وزودتها بأحدث وسائل الزراعة وأساليب الميكانيكية، وكانت كل واحدة منها مزودة بالآلات وورشها ومصنعاتها وقنواتها وآلاتها ومنازلها ونواحيها وأجهزتها اللاسلكية، وتفاوتت أحجامها بين ٥٠٠ فدان والخمسة آلاف فدان ولقد رأينا أحداها بالقرب من مدينة « ديسي » حيث كانت عبارة عن مجموعة متجاورة من الوحدات بلغت في مجموعها ستين ألف فدان .

ودارت رحى البحوث في كل مكان للبحث عن الثروة المدنية، واستغلال جميع أنواع الموارد .

وكان من أهم الإنجازات التي تمت في تلك الفترة القصيرة تلك الشبكة العظيمة من الطرق وخصوصا ذلك الطريق العظيم بين أسمره وأديس أبابا (١٠٨٠ كيلو متر) الذي ربط بين العاصمتين عتقرا هضاب الحبشة وجبالها ووديانها ، وسط طبيعة شديدة الوعورة مما استدعى إنشاء عدد لا حصر له من المعابر والجسور والأنفاق ، ومنها بعض الكبارى التي لم يسبق لها مثيل ، مثل ذلك الجسر الذي يصل بين جبلين بالقرب من (دبراسينا Debra Sina) والذي تهدم مرة أثناء إقامته وتسببت عن ذلك بعض الخسائر والضحايا ، وأنه وأن تكن بعض الطرق الأخرى لم تكن قد غطيت بالأسفلت بعد ، إلا أنها كانت قد تمهيدا بحيث أصبح الوصول بالسيارات ممكنا ولو بشيء من الصعوبة للمرة الأولى في التاريخ من أديس أبابا إلى جوندار واكسوم وهرر وجيما ولبكيتي وبحيرة تانا ودبراما كوس ثم مقديشو .

وكذلك أنجزت إيطاليا عددا كبيرا من المشروعات الحيوية في البلاد مثل محطات الكهرباء وشبكة المواصلات التليفونية والبرقية واللاسلكية ، وكان لها من المعدات اللاسلكية المنتشرة في جميع البقاع ما يمكن العاصمة من الاتصال بجميع المدن والقرى ، وكذلك تصل أديس أبابا مع روما رأسا بمحطات كبيرة تعمل طوال الليل والنهار .

ومن البديهي أنه عندما استقر الإيطاليون بالحبشة فإنهم طبقوا نظامهم الإداري الذي قضوا به على سلطة الحكام والرؤوس القدامى ، وانزعوا منهم إقطاعياتهم وأراضيهم وعلى رأسهم أراضي الكنيسة الحبشية التي كانت تملك أكثر من ثلث أراضي الدولة وبذلك بدأت تفقد سلطانها وقوتها. ولئن تظاهرت إيطاليا بأنها تطارد الإقطاع وتقضي على الإقطاعيين إلا أنها جلت محلم جميعا وجعلت من الحبشة كلها إقطاعية واحدة كبيرة ملسكا خاصا لها .

ويقدرّون ما أنفقت إيطاليا في هذه الأعمال العمرانية بما يتجاوز المائتي مليون من الجنيّات .

* * *

سياسة الإيطاليين نحو الكنيسة الحبشية :

اتبع الإيطاليون تجاه الكنيسة الحبشية سياسة رافدها الهدوء والتزوّء ، فكما أنها أخذت تعمل على تحويل الشعور القومي الأثيوبي في هدوء وصبر إلى ولاء نحو إيطاليا ، فإنها اتخذت نفس السياسة تجاه الكنيسة القبطية باليعقوبية حتى يتم تحويل ولاء الناس عنها بدون إثارة الاضطرابات أو اللجوء إلى وسائل القهر والاضطهاد ، ولقد حدثت بعض الأخطاء عند أول عهدهم بالبلاد كنتلتي التي قتل فيها جميع رهبان دير (دبر اليبانوس) ولكن هذه الحادثة لم تكرر مرة ثانية (١) .

* * *

سياسة الإيطاليين مع المسلمين :

منذ اللحظة الأولى أعلن الإيطاليون أنهم سيحمون الإسلام والمسلمين وسيعاملونهم على قدم المساواة مع المسيحيين . وأعلن موسوليني أنه سيضمن لهم السلام والعدل والرفاهية وسيعمل على احترام القوانين الإسلامية (٢) .

ولم يكن مسموحاً للمسلمين في الحبشة أن يقيموا مساجد جيدة البناء . ولكن الإيطاليون صرحوا ببناء مساجد جديدة لهم في كل مكان يوجد به مسلمون ، سواء كانوا فيه أكثرية أو أقلية . وأعادوا الإصلاح وترميم المساجد الموجودة في المدن الإسلامية القبيضة مثل مصوع ونغيزها من المدن الساحلية ، وفي الحبشة نفسها (الهضبة) قاموا ببناء مسجد أديس آبابا

(١) ص ١٣٧ في الإسلام في أثيوبيا لتر منجهام .

(٢) نفس المصنفة نفس المرجع

الكثير^(١) وغير ذلك من المدن مثل سوكوتا ، شلجا ، وبارك ، اسلاجي ،
دانجيللا ، بحيرة حيق ، ديسي ، متعة وجوندار ، وكذلك في هرز ، ديرداوا
جيج جيجا ، ميسو ، عصب ، جوبا ، وعدد آخر في مقاطعات الجالا وسيداما .
ولقد بنيت هذه المساجد من أموال الأوقاف الإسلامية التي أطلق الإيطاليون
لها حرية العمل .

وقامت الحكومة بتعيين القضاة الشرعيين لتطبيق الشريعة الإسلامية ،
وأدخل تدريس اللغة العربية في جميع المدارس التي أنشئت للمسلمين ،
واستعملت في المراسلات الرسمية في مقاطعات جيجا وهرز ، وفي جيجا التي
كانت تعتبر مركزاً عظيماً من مراكز المسلمين أنشئت كلية (دار العلوم
الإسلامية) للتخصص في الفقه .

ويامعان النظر في تلك الإجراءات نجد أنها لا تعدو كونها تصريحاً
للمسلمين بمباشرة شئونهم الدينية على نحو كانوا محرومين منه في السابق ، ومهما
وصل من إنشاء فإنه لم يكن ليقارن بما كان لدى المسيحيين من منشآت
وكنائس وأديرة .

* * *

ونظراً لما عرف عن المسلمين من نشاط وما تميزوا به في الحبشة من جد
ومثابرة ومدنية وخلق قويم ، فإنهم بعد أن أزاحت عنهم الحكومة الإيطالية
عوامل الكبت والظلم والعسف على النحو الذي سبق ذكره ، أنطلقوا من
عقائهم كالمارد وملأوا الدنيا عملاً ونشاطاً وفي لمح البصر أصبحت تجارة البلاد
وزراعتهم ومختلف نواحي النشاط في أيديهم ، واشترك معهم الإيطاليون
ومن رأى أن يحذو حذوهم من المسيحيين ولكنهم كانوا قليل العدد .

* * *

(١) ص ١٢٧ الإسلام في إثيوبيا - لتر منجيام .

قدمنا أننا لا نوافق على الاستعمار ولا نرضى باعتداء القوى على الضعيف . ولكن من الانصاف أن نقرر مدى ما أحدثته تلك الهزات العنيفة من تأثيرات . تثير الأذهان ، وتفتح العيون وتدفع الأحكام إلى توخي العدل وتهديمهم إلى سبل الرشاد . ومن بين ما فعله استعمار الإيطالي أن أزاح الظلم عن كاهل المسلمين الذين يشكلون غالبية السكان في الحبشة . ولقد أراد بعض الكتاب أن يصوروا هذا العمل من جانب إيطاليا على أنه تقرب من المسلمين حتى يستعينوا بهم على توطيد أقدامهم وكسر شوكة مواطنيهم المسيحيين . ومن الواضح أن هذا المنطق لا يقبله عقل أى منصف ، فلقد كان أجدى بحكام الحبشة المسيحيين أن يحسنوا معاملة مواطنيهم المسلمين فيكسبوا مودتهم ويضمنوا تعاونهم أمام أى عدو مشترك .

كما أن الإيطاليين لم يفعلوا مع المسلمين شيئاً فوق المألوف . بل أن كل ما فعلوه لهم هو أن سمح لهم بأن يرتفعوا إلى نفس المنزلة . التي كان عليها المسيحيون وجعلوهم جميعاً على قدم المساواة . فجاء هذا العدل والمساواة إفراجاً عن المسلمين ، وليس أدل على ذلك من حب كثير من طوائف الأقباش المسيحيين للإيطاليين . فإننا عندما وصلنا إلى الحبشة في أعقاب إنسحاب الإيطاليين منها لمسنا حب أفراد الشعب المسيحي لهم واضحاً ، لأنه كان قد خلصهم مما كانوا يلاقونه من ظلم سادتهم ، ولم يكونوا يختلفون في ذلك عن المسلمين ، ورأينا كيف أخذ سادة البلاد من ذلك درساً مفيداً لتعديل سياستهم تجاه رعاياهم بعد عودتهم إلى حكم البلاد .

* * *

ولقد كتب الأمير شكيب ارسلان في هذا الموضوع^(١) في أبان الاحتلال الإيطالي يندد بهؤلاء الذين يتباكون على احتلال الحبشة بقوله افلاتد كرتهم سلطنة هرر الإسلامية التي أغار عليها منليك الثانى النجاشى السابق ونسف

(١) مقدمة كتاب المسلمين في الحبشة لصحفي الاستاذ تيسير طليان السكيلاوى .

استقلالها واستحلها وذبح من أهلها خمسة آلاف رجل في شوارع هرر
وضبط أملاك كثير من المسلمين ، وجعل مسجدهم الأعظم كنيسة ، ومنع
استعمال اللغة العربية في هرر التي كانت من أعظم كراسي الاسلام والعروبة ،
ثم في أثناء الحرب العامة عاد تفرى هذا (هيلاسلابي) لحمل على أهالي
هرر بتهمة ميلهم إلى ليح ياسو امبراطورهم المسلم السابق ، وذبح منهم عددا
عظيما ، وهلا تذكرتم أن مسلمي الحبشة هم نصف سكان تلك المملكة بل
يزيدون ، وأنهم مع ذلك محرومون من كل حق في مناصب الدولة ، وأنه
يوجد في الحبشة عشرات ألوف العبيد أكثرهم مسلمون والباقي منهم
وثنيون وأن النجاشي تفرى نفسه كان عنده أثنى عبد من هؤلاء ،
أفلا تذكرتم كيف أصدر النجاشي يوحنا سنة ١٨٨٢ أمرا حازما بتنصير
جميع مسلمي الحبشة بلا استثناء أو يرحلوا عن البلاد ، فتنصر منهم ألوف
ورخل مئات الألوف ، وخرجت مدن اسلامية بتمامها (راجع دائرة المعارف
الاسلامية) ، ولم ترجع الحبشة عن تنفيذ أمرها هذا إلا بد أن أتقم دراويش
السودان لمسلمي الحبشة وزحفوا صوب هذه المملكة وتلاقوا مع النجاشي
يوحنا وقتلوه ، وبعد ذلك رجع المسلمون المنتصرون إلى الاسلام إلا قليلا
منهم لبشوا نصارى حرصا على وظائف كانوا قلدوهم . أباهما ، ونحن وان كنا
على نفس المستوى الخامس للمسلمين في الحبشة مثل الأمير الجليل شيكب
أرسلان إلا أننا لا نتفق معه في أن يكون حماسنا هذا مبررا للاستعمار . ومهما
أصاب الإسلام والمسلمين أثناء الحكم الايطالي من رواج ويقظة فان عقيدتنا
التي لا جدال فيها ، أن الايطاليين ما كانوا يستمروا على حسن معاملتهم
للمسلمين ، وإنما هي أمور اقتضتها سياستهم في فجر استعمارهم للحبشة ، ومن
المؤكد أنهم عندما تستقر بهم الأمور كانوا سينكلون بجمع الأهالي مسيحيين
ومسلمين على السواء ويجعلوا منهم جميعا عبيدا أرقاء .

القضاء على إيطاليا في شرق أفريقيا :

عندما دخلت إيطاليا الحرب العالمية الثانية في يونيو ١٩٤٠ ، كان لديها ٢٠٠.٠٠٠ جندي في امبراطورتها في شرق أفريقيا ، ولم يكن للحلفاء في هذه المنطقة إلا ٨٥.٠٠٠ جندي فقط موزعين على مساحات واسعة في شمال أفريقيا على وجه الخصوص ، وكان تسليحها في ذلك الوقت في أسوأ حالاته ، وكانت قوات الحلفاء في السودان على سبيل المثال لا تملك دبابات أو مدافع بينما كان مالدنيا من طائرات قليل العدد عتيق الطراز لا يصلح للحرب . ولقد زادت حالة الحلفاء دقة عندما دخلت إيطاليا الحرب حيث أصبح أسطولها في البحر الأبيض يجعل تعزيز قوات الحلفاء في أفريقيا صعبا للغاية وكذلك كان الأسطول البحري والجوى الايطاليين الموجودين في البحر الأحمر ومركزها اللريتريا ، يهددان أية محاولة يمكن أن تفكر فيها الحلفاء باستعمال طريق رأس الرجاء الصالح . لذلك كان أمام الحلفاء طريقا واحدا وهو الوصول إلى مناطق الشرق الأوسط عن طريق البصرة — بغداد حيفا ثم الوصول إلى شرق أفريقيا عن طريق ممبسا ، وكذلك طريق وادي النيل .

وكانت الجيوش الإيطالية المعسكرة في اللريتريا حسة الاعداد والتدريب بما في ذلك وحدات الجنود الوطنيين الذين تعاقبوا على الخدمة العسكرية قرابة نصف قرن من الحكم الايطالي للاريتريا ، أما نظراؤهم من الجنود الوطنيين في الحبشة فلم يكن في الامكان الاعتماد عليهم . ولكن بالرغم من أي مركز ممتاز يمكن أن يتحضنوا به ، فقد كانوا معرضين بدورهم للحصار البحري الذي تفرضه البحرية البريطانية ، وبذلك تمكنت بريطانيا من حرمانهم من الامدادات الهامة التي لا يمكنهم الاستغناء عنها واهمها وسائل النقل والبترول وأطارات السيارات ..

وبالرغم مما كان يذاعب أحلام الايطاليين من نصر ، وامتداد امبراطوريتهم بحيث تشمل مصر والسودان وعدن والصومال البريطاني والصومال الفرنسي

واحتلال بعض المراكز العسكرية في سوريا ولبنان وشرق الأردن ، فإن المسئولين الايطاليين كانوا في قلق من الدخول مع بريطانيا في حرب استعمارية ولقد جاء في سجلات الحرب أن الكونت شيانو قال لهنر في ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٩ مايلي :

« بالرغم من هدوء الحال في أثيوبيا واستسلامها للحكم الايطالي ، ماعد بعض مناطق الحدود التي تثير بريطانيا فيها بعض القلائل بوسائل الدعاية وتوزيع النقود ، فإن هذا الهدوء يبدو ظاهريا . ويكني لبريطانيا عندما تبدأ معها المعارك - أن تقوم بعض الطائرات البريطانية بالقاء المنشورات على الحبشة ، تقول فيها أن العالم قد قام يناهض ايطاليا وأن الامبراطور سوف يعود ، حتى تشتعل الثورة بين الأجباش ، ثم لا يجوز أن نسي أنه عندابتداء المعارك سوف تتمزل الحبشة عن ايطاليا ويصبح مصير ٣٠٠.٠٠٠ جندي ايطالي في الحبشة مهدداً . »

لذلك لم يكن هناك بد من أن تبادر ايطاليا بانتهاز فرصة ضعف القوات البريطانية وافنقارها إلى المعدات وتستولي على أقصى مايمكنها الاستيلاء عليه من المواقع ، فكما أنها زحفت في سرعة صوب مصر ، فانها سارعت واحتلت كسلا والقلابات وبعض المناطق في كينيا في شهر يولية من عام ١٩٤٠ .

* * *

لم تكن بريطانيا غافلة طوال تلك المدة ، فبرغم أنها كانت تمر بفترة الضعف الشهيرة في بداية الحرب فانها لم تغفل تعزيز صلاتها بأصدقائها وعملاتها داخل أراضي أعدائها ، كذلك كان دور الامبراطور هاما في هذا المجال ، وقد بدأ ينشط ، وبنقته الفرصة التي واثته بعد بقاءه أربعة سنوات في المنفى ، وكانت مجهودات بريطانيا والامبراطور تدور في سرية تامة واقتصرت على الاتصالات التي تهيم الجو للساعة الفاصلة . ولقد لعب (لورزو تايزان

Lorenzo Taezaz (١) دورا هاما في هذا الاتصال حيث تمكن من دخول الحبشة والاتصال بأعوانهم وتبليغهم تعليمات الامبراطور . كذلك انتقل إلى القاهرة ليكون على مقربة من مركز الأحداث « الكولونيل ساندفورد » الذي كان صديقا للامبراطور وعاش بالحبشة خمسة عشر عاما ، وأخذ يجمع حوله اللاجئين الأحباش بالقاهرة والقدس والخرطوم وبدأت الحركة بإنشاء أول جماعة انجلو أنثيوبية في الخرطوم وبدأت عملية التدريب العسكري . وعندما أعلنت إيطاليا الحرب . بدأت في الحال الاتصالات مع زعماء الأحباش وغادر الامبراطور هيللا سلامي ورفاقه انجلترا في طريقهم إلى السودان . وفي ١٢ أغسطس تمكن ساندفورد وفرقة من دخول الحبشة . وفي ٢٥ أكتوبر كان قد أتم اتصاله بزعماء الثوار في مقاطعة جوجام .

وأثناء التطورات الحربية الأولى ، اضطرت القوات الإيطالية إلى الانسحاب من الأراضي المصرية مكتبة خسائر لم تكن في الحسبان ، كذلك اضطرت القوات الإيطالية إلى الانسحاب من كسلا ومن باقي الحدود السودانية ، وحصنت مواقعها عند حافة الهضبة الحبشية في الخط بين اجوردات - عدوق - جوندار . وعندئذ تشجعت القيادة البريطانية ، وشعرت بأن القضاء على الإيطاليين أيسر مما كانت تتوقع وأتفقت جميع الآراء على سرعة توجيه الحملات . فصدرت التعليمات للجنرال (بلات Platt) لكي يتعقب الإيطاليين حتى اسمره عاصمة الاريترية ، وإلى الجنرال (كاننجهام Cunningham) الذي يقود القوات البريطانية الموجودة في كينيا بالزحف على الامبراطورية الإيطالية مبتدئا بالاستيلاء على قسايمو لجعل منها الميناء الذي ترتكز فيه البحرية البريطانية لتكوين الحملات ، وأن تعمل عقب ذلك

(١) أصبح فيما بعد وزيرا لهبريد والبرق والتليفون - واشتغل معه المؤلف فترة من الوقت ولقد أنعم على لورنزو بلقب رفيع (بلاتينجيتا Blatingeta) أي الوزير الأول . ولكنه لم يستمر في حطوته لدى الامبراطور ، لأنه من أصل نيجري وليس أمهريا . ولقد كان من القلائل الحاصلين على مؤاملات عالية - حيث قد تلقى تعليمه على يد البعثات التبشيرية التي أوفدته بعد ذلك إلى فرنسا لإتمام تعليمه في السربون .

مباشرة على قطع الطريق بين مقديشو وأديس أبابا فتنقطع بذلك خط القومين الرئيسى للقوات الإيطالية فى الحبشة ، وفى نفس الوقت دخل الامبراطور حدود الحبشة فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ ومعه عدد كبير من أعوانه المهاجرين الأحباش والفرقة السودانية التى شقت معه طريقة إلى قلب البلاد .

تتابعت الأحداث فى سرعة فائقة ، وسرعان ما سقطت أجوردات وهرب الإيطاليين من قسمايو فى الجنوب وتمكن البريطانيون من عبور نهر الجب ، وتيسر لهم الاستيلاء على مقديشو ومنها إلى هرر ثم إلى ديرداوا حيث استولوا على الخط الحديدى الوحيد فى بلاد الحبشة ، وبلغ عدد القتلى والجرحى والأسرى من الإيطاليين ٥٠٠٠٠ جندي . مما حطم الروح المعنوية لدى الإيطاليين .

وكما تقدمت قوات كانتجهام من الجنوب ، كانت قوات الجفرال بلات فى الشمال تذلل الصعاب التى أمامها فوصلت إلى الساحل وأستولت على مصوع ، وبذلك أصبح البحر الأحمر خالصا للحلفاء .

ولجأ الإيطاليون إلى آخر أمل فى أيديهم وهو تعيين حاكم لمقاطعة جوجام منافس قديم للامبراطور هيلاسلامى وهو الرأس هايلاو (Ras Haylo Tekla Halmanot) ولكن القوات السودانية والأثيوبية تحت قيادة الكولونيل (ونجت Col. O. C. Wingate)^(١) اضطرت القائد الإيطالى إلى الانسحاب إلى دبرامار كوس . وبالرغم من التفوق الهائل للإيطاليين فى العدد والعدة ، فإن الفرقة السودانية قد أظهرت من البسالة والتفوق فى حرب العصابات بما تمكنت به من التغلب على الجيش الإيطالى ، ولعل موقعهم البطولى فى المعارك بعد مالاقوه من شدة بالغه فى سيرهم من الخرطوم إلى أواسط الحبشة يحترقون أقصى مآثره الطبيعية من عقبات وبعد أن ماتت أغلب جمال الحملة ،

(١) هذا الضابط هو نجل ونجت التدوب السامى البريطانى على مصر سابقا وهو نفسه الضابط الذى قام بتدريب الفرقة اليهودية فى فلسطين وحارب العرب عام ١٩٤٨ .

لعل هذا الموقف هو أبرز مواقف البطولة في الحملة الحبشية في جبهاتها
الثلاث .

وسرعان ما سقطت أديس أبابا واستسلمت جميع القوات الإيطالية في
شرق أفريقيا وتمت جميع العمليات الحربية في آخر نوفمبر سنة ١٩٤١ عندما
سقطت آخر معاقلهم في جوندار^(١)

وعاد الامبراطور هيلسلاسي إلى عرشه في أديس أبابا للمرة الثانية
ودخلها في ٥ مايو سنة ١٩٤١ .

* * *

الفصل التاسع عشر

العهد الثاني

للامبراطور هيلاسلاسى

قبل قيام الحملات البريطانية لطرد الإيطاليين من شرق أفريقيا ، ولإعادة عرش إثيوبيا إلى الامبراطور هيلاسلاسى ؛ حاول الامبراطور أن يعقد اتفاقا مع بريطانيا يحدد فيه العلاقات بينهما بعد النصر ، ولكن الحكومة البريطانية رأت أن هذا أمر سابق لأوانه ، ورأت أنه يمكن الاكتفاء بالتصريحات التي أعلنتها مستر أيدن وزير خارجية بريطانيا في ٤ فبراير سنة ١٩٤١ ، والتي قال فيها أن بريطانيا ترحب بعودة الدولة الاثيوبية المستقلة . والاعتراف بحقوق الامبراطور هيلاسلاسى في العرش ، وأن الحكومة البريطانية تقدر ما أبداه الامبراطور من حاجة بلاده إلى المعونة الخارجية ، وترى أن مثل هذه المعونة والتوجيه في الميادين الاقتصادية والسياسية يجب أن تشملها الاتفاقات الدولية عند عقد الهدنة ، وتؤكد بريطانيا أنه ليس لها أية أطماع إقليمية في الحبشة ، وأن العمليات العسكرية التي تقوم بها القوات البريطانية سوف تتم بالتفاهم مع الامبراطور ، وينتهي عملها عندما يسعح الموقف بذلك ،

وفور عودة الامبراطور إلى عرشه أصبحت الحاجة ماسة إلى مرعة الاتفاق على نظام العمل والعلاقات بين حكومة الحبشة وبين الحكومة البريطانية التي لا زالت جنودها منتشرة في جميع أنحاء البلاد . وبدأت سلسلة من المفاوضات . تقدمت فيها بريطانيا باقتراحات رفضها الامبراطور على إصرار لما كانت تحتويه من مواد تجعل بريطانيا ، وصية على الحبشة

وتسلب سلطة الامبراطور وتجعل الحكومة الحبشية تحت السلطة المباشرة
لفريق من المستشارين الانجليز الذين يستمدون توجيهاتهم من المقيم البريطاني
بني أديس أبابا ، وتعطى بريطانيا حق الإشراف على شئون الحبشة المالية
وبذلك تتحكم أيضا في الطريقة التي تنفق بها المنحة المالية التي ستقدمها
بريطانيا .

وبعد إصرار الامبراطور على موقفه تم الاتفاق بينهما في معاهدة
أبرمت في ٢١ يناير سنة ١٩٤٢ ، على أن تظل سارية المفعول حتى يطلب
أحد الطرفين إلغاؤها في أى وقت بعد عامين من أبرامها ، شريطة أخطار
الطرف الآخر قبل ذلك بثلاثة شهور .

تعهد الامبراطور في تلك المعاهدة بأن يسمح للقائد العام للقوات
البريطانية في إفريقيا الشرقية باتخاذ ما يراه لازما من الإجراءات العسكرية
ضد العدو المشترك . وأن تبقى منطقة (الأوجادين Ogaden) والتي أعلنت
الحبشة ضمها إليها في ١٨٩١ ولكنها لم تتدخل في حكمها إلى الآن والتي
لا يسكنها إلا الصوماليون وصارت منذ ١٩٣٦ جزءا من الصومال الإيطالي ،
تحت الإدارة البريطانية في الصومال خلال فترة المعاهدة .

وكذلك للقائد البريطاني - متى رأى ضرورة ذلك - أن يستولى
على السكة الحديدية التي تربط أديس أبابا بحدود الصومال الفرنسي ، وأن
تحتل شريطا من الأرض قريبا من الحدود الفرنسية بعرض مقدار ٢٥ ميلا
يربط بين الأريتريا والصومال (١) .

وتعددت بريطانيا بأن تقدم للحبشة بعثة عسكرية لإعادة تكوين
وتدريب الجيش الحبشى وتقوم بتسليحه بما يمكن جمعه من مخازنات الجيش

(١) أن هذا الشرط بعيد إلى الأذهان ما سبق أن طالبت به إيطاليا قبل ذلك ورفضته
الحبشة في إصرار وكان من أسباب توتر العلاقات بينهما - التي انتهت بالحرب الحبشية
الإيطالية .

الإيطالى ، وتقدم بريطانيا كذلك مستشارين وموظفين للإدارة الإثيوبية والبوليس والقضاء شرطة ألا يقوم الامبراطور بتعيين مزيد من المستشارين الأجانب إلا بموافقة الحكومة البريطانية .

وتعهدت بريطانيا بأن تقدم معونة مالية سنوية تتناقص بالتدريج ، من مليون جنيه فى السنة الأولى إلى ٢٥٠.٠٠٠ جنيه فى السنة الرابعة . إذا كانت المعاهدة لا تزال سارية المفعول ، أما الأملاك الخاصة للأعداء فى الحبشة فيطبق عليها القانون الدولى وتبذل الحكومة البريطانية جهدها فى أن تعود إلى الحبشة تلك الأملاك العامة التى تكون قد أخذتها إيطاليا^(١) .

الحلاقات مع إنجلترا :

لم يكن من الممكن أن تستمر العلاقات طيبة بين بريطانيا والحبشة . فسرعان ما نشأ الخلاف بينهما وبلغ مبلغاً كبيراً من التعقيد . فقد اصطدمت الأطماع الاستعمارية التقليدية لبريطانيا ، مع الحساسية الشديدة لدى الأقباش وكرهيتهم المعروفة للأجانب وجهم للحرية والاستقلال .

• ولم يكن الأقباش على استعداد للاعتراف بأى فضل لأحد عليهم ، فليس هذا من ديدنهم ، وكان الدور الذى لعبته بريطانيا فى تحريرهم لا يعود فى نظرهم إلا أنه عمل اقتضته مصلحة بريطانيا فى الحرب ومصلحة امبراطوريتها ومستلزماتها الاستراتيجية ، وأن إثيوبيا فى هذا الشأن ليست أول دولة ولا آخر دولة تتعرض لمثل هذه الأمور . وهى عند النصر تركز أكبر جانب من الفضل إلى كفاح المواطنين السرى ضد المستعمر . وتقلل من قيمة المساعدات العسكرية التى تحقق النصر الحقيقى بسببها ، ثم إن الأقباش بدأوا يعتمدون أن يبدووا إلى الأذهان تاريخ الخسة والعشرين علما الأولى

(١) ص ٢٠٢ — ٢٠٤ The Middle East In the War by George

Kirk (1939 — 1946)

من القرن الحالى . عندما كانت بريطانيا توجه المشاكل الدبلوماسية ضد الحبشة وتشترك فى معاهدات سرية تمس استقلالها ، وينحون باللائمة على انجلترا أنها لم تقف موقفاً حازماً فى جانب الحبشة عندما تعرضت للغزو الإيطالى ، بل كان موقفاً فى عصبة الأمم وخارج عصبة الأمم مانعاً ، وبالرغم من أن انجلترا قد عاونت الامبراطور بعد ذلك فى خروجه من الحبشة ويسرت له سبيل المعيشة فى منفاه ، فإن كل ذلك لا يبنى أن بريطانيا لم تقدم له ما يبنى لمساعدته فى تلك الأوقات العصيبة التى تعرض فيها للكوارث التى لم يكن لها ما يبررها^(١) .

* * *

واقدم أقدم الانجليز على تنفيذ (المادة ١٣) من المعاهدة بصورة عجيبة أثارت كوامن النفوس الأثيوبية ، خصوصاً وأنهم نفذوها فى سرعة خاطفة قبل أن ينتبه الاحباش لها وقبل أن يتمكنوا من إثارة احتجاجهم وإيقاف الإنجليز عند حدهم ، فلقد نصت هذه المادة على : أن يقوم الامبراطور — وبناء على طلب القائد العام — بتسليم القوات البريطانية الأملاك الخاصة للأعداء — التى يمكن أن تحتاج إليها هذه القوات ، تلك الأملاك التى تفيض عن الحاجة المعقولة لاثيوبيا .

واعتماداً على هذه المادة أسرف الانجليز فى ما استولوا عليه واعتبروه غنيمة حرب وسارعوا بنقل الكميات الهائلة من آلات الورش والمصانع والمولدات الكهربائية وآلات إنشاء الطرق والآلات الزراعية وغير ذلك مما لا حصر له ولا تقتضيه ضرورة الحرب ، وبما كانت تعود على الحبشة بالفوائد الكبرى لو أنها بقيت فى أماكنها واستخدمت فى خدمة البلاد .

بل لقد تعدت ذلك إلى ما هو أدعى للنقد ، إذ أن جميع وسائل النقل

العظيمة التي خلفتها لبريطانيا ، استولى البريطانيون على جميع الكميات الصالحة منها وحملت عليها غير ما ذكرناه آنفاً - كميات هائلة من أثاث المنازل على اختلاف أنواعه وعمدوا إلى نزع أحواض الغسيل وأحواض الاستحمام ودورات المياه والمصابيح الكهربائية من أما كنها وتحميلها لسيارات الشحن الإيطالية الكبيرة وهي في رحلتها إلى المستعمرات البريطانية القديمة وعلى الأخص إلى كينيا .

ولقد شاهد كاتب هذه السطور أما كن الأجهزة التليفونية والمعدات البرقية التي نزعها البريطانيون من أما كنها على طول الطرق في أثيوبيا ، وبذلك أصبح الاتصال بين أديس أبابا وباقي المدن مستحيلا . كذلك عندما كلفت الحكومة الاثيوبية كاتب هذه السطور للذهاب إلى هرر مع أمين عام الوزارة لاستلام الشبكة التليفونية من السلطات البريطانية . وجدنا أن هذه السلطات قد نزعت كل شيء من أما كنه ولم تترك لنا للاستلام إلا خط تافه لا يساوي شيئا يربط بين هرر وجيج جيجا (Jijiga) في منطقة الأوجادين ، وعند مناقشتنا لأحد الضباط البريطانيين في هذا الموضوع قال : « أن هذه غنيمة حرب . أضف إلى ذلك أننا نستعمر أواسط أفريقيا ما يقارب نصف قرن ولا زلنا نعيش (خارج العاصمة) في أكواخ ، معيشة بدائية ، وحين الوقت لأن نتمتع بالمعدات الحديثة والأثاث الفاخر ومظاهر المدنية التي جلبها الإيطاليون الأغنياء . »

وبالرغم من التصريحات والمعاهدات فإنه قد بدا للحكومة الحبشية أن الانجليز يعملون بشتى الوسائل على تثبيت مراكزهم والحصول على الامتيازات بنفس الروح الاستعمارية المألوفة ، فإنه وأن كانت بريطانيا قد عمدت ، بناء على دواعي الحرب ، إلى السيطرة الكاملة على اقتصاديات الحبشة . بالحكم في صادراتها عن طريق الشركة التجارية للمملكة المتحدة (U.K.C.C) فإنها كانت تتحمل ذلك على مضض في نظير أن ظروف الحرب نفسها جعلت حصول الحبشة على كثير من مستلزماتها من الخارج متوقفاً أيضاً

على ما يمكن أن تسمح لهم بريطانيا به ، وأهم تلك الواردات البترول ومشتقاته ، ولكن سكوتهم هذا كان يغرس في نفوسهم القلق على مستقبل البلاد .

وما زاد في توتر العلاقات ، ازدياد مظاهر النفوذ التي بدت من الإنجليز في المناطق الشرقية من الحبشة ، خصوصا وأن موقف الحرب العالمي وقتئذ لم يكن يبررها ، بل على العكس فإنه كان يبرر تخفيف قبضة الإنجليز ، وتساهلهم في تطبيق بنود المعاهدة ، ولقد ظهر آنذاك أن الإنجليز يزعمون خلق الظروف التي تمكنهم من البقاء في شرق الحبشة بحيث يجعلونه مكملا وموصلا بين الأريتريا والصومال ، وينشئون عبرة ذلك الطريق المشهور الذي كان الإيطاليون يحاولون إنشائه فيما مضى . وكانت تقتضى سياسة الإنجليز هذه ، استمرار سيطرتها على منطقة الأوجادين ومنطقة هرر ومنطقة الدناكل والخط الحديدي الذي يمر خلالها بين جيبوتي وأديس أبابا ، وجعلوا من محطة دير داوا مركزاً هاماً من المراكز البريطانية .

ويبدو أن الإنجليز قد بدأوا يهدون لذلك بخلق القلاقل والاضطرابات في تلك المناطق وعلى الأخص منطقة الأوجادين مما يجعل لهم مبرراً للبقاء وأحكام السيطرة . ولجأت في هذا السبيل إلى إثارة القلاقل بين الصوماليين والأحباش ووزعت كثيراً من الأسلحة في منطقة الأوجادين ، وافتضحت هذه اللعبة عندما أصيب أحد الضباط البريطانيين في تلك المنطقة إصابة استندعت نقله إلى أديس أبابا للعلاج السريع ، ولم يكن من الواضح سبب وجود هذا الضابط هناك .

ولقد قامت السكاتبه البريطانية (سيلفيا بانكهرست Sylvia Pankhurst) صديقة الامبراطور التي أصدرت صحيفة في بريطانيا للدفاع عن حقوق الحبشة اسمها (New Times and Ethiopian News) قامت بنشر تفاصيل ماسبق ذكره من مؤامرات وأحداث في عدد ٤ مارس سنة ١٩٤٤ . وأضافت إلى

ما سبق شرحه أن بريطانيا كانت تحضر لعملية استفتاء مزيفة في تلك المناطق .

ولقد كان لاذاعة هذه الأسرار على تلك الصورة أثرا كبيرا في بريطانيا مما دعا وزير الاستعلامات البريطاني أن يصرح أمام مجلس العموم في ١٣ مارس سنة ١٩٤٤ « بأن هذه الجريدة عبارة عن (خرفة مسممة) وبالرغم مما تحافظ عليه بريطانيا من حرية الصحافة فإن الحكومة مضطرة إلى مصادرة الجريدة . لأنهما لا تسمح بأن يقوم أى إنجليزى بالتشهير على القوات البريطانية التى تخوض ميادين القتال »

ولقد كشفت سليفيا بانكهرست علاوة على ماتقدم . خطة بريطانية تهدف إلى تقسيم السودان وتفصل شماله عن جنوبه ، وإلى ضم الإريتريا إلى شمال السودان في دولة واحدة متجانسة . وطبعاً تحت سيطرة بريطانيا وكان مما قالته مس بانكهرست في مقالها ، « أن الإريتريا بعد أن غادرها الطالبان لا يمكن أن تتصرف فيها بريطانيا على هذه الصورة بدون موافقة جهات عديدة ومنها حكومة مصر التى لها الفضل الأول هناك منذ عهد الحكومة الخديوية » .

وعبرت مس بانكهرست عن أعمال بريطانيا تلك ، في هذين الموضوعين بأنه (خيانة للأمانة Breach of Faith) .

* * *

لكل ماتقدم - ولكن غير - توترت العلاقات بين الامبراطور وبين الحكومة البريطانية أدت إلى قيام الامبراطور في ٢٥ مايو سنة ١٩٤٤ بأرسال الاخطار الكتابى بالغاء المعاهدة بعد ثلاثة شهور . معبرا عن أمله أن تستبدل بمعاهدة جديدة ، وبدأت مرحلة جديدة من الاتصالات بقيت فيها مسألة أوجادين عقبة كاداء ، فلم يكن الإنجليز على استعداد لتلبية رغبة الامبراطور في الجلاء عن أوجادين لمسؤوليتهم عن سلامة نصف مليون صومالى يعيشون بها ولا يمكن الاطمئنان عليهم تحت حكم الحبشة الذى لم يكن قد استقر بعد.

وبالرغم من كل ذلك فقد توصل الطرفان إلى معاهدة جديدة . ثم توقيعها في ١٩ ديسمبر ١٩٤٤ ، تنازلت فيها بريطانيا عن كثير من امتيازاتها في معاهدة ١٩٤٤ فلم يعد الوزير المفوض البريطاني يتقدم باقي الممثلين السياسيين للدول الأخرى ، ولم يعد الامبراطور مضطرا لاستخدام الخبراء البريطانيين أو الرجوع إلى بريطانيا عند حاجته للخبراء ، وأصبح على القوات البريطانية أن تنسحب من الخط الحديدي خلال ثلاثة شهور من قيام الحكومة بالتحاذر . ولكن القيادة البريطانية احتفظت بكامل سلطتها على المناطق بين السكة الحديد وجيج جيجا Jijiga وكذلك منطقة الأوجادين ، على أن ذلك لا يمس الاعتراف بسيادة الحبشة على تلك المناطق ، وللتعبير عن ذلك يرفع العلم الحبشي دائما يجوار العلم البريطاني على مباني الحكومة في تلك المناطق (١) .

* * *

أعباء الدولة الجديدة :

عندما عاد الامبراطور إلى عاصمة ملكه أعلن أنه سيوجه قصارى جهده إلى إعادة بناء الدولة ونشر التعليم وتدعيم الزراعة والتجارة . ولكن تحقيق هذه الأمور الهامة لم يكن بالأمر الهين في دولة تعرضت لحروب مدة ست سنوات ، ونشطت فيها حرب العصابات وسيطر قطاع الطرق (الشفيتا Shifita) على كثير من أرجاء البلاد ، وعاون على زيادة خطورة الحالة وجود كثير من الأسلحة بأيدي المواطنين الذين حصلوا عليها من الجيش الايطالي المنهزم .

(١) الصفحات من ٣٣١ إلى ٣٧٦ The Middle East in the War by

George Kirk (1939-1746).

ملاحظة هامة : مما تقدم يتضح أن مصير الأوجادين كان موضوع مساومة بين بريطانيا والحبشة - لعبت فيه إغراضها الخاصة شوطا كبيرا - ولم يكن الصوماليون طرفا في المباحثات ولم تكن لديهم الوسيلة للمطالبة بحقوقهم أو التعبير عن آرائهم ، بأن الأوجادين مناطق صومالية يحتمل من جيم الوجوه .

وكانت الإدارة في حالة من الاضطراب والفوضى ، لاختفاء التنظيمات القديمة التي كانت تدن لها القبائل بالولاء ، وكذلك لاضطراب المواصلات وصعوبة الحصول على وسائل النقل ، وتعطل جميع النشاط التجاري . مما أدى إلى نقص كبير في الأغذية والملابس ،

ولقد عانت البلاد خلال محنتها من فقدانها لعدد كبير من نخبة أبنائها المتعلمين الذين بذلت الدولة في سابق عهدها الكثير في تعليمهم وتدريبهم ، وكانت في عهدها الجديد أشد ما تكون حاجة إليهم .

وكانت واجبات الدولة الجديدة تحتم عليها مكافأة جنود حرب العصابات ، وكذلك كان عليها أن ترضى (الرؤوس) ورؤساء القبائل وتحدد مكانهم بالنسبة للنظام الجديد .

ولم تكن هذه الصعوبات بالأمور الهينة التي يمكن التغلب عليها بين يوم وليلة ، ولذلك يجدر بالمنصف الذي يكتب عن هذا العهد من عهود الحبشة ، أن يقدر ما يمكن أن يتم من أعمال في مثل هذه الظروف . وقد يكون أقرب إلى العدل أن نقارن بين ما كانت عليه البلاد في تلك الأوقات وبين ما هي عليه الآن ، أي بعد عشرين سنة في العهد الثاني للإمبراطور هيلاسلاسي .

وما لاشك فيه أن الإمبراطور قد استفاد فائدة كبرى من تلك الدفعة القوية التي دفعها الاحتلال الإيطالي للبلاد ، ولقد ترك لها عند انسحابه كثيراً من الأعمال العمرانية التي لم تكن للبلاد عهد بها في السابق ولم تكن تحلم بها وأهمها شبكة الطرق والمباني العامة والتخطيطات الجديدة للبدن ، وما كان على الدولة الجديدة ألا أن تعمل على إعادة ملء الفراغ الذي تركه الإيطاليون ، والمضى قدماً في تنفيذ المشروعات التي كانت قد تركها الطليان جاهزة للتنفيذ كاملة الدراسة في مختلف نواحي الحياة والنشاط الزراعي والصناعي والعمراني .

ولم تقصر حكومة الامبراطور في هذا السبيل ، فأخذت تنشر التعليم وعلى الأخص في المدن الكبرى ، ثم استعانت بكل ما أتيج لها من مساعدات دولية ومساعدات من الدول الكبرى وعلى رأسها أمريكا . في المضي في تنفيذ خططها ومشروعاتها ، فأعادت إلى البلاد رخاء لم يكن لها به عهد في السابق وغيرت وجه البلاد . وأصبح المستقبل أمامها واضحا يبشر بالخير إذا تيسر لهذه البلاد المزيد من الاستقرار .

• • •

وبالرغم من أن الحوادث السابقة قد فتحت أبواب الحبشة على مصراعها ، وانقضى بذلك عهد العزلة ، وبدأت الحبشة في الأخذ بأسباب المديشة الحديثة ، فإن جميع أمور البلاد بقيت مرهونة بسلطة واحدة وهي سلطة الامبراطور الذي يهيمن بنفسه . على جميع مرافق الدولة . حقيقة أن نخبة من الوزراء يعاونونه ولكن في حدود معلومه ويرجع إليه دائما في إقرار جميع الأمور .

ولقد عمد الامبراطور مرة ثانية إلى وضع دستور للبلاد . ولكن يبدو أن ذلك الدستور لا يهدف إلا إلى إبراز مظهر خاص يرضى الحكومات الأجنبية ، ويسد ثغرة أمام الهيئات الدولية التي أصبحت الحبشة عضوا عاملا فيها .

فالدستور الذي أعلنه في ١٩٥٥ لم يغير في نظام الحكم ، ولم يدخل أى تعديل على نمط الحياة العامة ، وهو بذلك لا يرضى المتعلمين ، أما عامة الشعب فلا تسكاد تحس به ولا تعرف له معنى . وبين هؤلاء وهؤلاء فراغ كبير ، لم يحن الوقت بعد للملثة ، ولكنه يشكل خطرا كبيرا على سلامة البلاد واستقرار الأمور فيها . ولعل هذا هو السبب الرئيسى لقيام الثورة الأخيرة التي كانت تهدف إلى الإطاحة بحكم الامبراطور هيلاسلاسى .

• • •

ومن أهم مواد الدستور (١٩٥٥) «أن تظل السلطة الامبراطورية متصلة في سلالة هيلاسلاسى الأول ، خفيد الملك هيلاسلاسى الذى ينحدر بدون انقطاع من أسرة منليك الأول بن ملكة أنيوبيا - ملكة سبأ - والملك سليمان ملك القدس . وبفضل دعائه الامبراطورية وما أسبغ الله عليه من بركات فإن شخص الإمبراطور مقدس لا منافس لسلطته ولا نزاع في حكمه وتقع على الامبراطور مسئولية حماية المذهب الارثوذكسى المؤسس على تعاليم القديس مرقس الاسكندرى » .

وباقى مواد الدستور تؤكد سلطة الامبراطور في حكمة المطلق ، ولوان مجلس البرلمان قد رسمت لهما الاختصاصات العصرية إلا أن اجتماعهما القصير مرتين في السنة لا يمكنهما من الاشتراك الفعلي في نظام الدولة ويجعل الدولة كلها من الجهة العملية في يد الوزراء ورجال الدولة الذين يعملون مباشرة تحت أوامر الامبراطور ، وبما يجعل من البرلمان صورة رمزية ، وأن الانتخابات المفروضة لمجلس النواب تتم بصعوبة لعدم إقبال الناس على التصويت لعدد من الأسباب أهمها التخلف . وأما مجلس الشيوخ فجميع أعضائه يعينهم الامبراطور .

* * *

حالة المسلمين في العهد الثانى للإمبراطور هيلاسلاسى :

سبق أن تكلمنا عن حالة المسلمين في عهد هيلاسلاسى في الفصل السابع عشر عند الكلام عن عهده الأول ، أما ونحن نتكلم عن عهده الثانى . فإن أشياء كثيرة قد تغيرت بين العهدين وكان منها اتعاش المسلمين بفضل سياسة المساواة التى اتبعها الظليان فلقد وجد المسلمون في هذه المساواة فرصة نادرة للانطلاق حتى أصبح عماد البلاد متوقف عليهم ، لكثرة عددهم ونشاطهم وإقبالهم على الزراعة والتجارة والصناعة الناشئة .

ولكن ما أن عاد الامبراطور إلى الحكم مرة أخرى . حتى أخذ يعمل
هدوء وبراعة لكي يعيد المسلمين إلى ما كانوا عليه في السابق من حرمان
إهمال وظلم . ويرخي عليهم ستارا كثيفا من النسيان ، يحجبهم عن العالم
بحجب العالم عنهم .

أن كاتب هذه السطور تشرف بمعرفة الامبراطور وقابله عدة مرات
راقبه وراقب أعماله عن كثب واستمر يتبعها في عناية مدة عشرين عاما ،
لا يتمالك من أن يعبر عن إعجابه بشخصية الامبراطور وقدرته العجيبة
على معالجة الأمور وصبره وجلده وتفانيه في خدمة بلاده الأمر الذي يثير
عجاب العالم . خصوصا وقد أوشك حكمه أن يصل إلى نصف قرن من
زمان ، الأمر الذي لم يتأت في تاريخ العالم إلا للقلائ النادرين . وخلال
هذا العهد الطويل تعرض للعديد من المشاكل العاتية ، كان تصرفه خلالها
شار الإعجاب لعمله الدائب في خدمة بلاده .

ومهما وجهت إليه من انتقادات - خصوصا من شباب أثيوبيا المثقف -
عن دكتاتوريته ووسائله العتيقة في الحكم - فإنه بما لا شك فيه قد قفز
بالبلاد إلى الإمام خطوات واسعة واستفاد بجميع الفرص التي صادفته
أحسن فائدة .

وبما يؤسف له أن الامبراطور استعمل هذا الدهاء النادر والخبرة التي
لا تجارى في محاربة المسلمين والإسلام . واستعمل نفس الخبرة في حجب
أخبار المسلمين في بلاده عن العالم الخارجي في الوقت الذي يعمل فيه على
إظهار نفسه بمظهر الحاكم المتسامح - بل المفرط في تسامحه ، وعاقبته على
ذلك أجهزة الإعلام الغربية التي تسيطر على إعلام العالم . حتى أصبح من
المستحيل على من ليست له دراية بتلك البلاد معرفة الحقيقة ، ولا يمكنه
الاعتماد على القراءة أو الاطلاع التي تسيطر عليها وسائل الإعلام الزائفة .
ولم يعد هناك سبيل للاطلاع على الأمور ومعرفة الأوضاع الصحيحة إلا

بزيارة تلك البلاد والمروءة خلالها والبقاء بها باحثاً منقبا ، وهذا هو الذى أتاحت الظروف للؤلف فأصبح عليه ديناً لا بد من أدائه وهو تأليف هذا الكتاب .

* * *

سلاح رهيب يتقنه الأجاش ويتفوق فيه الامبراطور هيلاسلاسى ، وهو سلاح الإهمال والصبر والسيان - مسدوده إلى المسلمين - فصرعان ما فقدوا جميع ما كسبوه في عهد المساواة الذى ساد في عهد الطليان . وعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، وأصبح محرماً على المسلم مرة أخرى - تولى الوظائف أو الالتحاق بالجيش أو الخدمة بالشرطة أو التمتع بوسائل التعليم الحديثة ، التى تمنى الدولة بها غاية العناية وتنفق عليها جانب هام من أموال الدولة - التى تحصل على أغلبه من الضرائب التى يدفعها المسلمون ، وأنتك لا تجد مسلماً موفداً في بعثة من تلك البعثات التى تعلق الدولة عليها آمالها للمستقبل . وإذا أراد المسلمون أن يعلموا أبناءهم فعليهم أن يكتبوا فيما بينهم ويفتحوا المدارس الأولية وربما الابتدائية التى تفتقر إلى جميع مقومات التعليم الحديث ، ثم هم بعد التخرج منها ليس أمامهم الفرص للاستمرار في العلم ، اللهم إلا ما تسمح به الحكومة لبعض الطلبة القلائل الذين يلتحقون بالأزهر الشريف في القاهرة ، لكى يتقلدوا بعد عودتهم الوظائف الوحيدة المفتوحة في الدولة للمسلمين وهى التى تتعلق بشئون الدين والشريعة الإسلامية وهى في أضيق الحدود .

* * *

ليست هناك جدوى من ذكر المزيد من التفاصيل فهذا أمر بطول شرحه ، وكل ما يمكن أن نضيفه هو أن ما يمكن أن يتصوره القارىء من وسائل الظلم والإهمال وسوء المعاملة يجده مطابقاً على أسوأ حالاته - ولكن في هدوء وبرود وبراعة ، والوضع السائد في الحبشة هو طبقة متميزة

حاكمة تتألف من المسيحيين ، فمنها الحكام والموظفون في جميع الدرجات ، ومنها الجيش والشرطة ورجال الأمن . وقليل منهم يعملون في الزراعة والباقيون لازالوا يعيشون في حالة مذهلة من التخلف والبداءة ، تبذل الحكومة أقصى جهدها لرفع شأنهم وتخضعهم بعنايتها حتى تغير من أحوالهم من أقصر وقت حتى تزداد قوة المسيحيين تمكنا وثباتا . هذا بالإضافة إلى رجال الكنيسة الذين يبلغ عددهم حوالي ١٠ عدد المسيحيين ويعيشون على موارد ثلث أراضي الحبشة الموقوفة عليهم .

أما الطبقة الأخرى فهي من المسلمين الذين هم غالبية أهل البلاد وتشكون منهم الطبقة المحكومة ، تطبق عليهم أساليب التفرقة التي سادت منذ أقصى عصور التاريخ وكذلك في العصور الوسطى من تقسيم الشعب إلى سادة وعبيد ، فالمسيحيون هم السادة والمسلمون هم العبيد . عليهم حراسة الأرض ومزاولة الحرف والتجارة ودفع عجلة الحياة في البلاد ، تسوقهم الطبقة الحاكمة إلى ذلك سوقا ، ونجى منهم الضرائب والعشور وتفرض عليهم أدائها عدة مرات كلما شام الحكم المناطق ورجال الأمن الحصول على المزيد من هؤلاء المسلمين ومجهوداتهم ، تمتلئ منهم خزائن الدولة وتمتلئ جيوب الحكام . ثم بعد ذلك كله يحرم المسلمون من التمتع بحقوقهم كواطنين . بل تطبق عليهم قوانين مستورة تكسر من شوكتهم وتحيطهم بسياج لا يمكن تخطيه ، وتضغط عليهم للبقاء في أوضاعهم بحيث لا يتمكنون من أن تقوم لهم قائمة .

ومن أهم الأسباب التي تدفع الحكام المسيحيين إلى الامعان في الضغط والظلم وتضييق الخناق على المسلمين معرفتهم التامة بالحقيقة الخافية عن العالم . وهي ان المسلمين أصبحوا غالبية بين أهل البلاد ويتميزون بصفات لا تتوفر لدى المسيحيين ، ولقد أجمع جميع الكتاب والمؤرخون والرحالة الأجانب ، على أن المسلمين يتميزون بالنشاط والذكاء والدأب على العمل ، ويعرفون

بنظائهم وتفوقهم في مجال المدنية وتفتح الذهن والاستعداد الطبيعي لسرعة التقدم إذا أتاحت لهم سبل العلم والمعرفة ، لذلك انفقت كلمة الحكم الأحباش على الأمعان في إصرار وعناد على ما يفرضونه على المسلمين من حرمان وإهمال .

وبعلم الحكم أيضا - من حوادث تاريخهم القريب إلى الأذهان - أن المسلمين لا تجمعت كلتهم أصبحوا خطرا لا قبل لهم بمواجهته - لذلك يعتمد الحكم في استمرار الوضع الراهن بتقطيع أوصال المسلمين والمقاطعات الإسلامية ومحاربة كل بادرة من بوادر الاتصال بينهم ، بل يعمد المسؤولون على إثارة الخلافات القبلية والطائفية والعنصرية بين المسلمين ويعملون على توسيع أسباب الشقاق والخلاف بينهم . والحكم في هذا السبيل لا يعدمون الوسائل المتعددة فهم يضاربون فريقا بفريق ويشترتون بضم بعض ضعاف النفوس ويختصون بوظائف الأئمة وقضاة الشريعة من يدين لهم بالطاعة والولاء ، وإذا لمسوا من أى مسلم نزعة إلى التحرر أو الاحتجاج نزلت به أقصى أنواع المعاملة ، من تشريد وحرمان وسجن ، ثم اغتيال إذا استدعى الأمر ذلك ، وهذا هو الواجب الأول على الحكم الذين يعينهم الامبراطور على مختلف مقاطعات الدولة .

* * *

الحالة الداخلية :

لا شك في أن عهد الامبراطور هيلاسلامى هو أعظم العهود التي مرت بالحبيشة ، ولعله قد تفوق على الأباطرة العظام الذين سبقوه وهم زره يعقوب - ويوخنا - ومنليك - والإمام أحمد الأشول ، ولا شك أيضا في أن العوامل التي جعلت عهده أعظم تلك العهود لم تنسجم لمن سبقه ، فليس أمراً هيناً أن يبقى ملك على عرشه خمسين عاماً . جاءت كلها في عصر تقفز فيه المدنية في قوة إلى آفاق بعيدة ، ولقد لقي من معونة الدول الأوروبية ما كان

له الفضل الكبير الذى لا يمكن أنكاره ، أما ما تعرض له من محنة باحتلال الإيطاليين للحيثة مدة خمسة سنوات خلال عهده الطويل فإنه انتهى بنعمة الاستقلال مرة أخرى بعد أن هز البلاد هزة كبرى أفاقتهما من نوء الطويل ، وفتحت عيونها على مدنية وحضارة لم تعدها ، وأدخلت من وسائل التقدم والعمران ما لم تكن الحيثة بقادرة عليه فى عشرات السنين .

ولكن الجوانب المظلمة فى تاريخ الامبراطور هيلاسلامى لا يمكن إغفالها . ولقد ذكرنا آنفاً أشد أعماله ظلاماً وظلماً بمعاملته للمسلمين .

وليس من الممكن لأى حاكم أن يقترب مثل تلك المظالم إلا إذا تمسك بالحكم المطلق والسيطرة الفردية الكاملة واتباع الأساليب الدكتاتورية إلى أبعد مدى . وهذا هو ما فعله الامبراطور رغم ما يظهره أمام العالم من دساتير وبرلمانات ووزراء وهيئات قضائية ودستورية فجميعها عبارة عن واجهات براقية يعنى الامبراطور بأبرازها فى تمثيلية رائعة تتكرر فى كل مناسبة ، لذلك لا نجد فى تلك البلاد أى شأن للصحافة أو التنظيمات السياسية أو الشعبية على أن صورة من الصور ، ولا الجمعيات أو النقابات أو النشاط التعاونى .

وكشأن أى نظام من الحكم يقوم على هذا النمط ، فإن الغلبة فيه دائماً للقادر ... والغنى ، أما أفراد الشعب الفقراء فغلوب على أمرهم دائماً لا يكاد يعرفون لهم حقوقاً لذلك برزت النظم الإقطاعية وازدادت قوتها وسيطرتها ، وركزت أهم مظاهر الإقطاع فى الكنيسة التى عادت إلى سابق عهدها بعد رحيل الطليان ، وعادت لتملك تلك أراضي التربة . ولتدعيم قوتها المادية التى تمكنها من تأييد النفوذ الروحى والتعاون فى تنفيذ السياسة المرسومة لاستمرار سيطرة المسيحيين وتثبيت نفوذهم .

• • •

وبالرغم من مجهودات يوحنا ومنليك التى اختتمت بعهد هيلاسلامى الطويل ، فى السيطرة التامة على البلاد فإن الجميع قد عجزوا تماماً على توحيد

البلاد الحقيقي . فالدولة وحدة واحدة تحت الضغط والسيطرة والحكم المطلق ، ولكنها في الواقع لازالت مقسمة تقسيماً عريضاً بين مختلف العناصر التي تتألف منها الحشنة منذ أقدم العصور . يتعصب كل فريق منهم لنفسه . ولغته ودينه ومنطقته . ويربص لاقتناص الفرص التي تعبد إليه استغلاله . وتحرره من سلطة العنصر الأمهرى الذي لا يمثل غالبية المسيحيين بل أن قبائل التيجرى تفوقه عدداً ، وكثيراً ما رفعت لواء الثورة . ولبست ثورتهم في ١٩٤٤ بعبدة . تلك الثورة التي كاد أن يكتب لها النجاح ، وكادت تمزق البلاد مرة أخرى على الخط التقليدى للتاريخ الجبشى .

ثم أن قبائل الجالالا الكبيرة التي تشكل نصف السكان وغالبيتها من المسلمين لا يمكن أن تبقى ساكنة إلى الأبد . كل ما هناك أنها موزعة على عدد كبير من المناطق ولا توجد بينها روابط تجمع كلتهم ، وتعمل الحكومة على منع إيجاد تلك الروابط كما قدمنا .

ولا ننسى في هذا الاستعراض للعوامل الداخلية .. ذكر القبائل الصومالية التي لا يمكن أن يكون لها رابط مع الدولة الحاكمة ، وكذلك قبائل البيجا ، و الاريتريا التي أضيفت إلى الاتحاد وهي أيضاً أبعد ما تكون صلة بالحكام الحاليين عنصراً ولغة وثقافة وديناً . وسوف نفردها باباً خاصاً بها لأهميتها .

ومن الواضح أن عناصر الفرقة والانقسام باقية كما هي ولكنها كامنة . تنزق الفرصة المواتية للانطلاق .

وبالرغم من الوسائل الحديثة التي أتاحت للحكومة في العصر الحديث فإنها لم تتمكن إلى الآن من التغلب على التخلف الجبب الذي يسيطر على مناطق شاسعة من أقاليم الحشنة والحياة البدائية التي تسيطر عليها شريعة الغاب . ولا تنكاد تجد فيها أثراً للقانون والنظام . فإن الخواص المعلومه عن بلاد الحشنة اختفاء سلطة الحكومة وإدارتها المنظمة كلما ابتعدت عن العاصمة .

أومراكر المقاطعات ، لذلك كان حفظ الأمن والسيطرة على البلاد قائما على الحملات التي يقوم بها الامبراطور والحكام في فترات منتظمة كل عام ، يزورون فيها مختلف المناطق يؤديون فيها الغصاة ويشنقون بعض المشايخين ويوزعون العطايا ويقيمون المآدب . عملية مستمرة تستكرر كل عام تذكرنا بما كان يقمه الاباطرة السابقون من اضطرا رهم للتجول مع قواتهم خلال البلاد حتى تستقر لهم الأمور . مما يثبت أن حالة البلاد لا زالت على ما هي عليه من قديم الأزمان من فرقة وانقسام ، والاستعداد الدائم لنهذ سلطة الدولة والتخلص منها متى تهيأت الظروف .

* * *

ولعل من أدق ما كتب من وصف لحقيقة الحبشة في الوقت الحاضر هو ما كتبه (أرنست لوتر Ethiopia Today P 1 الصادر في ١٩٥٨) حيث يقول : أن أنيوبيا بلاد متناهية في التبان والتنافر ، في طبيعتها ، وجوها ، وطوائف شعبا ، ولقتها ، وعاداتها ، فهي تتألف من كتل تبلغ الخلافات بينها حد العداوة بين قبائلها وأجناسها . ولم تحتوها حدود واحدة إلا في بداية القرن العشرين ، ولقد كتب عنها أحد الكتاب . أنها بلاد يسيطر عليها ماضيا البعيد ويتحكم فيها بقوة يصعب تفسيرها ، وتعيش هذه الدولة خلف قناع كثيف يحيط بعاصمتها أديس أبابا ، فإن هذه المدينة -- نصف المتمدنة -- لا تمثل إثيوبيا . فإن خارج العاصمة وكذلك خارج بعض المدن الأخرى ، تسير حياة الشعب على نفس النمط الذي كانت عليه خلال القرون الطويلة الماضية -- في بطء وتناقل -- لا يسكاد يشعر الشعب بكيانه أو بعلاقته مع الدولة .

* * *

لهذا الاختلاف بين الأقاليم والمقاطعات في الدين واللغة والأصل والعادات تجد البلاد في حقيقة أمرها ممزقة متنافرة يربص كل فريق منها بالآخر ، لا تجمعهم آمال واحدة أو أصل واحد ، لذلك كان أصرارنا على (٢٠ -- الحبشة)

استعمال اسم الحبشة في جميع أنحاء الكتاب ، فهو الاسم القديم الصادق . وبالرغم من الاسم الذي اختارته الدولة نفسها وهو (لإثيوبيا) في عهد الأخير . فإن الاسم الأول الذي عرفت به في أغلب عصورها هو الذي يعبر أحسن تعبير وأصدق على حالة البلاد وطبيعتها ، ولا نعتقد أنه سوف يتغير حالهم أو يتحسن عن ذلك لأجيال طويلة مقبلة .

* * *

مرة أخرى بالرغم من وجود الامبراطور على العرش خمسين سنة فإن البلاد لازالت ترزخ تحت الجمل والتخلف فلم تتجاوز نسبة التعليم في البلاد عن ٥ ٪ . ولازالت الأنظمة والتقاليد العتيقة والخرافات تتحكم في البلاد وكذلك لازالت تسيطر على البلاد التكتلات القبلية والزعات التي تمرز الانعزال والانطواء على النفس .

ومن أشنع المظاهر التي تعمل على تأخر الشعب (المسيحي) سيطرة الجمل الذي يتحكم به رجال الكنيسة في الشعب . فالكنيسة وهي تملك ثلث أراضي البلاد تضم إليها من رجال الدين ما يعادل ٢٠ ٪ من الذكور (أي ما يزيد عن ثلث السكان المسيحيين) وغنى عن البيان أن هذا العدد الهائل من رجال الدين يعملون في مدارك الجمل والخرافات ، لحرامتهم من التعليم ، وهم يسترزقون من مهنتهم تلك على حساب الشعب البسيط ، ويشكلون بذلك نسبة عالية من المتعطلين الذين لا يقتصر ضررهم على بطلانهم ، بل يتعداها إلى ما يفرضونه من سلطان روحي متخلف على باقي أفراد الشعب .

* * *

جانب آخر شديد الخطورة في الحبشة . وهو الحالة الصحية المنهارة التي يصطدم بها كل من زار الحبشة . فانتشار الأمراض الفتاكة يعصف بالأهالي عصفاً ، وخصوصاً الأمراض التناسلية التي تجد ضحاياها بالآلاف يمحبون.

الشوارع ويتجمعون حول الكنائس وعلى الأرصفة يستعرضون مظاهر أمراضهم الخبيثة لأعين المارة ويستنجدون ببركات القديسين لشفاعتهم من تلك الأمراض وخلصهم من الآلام .

وبالرغم مما تنشئه الحكومة من مستشفيات وعيادات فإنها لا تنكافأ مع ما يتسابق معها من انتشار في الأمراض ، ثم أن ما تنشئه الدولة من وسائل الرعاية الصحية قاصر على المدن الكبيرة ، بينما ترقى جميع المناطق الأخرى خالية من العلاج والوقاية ، تنحكم فيها أساليب الشعوذة والخرافات .

* * *

أما عن الحالة الاجتماعية ، فإن الحكومة لازالت عاجزة عن محاربة الفوضى الضاربة في كيان العائلة . فإن الزواج الحقيقي غير معروف لدى السكان المسيحيين ، وأخف ما يمكن أن يقال عنهم هو نقشى تعدد الزوجات بينهم ، بينما يحرم عليهم الدين المسيحي ذلك ، ولكن الأهم من ذلك هو عدم وجود الروابط الزوجية على النمط المعروف عند باقي شعوب العالم ، وانقصام عرى الزوجية بأيسر الوسائل وكذلك إتمام الزواج بأيسر منها . بحيث يمكن أن يقال بشيء كبير من الصدق والدقة أن الزواج السائد في البلاد هو زواج المتعة . ولذلك تنتقل الزوجة من كنف زوج إلى آخر في يسر وبدون شكليات فيختلط الأمر بين الأبناء . ويضطر الناس إلى نسبة الأولاد إلى أمهاتهم في حالات كثيرة .

* * *

ولم يكن للكنيسة أثر في تحسين هذه الحالة التي تزيد في تمزيق الروابط في البلاد . مع أن ذلك أهم ما يمكن أن يكون للكنيسة من عمل وواجب وبالرغم مما بذله من مجهودات فإنها لم توفق في أغراء الشعب على عقد الزواج أمامها ، واقتصر عملها في هذا السبيل على زواج أبناء وأعضاء

الطبقة الراقية والعائلات الكبيرة التي تعتبر الزواج أمام الكنيسة من مظاهر أهميتها وسلطانها .

* * *

• وأنه عما يدعو إلى الأسف الشديد أن يكون الخلق السائد في البلاد هو الرياء ومداهنة الامبراطور - حيث تقوم نظم الادارة وتسلسل السلطات على أساس هذا الرياء - والمداهنات في جميع المستويات ، ولا يمكن لأحد أن يأمل في تقدم أو ترقى إلا عن طريق الحظوة لدى الامبراطور ، لذلك تسود جميع الموظفين - من الوزير إلى الموظف الصغير - روح الحرص والمحافظة على المركز والقلق على النفس ، مما أشاع بين الجميع خصال الكيد والتفنن في تدبير المؤامرات ، كل منهم ضد الآخرين ، ويعم جميع الموظفين شعور دائم من الخوف من بطش الرؤساء ونزواتهم .

• وطالما استمرت سلطة الامبراطور على هذه الصورة ، فإن الأمل قليل في قيام حكومة ديمقراطية ، وعلى ذلك يسبق الدستور عبارة عن سطور ميتة ، ويظل استقلال القضاء خيالا لاحقية فيه ولا أمل في تحقيقه ، وكذلك بالنسبة للحريات ، والتعبير عن الآراء السياسية ، فإن كل ذلك سوف يبقى أملا بعيد المنال ، أقرب إلى الخيال والأحلام .^(١)

* * *

محاولة انقلاب :

كل ذلك يحدث في البلاد أمام أعين طبقة جديدة من أبنائها • أتاحت لهم ظروف التعليم والسفر في بعثات ومهام رسمية ، وكذلك أبناء البلاد الذين هاجروا خلال الحكم الايطالي وعاشوا في المنفى في دول تتمتع بمختلف أساليب الحكم الحديث ، وأطلعوا على العلاقات الاجتماعية والانسانية ،

(١) من ١٥٠ - أنثونيا في الوقت الحاضر (تأليف ارنست لوتر (١٩٥٨)

والحريات التي تنعم بها الشعوب ، ومساهمتها الفعلية مع الحكام في إدارة شئون الدولة . وغير ذلك من مظاهر المدنية التي تفتقر إليها بلادهم .

ولهذا كان من المتوقع أن يتحرك هؤلاء المثقفون محاولين القيام بتغيير جذري في البلاد وتطبيق النظم الثورية العاجلة ، لبناء المجتمع على الأسس العصرية ، شأنها شأن جيرانها من دول افريقية التي نالت استقلالها أخيراً ، وكيف يتأتى ذلك وعلى رأس الدولة امبراطور يعاونه فريق من الوزراء والحكام الذين يحكمون البلاد بعقلية القرون الوسطى . فلا بد إذن من تدبير انقلاب ، وكذلك فوجىء العالم بأنقلاب ١٤ ديسمبر سنة ١٩٦٠ .

* * *

كان الإمبراطور في زيارة رسمية إلى البرازيل فانتزعت المتآمرون الفرصة وقاموا بانقلابهم . وكان من بينهم عدد من رجال الحكم الذين حازوا ثقة الامبراطور ، ووضعوا على رأسهم ولي العهد الأمير (أصفافون) الذي ألقى بيانا على الشعب يقول فيه ... « أن القوانين والأنظمة التي وضعت لم تحقق للشعب آماله بل استغلت لحرمان الشعب من حرياته في سبيل حصول الأقلية الحاكمة المستغلة على الثروة والسلطة وأن انتظار الشعب الطويل لم يحقق له شيئا غير الاضطهاد والفقر والجهل ، ولم تعد تخفى على الناس حقيقة الوعود الجوفاء ، وأصبح الشعب يتطلع إلى إجراءات إيجابية تحقق له ارتفاع مستوى معيشته ، وأصبح ينظر إلى ما يحدث في الشعوب الافريقية المجاورة متمنيا أن ينال ما نالته تلك الشعوب من عناية ، وأن يسير في نفس الطريق الذي يحقق لها التقدم المضطرد... وأعلن رجال الانقلاب عزمهم على القضاء على نظام الحكم المطلق الذي يعتمد على الظلم والاضطهاد وحرمان الشعب من حرياته وحقوقه ، وكذلك عزمهم على القضاء على النظام الاقطاعي ، والقضاء على تلك الأقلية من ذوى السلطان الذين ينفردون بالثروة القومية ويتحكمون فيها ، وكذلك العمل السريع الجدي لرفع مستوى

المعيشة ومحاربة الجمل والمرض ، وبذل الجهد في سرعة تنفيذ المشروعات
الجوية في البلاد .

وسرعان ما تبين أن الانقلاب لقي تأييداً من فريق من القوات المسلحة
والشباب المثقف وجانب من رجال الأمن . وكان قيام الانقلاب مثار الدهشة
لدى جميع من يعلمون حقائق الأمور بالحبة . لأنه لا يمكن أن يتها اجماع
أو تأييد حقيق يعتمد عليه في بلاد تسود فيها العوامل التي سبق أن شرناها
في أسهاب ، وسرعان ما اكتشفت الحقائق وعلم العالم أجمع للمرة الأولى كيف
تتكون عناصر الدولة الحبشية وكيف تتنافر بعضها مع بعض . وكيف يمكن
للعناصر الرجعية أن تستغل عوامل الفرقة والانقسام في البلاد ، وكيف يمكنها
استغلال السلبية التي تعم جميع المناطق ، وبدا كل ذلك واضحاً للعالم أجمع
عندما رجع الامبراطور إلى اسمره بالطائرة واستقبله صهرة حاكم الأقليم
ومن هناك سافر بالطائرة إلى أديس أبابا وذهب إلى قصره كما لم يكن هناك
أى انقلاب ، فقد قضت القوات الموالية للامبراطور على القوات التقدمية
التي قامت بالانقلاب والتي ما فتئت أن اكتشفت أن المؤيدين الحقيقيين
لثورة قليلون ، أما باقى عناصر الدولة ، فانها وأن كانت متحمسة ، إلا أنها
اقتصرت على مراقبة الحوادث كأنما تشاهد تمثيلية تمثل أمامها . وسرعان
ما قدم الثائرون ولا هم لامبراطورهم وقبلوا الأرض بين أقدامه ، وعلى
رأسهم ولى العهد - الذى أعلن أنه برى - من الانقلاب ، وأن الثوار سيطروا
عليه واضطروه للوقوف هذا الموقف ضد والده تحت التهديد .

* * *

لقد كان اخفاق هذا الانقلاب دليلاً على كثير من الأمور ، فإن الذين
قاموا به هم فئة من المتعلمين المثقفين المتحمسين - وغالبيتهم الكبرى من
القبائل الاميرية التي تحكم البلاد ، فلا ينتظر أن تلقى حركتهم تأييداً من
قبائل التيجرى التي تفوقها في العدد ، وتحمل الضغينة وترقب الفرصة التي
يعود إليها حكم البلاد .

ونصف البلاد من المسلمين ويزيدون . وهم في نفس الوقت يعلمون جد العلم أن تلك الطبقة الجديدة من المثقفين لا تقل عن الطبقة القديمة تعصبا ضد المسلمين ، فإن الطبقة الجديدة هي التي أعدها الإمبراطور وأتفق عليها لكي تتعلم وتتشف وتشفل وظائف الدولة ، ويتركز في أيديها مستقبل البلاد ليقطع بهم الطريق على المسلمين ، ويستعملهم للامعان في كتبهم وإذلالهم ، ويعلم أفراد هذه الطبقة الجديدة أن بقاءهم في سيطرتهم على البلاد مرهون بتنفيذ هذه السياسة واستعمال معلوماتهم الجديدة وثقافتهم الحديثة في التفتن فيها ، بقدر ما يستعملونها للإسراع في الأخذ بيد أبناء عنصرهم المتخلفين ، ليزدادوا بهم قوة على قوة ، وترسخ أقدامهم في حكم البلاد . لذلك رأى المسلمون أن الطبقة الجديدة بالنسبة لهم امتداد للحكم القديم ، وبذلك لم نسمع اسما واحدا من أسماء المسلمين في الحركة الانقلابية أو في الحركة المضادة التي قضت على الانقلاب ، وأخيرا وليس آخرا فعدد المتعلمين في جميع أنحاء البلاد لا يتجاوز الخمسة في المائة والباقي وهم ٩٥ ٪ / تسيطر عليهم الأمية والتخلف وتتحكم فيهم النزعات البدائية والخرافات ، ولا شأن لهم بالحركات التقدمية .

* * *

كل ذلك يدل على أن الانقلاب جاء سابقا لأوانه ، ولم تجهز له عوامل النجاح الكافية بمحاولة ضم بعض الصفوف الأخرى إليه ، ولكن من الوجهة السياسية فإن الانقلاب قد نجح في إظهار الصورة الحقيقية للبلاد . وبدأ الناس يعلمون في خارج الحبشة عن تعدد العناصر التي تتكون منها الدولة ووجود التنافر والفرقة بينها والروابط التي تشد أركان الدولة إلى بعضها ، ونجح الانقلاب أيضا في إظهار مدى ما يتغلغل في البلاد من تخلف وجهل ، ومدى ما يروج فيه عامة الشعب من فقر ، وما تتمتع به بعض العناصر المقربة من ثروة وقوة - وهي أوضاع لا يمكن أن تبقى على هذه الصورة في عالم

يتغير بسرعة فائقة في ظل مبادئ العدل والمساواة ، والتقدم الاجتماعى والعلى والثقافى والتكنولوجى .

* * *

ولكى تكتمل الصورة لدى القارىء . لابد لنا من الكلام قليلا عن ولى العهد الأمير (أصفا و ص ن Asfa Wassen) الذى وضعه الثوار على رأس الحركة فان هذا الأمير الذى ولد فى عام ١٩١٦ وتلقى جانباً لا بأس به من العلم فى الحشيشة ثم فى جامعة ليفربول ، على جانب كبير من الطيبة والهدوء والسباحة . وهى صفات يعتقد بعض الأجباش وعلى رأسهم الامبراطور أنها لا تبشر بإمكان احتفاظه بالأوضاع الراهنة وبسيطرة الطبقات الحاكمة الحالية على البلاد عندما يصبح امبراطورا . علما بأن صفاته تلك قد تكون هى الأمل الوحيد فى نقل البلاد إلى عهد جديد من الديمقراطية تتمتع فيها جميع الطوائف بما تستحقه من حريات .

بل أن الامبراطور هيلاسلاسى يؤمن إيمانا قاطعا بأن ولى عهده غير كفء للاستمرار فى تنفيذ سياسته . وتأصلت فكرة الامبراطور عن ولى العهد عندما بدأ يشب وتظهر عليه تلك الصفات التى اكتسبها عن والدته ، وتعلقه بها ، وتقليده لها فى حبه لرعاياه من العناصر الأخرى سواء كانوا من قبائل التيجرى أو من المسلمين . لذلك بدأ الامبراطور يشعر بالخطر على الوضع العام بعد وفاته فعمل كثيرا على التخلص من ولى العهد ، حتى لقد شاع أنه أرسله على رأس القوة الحشيشية عام ١٩٤٤ لاجباط ثورة التيجرى لى يقضى عليه فى المعارك .

وفى نفس الوقت كان الامبراطور يتوسم فى نجله الثانى الأمير ماكونن تلك الصفات التى يتوخاها الامبراطور فى من يتولى الحكم من بعده ، لذلك ظهرت محبته للأمير ماكونن واعزازه له وبفضه لولى العهد فى نفس الوقت وأصبح أمر ذلك شائعا بين الناس ، وكانوا يتوقعون بين لحظة وأخرى أن

يقوم الامبراطور باجراء تغيير في هذا الشأن ، ينحى به ولى العهد ويعين ماكونن بدلا منه ، ولكن لم يكن هذا التبدل ممكنا في حياة الامبراطورة التى تتمتع عائلتها بنفوذ كبير في مناطقها في شمال الحبشة وغربها ، وأصبح شائعا أن القصر الامبراطورى تتصارع فيه قوتان في الخفاء . قوة مع الامبراطور وأخرى مع الامبراطورة . ويدور الصراع حول تثبيت ولى العهد فقط ولم يكن يبدو أنه يمتد إلى أمور أخرى من أمور الدولة .

ولكن الأقدار كانت فاصلة في حكمها عندما لقي الأمير ماكونن (دوق هرر) مصرعه في حادث سيارة ، وبذلك زالت عوامل النزاع ، ثم توفيت الامبراطورة بعد ذلك ، وأصبح ولى العهد بدون منازع . اللهم إلا إذا نفتق ذهن الامبراطور عن وسيلة لتنجية الأمير واستبداله بالأمير الأصغر سهلا سلاسى ، خصوصا بعد انغماس ولى العهد مع زعماء الانقلاب الفاشل

* * *

خلاصة القول . أن امبراطورية الحبشة لازالت كما هي منذ قديم العصور ممزقة متنافرة ، لا تجمع شعوبها كلمة أو هدف . وتسيطر على مشاعرهم خلافاتهم القبلية وتعصب كل فريق إما لدينه أو لثقافته أو لقبيلته وعنصره ، وما اخفت هذه الخلافات إلا تحت ضغط السلطة والسيطرة التى أتقن الامبراطور هيلاسلاسى استعمالها إلى الآن ، ولكن كل هذه الخلافات كامنة متخفية للظهور ، ولا يمكن التمكن بالصورة التى ستنتقل عليها في المستقبل وبالرغم مما يتمتع به الامبراطور من صحة وقوة فإن الأعمار البشرية لها نهاية ، ولا ندرى ما سوف تكون عليه حالة البلاد عندما تحين الساعة .

ولكن بالرغم مما قد تتطور إليه الأمور فإن الامبراطور هيلاسلاسى سيبقى في تاريخ الحبشة علما كبيرا ، ومن أبرز من جلس على عرشها من ملوك ، وعنده من أحفل العهود بالأحداث الكبيرة التى أثرت تأثيرا بالغا في مستقبل البلاد .

وبما لا شك فيه أيضا ، أن الدول الكبرى (الغربية) ستبذل قصارى جهدها ، وتتعاون مع بعضها تعاوناً صادقا على إبقاء الوضع الراهن على ما هو عليه ، وقد ترى إدخال بعض التعديلات التي تزيد الطمأنينة والاستقرار للحكم ، ولكنما لن تكون بأى حال من الأحوال منصفة للسلبين ، ولن يكون فى الإجراءات الجديدة المرتقبة ما يسمح بزوال الضغط والظلم عن المسلمين ، أو السماح لهم ولو بقدر قليل من الحرية والمساواة ، اللهم إلا إذا حدثت أمور ليست فى الحسبان .

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن الدول الغربية تعتبر الحبشة بوضعها الراهن حليفاً مخلصاً أميناً ، ومركزاً هاماً من مراكزها الاستراتيجية ، الذى يمكن أن يكون قاعدة للاحتفاظ بنفوذها فى مختلف مناطق أفريقيا ، تنطلق منه متى دعت الظروف للقضاء على أية حركة معادية فى أفريقيا .

الفصل العشرون

الأريتريا

انتشار الاسلام بالايتريا :

مر بنا ذكر الايتريا في مواضع متعددة من الكتاب . ففى بحكم موقعها متصلة اتصالا وثيقا بالأحداث الهامة التى مرت بالمنطقة ، ولقد كان شاطئها أول مكان نزل فيه العرب بعد الاسلام - فجزر الدهلك - ومنها انتقلوا إلى مصوع ، وأخذوا يمتدون من هناك جنوبا حتى شمل نفوذهم جميع الشاطئ . الشرقى للبحر الأحمر وقرن افريقية والمحيط الهندى .

وتغلغل العرب ومعهم الاسلام إلى داخل البلاد من مختلف المواقع الهامة التى أنشأوها أو سيطروا عليها ، واستمرت مصوع فترة طويلة من الزمن باب التجارة الأساسى إلى الحبشة وبهذا أصبح تغلغل العرب - وهم سادة التجارة فى المنطقة - إلى داخل البلاد متواليا لا ينقطع ، وكما سبق أن قدمنا فانهم أينما حلوا نشروا الاسلام ووطدوا دعائمه .

ثم زحفت قبائل البيجا من وادى النيل - من مملكة مروى (النوبة) ودخلت إلى الايتريا من وادى بركة وملأت السهول والوديان والجبال إلى أن وصلت إلى البحر الأحمر ، وأصبحت عنصرا هاما أساسيا فى هذه المنطقة ، وجاء الوقت الذى أصبح نفوذ هذه القبائل سائدا على جميع الايتريا والجزء الشمالى من مملكة الحبشة مهددا عاصمتها القديمة أكسوم .

بدأ الاسلام ينتشر بين قبائل البيجا ، وما أن أسلم شمال السودان حتى امتد الاسلام أيضا من الغرب ، ونشط دعاة الاسلام والوافدون من السودان وجزيرة العرب حتى أصبحت الايتريا معقلا من معاقل الاسلام فى المنطقة

ولم يبق في حدودها الحالية من يعتنق المسيحية إلا قبيلة التيجرى التى تعبدش على مرتفعات الهضبة امتدادا للهضبة الحبشية ، وامتدادا أيضا لنفس القبائل التيجرية التى تسكن الحبشة .

لم يقتصر نشاط الاسلام فى الاريتريا على هداية الوثنيين كما حدث فى باقى المناطق ولكنه نصح فى تحويل كثير من القبائل المسيحية إلى الاسلام . خلال القرن التاسع عشر ، حتى أصبحت - بمختلف الطرق - قبائل قوية عديدة تعتنق الإسلام مثل قبائل (يد مولا) فى شمال الاريتريا التى اعتنقت الاسلام فى القرن الخامس عشر ، وكذلك قبائل بنى عامر مع باقى قبائل البيجا ، بينما سبقتهم إلى الاسلام قبائل ساهو وعفر التى تقع على الساحل امتدادا للدناكل .

ولقد كان للحكم المصرى فى القرن التاسع عشر أثر كبير - بالرغم من قصر مدته - حيث بدأ الاسلام يتغلغل بقوة من كسلا فى الغرب ومصوع فى الشرق .

ويعود فضل كبير فى زيادة تغلغل الاسلام فى الإريتريا إلى العائلات الدينية الشهيرة ، أسرة الشيخ وأسرة السيد الميرغنى ، وكان الأول هو الشيخ الأمين بن حامد القرشى الذى جلب إليه كثيرا من الاتباع ، وتعلق به كثير من قبائل التيجرى الذين هجروا ديانتهم . ولقد ازداد انتشار اتباع الشيخ وأتباع السادة الميرغنية بشكل جعل منهم فى الاريتريا قوة لا يستهان بها ، وأصبحوا يملكون نواحي القوة والثروة فى البلاد ومركز الاشعاع الإسلامى ووصل نفوذهم إلى الساحل ، والتقى بالجموع الإسلامية التى وصلت أيضا من الشاطئ الشرقى من سواكن ووصلت إلى وادى بركة^(١)

ومن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام قبائل تاكليه Takles (أى نبات يسوع) وهبتية Haptes (عطية يسوع) وتياريام Temaryam

(١) ص ١٤١ الاسلام فى أنجويما لترمزها

(عطية مريم) وكانت قبيلة منساع *Mansa* مسيحية بأسرها حول منتصف القرن التاسع عشر ثم دان السواد الأعظم منها بالإسلام في مستهل القرن العشرين^(١) .

وبذلك يبدو واضحا مدى تغلغل الاسلام في الاريتريا حتى أصبح دين غالبية السكان كما سنعود إلى مناقشته فيما بعد .

• • •

أهمية الاريتريا :

وفي أدوار التاريخ التي مرت بها كانت للاريتريا أهميتها الخاصة ، ولكننا نود أن نشير بصفة خاصة إلى ذلك العهد الذي تركزت فيه قوة الدولة العثمانية بها ثم تنازلت عنها وحلت محلها القوات المصرية ، وكانت في هذا العهد وقبله تدعى بلاد (البوغوص) . التي كانت لها على مر العصور طابعها الخاص بالرغم من متاخمتها للحبشة ، ولم تقع تحت سلطة الحبشة إلا في لحظات قصيرة سرعان ما تنقضى وتعود شخصيتها المستقلة إلى البروز .

ولقد أولتها الحكومة المصرية عناية خاصة ، فنشرت بها وسائل المدنية والعمران ، فشيّدت المنشآت الهامة في صوع ومينائها ومهدت الطرق المعبدة إلى داخل البلاد وأدخلت السكة الحديدية بها والمواصلات التلغرافية ، وشملت بمشروعاتها العمرانية جميع أنحاء البلاد ، وكانت الحكومة المصرية تهدف من ذلك وصل الاريتريا بالسودان وجعلها اقليماً واحداً يسهل الوصول إلى جميع أطرافه عن طريق النيل وعن طريق البحر الأحمر .

وشامت الظروف التي سبق أن أوضحناها أن تنهار المديريات المصرية في شرق أفريقيا تحت ضغط الدول الأوروبية ، التي استغلت اضطرابها المالي للقضاء على الامبراطورية المصرية ، وتقسيما بين الدول الأوروبية المتنافسة على النفوذ في البحر الأحمر ، وبذلك صدر الأمر للقوات المصرية بالانسحاب من جميع مناطق شرق أفريقية ، وكان أن ارتبطت الاريتريا منذ

(١) من ١٤٢-١٤٣ الدعوة إلى الاسلام السيد توماس أرنولد ترجمة د حسن إبراهيم

ذلك التاريخ بإيطاليا ، وبدأت مرحلة جديدة يجدر الكلام عنها في شيء من التفصيل .

* * *

الحكم الإيطالي :

أثناء التنافس والصراع في سبيل الاستعمار بين الدول الأوروبية الكبرى ، عازمت إيطاليا على أن تحصل على نصيبها في هذا المضمار ، فتمكنت (شركة روباطينو الإيطالية للبلاحة Rubattino Shipping Co. من ابتياع منطقة صغيرة على الساحل بالقرب من مدينة عصب ، من أحد الشيوخ المحليين وذلك في نوفمبر عام ١٨٦٩ ثم استمرت في مجهوداتها حتى تمكنت من ابتياع بعض الأراضي المجاورة لعصب في ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ ، ولقد احتجت الحكومة المصرية على هذه الصفقات وأعلنت عسدم اعترافها بها ، لأنها تتعارض مع حقوق السيادة المصرية على هذه الجهات ، وعندما كانت جيوش مصر تتعرض للغزو البريطاني في عام ١٨٨٢ سارعت إيطاليا ونقلت ملكية عصب من الشركة إلى الحكومة الإيطالية .

وعندما صدر الأمر للقوات المصرية بالانسحاب من شرق أفريقيا ، أرسلت الحكومة الإيطالية قواتها العسكرية واحتلت عصب في يناير ١٨٨٥ ومنذ ذلك الوقت والحكومة الإيطالية تراقب مجريات الأمور في اهتمام زائد ، فكانت تتابع تطورات الثورة المهدية وكذلك الأحوال التي تجري داخل الحبشة ، فما أن لمست ما تتعرض له مصر ومعا انجلترا من جراء الثورة المهدية في السودان ، حتى اتصلت ببريطانيا تستفسر منها عن موقفها لو أن إيطاليا قامت باحتلال مصوع ، وكان رد حكومة بريطانيا . . . أن الحكومة البريطانية لا يثير اهتمامها احتلال زولا أو يبلول أو مصوع لأن هذه المواقف وقد تخلت عنها مصر إنما تعود إلى تركيا ، وللطليان أن يتفوقوا بشأناهم الباب العالي . . ، فلم يتوان الإيطاليون في احتلال مصوع ودخلوها في ٥ فبراير ١٨٨٥ .

منذ ذلك التاريخ أخذت القوات الإيطالية تتوغل داخل المستعمرة المصرية فاصطدمت مع الأحباش الذين كانوا يطعمون في ضم جزء كبير منها إلى مملكتهم ، واستمرت المناوشات والمفاوضات حتى اضطر الملك يوحنا ملك الحبشة إلى الانسحاب نتيجة لما بدأ يتعرض له في الداخل من قلاقل ، ولصد الخطر الذي يهدد بلاده من الغرب - من جيوش المهدي في السودان ، وفي أثناء ذلك كان الطليان قد تمكنوا من عقد معاهدة تحالف بينهم وبين منليك ملك شوا ليهادهم إذا قامت الحرب بين الطليان والامبراطور يوحنا ، في نظير أن يعده الطليان بالأسلحة - كما سبق أن ذكرنا في فصل سابق من هذا الكتاب .

وعندما اعتلى منليك عرش الحبشة ثارت الخلافات بينه وبين الطليان وقامت بينهم المواقع الحربية التي انتهت بهزيمة الطليان الساحقة ، ولكنها انتهت بمعاهدة اعترف فيها الأحباش بالأملاك الإيطالية في البحر الأحمر ، والتي تمتد إلى الداخل إلى نهر المأرب (أوخور الجاش) وهي حدود الأريتريا الحالية ، وتمكنت كذلك بعد حروب ومناوشات مع قوات المهدي من تحديد حدود مستعمرة الأريتريا الغربية بينها وبين السودان ^(١) .

وبلاد الأريتريا فقيرة قليلة الموارد ، وما كان الايطاليون ليقنعوا بها ، لذلك كان مهمهم أن يجعلوا منها قاعدة لانطلاقهم على الحبشة ، واستمروا بها يتحينون الفرص لغزو الحبشة قرابة نصف قرن من الزمان حتى تم لهم فتح الحبشة في ١٩٣٦ ، كما جاء بالتفصيل فيما سبق .

* * *

كذلك عندما تم إجلاء الايطاليين عن شرق أفريقيا عند قيام الحرب العالمية وعاد الامبراطور إلى عاصمة مملكة الحبشة ، أما الأريتريا فوضعت تحت الإدارة البريطانية حتى يتقرر مصيرها بعد انتهاء الحرب .

(١) ص ٤١٨ - ٤٢٥ مصر والسودان د . محمد فؤاد شكرى .

ملحوظة هامة : نود ذكرها قبل أن ننقل ، وهي أن الاريتريا وقد مر عليها الحكم المصرى ونشر فيها أسس المدينة الحديثة وأقام فيها المنشآت الهامة ، ثم حل بها الطليان وقضوا فيها ما يزيد عن نصف قرن أضافوا الكثير إلى مبادئ المصريين ، حتى جعلوا من الاريتريا نموذجا ينبض بالحياة في أفريقيا ، وارتفع بمستوى الشعب وخصوصاً المسلمين منهم ، رغم فقر البلاد ، إلى مستوى عال يفوق مستوى الأحباش بكثير ، وكانوا يتمتعون بأزراع من الحريات لاعهد للأحباش بها ، فكانت بالاريتريا صحافة وجمعيات ومدارس ، وكان اتصالها بالعالم الخارجى مستمراً وعلى الأخص ببلاد العرب واليمن ومصر وإيطاليا .

* * *

تقرير مصير الاريتريا :

احتلت القوات البريطانية جميع أراضي اريتريا خلال عام ١٩٤١ في طريقها إلى تخليص الحبشة من الايطاليين ، وكان على بريطانيا أن تتولى إدارة الاريتريا إلى أن يتقرر مصيرها بعد انتهاء الحرب ، ووجدت بريطانيا نفسها أمام صعوبة تغلبت عليها بحل طريف .

لم يكن لدى بريطانيا من رجال الإدارة العسكرية والمدينة العدد السكاني الذى يمكن الاستغناء عنه لإدارة الاريتريا ، بينما وقع في يديها عدد كبير من الأمري الإيطاليين ، الذين كانوا يشكلون عبئاً ثقيلاً على بريطانيا لإيوائهم وتغذيتهم ، لذلك قررت بريطانيا استخدام جانب كبير من هؤلاء الايطاليين في تسيير دفة البلاد في جميع المرافق والأعمال ماعدا تلك التي تتعلق بالأمن العام والشئون الخارجية وما يتعلق بالمجموع والحرب ، واعتمدت في حفظ الأمن على قوة من الشرطة أنشأتها بريطانيا من أهالى البلاد ومن بعض السودانيين المدربين تحت إدارة ضباط من الإنجليز ، واستعانوا أيضاً ببعض الضباط الطليان الذين اختاروهم للعمل معهم بعد تحريات ودراسات دقيقة عنهم .

ولقد وجدت بريطانيا في الاريتريا أثناء الحرب قاعدة حربية مثالية ركزت فيها كثيرا من قواتها ومستودعاتها، ولقد استفادت فائدة كبرى من ميناء مصوع الطبيعي الكامل الأعداد والذي يربطه بأسمرة خط حديدي وطريق برى ممتاز وجبل هوائى (نليفريك Aerial Ropeway) أنشأه الإيطاليون لنقل البضائع من مصوع إلى أسمرة مباشرة (طوله حوالى ٨٠ كيلو مترا) ، كذلك استفادت القوات البريطانية فائدة كبرى مما أنشأه الإيطاليان من مستودعات وورش ، واستخدموا فيها نفس الفنيين الإيطاليين المدربين الذين كانوا يعملون بها ، وأقامت أمريكا فيها مصنعا لتجميع الطائرات ، وأصبحت أسمرة مركزا لإصلاح الطائرات الحربية والمدنية ، واستغل الأسطول البريطانى والبحرية البريطانية ميناء مصوع للإصلاح والتزوين بالأغذية والمياه والمواد البترولية . وأدى هذا النشاط الكبير إلى رواج عظيم في الاريتريا ، وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى وقف هذا الراج وعادت البلاد إلى سابق عهدها .

* * *

تقرر في معاهدة الصلح التي عقدت في ١٩٤٧ ، زوال الحكم الإيطالى من مستعمراتها السابقة . وتألف لجنة من (فرنسا ، والاتحاد السوفيتى ، وبريطانيا والولايات المتحدة) لتقرير مصير تلك المستعمرات ، وإذا عجزت عن الوصول إلى حل بشأنها ، فإن الموضوع يحال إلى الأمم المتحدة ، ولم تتمكن هذه الدول الأربع الكبرى من الوصول إلى حل . وأخيل الموضوع إلى الأمم المتحدة ، ولقد تسبب ذلك في صراع سياسى عنيف واستغرق وقتاً طويلاً من أعمال الجمعية العامة مما أجهد مندوبى الدول وعلى الأخص فيما يتعلق بليبيا والاريتريا .

ولقد تعرض موضوع الاريتريا لكثير من التيارات العميقة المتصارعة ، وتشابكت فيها الخلافات الداخلية مع الاتجاهات الدولية بين الدول الكبرى وتعددت الحلول المعروضة عليها ، وظهرت في الاريتريا (العصبة الإسلامية) (٢١ - المبحث)

وطالبت باستقلال البلاد وعاونها في ذلك الحزب التقدمي الحر ، ووافقا على أن يسبق هذا الاستقلال فترة وصاية لمدة محدودة كما يقتضيه الرأي السائد في مثل هذه الأمور في أروقة الأمم المتحدة .

ومنذ جلاء الطليان ، وأثناء عهد الإدارة البريطانية شعر المسيحيون في الأريتريا بما يتعرضون له من خطر لو أن الأريتريا نالت استقلالها فإنهم بذلك سيصبحون محصورين في منطقتهم الجبلية محاطين بالمسلمين من كل جانب مما يهدد مستقبلهم ، لذلك دفعتهم الحبشة وبعض الدول الأوروبية كي ينشئوا حزبا ينادى بانضمام الأريتريا إلى الحبشة ، وبذلك بدأت تظهر في الجو خطورة منح الأريتريا استقلالها إذ أنها ستصبح مهددة من جارتها الكبيرة الحبشة وبين سكانها عدد يدين بالمسيحية وينادى بالاتحاد مع الحبشة ، مما يدعو إلى توقع أثاره القلاقل التي يحسن تحاشيها .

وفي وسط هذه الخلافات تقدمت إيطاليا بطلب عودتها كوصية على الأريتريا ولكن كان مصير هذا الاقتراح الرفض من الحبشة ومن يمثل الأريتريا معا .

ونشطت الحبشة في المطالبة بضم الأريتريا إليها واستندت في طلبها إلى حرمان الحبشة من الموانئ على البحر الأحمر ، وحاجة الحبشة في عهدها آنذاك بالتقدم الصناعي الموجود بالأريتريا لتعاون في إعادة عمران البلاد الحبشية بعد الحرب . واستندت أيضاً إلى أن الأريتريا في الأصل بلاد فقيرة وبانضمامها إلى الحبشة سوف تتمتع بما في الحبشة من خيرات ويحسن الوضع الاقتصادي بها . وكما قدمنا . كانت الهيئة المسيحية في الأريتريا تؤيد طلب الحبشة .

ولم تنس الحبشة في طلبها أن تعدد الروابط القديمة التي تربط الدولتين وادعت أن لها من الحقوق التاريخية ما يبرر طلبها ، وضربت على ذلك أمثلة ببعض تلك الفترات القصيرة الأمد التي قضتها بعض الجيوش الحبشية فوق

هضبة الأريتريا أثناء الحملات والمناوشات الحربية التي مرت في تاريخ البلاد .

ولم تنس أيضاً أن تقيم الدليل على ضرورة ضم الأريتريا إليها ، من أن كلا منهما يعتمد على الآخر اعتماداً كاملاً بدليل أن الإيطاليين ربطوا بينهما رباطاً وثيقاً وجعلوا من ميناء مصوع ميناء طبيعياً للجبهة . تمر به جميع صادرات البلاد ووارداتها وتتركز فيه مستودعات التموين .

وأضافت الجبهة إلى أدلتها . أن جميع الحملات العسكرية التي هدفت استقلالها وفدت إليها عن طريق ميناء مصوع والأريتريا لذلك فإن وجود حكومة أو إدارة في أريتريا معادية للأجاش تنطوى على خطر يهدد استقلالهم^(١) .

* * *

وفي دوامة هذه الخلافات ظهر أيضاً اقتراح بالتقسيم بحيث تدمج الهضبة (المسحجة) فقط مع الجبهة ، وهنا ظهرت النوايا التي كانت تبثها بريطانيا وسبق أن أشرنا إليها عند الكلام على ما أذاعته (مس بانكهرست) عن خطط بريطانيا السرية أثناء الحرب . وذلك أن بريطانيا صرحت بأن الحل السليم وهو التقسيم على أساس أن يضم القسم الغربي من الأريتريا إلى السودان ويبقى القسم الشرقي الذي يحتوى على الهضبة ومعها ميناء مصوع مع الجبهة .

* * *

وتتابعت الاقتراحات من جميع الدول ، من وصاية دولية إلى وصاية جماعية إلى منح أثيوبيا مراً خاصاً بها عن طريق ميناء عصب . وبعد عشرة سنوات يحصل الإقليم على الاستقلال وأخيراً قررت الدول الكبرى الأربع لإنقاذ لجنة إلى المستعمرات الإيطالية للبحث والدراسة وبقيت اللجنة في

(١) ص ٧٩ ، ٨٠ من كتاب الجبهة .
للككتور راجد البرادى .

الأريتريا من ١٢ / ١١ / ١٩٤٧ إلى ٣ / ١ / ١٩٤٨ ورجعت بنتيجة إحصائية لا تخرج عما سبق معرفته عن تأييد سكان الهضبة فقط للاتحاد مع أثيوبيا أما باقي البلاد فتطلب الاستقلال ، وكانت النسبة العددية ، في رأى اللجنة ، متعادلة بين الفريقين .

عادت الاقتراحات وبدأت مرحلة أخذ الأصوات التي فشلت جميعها في إيجاد حل لهذه المشكلة . فتألفت لجنة من الجمعية العامة من ممثلين لدول النرويج وجواتيمالا وجنوب أفريقيا وباكستان وبورما ، وفي أثناء ذلك بدأت في البلاد حركة غربية تعتمد على العنف والإرهاب والتهديد ، لأحداث الشقاق ، لعبت فيها الإدارة البريطانية والأموال الأثيوبية دوراً هاماً .

أدى هذا الموقف الجديد إلى اختلاف أعضاء اللجنة فيما بينهم . فقال ممثلو النرويج وجنوب أفريقيا وبورما أن قلة من السكان تطلب الاستقلال ، أما مندوبو باكستان وجواتيمالا فقالوا إن الإرهاب وسوء استخدام الكنيسة لسلطاتها حال دون التعبير الحر عن الرأى ، وفي رأيهما أن الأغلبية تزد الاستقلال^(١) .

وثارت الخلافات ثانية - وكأعب بعض المشتركين في تلك الاجتماعات أن الخلافات حول وضع ليبيا والأريتريا سبب صداعا لجميع الأعضاء - وتحت تأثير هذا الصداع وافقت الجمعية العامة في ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٠ على أن تكون أريتريا وحدة ذات استقلال ذاتي في اتحاد فيدرالى مع أثيوبيا تحت التاج الأثيوبى ، وأن يكون للأريتريا « سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية في ميدان الشؤون الداخلية ، وأن يمتد اختصاص الحكومة الفيدرالية إلى الدفاع والشئون الخارجية والمالية والتجارية الخارجية والتجارة بين الأقليميين والمواصلات الخارجية والمواصلات بين الإقليميين بما في ذلك

الموائى . . . أما اختصاص حكومة الأريتريا فيعتمد إلى جميع المسائل غير للداخلية في اختصاص الحكومة الاتحادية بما في ذلك سلطة الاحتفاظ ببوليس محلى وجمع الضرائب لمواجهة نفقات الوظائف والخدمات المحلية واتخاذ ميزانية خاصة بها) . . (ويقام مجلس اتحادى امبراطورى من عدد متساو من الأعضاء عن كل من أثيوبيا وأريتريا - وتكون هناك جنسية واحدة في الاتحاد كله) .

وتحددت فترة انتقالية يتم خلالها تنظيم حكومة أريتريا وإعداد دستور لها ووضع موضع التنفيذ ، تحت إشراف مندوب من هيئة الأمم المتحدة .

وفي ١٠ يولية سنة ١٩٥٢ وافقت الجمعية العمومية على الدستور الأريتري وفيما يلي أهم ما اشتمل عليه : (١) .

(١) حدد الدستور السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية لحكومة الأريتريا بأنها المسائل التي ليست من اختصاص الحكومة الفيدرالية - ومن هذه السلطات الاحتفاظ بقوات الأمن الداخلى وجباية الضرائب وأن تكون للإقليم ميزانيته الخاصة به .

(٢) يتكون المجلس الفيدرالى من عدد متساو من الأثيوبيين والأريتريين على أن يقوم رئيس السلطة التنفيذية بتعيين الأعضاء الأريتريين .

(٣) للامبراطور ممثل في أريتريا يحاط علما بانتخاب رئيس السلطة التنفيذية ، والآخر مسئول أمام البرلمان الأريتري (اختار الامبراطور أول ممثل له زوج ابنته ماشاى) .

(٤) عندما يصدر المجلس قانونا يقدم إلى ممثل الامبراطور الذى له أن

(٢) نفس المرجع من ٨٧ وكذلك من ٤٣٠ ، ٤٣٢ السياسة والحكم في أفريقيا

د . عبد الملك عودة .

يطلب خلال عشرين يوما إعادة النظر فيه إذا تعدى الاختصاصات
الفيدرالية .

(٥) يتكون البرلمان من عدد لا يقل من ٥٠ عضوا ولا يتجاوز ٧٠
عضواً .

(٦) السلطة التنفيذية تتكون من رئيس يعاونه وزراء مسئولون أمامه
وله حق إقالتهم .

* * *

في داخل أريتريا . رحب أنصار الحبيشة بالاتحاد بطبيعة الحال وعارضه
الآخرون قائلين أن هذا الاتحاد الفيدرالي ما هو إلا لعب بالألفاظ ، فإن
الحقيقة أن الأريتريا قد منحت هدية للحبيشة . وأصبح بذلك أهل الأريتريا
المتقدمين المتعلين الذين يتمتعون بمدينة وحرية لم تعدها الحبيشة ، أصبحوا
تابعين لمن هم أقل شأنا ، ولا يستسيغ أهل أريتريا أن يوضعوا في هذا
الوضع المهين لكرامتهم ، وفي نفس الوقت يحرمون من حق الاتصال
الرسمي بالعالم الخارجي إلا عن طريق حكومة أديس أبابا الرجعية
الإقطاعية (١) .

* * *

ولقد كانت الأريتريا بهذا القرار أتعس المستعمرات الإيطالية مصيرا ،
فبينما استقلت الحبيشة فور جلاء الإيطاليين . فإن الصومال الإيطالي ومعه
الصومال البريطاني نالا استقلالهما بعد فترة وصاية محدودة ، وكذلك نالت
ليبيا استقلالها ، مع أن ظروفهما كانت أشد وأقسى ، وتعرضت في هيئة
الأمم المتحدة لنفس المناورات العنيفة ، ومع ذلك فإن الأريتريا هي الوحيدة
التي كان مصيرها إلى زوال شخصيتها وإلحاقها بأثيوبيا .

والمتنبع لتفاصيل المناورات المرفقة التي مرت بها مسألة الأريتريا بلس في وضوح ظاهر ، مدى انحراف الدول الأوروبية وتوجيهها ، ورغبتها في تعزيز الحبشة وتوطيد أركانها ، وأثبت البريطانيون أثناء توليهم إدارة البلاد كيف كانوا يبيتون لهذا الأمر ، حتى أنهم لجأوا آخر الأمر إلى تشجيع استعمال وسائل العنف ، وتهينة الجو لأعوان الحبشة ورجال الكنيسة لاستعمال آخر ما في جعبتهم من أساليب التهديد والشدة والرشوة لمقاومة أنصار الاستقلال ، حتى تصبغ الأريتريا هدية يقدمونها للإمبراطور الذي يسلم السياسة الغربية ويستند عليها في بقائه على عرشه ، ويعتمد على تأييدهم الحقني لإجراءاته التي يكتم بها أنفاس المسلمين — وهم غالبية السكان في الأريتريا والحبشة على السواء .

* * *

الموقف بعد الاتحاد :

بالرغم مما حصلت عليه الحبشة من نصر فإنها ليست سعيدة به . إذ أن نظام الحكم الذي وضع للأريتريا والدستور والبرلمان المنصوص عليهما مع ما بهما من قصور وإجحاف يحتج عليهما شعب أريتريا — فإنها تفوق ما يسود الحبشة تحت نظام الحكم الديكتاتوري ، لذلك يخشى الإمبراطور ورجالهم أن يؤدي هذا الاتحاد إلى أن تطالب الأقاليم الحبشية الأخرى بتطبيق نفس الأنظمة عليها . وفي هذا انتقاص كبير من سلطة الإمبراطور الحالية .

ولكن المشاهد أن الحكومة الحبشية تنوى القضاء على الاتحاد وتعمل على تحويله في أثناء وصبر ، إلى ضم نهائي لا شروط فيه ، وتصبح الأريتريا بعد ذلك إقليماً مثل باقي الأقاليم ، ضاربة عرض الحائط بقرارات هيئة الأمم المتحدة ، ولا بأس من أن نهد لهذا باتجاه سياسة خاصة في حكم الأريتريا تؤدي إلى ما تهدف إليه من نتائج ، ولن يقتضى منها ذلك جهداً

وقد أصبحت الأريتريا تحت سيطرتهم الفعلية . ويفحص مواد الدستور الأريتري الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة ، تبدو للوهلة الأولى نقطة الضعف ، ونظهر بمجلاء المناقشة التي يتمكن من خلالها الامبراطور من القضاء على كيان الأريتريا تماماً — وفرض سلطانه عليها بالصورة التي تتراءى له .

ولقد ظهرت بوادر ذلك عندما أصدر الامبراطور الدستور الأثيوبي الجديد (١٩٥٥) حيث لم يشر فيه إلى الاتحاد الفيدرالي ، الذي يمثل الوضع القانوني المقرر في هيئة الأمم المتحدة ، ولكنه يعبر عن الأريتريا « بالإقليم » ويتكلم عن الدولة التي لا تقبل التجزئة Sovereignty & territory are Indivisible وبذلك يصبح الوضع في نظر حكومة الحبشة ودستورها « دولة موحدة ، وليست فيدرالية » .

* * *

ومن المعروف أن مسلحي أريتريا كانوا من المعارضين للاتحاد مع أثيوبيا ولقد تحققت مخاوفهم حيث بدأت التفرقة في شغل المناصب وتميز الرعاية المسيحيين ، وكانه الأريتريون يتوقعون أن يبدى الامبراطور مظهراً من حسن النية بأن يعين نائب الامبراطور بين أبناء الأريتريا بدلاً من تعيين صهره .

وليس من المعقول أن ترضى حكومة الحبشة ذات السيطرة العليا — على ما تنفرد به الأريتريا من حريات ، ولذلك اتخذت الإجراءات الشديدة ضد الأحزاب الأريتيرية ، حيث أن الأحزاب ممنوعة في الحبشة ، ثم أنها قررت تطبيق قوانين الانتخابات الحبشية وحاربت النقابات العمالية والجمعيات ، وضيق الحناق على الصحافة وقيدت الكثير من الحريات التي كفلها الدستور .

* * *

وباتخاذ الإجراءات العنيفة التي ذكرناها شاهد عناية حكومة الامبراطور بالقضاء على وسائل التعبير عن الرأي ووسائل الاجتماع ، حتى لا يكون هناك مجال لظهور أى تذمر في البلاد ، وبذلك تمضى الحكومة في تنفيذ برامجها ، ضاربة ستاراً كثيفاً حول أهل البلاد ولقد بدأت طوائف عديدة في أريتريا تعاني الكثير من وسائل الظلم والعدوان وخصوصاً طوائف المسلمين .

والموقف الآن ، هو كيف يمكن إثارة الموضوع أمام الأمم المتحدة ، لمطالبة الحبشة بتطبيق القرارات السابقة على أساسها تقرر قيام الاتحاد الفيدرالى ، وإعادة الحريات إلى الأريتريا بمختلف طوائفها وخصوصاً المسلمين منهم ، وتطبيق الدستور الموضوع للأريتريا نصاً وروحاً ، واتخاذ الوسائل التي تكفل استمرار تطبيق تلك القرارات وحماية شعب الأريتريا من طغيان الحكم الحبشى بأى صورة من الصور ، وعلى الأخص حماية المسلمين للذين وإن كانوا أكثرية في البلاد فإنهم كانوا الضحايا لهذا الاتحاد الفيدرالى ، وأسدل عليهم ستار النسيان وحرموا من وسائل التعبير عن شكواهم ، وأصبحوا بعد سيطرة الحكومة الحبشية السكاملة عليهم بدون نصير .

* * *

قبل ختام كلامنا عن الموقف في الأريتريا بعد الاتحاد ، نود أن نوضح ملاحظة هامة خافية على الكثيرين ، عن وقت الصراع على تقرير المصير . ولكنها ظهرت في قوة بعد الاتحاد .

ذكرنا أنه في أواخر عهد دراسة تقرير المصير ، بدأت في البلاد حركة غربية تعتمد على العنف والإرهاب والتهديد لإحداث الشقاق ، لعبت فيها الإدارة البريطانية والأموال الأثيوبية دوراً هاماً .

وذكرنا أيضاً أن مندوبى باكستان وجواتيمالا في لجنة تقصى الحقائق.

كتبنا في تقريرهما ، أن الإرهاب وسوء استخدام الكنيسة لسلطانها حال دون التعبير الحر عن الرأي وفي رأيهما أن الأغلبية تريد الاستقلال .

ولئن تلجأ بريطانيا إلى مثل هذه الاعمال فهذا أمر أقتنته وليس بغريب عليها وليس هنا محل محاسبتها عليها - ولئن تلجأ الحبشة إلى استعمال أموالها لشراء الأعوان لتأييد الاتحاد فهذا أمر ليس بغريب أيضاً وهي تسعى لتحقيق أهدافها ، أما موقف الكنيسة التي أساءت استخدام سلطانها فهو ما يجب علينا مناقشته هنا .

علينا بما سبق أن المسيحية تتركز في الأرثوذكسية في المرتفعات الجبلية التي هي امتداد طبيعي لمضبة الحبشة حيث تتركز المسيحية أيضاً ، ويسكن المضبة الأرثوذكسية مسيحيو قبيلة التيجري الذين هم امتداد لنفس القبيلة التي تعيش غالبيتها بالحبشة . وتشرف كنيسة الحبشة على هؤلاء وهؤلاء . ومن المفروض أن يستجيب المسيحيون في الأرثوذكسية لنداء الكنيسة الحبشية . ولكن من المعلوم أيضاً أنه بقدر ما يحمل المسيحيون للمسليين من عداوة ، فإن قبائل التيجري في عداوة مستحكمة دائمة مع قبائل الأمهرة التي تحكم الحبشة . وكان نصب عين الكنيسة وقتئذ - وتنفيذاً لرغبة الأمبراطور - أن تعمل على استعمال نفوذها لتوحيد كلمة المسيحيين على تأييد الاتحاد ، وأن تبذل ما في وسعها للتغلب على ما يساور نفوس المسيحيين الأرثوذكسين من قلق نتيجة للخلافات القبلية المتمكنة في النفوس .

وبالرغم مما بذلته الكنيسة من مجهودات رغم معرفتها التامة بحقيقة الأمور ، فإن كثيراً من المسيحيين كانوا أبعد نظراً وعلوا ماسوف يصيدهم لو أنهم اتبعوا التوجيهات المضللة التي تبثها كنيستهم تحت ضغط من كنيسة الحبشة . لذلك انحاز فريق كبير منهم إلى المسليين في تأييد الاستقلال . ولقد تعرض هؤلاء للكثير إلى ألوان التهديد والاعتداء بأساليب لا زالت تتناقضها الآن إلى الآن ، ويذكرون دائماً قصة بطل من أبطال الاستقلال وهو مسيحي يدعى (ولديب ولد مريام Woldeab Woldemariam)

ويروون عنه أنه لايد وقد ضرب الرقم القياسي في النجاة من محاولات الاغتيال السياسي ، فلقد أطلقت عليه النيران ، وألقيت عليه القنابل ودس السم له في الطعام وتعرض للاعتداء والقتل سبع مرات ^(١) .

ولقد تحقق ظن ذلك الفريق من المسيحيين ، وثبت بعد نظرهم ، فانهم بعد الاتحاد تعرضوا لما كانوا يخشون منه ، بسيطرة الحسكام الذي جاءوا من الحبشة ، من قبائل الامهرة التي تبادلهم الكراهية والبغضاء ، وبالإضافة إلى ذلك لمسوا كيف أصبحت بلادهم تابعة لاحول لها ولا قوة ، وكيف ازدادوا فقراً على فقر ، إضافة إلى ما فقدوه من حريات .

لذلك تجد جانباً كبيراً من المسيحيين تن من وطأة الحكم الحبشي شأنه في ذلك شأن بني وطنهم من المسلمين .

* * *

كفاح شعب الأريتريا - للاستقلال :

سرعان ماشرع شعب الأريتريابالكارثة التي حلت بهم بعد أن أصبحوا ضحية ذلك الاتحاد وفريسة للحكم الحبشي ، فتجمعت جميع طوائف الشعب تطالب أولاً بالحريات وعندما عز عليهم ذلك أيقنوا بأنهم في الحقيقة يتوقون إلى ما هو أهم وهو الاستقلال ، وقام من بين الشعب نفر من المجاهدين يرفعون لواء الاستقلال ، وما بلغت النظر ويدعو إلى كثير من الغبطة أن نجد هؤلاء المجاهدين خليطاً من أتباع الديانتين الإسلامية والمسيحية يعملون جنباً إلى جنب في الجهاد لتلحق حقوق بلادهم وتحقيق أمانهم .

من الطبيعي أن يكون جزاء هؤلاء المجاهدين السجن والنفي والتشريد ، وتمكن كثير منهم إلى الهرب خارج البلاد وكونوا الجمعيات ونظموا الصفوف للبطالة باستقلال بلادهم وأصبح لهم نشاط ملحوظ فطبعوا العديد من

النشرات والمذكرات ، وقاموا بتوزيعها في هيئة الأمم المتحدة وغيرها من المجمعات الدولية والاقليمية ، وانتهزوا كل فرصة تمنح لهم لمقابلة رجال السياسة البارزين في مختلف الدول لشرح وجهة نظرهم وفضح أساليب الحكومة الحبشية التعسفية .

جاء في إحدى هذه النشرات مايل ، « لا يمكن الاستمرار في النظر إلى الخلافات بين اثيوبيا والاريتريا على أنها من الأمور الداخلية بعد أن أقدم الامبراطور على القضاء على الأسس التي تقررت للاتحاد بواسطة هيئة الأمم المتحدة ، ولقد تأيد ذلك في التقرير الختامي لمندوب هيئة الأمم - صفحة ٢٠١ من الفصل الثاني - ذلك التقرير الذي أقرته هيئة الأمم ، ولقد قرر الخبراء فيه بأنه بالرغم من الفكرة السائدة بأن مستقبل الاريتريا قد تحدد بعد صدور الدستور ، فإن ذلك لا يعني أن مهمة الأمم المتحدة قد انتهت ولم يعد لها دور للاهتمام بهذه القضية ، بل أن قرار هيئة الأمم الخاص بالاريتريا يجب أن يبقى نصب عين هيئة الأمم ك موضوع دولي هام بحيث يتعين على الهيئة أن تتدخل إذا حدث أى نقض لقراراتها السابقة » .

« كما نص دستور الاريتريا الذي وضعته هيئة الأمم (المادة ٩١) أن مجلس الاتحاد ليس من حقه إجراء أى تعديل في الدستور أو لإدخال أية إضافة عليه تتنافى مع القانون الذي وضع للاتحاد » .

« والأمر الواقع أن قرارات هيئة الأمم المتحدة ودستور الاريتريا لم يجر عليها تعديل أو إضافة لحسب بل ألغيت نهائياً من طرف واحد حين قضى عليها الامبراطور قضاء لارجعة فيه .

* * *

وجاء في إحدى هذه النشرات ، أنه عندما أمعنت حكومة اثيوبيا في أكاذيبها ونشر البيانات الخاطئة عن مدى معونتها لشعب الاريتريا ، وقف السيد / عمر أكيثو أحد النواب البارزين في برلمان أرتريا عام ١٩٥٩ والتي خطابا ضافيا مفندا المزاعم الاثيوبية ، جاء فيه « أن اثيوبيا طامست عفت

الأريتريا لقصورها الاقتصادى وادعت أن اقتصادياتها إنما كانت تعتمد على معونتها المالية لها - وفيما يختص بهذا الاتهام الخاطىء - الظالم أود أن أبين هذه الحقيقة وهى أن جملة المبالغ التى دفعتها أثيوبيا لحكومة الأريتريا كنصيبها فى الضرائب الجركية عن الأربع سنوات الماضية كانت خمسة ملايين ونصف مليون ريال أثيوبى فقط ، ومعنى ذلك أنه يقل عن النصيب الفعلى لأريتريا بمبلغ مائة مليون ريال أثيوبى - ولا يشمل هذا بالطبع باقى موارد أريتريا المالية التى اغتصبتها حكومة أثيوبيا بدون وجه حق .

ولقد لاقى السيد / عمر أكينو من جراء موقفه هذا مالا حصر له من المتاعب والاضطهاد فى حياته الخاصة والعامة .

* * *

ذكرت إحدى النشرات بعض العبارات الطريفة التى جاءت على لسان أحد أفراد الشعب الأريتري « كان الإيطاليون يقولون لنا كلوا ولا تتكلموا ، وجاء الإنجليز فقالوا لنا تكلموا ولا تأكلوا وأخير أ جاء هيلاسلاسى ليقول لنا لا تأكلوا ولا تتكلموا .

ولم تغفل تلك النشرات حقيقة هامة تؤيد ماسبق أن أوضحناه فى هذا الكتاب وهو تأييد الدول الكبرى الغربية لهيلاسلاسى وأثيوبيا وإغداق المساعدات وجميع أنواع الحماية له والحكومتة وتأييد الوضع الراهن والتسكين لبقائه ، بحيث تظل أثيوبيا على الدوام معقلا حصينا لهم ونقطة انطلاق فى أفريقيا يسول السيطرة منها على باقى الدول الأفريقية .

فبالإضافة إلى انتشار الغريين فى أغلب نواحي النشاط فى أثيوبيا وتحكمهم بانجاز أهم المشروعات فيها فإن الحكومة الاثيوبية قد منحت أمريكا مطارات أسما لتجعل منها قاعدة ذرية وقاعدة لإطلاق الصواريخ الموجهة ، وتشكل هذه المطارات مع محطة راديو مارينا بامرره حلقة هامة فى سلسلة القواعد العسكرية التى تطوق أمريكا بها مختلف دول العالم شرقا وغربا ، وازداد

أخيرا حجم القاعدة العسكرية الامريكية في اممرا وازدادت معداتها الضخمة بما يجعلها عند اللزوم بالغة الأثر في السيطرة على افريقيا وجنوب الجزيرة العربية ، ثم مابعد ذلك من دول . ولقد تردد كثيرا أن الامبراطور وعد أمريكا بأن تكون ميناء مصوع قاعدة بحرية لهم عند اللزوم .

وما يزيد الطين بلة أن أمريكا قد أطلقت يد إسرائيل في الاريتريا إلى المدى الذي انشأت به بعض القواعد العسكرية جنوب أسمرة - وأصبحت على وشك الاستيلاء التام على اقتصاديات الاريتريا .

* * *

ولا يمكن أن نترسل أكثر من ذلك في الكلام عن موضوع الاريتريا وتفصيل ادواره فهذا أمر يطول شرحه ويحتاج إلى كتاب قائم بذاته . ولكننا نكتفي بما أوردناه ونختتمه بذلك الفقرة التي جاءت في المذكرة التي بعث بها شعب الاريتريا إلى الأمم المتحدة في نوفمبر عام ١٩٥٧ وطار بها السيد محمد عمر القاضي إلى نيويورك حيث جاء فيها : لقد قاسى الشعب الاريتري في الخمس سنوات الاخيرة على يد الحكومة الاثيوبية أكثر مما قاساه في السبعين سنة من الحكم الاستعماري .

* * *

إضافة أخيره : تشاء الظروف أثناء تصحيح المسودات المطبوعة لهذا الكتاب - وتلك التي تتعلق بالاريتريا بالذات - أن تنقل إلينا الصحف والإذاعات أنباء الإضطهاد والتككيل الذي تصبه حكومة الحبشة على أهالي الاريتريا في عنف وقسوة - الأمر الذي أدى بالكثيرين إلى الفرار ولجوءهم إلى السودان حتى بلغ عدد من هربوا من الإرتيريا ما يزيد عن العشرين ألف

الفصل الحادى والعشرون

(السكان)

تسود الجبشة ظروف عاتية من التخلف والبداوة والانقسامات العنصرية والدينية والقبلية على نحو قد لا نجد له مثيلا فى باقى دول العالم . وترتب على ذلك أن يبقى تعداد السكان إلى الآن مجهولا ، وبالتالى نسبة العناصر والأجناس والقبائل والأديان إلى مجموع السكان ، وليس من الميسور فى مثل تلك الظروف التى تعم هذه البلاد أن تجرى عملية تعداد يعتمد عليها . لذلك جاءت جميع التقديرات لعدد سكان الجبشة منذ بداية القرن العشرين إلى وقتنا هذا متضاربة ، تتفاوت فيما بينها تفاوتا كبيرا .

وبين أيدينا الآن مجموعة من هذه التقديرات المختلفة ، سنحاول هنا أن نوفق فيما بينها ونلائم بين أقربها إلى المنطق وبين مشاهدتنا خلال المناطق المختلفة التى زرناها أو أفقنا بها . ولكن يكون عند الفارىء صورة واضحة عن مختلف التقديرات سنورد لها بيانا كاملا مفصلا فى أحد الملاحق فى نهاية الكتاب ، على أن نبين فى سياق حديثنا التالى ملخصا لتلك التقديرات فى جدول مستقل .

* * *

تقدير السكان :

وقبل أن نستطرد فى البحث نشير هنا إلى بعض الأسس الهامة التى تعتبر من أهم عناصر التقدير .

وأول تلك العناصر هى مساحة الجبشة ، فإن مساحتها أيضاً لازالت محلا للتناقض بين مختلف المراجع ، ولنلخصها فيما يلى :

(١) تقدير World Atlas, Hammond & Co. (1953)

الحبشة	٣٥٠ ...	ميل مربع
الأريتريا	١٦ ...	ميل مربع
المجموع	٣٦٦ ...	ميل مربع

(٢) تقدير أولندورف The Ethiopians by Ullendorff p. 23

مساحة الحبشة بما فيها الأريتريا ٤٠٠.٠٠٠ ميل مربع .

(٣) تقدير لوثر Ethiopia Today by Luther p. ١

مساحة الحبشة بما فيها الأريتريا ٤٥٠.٠٠٠ ميل مربع .

(٤) تقدير جون جنتر Inside Africa by John Gunther

مساحة الحبشة	٤٠٩٣٦٦	ميل مربع
مساحة الأريتريا	٤٧٨٧٥	ميل مربع
المجموع	٤٥٧١٤١	ميل مربع

(٥) تقدير الجمعية الجغرافية Nathional Geographic "April 65, p. 555

مساحة الحبشة تقريبا ٤٦٠.٠٠٠ ميل مربع بما فيها الأريتريا
ويجري العمل حاليا في عمل مساحة دقيقة للبلاد .

(٦) تقدير دائرة المعارف البريطانية (١٩٦٤) :

مساحة الحبشة	٤٥٧١٤٢	ميل مربع
مساحة الأريتريا	٤٧٨٧٥	ميل مربع
المجموع	٥٠٥٠١٨	ميل مربع

ويبدو من كل ما تقدم من تقديرات أن أقربها إلى الحقيقة هو ٤٠٠.٠٠٠ إلى ٤٥٠.٠٠٠ ميل مربع للحبشة .

أما بالنسبة للأريتريا فإن التقدير ٤٧٨٧٥ ميل مربع كان بناء على قياسات دقيقة تمت أثناء الحكم الإيطالي والإدارة البريطانية .

لذلك يمكن تقدير المساحة للحبشة كلها بما فيها الأريتريا بين ٤٥٠.٠٠٠ ميل مربع ، ٥٠٠.٠٠٠ ميل مربع .

* * *

ولقد قامت هيئة التغذية والزراعة بتقدير لأنواع الأراضي في الحبشة - (صفحات ٨ ، ٧٢ Ethiopis Today by Luther : فلو أننا أخذناها رائداً في تقديراتنا ، وأضافنا أمامها تقديرات كثافة السكان لكل نوع من أنواع هذه الأراضي متخذين مساحة الحبشة حوالى ٥٠٠.٠٠٠ ميل مربع أى ١٢٥٠.٠٠٠ كيلو متر مربع - لأصبح تعداد السكان على هذا الأساس كالآتي :

تقديرات هيئة التغذية والزراعة	المساحة كيلو متر مربع	كثافة السكان كيلو متر مربع	مجموع السكان
٣٠ ٪ مراعى جيدة	٣٧٥٠٠٠	١٥	٥٠٦٢٥٠٠٠
١٩ ٪ أراضي زراعية جيدة	١١٢٠٠٠	٣٠	٣٠٣٧٥٠٠٠
٢٢ ٪ أكراس و غابات	٢٧٥٠٠٠	٥	١٠٣٧٥٠٠٠
٣٩ ٪ أراضي غير منتجة	٤٨٧٠٠٠	٥	٢٠٤٣٧٠٠٠
المجموع الكلى للسكان			١٢٠٨١٢٠٠٠

وفي رأينا أن تقدير هيئة التغذية والزراعة يفتقر إلى الدقة في تصنيف المناطق وتقدير نسبتها (وقد يعود الخلاف في التقدير راجعاً إلى صعوبة التفرقة بين الأراضي الزراعية وبين المراعى وبين الأحراش وتحديد الحد الفاصل بين كل من هذه الأنواع المختلفة) ونميل إلى الاعتقاد بأن التقدير التالي أقرب إلى الواقع

التقديرات	المساحة كيلومتر مربع	كثافة السكان في كيلومتر مربع	مجموع السكان
٣٠ ٪ / مراعى جيدة	٣٧٥٠٠٠	١٥	٥٠٠٠-٥٠٠٠
١٥ ٪ / أراضي زراعية جيدة	١٨٧٥٠٠	٣٠	٥٠٠٠-٥٠٠٠
٢٠ ٪ / أحراش وغابات	٢٥٠٠٠٠	٥	١٠٠٠-١٢٥٠٠٠
٣٥ ٪ / أراضي غير منتجة	٤٣٧٥٠٠	٥	٢٠٠٠-١٨٧٥٠٠
مجموع السكان			١٤٥٠٠-٥٦٢٠٠٠

* * *

وقبل أن نقدم الجدول الذى يحتوى على ملخص لجميع التقديرات التى عملت لمجموع سكان الحبشة ، نود أن نشير إلى العوامل الأخرى التى تتحكم في معدل زيادة السكان .

وأهم تلك العوامل هى نسبة المواليد ونسبة الوفيات سواء بين الأطفال أو بين الكبار ، وكذلك متوسط عمر الفرد . ولجميع هذه النسب علاقة وثيقة بالحالة الاجتماعية والرابطة بين أفراد الأسرة ، والمستوى الثقافى ، ومتوسط دخل الفرد (والدخل القومى) ، وأخيراً وليس آخراً مدى تقدم الوسائل الصحية الوقائية والعلاجية .

ولقد أصبح لمجموع هذه العوامل قواعد مبنية على دراسات واسعة

جميع مناطق العالم تتحدد بناء عليها نسبة الزيادة السنوية تبعاً لما يتجمع لكل منطقة من مختلف العوامل . ولعل أوفى وأحدث المراجع التي تفصل مختلف النماذج في العالم هو كتاب (التخلف والنمو الإقتصادي) تأليف هارفي لايبينشتاين (١) .

وأقرب النماذج انطباقاً على حالة الحبشة هو النموذج « 1 b » ، صفحة ٢٣١ المبني على « متوسط ثابت لعمر الفرد ، ونسبة ثابتة لنسبة الوفيات ، ومعدل مرفوع لنسبة المواليد . واستمرار الوضع الراهن فترة طويلة من الزمن لعدم توفر وسائل التحسين في الخدمات الصحية أو الإقتصادية بشكل محسوس ، وهذا المعدل هو ١.٦٩ ٪ في السنة أي ١.٧٧ ٪ تقريباً » (٢) .

وحتى تسهل عملية الحساب على القارئ نبين فيما يلي ما سوف يكون عليه تعداد السكان على أساس معدل الزيادة السنوية السابق الذكر ، كل خمسة سنوات ، لشعب تعدادة الأصلي مليون نسمة :

بعد ٥ سنوات ١٠٥٨١٩	بعد ٣٠ سنة ٣٢٠٨٨٨
بعد ١٠ سنوات ٢١٩٨٨٥	بعد ٣٥ سنة ٥٤٥٨٣١
بعد ١٥ سنوات ٣٢٣١٩٧	بعد ٤٠ سنة ٣٤٤٩٨٦
بعد ٢٠ سنة ٤٣٧٥٢٩	بعد ٤٥ سنة ٥٤٢١٥٢
بعد ٢٥ سنة ٥٧٥٤٠٧	بعد ٥٠ سنة ٥٧١٣٢٨

وفما يلي جدول يبين تقديرات سكان الحبشة في مختلف المراجع ، مع بيان ما سوف يكون عليه تقدير كل مرجع في عام ١٩٦٥ ، بتطبيق المعدل السنوي للزيادة (١.٧٧ ٪) .

(١) Economic Backwardness & Economic Growth ص ٢٣١
by Harvey Leibenstein

(٢) حسب بيانات الأمم المتحدة معدل الزيادة السنوية للحبشة ١.٧٦ ٪ .
Demographic Year Book U. N. (1962)

صور التقدير	عام	التقدير	التقدير عام ١٩٦٥ بمعدل زيادة سنوية ١.٧%
(١) موربي (بدج ص ١٢٩)	١٩٠٣	١٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠٠٠٠ بدون الأريتريا
(٢) بدج (ص ١٢٩)	١٩٢٨	٤٠٠٠٠٠٠٠٠	٧٦٠٠٠٠٠٠٠ بدون الأريتريا
(٣) تقدير حبشي (كبرك ص ٣٧٧)	١٩٣٠	٦٠٠٠٠٠٠٠٠	١١٠٠٠٠٠٠٠ بدون الأريتريا
(٤) تقدير ايطالي (كهرك ص ٣٧٧)	١٩٣٠	٦٠٠٠٠٠٠٠٠	١١٠٠٠٠٠٠٠ بدون الأريتريا
(٥) ايطالي (دليل افريقيا الايطالية ص ٨٢)	١٩٣٩	٧٦٠٠٠٠٠٠٠	١١٨٣٣٠٠٠٠٠ بدون الأريتريا
(٦) تقدير وزارة التجارة الحبشية .	١٩٤٩	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٣٢٣٠٠٠٠٠٠ بدون الأريتريا
(٧) تقدير بريطاني (ترمنجهام ص ١٥)	١٩٥٢	٧٧٣٧٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ بما في ذلك الأريتريا
(٨) تقدير بريطاني (أولندورف ص ٣١)	١٩٥٤	١٦٨٥٠٠٠٠٠٠	١٩٠٦٢٠٠٠٠٠ بما في ذلك الأريتريا
(٩) تقدير أمريكي (جون جنتر ص ٩١٠)	١٩٥٥	١٣١٠٣٠٠٠٠٠	١٥٧٧٠٠٠٠٠٠ بما في ذلك الأريتريا
(١٠) تقدير بريطاني (لوثر ص ٢٥)	١٩٥٨	١٢٥٥٠٠٠٠٠٠	١٤٤٦٢٠٠٠٠٠ بما في ذلك الأريتريا
(١١) تقدير الحكومة الحبشية الجمعية الجغرافية مجلة ٤ / ١٩٦٥	١٩٦٥	٢٢٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٢٠٠٠٠٠٠٠٠ بما في ذلك الأريتريا

ملحوظة :

تقديرات الحكومة الايطالية والادارة البريطانية بالنسبة للأريتريا على جانب كبير من الدقة وتشير إلى أن تعدادها (١٩٥٢) هو ١٠٣١٠٠٠٠ ر ٠١ أي حوالى ١٣٠٠ ر ٠٠٠ في ١٩٦٥ .

ولو أننا أخذنا متوسطاً لما سبق أن قدرناه على أساس كثافة السكان في مختلف المناطق وكذلك للتقديرات التي عملت (منذ عام ١٩٣١) إلى الآن من الجدول السابق يبلغ تعداد الحبشة بناء على ذلك حوالى ١٥٠٠٠٠٠ ر ١٥٠٠٠٠٠ ، بما في ذلك الأريتريا .

ولا يجوز أن يغيب عن الذهن أننا مهما اتخذنا من الدقة والحيلة في افتراضاتنا فإن التقديرات المترتبة على ذلك لا يمكن الاعتماد عليها اعتماداً كلياً ، والعبرة بالتعداد الحقيقي الذي يجب أن تقوم به الدولة وفق القواعد المعمودة ، وما عتدنا بالبحث في تقدير السكان بالطرق السالفة الذكر ، إلا لأن التعداد الحقيقي غير ميسور إلى الآن .

وأخيراً أشارت بعض الجهات بأن يجرى التعداد على أساس تصوير الحبشة من الجو وإحصاء المنازل من واقع الصور الجوية ، على أن يصحب ذلك دراسة موضعية لعدد كبير من النماذج لمعرفة متوسط السكان لكل كوخ ومنزل في كل منطقة ، ويرى أصحاب الاقتراح إلى الحصول على نتائج مبنية على دراسات ملموسة وأن كانت تستند أيضاً إلى كثير من الافتراضات .

وبالرغم مما أوردناه من دراسة فإنه لا يمكن الجزم بحقيقة الأرقام ، إلا أننا يمكن أن نطمئن إلى أن نقدر سكان الحبشة في حدود ضيقة تتراوح بين ١٤ مليون ، ١٥ مليون نفس بما في ذلك الأريتريا .

• • •

نسبة المسلمين :

لكن نصل إلى تقدير عادل لنسبة عدد المسلمين في الحبشة الحالية ، لابد أن نجتمع شتات الموضوعات ، ونركز ما أمر بنا من معلومات خلال هذا الكتاب ونناقش ما جاء في مختلف المراجع وعلى الأخص الحديثة منها ، إذ أنه لم يعد من المستساغ أن يترك هذا الموضوع الهام نهياً للافتراضات

البعيدة عن الحقيقة والواقع ، تبعن وسائل الاعلام في ترديد المعلومات الخاطئة عنه لكي تستمر سيطرة على الأذهان كاتمامي حقيقة مسلم بها لا محل لناقشتها أو إبقائها حقها من التحرى والتحقيق .

فند أن خرجت الحبشة من عزلتها ، ودخلت مضمار النشاط العالمى ، كعضو فى هيئة الأمم المتحدة ، وبعد أن أظهر الاحتلال الإيطالى لها كثيراً من الحقائق التى كانت مغلفة بمجولة من الكتاب والباحثين ، بعد كل ذلك لم يعد فى إمكان الحبشة أن تستمر فى أحكام الستار الكثيف التى تسد له على الإسلام والمسلمين فى بلادها ، ولا بد وأن تتسرب أنباؤهم إلى الخارج رويداً رويداً ، ومهما أمنت الدول الأوروبية الكبرى فى تركيز وسائل دعايتها لحقمة الحبشة المسيحية فإنها وإن كانت قد نجحت فى ذلك إلى حد كبير فى الماضى ، إلا أنه لم يعد فى إمكانها أن تتهدى فى ذلك ، وأصبح لزاماً علينا أن نقوم بعض الكتاب الغربيين ، فى استحياء لا يخلو من شجاعة مشكورة ، إلى تقرير بعض الحقائق .

* * *

كتب جون (جنتر) John Gunther (Inside Africa) فى ص ٢٤٩ عام ١٩٥٥ - « أن الفكرة السائدة بأن الحبشة دولة مسيحية ، فى حاجة إلى تعديل وتصحيح إذ أن نصف مجرع السكان يعتنقون الإسلام أو الوثنية ، ثم يعود فى ص ١٥٠ ويقرر بأن « المسلمين فى أثيوبيا قوة كبيرة ، فقاطعة هرر التى نشأ فيها الامبراطور مقاطعة إسلامية وقبائل الجالا العظيمة التى تملأ جنوب الحبشة وغربها نصفها من المسلمين - بينما تنتشر فى جميع أنحاء الحبشة جنوب المجمعات الزراعية التى يملكها المسلمون . . . » .

وفى الكتاب الهام الذى ألفه سينسر ترمنجهام عن الإسلام فى أثيوبيا والذى جاء ذكره فى كثير من مواضع هذا الكتاب ، أورد جدولاً فى صفحة ١٥ يبين فيه (بدون الصرمال أن) :

المجموع	الوثنيين	المسلمين	المسيحيين
٧٧٧٣٧٨٣٣	١٧٢٨١٦٣	٢١٠٤٣٠٠٠	٣٨٤٦٠٠٠
(٠.٢٠)	(٠.٣٠)	(٠.٥٠)	

ينبأ إذا تأملنا بإمعان الجدول الكبير ^{١١} الذي أوردته في صفحة ١٦ مع أبحاثه التفصيلية التي ملأت صفحات كتابه القيم تنضج الحقيقة وهي أن النسبة الحقيقية على العكس من ذلك تماماً ، وأن المسلمين هم الأغلبية ، مما سوف نبينه فيما يلي ونحن نجمع أطراف الموضوع .

• • •

ولقد أعفانا مستر أرنست لوثر Ethiopia Today by Erneest Luther (سنة ١٩٥٨) في ص ٢٥ من كثير من العناء عندما قال ، وأن الأحباش الحقيقيين هم نسل ملكة أكسوم القديمة وهم لا يشكلون أكثر من ثلث السكان ، إذ أن قبائل الجالا قد فاقتهم عدداً ، وأما نسبة المسيحيين فأنها أكثر من الثلث قليلاً لأن بعض الجالا والوثنيين قد اعتنقوا المسيحية ، ولكن الأرقام الحقيقية بالرغم من ذلك غير مبسورة ، وهذا تقدير على جانب كبير من الأهمية ويتفق مع ماسوف نبينه من المراجع الأخرى .

ثم يعود مستر لوثر ويقول في صفحة ٢٥ « ولو أن المسلمين في الحبشة يبلغون ثلث السكان ، فإن نفوذهم في شئون الحبشة المعاصرة يطفى عليه تماماً نفوذ قبائل الأمهرة المسيحية التي تسيطر على البلاد » . ثم يعود فيقرر « لقد كان من الممكن أن تصبح الحبشة كلها مسلمة لولا تدخل البرتغاليين في ١٥٤١ م ، وكذلك في عهد الامبراطور ليج ياسو لولا تكتل أمراء شوامع القوات الأوروبية لمنع وقوع ذلك » .

• • •

(١) بالملاحق المرفقة بهذا الكتاب ترجمة كاملة لهذا الجدول .

أما « أولندورف The Ethiopians » فلم يشأ أن يتعرض لموضوع المسلمين وأكتفى بأن أحال القارئ إلى كتاب سبنسر ترمنجهام ، ولكنه في ص ٤٢ قرر حقيقة هامة وهي أن « الإسلام هو دين الغالبية الكبرى لقبائل الجالا بالرغم من أن كثيراً منهم الذين يسكنون الهضبة قد اعتنقوا المسيحية - والمحتمل أن تستمر أفراد الجالا في اعتناقهم لدين الدولة الرسمي . . . ولا تزال بينهم بعض الجيوب الوثنية ، والذي نريد أن نلفت النظر إليه هنا هو اقراره بأن غالبية الجالا من المسلمين ، وماتبق منهم موزع بين المسيحية والوثنية - وهذا تصحيح لما جاء في بعض المراجع وتأييد لما جاء في البعض الآخر ، كما سيأتى ذكره .

وقبائل الجالا هذه - الذي تعتنق غالبيتها الكبرى الدين الإسلامى ، بلغ تعدادها ثلث سكان الحبشة في القرن السادس عشر (راجع الفصل العاشر من هذا الكتاب وكذلك ص ٩٣ ، ٩٤ من كتاب ترمنجهام) وما أن جاء القرن الثامن عشر حتى كانت تلك القبائل تعتنق أغلبها الإسلام ووصلت في تعدادها إلى نصف سكان الحبشة (راجع ص ١٠٧ من كتاب ترمنجهام - والفصل الحادى عشر من هذا الكتاب) .

* * *

كذلك القبائل الصومالية والدناكل الذين يملأون الجانب الشرقى من الحبشة في مناطق الازجادين وهرر والدناكل والعروسي . فجميعها من المسلمين كما جاء تفصيله في جميع المراحل التاريخية التى مرت بنا في هذا الكتاب .

أما قبائل اليبجا التى زحفت منذ القرون الاولى من وادى النيل وملأت الاريتريا وشمال الحبشة . فقد سبق أن شرحنا كيف اعتنقت الاسلام تدريجيا حتى أصبحت في القرون الاخيرة جميعها من المسلمين .

* * *

ولقد مر بنا أيضا كيف أن المسلمين في القرن التاسع قد استولوا على مقاطعة شوا ونشروا الاسلام بها وبعد أن إنسجوا منها في القرن الثالث عشر ظل الاسلام منتشرا بين سكان الجانب الشرقى منها الى الآن ، وعلى الاخص في مدينة أديس أبابا الحالية حيث يشكل المسلمون ثلث سكان العاصمة ومقاطعة شوا من أهم معاقل المسيحية في الحبشة .

وكذلك في وسط الحبشة حيث تتركز قبائل الامهرة والتيجرى مر بنا كيف تغافل الاسلام فيها ونفذت إليها قبائل الواللوجالا ، وامتد سلطانهم إلى أن هددوا العرش وأصبحوا قوة لا يستهان بها في العاصمة جوندار . ومعنى ذلك أيضا انتشار المسلمين في قلب الهضبة أهم معاقل المسيحية في الحبشة .

* * *

وقلنا في الفصل الحادى عشر أن (مانويل دالميدا) الذى عاش في الحبشة من (١٦٢١ - ١٦٣٣) كتب يقول أن في فترة وجود الحبشة كان المسلمون منتشرين منشورين في جميع أنحاء الامبراطورية وكانوا يشكلون ثلث السكان (ص ١٠١ ترجمته) ومن المعلوم أن الوثنيين كانوا لا يزالون إلى ذلك العهد يشكلون ما يقرب من نصف السكان - ولم تكن الجالا قد أتمت اسلامها بعد . ومع ذلك فقد كان المسلمون منذ ذلك العهد يشكلون ثلث السكان ، أى أنهم منذ ذلك التاريخ أصبح عددهم يتجاوز عدد السكان المسيحيين وزادوا بعد ذلك كثرة وتأييدا باعتناق غالبية قبائل الجالا للاسلام وقبائل الجالا وحدها نصف سكان الحبشة كما قدمنا .

وقد أيدت كتابات الكاردينال ماساجا Massaja جميع هذه المعلومات كما جاء ذكره في مواضع متعددة من الكتاب .

* * *

ولدينا أيضا على لسان جميع الكتاب الغربيين أن المسيحية كانت تتركز في مقاطعات الهضبة الشهيرة ، وهي أمهرة - تيجرى - جوجام - وشوا .

وبين يدينا تقرير هام جاء على لسان حكومة الحبشة عندما بدأت بتنادى باستقلال كنيسة الحبشة عن الكنيسة المصرية ، ومن أهم الاسباب التي أوردتها واعتمدت عليها (عام ١٩٣٠) أن أقباط مصر أقلية بها ولا يتجاوز عددهم عن ١٠١ مليون ، بينما يبلغ مسيحو الحبشة ٢٠٦ مليون من مجموع سكان الحبشة الذي يبلغ ٦ مليون (ص ٢٧٧ Middle East in War by George Kirk) أي أن الحكومة الحبشية - وهي بلا شك تنزع إلى المبالغة حتى تؤيد لقصيتها وتبرز من موقفها في المطالبة باستقلال كنيستها - قدرت المسيحيين بالحبشة بنسبة ٤٠ ٪ من مجموع السكان .

* * *

وبناء على هذه المعلومات يمكننا أن نعتمد كتابة الجدول الشهير الذي جاء في صفحة ١٦ من كتاب ترمجهم بعد تصحيحه وإيجازه للقارىء - وإضافة عدد السكان التقريبي إليه ، على ضوء ماسبق من معلومات .

الوثنيين	المسيحيين	المسلمين	عدد السكان	المنطقة
٠٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠	٧٠٠ر٠٠٠	١ر٣٠٠ر٠٠٠	الأريتريا
	تيجرى - أمهرة - شوا	الجبرت - واللوجالا	٤ر٥٠٠ر٠٠٠	وسط الحبشة
	جوجام - أجاو	وبعض القاطنين في شوا		
٠٠٠ر٠٠٠	٣ر٥٠٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠		
جوراجى - بعض	جوراجى - بعض	جوراجى - وغالبية	١ر٠٠٠ر٠٠٠	جنوب الحبشة
السيداما	السيداما	سيداما		
١٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠	٦٠٠ر٠٠٠		
بعض القبائل في	بعض القاطنين في	منطقة قبائل الجالا -	٤ر٥٠٠ر٠٠٠	الجالا
ليجا وعروسي وبوران	مقاطعة شوا	(لا تشمل الواللوجالا لسابق ذكرها ، ضمن المناطق الأخرى ولا تشمل الموجودين في هرر)		
٢٠٠ر٠٠٠	٩٠٠ر٠٠٠	٣ر٤٠٠ر٠٠٠		
٠٠٠ر٠٠٠	١٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠	عفر ساهو
مقاطعة هرر وتوابها	مقاطعة هرر وتوابها	مقاطعة هرر وتوابها	١ر٥٠٠ر٠٠٠	الصوماليين
٢٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	١ر١٠٠ر٠٠٠		
٩٠٠ر٠٠٠	٢٠٠ر٠٠٠	٤٠٠ر٠٠٠	١ر٥٠٠ر٠٠٠	الزنوج
١ر٤٠٠ر٠٠٠	٥ر٨٠٠ر٠٠٠	٧ر٤٠٠ر٠٠٠	١٤ر٦٠٠ر٠٠٠	

أى أن نسبة السكان كالآتى :

٥٠ . / مسلمين
٤٠ . / مسيحيين
١٠ . / وثنيين

ولقد كان تقسيم السكان الوارد في كتاب (دليل افريقية الشرقية ص ٨٢ Guida dell Africa Orientale) ذا دلالة هامة ، ولقد اهتمت به كثير من المراجع ، وقال عنه أولندورف (ص ٣٢) « ولو أن هذا التقدير يبدو أقل من الحقيقة ، ولكنه دلالة مفيدة على نسبة التوزيع العنصري ، وعلى الأخص فإن النسب التقديرية بين العناصر الواردة به تمثل الحقيقة إلى حد كبير .

ولذلك فقد رأينا أن نورده فيما يلي - بعد أن أضفنا الزيادة في السكان من عام ١٩٣٩ - ١٩٦٥ بنسبة ١.٣٧٪ التي التزمنا بها في البحث . محافظين على نسبة توزيع عناصر السكان التي اعتبرها أولندورف أقرب إلى الدقة ، وقنا بتوزيع كل عنصر منها بين الاسلام والمسيحية والوثنية بحسب المعلومات التي تجمعت لدينا خلال مراحل هذا الكتاب ومن حسن الحظ أن التقسيم الوارد في التقدير الايطالي المذكور لا يدع مجالاً للخطأ الكبير ، إذ أن العناصر الثلاثة الكبرى فيه - واضحة معلومة .

العنصر الأول : الأجاش الأصليون بما فيهم الأجاو والبيجا . فن المعلوم أن غالبيتهم العظمى مسيحيين ، وجانب منهم مسلمون (وهم من قبائل البيجا) أما بعض قبائل الأجاو فلا زالت وثنية .

العنصر الثاني : الجالا - وهم يشكلون نصف سكان الحبشة وغالبيتهم العظمى من المسلمين ، وبهم عدد من المسيحيين ، أما الوثنيون فعددهم قليل بعد أن فضل أغلب من تبقى من الوثنيين اعتناق الدين المسيحي ، الدين الرسمي للحكومة .

العنصر الثالث : الصوماليون - وجميعهم مسلمون .

أما العناصر الأخرى فن الميسور تقدير نسبة توزيعهم بالامترشاد بما جاء في تاريخ المناطق التي يسكنونها .

وعلى ذلك فيكون الجدول المبني على التقديرات الإيطالية على الوجه التالي

وثنيين	مسيحيين	مسلمين	تقدير ١٩٦٥ - بمعدل ١,٧ % سنوياً	تقدير ١٩٣٩	أجانب أصليون بما فيهم الأجانب والبيجسالا العومالين سيداما عقرسأهو الزنج
٣٠٠.٠٠٠	٣.٣٠٠.٠٠٠	٢٤٠.٠٠٠	٣.٨٤٠.٠٠٠	٢.٤٠٠.٠٠٠	والبيجسالا
١٤٠.٠٠٠	٨٠٠.٠٠٠	٢.٧٠٠.٠٠٠	٣.٣٦٠.٠٠٠	٢.٣٥٠.٠٠٠	العومالين
٠٠٠.٠٠٠	٠٠٠.٠٠٠	٣.٢٤٠.٠٠٠	٣.٣٤٠.٠٠٠	٢.٤٠٠.٠٠٠	سيداما
٨٠.٠٠٠	٨٠٠.٠٠٠	١٢٠.٠٠٠	٣٣٠.٠٠٠	٢٠٠.٠٠٠	عقرسأهو
٠٠٠.٠٠٠	٨٠.٠٠٠	١٦٠.٠٠٠	٢٤٠.٠٠٠	١٥٠.٠٠٠	الزنج
٩٠٠.٠٠٠	٢٠٠.٠٠٠	٥٠٠.٠٠٠	١.٦٠.٠٠٠	١.٠٠٠.٠٠٠	
١.٤٢٠.٠٠٠	٤.٤٦٠.٠٠٠	٦.٠٠٠.٠٠٠	١١.٩٠٠.٠٠٠	٧.٥٠٠.٠٠٠	الجموع

- أى أن المسلمين ٥٠ ٪ من مجموع سكان الحبشة .
- والمسيحيين ٣٨ ٪ من مجموع سكان الحبشة .
- والوثنيين ١٢ ٪ من مجموع سكان الحبشة .

هذا ونود أن نعيد إلى ذاكرة القارىء ماسبق أن ذكرناه أن الأجباش أنفسهم قدروا نسبة المسيحيين بالحبشة عام ١٩٣١ بأربعين فى المائة (٤٠ ٪) عندما بدأوا ينادون باستقلال كنيستهم عن الكنيسة المصرية (ص ٢٣٠ - جورج كيرك) وكذلك قدرهم - ارنست لوثر - كما سبق أن قدمنا - بأكثر قليلا من الثلث (ص ٢٥ - لوثر) .

• • •

وفى ختام استعراضنا للتقديرات التى مرت بنا لافوتنا أن نذكر مرجعا هاما صدر فى عام ١٩٦١ عبارة عن سجل لقارة افريقيا . ولقد أصدره « كوكلين ليجوم » بالاشتراك مع هيئة تحرير مكونة من ٤٠ اختصاصيا فى شئون افريقيا - وأورد هذا المرجع معلومات محددة على جانب كبير من الاهمية تتعلق بما نحن فيه من بحث نوردها فيما يلى .

قال عن أثيوبيا فى ص ٧٩ « عندما تفكر فى أثيوبيا يتجه بنا الفكر إلى تلك المناطق المسيحية التى تقع على أعالي الهضبة - وقد يكون السبب فى هذا هو أن حكام هذه الدولة ينتمون إلى قبيلة الأمهرة الذين يسكنون تلك المرتفعات علما بأن تلك المرتفعات تشكل ثلث مساحة البلاد فقط . كما أنه الأكثر احتمالا أن يكون المسلمون بالحبشة وكذلك الوثنيين أكثر عددا من المسيحيين » .

ولقد حدد الكتاب فى الخريطة الموجودة فى ص ٤٦٤ بصورة واضحة أن المسيحيين فى أثيوبيا يبلغون ٢١ ٪ من السكان . ثم عاد فى صفحة ٤٦٨ وحدد عدد الأقباط فى القارة الافريقية بنمسة

ملايين في مصر وأثيوبيا - فإذا استبعدنا الاقباط المصريين وعددهم ١٨٠٠.٠٠٠ (٧٥٠٠٪ من تعداد ١٩٥٧ ومجموع السكان في مصر عندئذ ٢٣ مليون) لبقى عدد المسيحيين في الحبشة ٣٢٠٠.٠٠٠ وهذا التقدير يعود للتأكيد بأن نسبة المسيحيين في الحبشة حوالي ٢١٪ السابق تقديره .

وعندما تعرض الكتاب للمسلمين ذكر في ص ٦٨؛ أن المناطق التي تغلب فيها الديانة الإسلامية هي - نيجيريا ومصر - شمال افريقيا - افريقيا الغربية للفرنسية - أثيوبيا - السودان .

* * *

وفي جميع تقديراتنا السابقة أغفلنا ذكر اليهود ، وأن كانت جميع المصادر الأوروبية تخفى بذكرهم في مزيد من الاهتمام لا يتناسب مع عددهم الذي لا يتجاوز ٦٠.٠٠٠ يهودي (الفلاشة) كما جاء تقديرهم في جميع تلك المصادر وعددهم على هذه الصورة ضئيل لا يقدم ولا يؤخر في الدراسة .

ملاحظة أخيرة هامة على التعداد ونسبة المسلمين إلى سكان الحبشة بما فيها الأريتريا أن دراستنا الحقيقية ومشاهداتنا على الطبيعة وتحرياتنا عن مناطق الحبشة وتبعنا لمراحل التاريخ المختلفة التي أوردناها في هذا الكتاب تعطينا من الأدلة القوية ما يشير إلى أن نسبة المسلمين في الحبشة تزيد عن النصف - بل هي بنتيجة بحثنا ومشاهداتنا تصل إلى ٦٠٪ من السكان .

ولكننا فضلنا أن نكتفي بما أوردناه في تواضع ، مقتصرين على ما استخرجناه من تقديرات غيرنا ، بعد تجميع شتات ما جاء متناثرا في مراجعهم ، ولقد كنا على ثقة من أرقامنا طوال السنوات الماضية ولكننا أشفقنا على أنفسنا من التعرض لهذا الموضوع ، إلى أن أناح الله لنا بعض الكتاب الاوربيين الذين بدأوا يكشفون الحجاب عن الحقائق المستورة وراء الستار الحديدي المضروب حول المسلمين في الحبشة ، مما فتح لنا الباب ومهد لنا السبيل لكي ندلي بما عندنا من بيان ، مكتفين في نفس الوقت بالمعلومات والارقام التي وردت في مراجع هؤلاء الكتاب .

وتماما للفائدة نرفق مع الكتاب خريطة لدولة الحبشة الحالية ، مينا عليها توزيع السكان مسلمين ومسيحيين ووثنيين - ومنها يتضح أن الاسلام ينتشر في منطقة تقرب من ثلاثة أرباع البلاد .

. . .

كيف سيطرت الحكومة المسيحية (الأقلية) على البلاد :

قد يعجب بعض القراء من هذا الوضع الشاذ ، وقد يسأل بعضهم كيف تمكنت الأقلية من السيطرة على الأكثرية . ونعتقد أننا استوفينا هذا الموضوع بحثا بما عرضناه في هذا الكتاب ومع ذلك فالتا نوجز هنا تلك الأسباب والعوامل التي جعلت الأقلية تتحكم في الأكثرية ، ودفعت بالمسلمين وهم غالبية بلاد الحبشة وأكثر عناصرها نشاطا وانتاجا إلى ما يتقلبون فيه من ضغط وظلم وحرمان ونسيان واضطهاد .

. . .

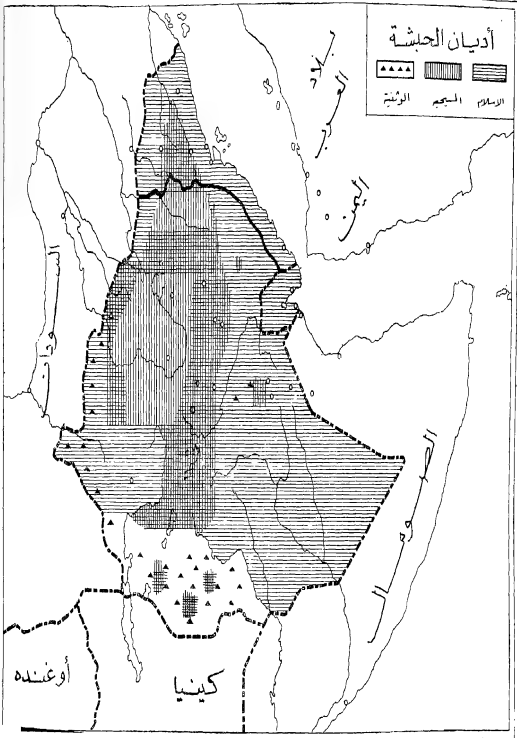
في عتفوان الحركة الصليبية وفي أعقابها ، دفعت العصبية الدينية دول أوروبا وأشعلت حماسها للعمل على حماية الدولة المسيحية الموجودة في أعلى هضاب الحبشة من التغلغل الاسلامي الذي أوشك زحفه أن يقضى عليها ، وكانت الدول الأوروبية في ذلك الوقت في بداية عصر النهضة ، الذي أخذت فيه دول أوروبا تبحث فيه عن مستعمرات ومناطق نفوذ ، وتسعى إلى السيطرة على مسالك التجارة ومصادر الثروة .

وكانت الامبراطوريات الاسلامية الكبرى قد انهكتها حروبها ضد الصليبيين وضد التتار ومع أنها انتصرت عليهما إلا أن قواها قد تضعفت ؛ وبذلك ورثت الامبراطورية العثمانية سلطان الدول الاسلامية . وسرعان ما وقفت وجها لوجه مع جميع الدول الأوروبية الناشئة التي كانت تتجمع وتتحذ تحت راية الكنيسة الرومانية ، وأخذت قواتها البحرية في الظهور مبتدئة بذلك عهد الاستعمار الاولي .

أديان الحبشة

▲▲▲▲	▨▨▨▨	▨▨▨▨
الوثنية	المسيحية	الإسلام

البحر الأحمر
البحر الهندي



أوغندا

كينيا

ولو أن الدول الأوروبية وعلى الأخص ملكة البرتغال ، كانت على صلة مع ملك الحبشة إلا أن صلتهم هذه أخذت صورتها العملية الخامسة عندما قام الامام أحمد إبراهيم الأشول بالاستيلاء على جميع أرجاء الحبشة وأقام من نفسه حاكما مطلقا على الدولة ، عندئذ استجاب البرتغاليون لاستغاثة ملك الحبشة وهبوا لنجدة .

وكان البرتغاليون قد نجحوا في ذلك الوقت في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ووصلت أساطيلهم البحرية إلى الشرق ، حيث أسسوا لهم قواعدهم الحربية في شواطئ الهند - وتمكنوا من هزيمة الأساطيل المصرية وبعدها الأساطيل العثمانية في المحيط الهندي والمناطق الجنوبية من البحر الأحمر ، وسيطروا على تلك المناطق .

ولقد كانت المساعدة الوحيدة التي تلقاها الامام أحمد بن إبراهيم الأشول هي نجدة عسكرية من العثمانيين وشریف مكة قوتها ٩٠٠ جندي وبعض الأسلحة الحديثة ، فانتصر في موقعه الأولي مع البرتغاليين ، وعادت النجدة العثمانية إلى بلاد العرب . وعندئذ عاد البرتغاليون بأسلحتهم الحديثة وتمكنوا مع جيوش ملك الحبشة من القضاء على الامام أحمد الأشول .

ومنذ ذلك الحين ، وجميع الدول الأوروبية تعمل على تعزيز قوات المملكة المسيحية بمخلف الوسائل وتحت مختلف الظروف . في الوقت الذي زالت فيه سيطرة الامبراطورية العثمانية ونفوذها في البحر الأحمر ، ولم تقم للقوات الاسلامية قائمة بعد ذلك ، اللهم إلا تلك الفترة الحاطفة التي فتحت فيها القوات المصرية الشاطئ الافريقي الشرق وأسسوا امبراطوريتهم التي لم تدم إلا لحمة قصيرة ، وعندما انهارت ماليتها انقضت عليها تلك الدول الأوروبية الكبرى ، واستولت على الامبراطورية المصرية بدون مقابل ، وتخلصت ملكة الحبشة المسيحية مرة أخرى مما تعرضت له من خطر . بل وتمكنت عندئذ من القضاء على جميع السلطنات الاسلامية التي في داخل البلاد بفضل ما تلقته من كيات ضخمة من الأسلحة والذخائر - بينما كانت (٢٢ - الحبشة)

السلطنات الاسلامية محصورة لاحول لها ولا قوة ولا معين عزلاء من السلاح .
ويكفي هنا أن نعيد إلى الأذهان بيان دفعات الأسلحة التي أخذت تنهال
في تلك الفترة على أباطرة الحبشة ، والتي مكنت لهم من النصر والسيطرة :

١ - هدية الأسلحة والعتاد الحربي - التي تركتها حملة نابيير للإمبراطور
يوحنا الرابع وكانت عبارة عن مجموعة كبيرة من مدافع الميدان الحديثة ومدافع
المورتار ، وبنادق حديثة الطراز تكفي لتسليح فرقة كاملة (١٨٦٨) ^(١) .

٢ - حصل الملك يوحنا الرابع على مزيد من الأسلحة - من روسيا -
وكانت تتألف من ٥٠٠٠٠ بندقية طويلة و ٥٠٠٠٠ بندقية فرسان ، ٥٠٠٠
مسدس ، ٤٠ مدفع ٥٠٠٠ سيف وكمية وافرة من الذخيرة (١٨٨٥) ^(٢)

٣ - في عام (١٨٨٨) تلقى الملك منليك من الايطاليين المال والأسلحة
والذخيرة ثم عادت في ١٨٨٩ وأهدته مزيدا من الأسلحة مقداره ٣٨٠٠٠
بندقية و ٣٨ مدفعا ^(٣)

٤ - عندما شعرت الدول الأوروبية - إنجلترا وفرنسا وإيطاليا - بميل
الإمبراطور ليح ياسو (الإمبراطور المسلم) إلى تعزيز الاسلام والمسلمين
تحفزت ضده القوات الانجليزية في بربره ، والفرنسية في جيبوتي والايطالية
في مصوع وتحالفت مع امراء مقاطعة شوا ، وعزلوه عن الحكم (١٩١٦) ^(٤)

تلك هي الأسباب - أقلية تملك السلاح الحديث - وتؤديها الدول
الأوروبية الكبرى التي تحيط بالبلاد من جميع النواحي وتسيطر على جميع
المناذد البحرية المحيطة بالمنطقة بينما الأغلبية لا سبيل لها إلى السلاح ولا تجد
لها من الدول الخارجية أى نصير .

وبذلك أصبحت الأقلية المسيحية - وعلى الأخص من القبائل الامهرية

(١) م ٥٢٠ سيريدج Budge

(٢) م ٥٢٥ نفس المرجع

(٣) م ٥٢٧ ، ٥٢٩ نفس المرجع

(٤) م ٥٤٥ نفس المرجع

يتألف منها الجيش والشرطة ورجال الامن والحكام والموظفون على الاطلاق وكل ما يترتب على ذلك معروف لا يحتاج إلى شرح .

* * *

ولقد عودتنا الدول الاستعمارية الكبرى على تنوع سياساتها وأساليبها في مستعمراتها ومناطق نفوذها في العالم . تنتهج من السبل ما يتلاءم مع ظروف كل حالة وكل منطقة . ولكنها مع تعدد تلك الأساليب لها نتيجة واحدة متكررة وهي سيطرة أقلية مسلحة على أغلبية عزلاء . في الهند وأندونيسيا والهند الصينية وجنوب أفريقيا والكونغو والمستعمرات البرتغالية وروديسيا .. الخ مما لا حصر له .

وفي رأينا أن الوضع في الحبشة هو نفس الوضع الذي ارتضاه الاستعمار، وأتخذ نفس الشكل وأتبع فيه نفس الأساليب ، ولو أنها تختلف في الصورة إلا أنها بالنسبة للدول الأوروبية الاستعمارية تخدم في نفس الهدف ، مادامت تضع في مركز القوة والنفوذ حكومة موالية لها معتمدة عليها ترتبط مصالحها بمصورتهم لها . ويمكن تعزيزها وتقويتها للاعتماد عليها لكي تكون معقلاً دائماً لها في القارة الأفريقية ، تنطلق منه لتحقيق ما يعين لها من أهداف .

الفصل الثاني والعشرون

عدل

أما بعد ، فنحن نطلب للمسلمين في الحبشة العدل والانصاف ولا نطلب لهم الرحمة أو الإحسان .

° ° °

لقد انقضت عهود الاستعمار والسيطرة والاذلال والاضطهاد واجتمع العالم بمختلف دولة وشعوبه حول هيئة الامم المتحدة التي تمثل الرأي العام العالمي ، وتسهر على اشاعة العدل بين الناس وبين الشعوب وبين الدول ، وتأخذ بيد الضعيف وتقدم له يد المساعدة ، وتنتزع له حقه من القوى . ولا تأل جهدا في تحقيق ذلك بالوسائل السلبية والاساليب الانسانية التي تملها القيم المثالية للحرية والمساواة .

° ° °

حقوق الانسان :

من الاهداف الاساسية للأمم المتحدة أن تعمل على تحقيق المبادئ السامية لحقوق الانسان ، ولم يكن هذا الهدف حديث الابتكار ، ولكنه كان على مرور التاريخ أملا ينادي به الكتاب والمصلحون . وما أن بلغت الحرب العالمية الثانية قمة شدتها حتى شعر قادة العالم بالحاجة إلى وضع أسس الحريات على صورة أفضل مما كانت عليه في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، لذلك عمدوا إلى تخصيصها بعناية متميزة ، وطالب الرئيس الاميركي روزفلت بالنص على تحقيق « الحريات الاربعة » - وهي :

حرية الرأي - حرية العبادة والاديان - الخلاص من الخوف
الخلاص من الفقر .

ولقد صدر ميثاق الأمم المتحدة في ١٩٤١ ونصت المادة ٥٦ على أن تلتزم الدول الاعضاء في الأمم المتحدة بالتعاون مع الهيئة للسمو باحترام العالم للحقوق الإنسان والحريات والمحافظة عليها .

وترك الميثاق لهيئة الأمم المتحدة مهمة العناية بهذه الحقوق وتفصيلها ووضع الأسس والأنظمة التي تتكفل بتحقيقها . وعلى أساس ذلك ، تألفت لجنة حقوق الإنسان التي عهد إليها بأعداد مشروع إعلان المبادئ التي يتحتم على الأمم والحكومات أن تلتزم بها - بحيث تتكفل حقوقا معينة للمواطن - وأن يكون تصديق كل حكومة على هذا الميثاق بمثابة تعهد منها بالامتناع عن اتخاذ أى وسيلة من وسائل الظلم والاضطهاد ضد أية طائفة من طوائف شعبيها .

وعندما صدر « إعلان حقوق الإنسان » في ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، نادى بحق جميع الناس كافة في الحياة والحرية وفي سلامة أشخاصهم ، والتحرر من القبض التعسفي ، وفي حرية التنقل والسكن ، والكلام والصحافة ، والاجتماع والعبادة ، والحقوق القانونية الأخرى التي تضمنها عادة الدساتير الديمقراطية

وفي عام ١٩٥١ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة تحديدا جديدا لتوضيح أنواع حقوق الإنسان على شكل ميثاقين : الأول - يتضمن الحقوق الإنسانية والسياسية - والآخر : يتضمن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

وعلى الدول التي تصدق على الميثاق الأول أن تلتزم بوضع القوانين الحامية لشعبيها من الظلم والاستبداد . والدول التي تصدق على الميثاق الثاني تعترف بواجبها ومسئولياتها في بذل كل ما تستطيع لتوفير أحوال معيشة أفضل وتعترف بحقوق قانونية معينة بالنسبة للضمان الإقتصادي والاجتماعي .

واقصد نص الإعلان في (مادة ٢١) على حق كل فرد من مشاركته في حكومة بلاده بطريقة مباشرة أو عن طريق نواب ينتخبهم في حرية تامة ، وكذلك لكل فرد الحق وتكافؤ الفرص في تقلده لمناصب الدولة .

ولقد نصت المادة الثانية من ميثاق الحقوق المدنية والسياسية ، على كل دولة تصدق على الميثاق - أن تتعهد بأن توفر لجميع الأفراد الموجودين داخل حدودها ويخضعون لقوانينها - جميع الحريات المحددة في الميثاق - دون تفرقة أو تمييز من أى نوع ، كالتمييز العنصري على العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الآراء السياسية أو المنشأ أو المستوى الإجتماعى أو أى نوع من أنواع الفروق .

وكذلك نصت المادة ١٨ من أن لكل فرد مطلق الحرية فى الرأى والدين وأن يقوم بأداء شعائر دينية ويباشر ما يقتضيه ذلك من تدريب وتعليم . ولا يجوز أن يتعرض أى فرد لأى ضغط أو اضطهاد يحد من حريته الدينية أو يجبره على تغيير دينه أو معتقده .

وكذلك نصت المادة الثانية من ميثاق الحقوق الإقتصادية والإجتماعية والثقافية على نفس المبادئ السابقة الذكر .

* * *

وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٦٣ وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة وبإجماع الأصوات على الإعلان الخاص بالقضاء على جميع أشكال التفرقة العنصرية وقد عمدت فى هذا العدد إلى تأكيد المبادئ التى نص عليها ميثاق الأمم المتحدة وكذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان وجاء فى نص القرار د أن ميثاق الأمم المتحدة يقوم على مبادئ الكرامة والمساواة بين الناس جميعا وأنه يستهدف ضمن أهدافه الأساسية تحقيق التعاون الدولى وتعزيز وتشجيع احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ، د وأن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان إنما يرفق ذلك مبدأ المساواة بين الجميع فى نظر القانون وأن لهم الحق ، بلا تمييز ، فيما يكلفه للقانون من حماية ، وأن للجميع الحق فى أن يستظلوا بحمايته ضد أية تفرقة أو أى تعرض على التفرقة .

وتؤكد هيئة الأمم على نحو له صفة القداسة ضرورة القضاء بأسرع ما يمكن على كل أشكال ومظاهر التفرقة العنصرية ، وتنص في مختلف المواد وعلى الأخص في المادة الثالثة بضرورة بذل الجهد لمنع أى تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو العنصر ، ولا سيما فيما يخص بالحقوق المدنية أو التمتع بحق المواطن أو التربية أو الدين أو الوظيفة أو المهنة أو السكن .

وتناشد الهيئة في المادة الثامنة - أن تتخذ الدول كل الوسائل الفعالة في مجالات التعليم والتربية والاعلام للقضاء على التمييز العنصرى وما يستتبعه من حيف ، والحث على أن تسود الأمم والطوائف العنصرية روح التفاهم والتسامح والصداقة .

* * *

ولسنا، في حاجة إلى الاطالة في ذكر هذه الحقوق ، فلا محل لمناقشتها أو إنكارها وفضلا عن أن جميع المبادئ الإنسانية والكتب السماوية تؤيدها وتحض عليها فان القارىء ولا شك يحيط بها في غير ما حاجة منا إلى زيادة الإيضاح .

ولكننا قصدنا تسجيل ملخص واضح للمبادئ التي أقرتها هيئة الأمم المتحدة ، والتي لم تعد كونها عبارة عن آمال ونصائح وأهداف مثالية تملأ كتب الفلسفة والأخلاق والاجتماع ، ولكنها اتخذت شكلا عمليا محددا بقواعد أقرتها هيئة الأمم وصدقت عليها الدول التي تستظل تحت راية الهيئة وعلى كل منها أن تعمل في إخلاص وصدق على تنفيذ هذه المبادئ ، وألا تلجأ إلى التويه والتهرب والتعلل بمختلف الأسباب ، أو التستر وراء - المادة العتيدة في ميثاق الأمم المتحدة التي تمكن أى دولة من الاعتراض على التدخل في شئونها الداخلية .

* * *

ونحن وقد أثبتنا هنا حقيقة كبيرة تعلمها حكومة الحبشة حق العلم منذ

زمن بعيد وهي أن غالبية شعبا من المسلمين ، نأمل أن يحصلوا في عصر الحريات على أبسط المطالب التي تتمتع بها الأقليات في البلاد المتقدمة أو البلاد التي تعمل على اللحاق بركب التقدم ، ولا نظن أن الحبشة نريد أن تتخلف عن هذا المضمار .

ولا نريد أن نستمع إلى أي نغمة تبرر تمييز عنصر عن آخر في مثل بلاد الحبشة ، حيث لا ينكر أحد على المسلمين فيها نشاطهم وذكاءهم واستعدادهم الكبير للثقافة والعلم والتقدم .

لذلك نأمل أن تعمل حكومة الحبشة على تحقيق مبادئ العدل والمساواة بين رعاياها ، في أسرع وقت ممكن - بأن :

١ - تشمل رعاياها المسلمين برعايتها على قدم المساواة مع المسيحيين .
٢ - تتيح لهم نفس الفرص في إقامة شعائرهم الدينية ، وأن تعاونهم على فتح المدارس التي يتعلم فيها المسلمون أصول دينهم . على نفس المستوى والعناية المتبصرة للمسيحيين .

٣ - وأن تولى الدولة نفس العناية للمسلمين في شئون التعليم ، بأن نرى نصف طلبة المدارس على اختلاف أنواعها ودرجاتها من المسلمين . وأن نتاح لهم نفس الفرص لآتمام التعليم العالي في داخل الحبشة وخارجها . وأن نرى نصف عدد البعثات من المسلمين - وألا تكون تلك البعثات مقصورة على القدر الذي يسمح به للتخصص في الدين في الأزهر الشريف . بل يكون شاملا لختلف أنواع التخصص والمعرفة والعلوم الحديثة .

٤ - نأمل أن نرى في القريب العاجل وظائف الدولة على اختلاف درجاتها وأنواعها حقا مشاعا للمسلم بجانب أخيه المسيحي . وأن تكون نسبتهم في تلك الوظائف ودرجاتها بما يتعادل مع نسبتهم في عدد السكان .

٥ - وكذلك نأمل أن نرى نصف أعضاء مجلس النواب والشيوخ وكذلك نصف الوزراء من المسلمين .

٦ - وأن ينال المسلم شرف الجندية بالخدمة في القوات المسلحة الحبشية على مختلف المستويات وببنفس النسبة السابقة حتى يشارك في شرف الدفاع عن بلده .

٧ - وأن تحظى المؤسسات الاجتماعية والخيرية الإسلامية بنفس الرعاية التي تحظى بها المؤسسات المسيحية .

٨ - وأن ينفق من إيرادات الدولة الجانب العادل في المقاطعات والمدن الإسلامية بحيث تنمو وتتقدم بمقدار ما تستحقه وبمقدار ما تقدمه للدولة مع موارد ، مثل ما تحظى به المقاطعات والمدن المسيحية .

٩ - وأن تعمل الدولة في اخلاص وحزم على اختلاط طلبة المدارس منذ الصغر حتى تزول التفرقة العنصرية والدينية ، وتتألف القلوب وتتكون منهم جميعا نواة الحبشة الجديدة المتحدة ، وينتهي عهد الحبشة القديمة التي مزقتها الخلافات والعصبيات والحروب .

* * *

ولانبغي بما أوردناه من آمال أى تحديد أو حصر ، ولكننا ذكرناها على سبيل المثال ، ونهدف منها تحقيق العدالة والمساواة التي لا يمكن أن يقوم لاي دولة كيان بدونهما ، وبمعز علينا أن نتخلف إحدى الدول الأفريقية المرموقة عن ركب التقدم والحرية في الوقت الذي تتسابق فيه جميعها حتى نلحق بركب الحضارة والمدنية التي تخلفت عنه طويلا ، وأصبح لزاما عليها جميعا أن نستحث الخطى ونسعى هذاهم ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا إذا تكاتف جميع عناصر كل دولة مع بعضها في أخاء ومساواة واتحاد .

* * *

الملاحق

صحيفة

- ملحق رقم (١) التقويم التاريخي ٣٦٣
- ملحق رقم (٢) جدول عناصر سكان الحبشة ٢٧٤
وأديانها (مترجم عن ج ١٦ من كتاب
الإسلام في أثيوبيا لترمنجهم)
- ملحق رقم (٣) التقديرات المختلفة لتعداد سكان ٣٧٥
الحبشة .
- ملحق رقم (٤) مراجع عريه ٣٧٩
- ملحق رقم (٥) مراجع أجنبيه ٣٨١
- ملحق رقم (٦) فهرست الأعلام والأماكن ٣٨٢
- ملحق رقم (٧) تصويب

ملحق رقم (١) التقويم التاريخي

القرن البلادي	تاريخ الجبلية	التاريخ الإسلامي والشرق	التاريخ المسيحي والغربي
الرباع	دخول المسيحية إلى الجبلية - عهد الملك ابرئنا (٣٥٠) الجبلية تحمل البين وحمية فترة من الوقت (٣٥٠) .	بلوغ الفرس قبة عجم في عهد شاهپور الثاني (٣٠٩-٣٧٩) .	قسطنطين يوحنا الامبراطورية الرومانية الشرقية (٣٢٤-٣٢٧) ويشيد مدينة القسطنطينية (٣٣٠) .
السادس	حملة الجبلية على البين لحماية المسيحيين من اضطهاد ذى نواس (٥٢٤) .	إبرهة الاشرم القائد الجبشي في البين يحاول غزو مكة ويفشل (٥٧٠) . الفرس يطاردون الأجناس من جنوب الجزيرة العربية ويحلون علمهم بها ابتداء من (٥٧٦) .	الامبراطورية الرومانية الشرقية تطلب من الجبلية حماية المسيحيين في البين (٥٢٤) - ويعتبر هذا أول اتصال دولي بين الجبلية والدول المسيحية الأخرى .
السابع	أول حملة للمسلمين إلى الجبلية (٦١٥) .	بداية الدعوة الإسلامية (٦١٠ - ٦١٣) . انسحاب الفرس من البين . ودخول الدين الإسلامي إليها (٦٣٠) فتح العراق (٦٣٣) فتح دمشق (٦٣٥) فتح مصر (٦٤٩) فتح فارس (٦٤٠) فتح طرابلس (٦٤٧) فتح قبرص (٦٤٩) . حملة عرب النخاس على مملكة النوبة عقدهم ادها ليقط (٦١) أول ظهور للاسطول الإسلامي في البحر الأبيض (٦٤٢)	هزيمة أسطول الامبراطورية الرومانية الشرقية أمام الاسكندرية (٦٥٢) أمام الاسطول الإسلامي

القرن الميلادي	تاريخ الجليشة	التاريخ الإسلامي والشرقي	التاريخ المسيحي والفرنسي
الثامن	احتل المسلمون جزر الهند مالوك (مهرج - ٧٠٢) - أول دخول الإسلام إلى شرق إفريقيا . بداية عزلة الجليشة .	طامة شواطئ العرب من قراصنة الجليشة - استولى المسلمون على جزر الهند مالوك (٧٠٢) . حروب المسلمين مع البيزنطيين في آسيا - الهضري (٧٤١) . اغلاقه العباسية (٧٥٠) .	طارق بن زياد يفتوح أسبانيا (٧١١) (الأندلس) وتهديد فرنسا وأرربا الأندلس تنفصل عن خلافة الشرق تبدأ خلافة مستقلة في قرطبة (٧٥١)
التاسع	مخطوطات جديدة تفيد بوجود ملكة إسلامية في مقاطعة شوان في قلب الغصية (٨١٦) . انتشار الإسلام على طول الشاطئ الأفريقي (الطراز) .	استولى المسلمون على صقلية (٨٢٧) ونزلوا في نابولي وجزر إيطاليا وأعضوا البابا إلى دفع الجزية (٨٣٧) بدأ الهكروى والمسلمون الموالدون في انارة القلاقل في الأندلس (٨١٠، ٨٢١)	استيلاء العرب على صقلية وجزر إيطاليا وأرربا اضطراب البابا لنفخ الجزية (٨٣٧) .
العاشر	اضطراب الأحوال الداخلية - استبعاد الامبراطور بالبطريرك المصري لإبعاد معزلان لمساعدته في توحيد القبائل المسيحية . . وصل للمطران دانيال في أواخر القرن العاشر . أنشأ عرب الطليخ المصري من مستقط وهران مدينة مقدشيو . انتشار الإسلام بين قبائل البيضا في الأريتريا وشمال الجليشة . وتأثير ذلك في زيادة العزلة الجليشية .	استمرار الإسلام في الانتشار على الساحل الأفريقي الشرقي - والتفاعل إلى داخل الجليشة .	الامبراطور أدتو يهض بالامبراطورية الرومانية في الغرب (٩١٢) .

القرن الميلادي	تاريخ الطبيعة	التاريخ الإسلامي والشرق	التاريخ المسيحي والغربي
عشر الحادي	استمرار الانتشار التاريخي للإسلام واستمرار وجود دولة شوا الإسلامية في قلب هضبة الجبهة . السيطرة الإسلامية الكاملة على جميع الشواطئ الأفريقية الشرقية (الطراز) .	اضطهاد الحاكم بأمر الله - جميع رجائه - مسلمين ومسيحيين - عدمه للكائنات في القدس ثم إعادة بنائها - الاتجاه كثير من المسيحيين إلى الجبهة . الحاكم بأمر الله يأمر بحرق القاهرة (٩٩٦ - ١٠٢١) ضعف الفاطميين - وفقد المسلمين لصفية (١٠٧١) ثم ما لبثت (١٠٩٨) ثم طرابلس الغرب (١١٤٦) استيلاء الأتراك السلجوقيين على الشام وبيت المقدس وآسيا الصفرى واسادة معاملة الحجاج النصاري (١٠٧١) استولى الصليبيون على الشام وبيت المقدس (١٠٩٩)	النور مندوبون بثبوت وإن الخلاف بين المسلمين في صفية ويستولون عليها (١٠٧١) الجملة الصليبية الأولى (١٠٩٦) الاستيلاء على بيت المقدس وأعمال القتل والنهب وحرق المسلمين في النار (١٠٩٩) اضطراب الأحوال في الأندلس وبداية النهاية للقرية الإسلامية (١٠٨٣) واستجدادهم ببربر مراكش . استمرار الحروب الصليبية في أوج حملاتها تحت قيادة ريموند قلب الأسد - وفردريك بارباروسا - وفيليب الثاني
الثاني	استيلاء الأميرة (الأجورية) على المشرق (١١٢٧) اخلافا مع السكينة . مع الكنية (١١٩٠ - ١٢٢٥) هبة الملائكة ليليا الأجرى وفاقته استمرار الإسلام في الانتشار .	استرداد السلطان صلاح الدين الأيوبي للقدس (١١٨٧) - ويتمد سلطاناه على اليمن والحجاز وسوريا والسودان - ويطرده الصليبيين من أغلب معاقلهم في الأراضي المقدسة . حياة صلاح الدين للأجاش في القدس . واصلاح دبر السلطان (الجيشي) :	استمرار الحروب الصليبية في أوج حملاتها تحت قيادة ريموند قلب الأسد - وفردريك بارباروسا - وفيليب الثاني

التاريخ المسيحي والتاريخي	التاريخ الإسلامي والتاريخ	تاريخ الجبهة	القرن المبادئ
<p>استمرار الحروب الصليبية.</p> <p>الحملة الرابعة على مصر (١٢٠١)</p> <p>الحملة الخامسة على مصر (١٢١٨)</p> <p>الحملة السادسة (١٢٤٨)</p> <p>الحملة السابعة (١٢٤٩-٥٤١)</p> <p>الحملة الثامنة (١٢٧٠)</p> <p>محاولة الصليبيين الاستمارة</p> <p>بالجبهة للقيام بحرب مشتركة</p> <p>ضد مصر والمسلمين .</p> <p>ابتداء عصر النهضة في أوروبا</p>	<p>ابتداء تفكك مملكة النوبة المسيحية على أثر حروبها مع لاطين مصر وفتح نوبة لمعاهدات البقطة (١٢٨٩).</p> <p>بقاء غزاهة وحدها مزمجرة داخل أسبانيا (١٢٣٢ - ١٤٩٢)</p> <p>زحف التتار على البلاد الإسلامية (١٢٥٠)</p> <p>انتصار الممريه عليهم في موقعة عين جالوت (١٢٦٠) في عهد الظاهر بيبرس</p> <p>انتصار جديد للمسلمين على الصليبيين واسترجاعهم طرابلس الشام وسكا وزوال الخطر الصليبي (١٢٩٠)</p> <p>انحياز المسيحيين في الدول الإسلامية إلى الصليبيين - تأييدهم للتتار عاندهم الناصر قلاوون إلى اصطفاة المسلمين (١٢٠٩-١٣٤٠)</p> <p>وكان الإنبا، اصطفاة الامير طور صمصاميون لمسلمي الجبهة اثره في ذلك ابتداء الامبراطورية الشامية واستمرار فوجاتهم إلى داخل أوروبا</p>	<p>ابتداء عهد الاميرة السلجانية (١٢٧٠) ، بالامبراطور بيكونو املاك.</p> <p>الروثية التاريخية المكننة حديثا تهدد بأن مملكة شوا الإسلامية تتعرض للمغاب - وسقوط ملوكها - وزحف قوات مملكة إيفات الإسلامية الناشئة عليها (١٢٣١ - ١٢٨٩) .</p> <p>اتصال ملوك الجبهة بالصليبيين للقيام بعمله مشتركة ضد مصر والعالم الإسلامي .</p> <p>اتصال البابا بمملكة الجبهة اتحاف ضد الدول الإسلامية عهد عهد اسبون (١٢١٤ - ١٢٤٤) واصطفاة للدين وعارثهم والانتصار عليهم .</p> <p>استعداد مسلمي الجبهة سلطان مصر وأبناء عبدة الربيع (١٢٣٢ - ١٢٣٨) .</p> <p>عهد الامبراطور سيف أرعد واتصاره على المسلمين وانتهاء سلطانه إيفات الإسلامية ، وحلول سلطنة عدل عليها .</p>	<p>الثالث عشر</p> <p>الرابع عشر</p>

العصر البلادي	تاريخ الجليطة	التاريخ الاسلامي والشرق	التاريخ المسيحي والغربي
الحامس عشر	مندوب ملك الجليطة إلى ملك الفريجة يعرض عليه غزوه مصر (١٤٢٥) في عهد الملك اسحق (١٤١٤-١٤٢٩) عهد الملك زده يعقوب - بلغت الاسرة السلجانية أوج مجدها (١٤٢٤-١٤٦٨) انتصر على المسلمين ووجد عمادته للمرة الاولى . في عهد زده يعقوب زادت الاتصالات الرسمية مع الدول المسيحية في أوروبا وخصوصا مع الملك الفرنسي ملك أراجون	انقضاء المصريين من قبرص واستيلائهم عليها (١٤٦١) فتح القسطنطينية (١٤٥٣) سقوط غرناطة آخر ممالك المسلمين في أسبانيا (١٤٩٢) وابتداء دولتها أسبانيا الموحدة تحت حكم فرديناند وإيزابيلا . بداية صعود الاضطهاد الكبير للمسلمين في أسبانيا وهرولهم من البلاد - والقضاء على ثلاثة ملايين مسلم .	اتحاد دول أوروبا وتناسي الخلافات لمواجهتها لخطر الاسلامي المتنامي . وعقد مؤتمر فلورنسة (١٤٢٩) (١٤٤١) وحصره وفده من الجليطة . استيلاء المسيحيين على جميع أسبانيا وطرد المسلمون بداية للتشاطا لبر تنال بارثولوميو دياز مكتشف رأس الرجاء الصالح (١٤٨٦-١٤٨٨) حمله فانسكو دي جاما إلى الشرق (١٤٩٧-١٤٩٩) ملك البر تنال جونا الثاني يوفد الرسل إلى ملأ الجليطة اكتشاف أمريكا (١٤٩٢)
السادس عشر	هيبنا ملكة الجليطة تبادر لانتعاش ملك البر تنال على حرب المسلمين بعد ان اذدادا انتصارهم (١٥٢٠) وصول أول حملة عسكرية برتغالية ويزولها في مصوح وحوالت المسجلة الى كتيبة (١٥٢٠)	استيلاء العثمانيين على الدوالا اسلامية، سورياء ومصر (١٥٠٦) الجزائر (١٥١٨) تونس (١٥٣٤) صند (١٥٤٣) مسقط وطرابلس الغرب (١٥٥١) اليمن (١٥٨٨) امتداد سيطرة العثمانيين إلى قلب أوروبا ووقوفها أمام فيينا (١٥٢٩) واستيلائهم على الجزائر .	معركة بحرية بين أسطول البر تنال والأسطول المصري أمام ميناء ديواندي وانتصار البر تنالين (١٥٠٩) . كنيسة روما توجه عناية خاصة بالجليطة وتخصص مركزا خاصا لها في روما (١٥٢٩)

التاريخ المسمى والتعريف	التاريخ الإسلامي والتعريف	تاريخ الجيعة	القرن الميلادي
<p>البرغثانيون يرسلون الحملة العسكرية لمساعدة الجيعة (١٥٤٢) .</p>	<p>العثمانيون وشريف مكة يرسلون حملة عسكرية لمساعدة الإمام أحمد - دعوة الحملة مباشرة بعد الانتصار الأول على البرغثانيين .</p>	<p>ظهور الإمام أحمد ابن ابراهيم الاشول وأول نصر كبير له على الأحياء (١٥٢٩) استيلائه على ديارو وشوا (سنة ١٥٣١) استيلائه على أموره الخ (١٥٣٢) إتمام سيطرته على جميع أنحاء الجيعة (١٥٣٧) - وانتشار الإسلام في جميع أنحاء الدولة .</p> <p>وصولا لرحلة البرغثانيون التي استشهد بها الأمير اطور الجيعة (١٥٤٢) العثمانيون وشريف مكة بما دونون الإمام فغتنصر على البرغثانيين - وتعود القوات الإسلامية إلى بلاد العرب فيعود دابرغثانيون ومهم الأمير اطور وينتصرون على الإمام ويقتلوه (١٥٤٢) ،</p> <p>نهاية النزوة الكبير وعودة الممكة المسيحية فوق هضبة الجيعة إلى سابق عهدها - وبقاء البرغثانيين بها للمساعدة في تعويضها .</p>	<p>تابع السادس عشر</p>

القرن السابع الميلادي	تاريخ الجبنة	التاريخ الإسلامي والشرق	التاريخ المسيحي والغربي
عشر	أصبح ثلث سكان الجبنة من الجبال وقد دالما عدد المسلمين بناك السكان (١٦٢٤ - ١٦٢٣) . يقر يوحنا ملك الجبنة قواعد <u>التفرقة الدينية</u> ويبدأ سلسلة الاضهاد فيحرم المسلمين من تملك الأراضي ويفرض على جميع السكان اعتناق المذهب الأرثوذكسي (١٢٨٢) .	المغانيون يهزمون أمام البندقية (١٦٥١) الأسطول الفرنسي يضرب الجزائر وتونس (١٦٦٥) . ينسحب المغانيون من كينيف (١٦٨١) ومن الحجر (١٦٨٣) ومن بلنراد (١٦٨٨) . وتستمر الحروب بين المغانيين والدول الأوروبية ، استعمر أر حروب المغانيين مع الدول الأوروبية — وبداية تفكك الامبراطورية المغانية . الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨)	[تسام القضاء على جميع المسلمين من أسبانيا (١٦١٠) ازدياد قوة الدول المسيحية برابجو . واتصالهم على المغانيين . أفواج المهاجرين إلى أمريكا (١٦٢٠) . الثورة الفرنسية (١٧٨٩) .
الثامن عشر	ازدياد تعداد الجبال ولبرغهم نصف السكان — تعزيزهم لفصحتهم باعتناهم الإسلام . الانقسامات الاقليمية في المملكة - وهزتهم أمام قوات ملكه الفونج السودانية (١٧٤٤) . ضباع هية المارك عما اضطرم إلى التقرب من الجالا ومصاهرتهم لفرط ملكهم . ازداد نفوذ الجالا وتجددت الفرص أمام الإسلام للبريد من الانتشار وخصوصا في قلب الغصنة .		

تاريخ المدينة

استمرار انقطار الاسلام بين قبائل الجبال والبا تتر
وبين بعض قبائل التيجري في الأريتريا .
عهد الإمبراطور تيودور الذي أضعف جميع البلاد
وأصبح إمبراطورا (١٨٥٥) وانقلب حكمه إلى
سلطانية الاختيالات والظلم والحيلولة - وقام باقتال
عدد من الأوربيين .
اختفى المسلمين والجبالا بالزيد من الاضطهاد القاسي .
أرسلت بريطانيا حملة نابيير التي هزمت قوات تيودور
وانتصر (١٨٦٨) .
قول يوحنا الرابع المرش واعتمد على الاسلام
الكهنة التي تركها له اجله البريطانية كهدية للفتح
على منافسه وثبتت ملكه .
قام يوحنا بجولة هائلة من التعميد الديني والاضطهاد
للمسلمين وفرض عليهم أقسى القيود مستملا ماله
من اسلحة حديثة .
حصل له على زبد من الاسلحة من روسيا
اثبتك في مشاركتهم الإيطاليين - ومع قوات المهدي
انتهت هزيمته وتلقته في موقعة التفة (١٨٩١) .

التاريخ الإسلامي والعرق

عهد علي بن أبي حكيم مصر (١٨٠٥) وبنك بابا بك
(١٨١١ - ١٨١٢) مؤيد على الرومانيين (١٨١٢ - ١٨١٨)
وبفتح السودان (١٨٢٢) .
عهد علي بنصر على الشاين مرة في (١٨٢٢) مرة
أخرى في (١٨٢٩) .
عهد مارومت فوت عهد على الحدود والمدينة (١٨٢٢)
عهد قاسم الدول الأودوية .
عهد اسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) امتداد
الإمبراطورية المصرية فشملت السودان وأوغندا
وجميع الشاطئ الأفريقي (١٨٦٦) حتى جنوب
الصحراء وهور (٨٧٥) .
لكلة الإمبراطورية المصرية حاربوا إسماعيل
عازبة الجبل فكانت نصيبه الموزعة ثلاثة مرات .
انبار المانية المصرية - موقع الخديوي فريية
للإجانب وعلى الاخص البريطانيين .
عهد توفيق (١٨٧٩) ثم ثورة عرابي واستيلاء
بريطانيا على مصر (١٨٨٢) وأجبار الجبرش
المصرية على الانسحاب من شرق أفريقيا (١٨٨٥) .

التاريخ المسيحي والعرق

تنافس الدول الأوروبية على المستعمرات
ومناطق النفوذ في أفريقيا - وكان
لبريطانيا نصيب الأسد .
حملة نابيير (١٨٦٧) لاحتلال
الأسرى الأوربيين في الحبشة ، وبعد
انتصاره على تيودور في معركة جبالا -
وانتصار الإمبراطور (١٨٩٨) تركت
هدية خليفته الملك يوحنا صارقة في كيات
هائلة من الاسلحة والذخيرة الحديثة .
بريطانيا تنزير فرستو صابا المانية على مصر
وتعين أبنائها في أهم المناصب ومناحكم
للحفاقات المصرية في أفريقيا وأشهرهم
جوردون الذي تمكن من إبعاد جميع القوات
المصرية والعمال على نصفية الإمبراطورية
المصرية - وفوز بريطانيا بنصيب الأسد بها .
احتلال البريطانيات مصر (١٨٨٢) وقصفها
بأبوابها على القوة المسلحة المصرية وقوة نصفية
الجيش والبحرية المصرية واستبدلتها
على أوغندا والصحراء البريطاني .

القرن العاشر	تاريخ الحبيشة	التاريخ الإسلامي والشرف	التاريخ المسيحي والغربي
تابع التاسع عشر	لم تنتقل قسوة يوحنا واضطهاده في تحويل المسلمين عن دينهم. بل ازداد اعتقاداً . ملك على شوا (١٨٦٥) حصل على أسلحة من الإيطاليين وبدأ في إخضاع السلطنات الإسلامية استولى على هر التي تركها له الدول الأوروبية بدون جاذبة ١٧٨٧ ملك أصبح امبراطوراً (١٨١٩) وورث المقادير الخاملة من الأسلحة التي كانت لدى سلفه . فأسرع في القضاء على باقي السلطنات الإسلامية وأخضع جميع أنحاء الحبيشة تحت سلطانه معامدة أو شيالي مع إيطاليا وحصوله على المزيد من الأسلحة أهم انهضاته على المسلمين كانت على السلطان محمد علي الذي الذي تنصر (ظاهرياً) وتزوج من ابنة الامبراطور . حرباً مع الصلياني التي انتهت بانتصاره الحاسم في معركة عدوه (١٨٢٦) . أهم أعماله نجاحه في القضاء على سلطة الجالا وشو كدتم .	تتفكك الدول الكبرى الامبراطورية المصرية وتترك هر ليستولى عليها ملك (١٨٨٥) . امتداد ثورة المهدي في السودان وقتل جوردون عميل بريطانيا الذي مهد لزوالة الامبراطورية المصرية (١٨٨٥) افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) وفتح الباب لسهولة تنفيذ الخطط الاستعمارية السابقة الذكر . كتفتنر يتنصر على المهديين في السودان (١٨٢٦) وتم مؤامرة بريطانيا في الاشتراك مع مصر في حكم السودان وصو رباو لكها تنفرد بالحكم الفعلي وتستولى على أوغندا . عدن تصبح مستعمرة بريطانية ١٨٣٩	تعرش الإيطاليين بجنايلك وانتصاره عليهم في موقعة عدوه (١٨١٦) . بالرغم من معارضة الدول الأوروبية لملك . فإنه بعد انتها مهمته في القضاء على السلطنات الإسلامية وأخضاعه لقبائل الجالا بدأت الدول الأوروبية في التنافس والتآمر وعقد المعاهدات السرية لتقسيم الحبيشة إلى مناطق نفوذهم - عندما اعتلت صحة ملكك وتقسم في السن .

القرن البلادي المشرق	تاريخ الحبشة	التاريخ الإسلامي والشرق	التاريخ المسيحي والفرقي
<p>الأمير طور المسلم (ليج باسو) يتولى العرش (١٩١٣) ويعلن إسلامه .</p> <p>تآمر الدول الأوروبية مع أمراء شوا ومطران الكنييسة على عزله وتم ذلك في (١٩١٦)</p> <p>تعيين زاوديتو امبراطوره ، والرأس تقرى وليا للمهد ووصيا على العرش .</p> <p>تقرى يقف في عصية الأمم ويندد بالدول الأوروبية التي تعقد المعاهدات السرية لتقسيم بلاده إلى مناطق تقود لهم (١٩٢٩) .</p> <p>عندما أصبح تقرى امبراطورا (جلاسلاسي) منح البلاد دستوراً صوريا (١٩٣١) .</p> <p>عمل في حكمه ودهاء على حرمان المسلمين من الوظائف والتمثيل والخدمة في الجيش والشرطة في اضطهاد بالغ مع تظاهره بالتسامح الديني</p> <p>الاحتلال الإيطالي (١٩٣١) كرمافرة هيلاسلاسي للبلاد مع طائفة من رجال البلاد .</p> <p>الإيطاليون يعملون في مهمة ونشاط في تنفيذ المتمرعات والكبرى ، لتكوين الحبشة ومناثا لهم يهدم عتلا إيطالياين عاد الأمير طور الى عرشه في (١٩٤١) .</p>	<p>انجلترا تمان الحايقة على مصر (١٩١٤)</p> <p>اتباع الايطاليون سياسة المساواة في المعاملة بين المسلمين والمسيحيين في الحبشة فوجد المسلمون في هذه المساواة منغسلهم وتحسنت أحوالهم تحسنا موقفا .</p>	<p>قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) .</p> <p>عندما أعلن ليج باسو إسلامه - اتهمه الحلفاء (انجلترا - فرنسا - إيطاليا) بأنه جاني الألائن .</p> <p>وتخزرت جيوشهم ضده في بربره وجيئوني ومهوج حتى تم عزله (١٩١٦)</p> <p>الدول الأوروبية تنفق على تقسيم الحبشة إلى مناطق تقود - ويقف منها الرأس تقرى في عصية الأمم موقفا حاسما (١٩٢٩) .</p> <p>استعداد الإيطاليين لغزو الحبشة وتركوا المعدات الحربية والمدينة في الارتيريا .</p> <p>إيطاليا تغزو الحبشة (١٩٣٦) وعصية الأمم تعجز عن تقديم أي مساعدة .</p> <p>محارلة إيطاليا تحويل الكنييسة الحبشية إلى المذهب الكاثوليكي تدريجيا ولكنهم انفلتت في ذلك .</p> <p>قيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩)</p> <p>بريطانيا تجرد حملة من ثلاثة جهات وتقتضي على الاحتلال الإيطالي في الحبشة (١٩٤١) :</p>	

التاريخ المسيحي والغربي	التاريخ الإسلامي والغربي	تاريخ الجبهة	القرن الميلادي
<p>محاولة بريطانيا للحصول على امتيازات إقليمية في الجبهة ولكن الامبراطور رفض وبمسد استمرار الخلاف مدة من الوقت عقدت معاهدة (١٩١٩ / ١٢ / ١٩٤٤) .</p> <p>الدول الأوروبية وأمريكا تتسابق في تقديم المعونات الخفيفة للجبهة سواء داخل البلاد أو خارجها . وتعمل جاهدة على تأييد الجبهة في حصارها على المركز الواحد بين الدول إفريقيا الثالثة . وتعتمد عليها في الحصول على حليف قوي يحفظ لها سلطانها غير المباشر على شئون إفريقيا جميع الظواهر تدل على أن الدول الأوروبية وأمريكا سوف تعمل على بقاء الإوضاع في الجبهة على الصورة الراهنة تحت أي ظرف من ظروف المستقبل .</p>		<p>عودة الامبراطور إلى اضهاد المسلمين مع الظاهر بالتسامح - وعادة إلى حرمانهم من التعليم والثوائف والجيش .</p> <p>في تقرير مصير المستعمرات الإيطالية ، تقرر بدمر راع خفيف وبعد تأييد الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا أن تقيم الارتيقيا إلى الجبهة في اتحاد فيدرالي (١٩٥٠ / ١٢ / ٢) وأن يكون حلا مستورا لها كيانها المستقل . ولكن الامبراطور تمكن من القضاء على حرياتها وأصبح دستورها جبراعا على ورق .</p> <p>الحالة الداخلية في البلاد لا زالت على ما كانت عليه من أقدم المهور . في أقصى درجات التخلف .</p> <p>الانقسامات لا زالت مسيطرة على أشدها - أجناس وطوائف ولغات وأديان ومناطق - كلها متنافرة .</p> <p>العقاب لشقف غير لاض عن حكم الامبراطور وحاول القيام بالثقل (١٩٢٠ / ٢٠ / ١٩٦٠) ولكن فشل وعاد الامبراطور إلى عرشه</p>	<p>تاسع المشرين</p>

(ملحق رقم ٢)

جدول عناصر سكان الحبشة وأديانها

(مترجم عن ص ١٢ - من الاسلام في اثيوبيا لترممنجهم)

اليهودية	الوثنية	الاسلام	المسيحية	شمال
		القبائل التي تشكلم التبجري بنى عامريت أسجد - منساع بيت جوك. بيلين (بوقوس) جبرى	الحبشة (الحمايين ، اكيله ، جوازي شيرزانا (وسراى) منساع - بيلين - بوقوس	قبائل كوش العليا
فلاحة (كايلا)	قامانت	جبرى	الاحباش (تبجري - أمبرا جوجام وشوا - آجاو	وسط
	جوارجى سيداما القرية (أو ميتو وبعض القبائل الشرقية والشمالية)	جوارجى سيداما الشرقية (تامبارو هدية ، جارو وألأبا	جوارجى سيداما (كفيشو ، كامبانا شايو ، والامو ، ياما)	جنوب
	قبائل ليغا قائل عروس قبائل بوران	١ - والفو الشمالية - ييجو - رايا ٢ - الجالا (بين الجوارجى والنيل الازرق) ليو - جيرا جوما - نونو - بونو - جينا ٣ - مقاطعة هررر لاسفوهي باسو - ايتو - ايليا ٤ - العروسي	والفو - قبائل شوا (اهيشو جوميشو - جالان - تولانا هورو صحراء جينا - سيبو - شيل - ليدان - ميشا - ميتا يشيو - كيككو - هيللو - سودو - سايو - أامايا)	الجالا (أدروما) قبائل كوش الدنيا
		عفر (الدنا كل) آسا - مارا - آرومارا . سامو - أساورتا - هازو مبق فير - تيرو الخ	سامو - ليروب - لآب هال (رمبريلا)	عفر سامو
	جويراميجا - كارارا سرار - جورى	صومال - دارود - هاوية رها نونين		صومال
	كونامار جونزا - جوبا - سورى - كومو - جيرا نوير - ماو - ماجانويبو - مكان - داما تو كانا - كونسو - جاردولا - بعض مجموعات البانتو	كوناما - باريا - وايتو بنى شنفول - برتا - وطلاويط جاموشا - باتنو - شيدلا شاييلى الخ .	كونامبا	زنج

ملحق رقم (٣)

تقديرات تعداد سكان الحبشة

١ - تقديرات الادارة البريطانية لسكان الاريتريا (١٩٥٢)

الجملة	وثنيون	مسلمون	مسيحيون	
٥٢٤٠٠٠	٠٠	٣٧٠٠٠	٤٨٧٠٠	Tigrinyans تيجرينا
٣٢٩٠٠٠	٠٠	٣٢٢٠٠٠	٧٠٠٠	Tigray تيجري
٤١٠٠٠	٧٠٠٠	٣١٠٠٠	٣٠٠٠	Baria & Kunaama باريا وكونااما
٢٣٠٠٠	٠٠	٣٣٠٠٠	٠٠	Danakil دناكيل
٦٦٠٠٠	٠٠	٦٤٠٠٠	٢٠٠٠	Saho ماهو
٣٨٠٠٠	٠٠	٢٧٠٠٠	١١٠٠٠	Belain بيلين
١٠٣١٠٠٠	٧٠٠٠	٥١٤٠٠٠	٥١٠٠٠٠	

٢ - تقدير الايطاليين سنة ١٩٢٠ :

وثنيون	مسيحيون	مسلمون		
	٢,٠٠٠,٠٠٠		٢,٠٠٠,٠٠٠	الاحباش
١,٠٠,٠٠٠	٢,٢٥٠,٠٠٠	١,٩٠٠,٠٠٠	٢,٢٥٠,٠٠٠	جالا
٦٥٠,٠٠٠	٢,١٠٠,٠٠٠	٢,١٠٠,٠٠٠	٢,٨٥٠,٠٠٠	الزنوج
		٢,٤٥٠,٠٠٠	٢,٤٥٠,٠٠٠	الصوماليون
٥٥٠,٠٠٠	٢,٥٥٠,٠٠٠	٢,١٠٠,٠٠٠	٢,٢٠٠,٠٠٠	سيدامو
		٢,٠٤٠,٠٠٠	٢,٠٤٠,٠٠٠	عفر (الدناكل)
٨٠٠,٠٠٠	٢,٦٠٠,٠٠٠	٢,٥٩٠,٠٠٠	٥,٩٩٠,٠٠٠	

٣- دليل أفريقيا الإيطالية الشرقية Guida dell' Africa Orientale Italiana
عام ١٩٤٠ :

٢٢٤٠٠.٠٠٠	الاجاش الاصليون (بما في ذلك الاجا والبجه)
٢٢٥٠.٠٠٠	الجالا
١٢٤٠٠.٠٠٠	صوماليون
٠.٢٠٠.٠٠٠	سيداما
٠.١٥٠.٠٠٠	غفر ساهو
١.٠٠٠.٠٠٠	زنوج
<u>٠.١٠٠.٠٠٠</u>	اسيويون وأوروبيين (مقيمين بصفة دائمة)
٧.١٠٠.٠٠٠	

٤ - تقدير وزارة التجارة الاثيوبية (١٩٥٤) :

١.٠٠٠.٠٠٠	مقاطعة أروسي
١.٨٠٠.٠٠٠	بيجمدير
٠.٩٠٠.٠٠٠	جيموجوفا
١.٦٠٠.٠٠٠	جوجام
١.٦٠٠.٠٠٠	هرر
١.٣٠٠.٠٠٠	ايليو بابور
١.٢٠٠.٠٠٠	كاما
٢.٠٠.٠٠٠	شوا
١.٢٥٠.٠٠٠	سيدامو
١.٠٠.٠٠٠	تيجري
١.٠٠٠.٠٠٠	ولاجا
١.٠٠٠.٠٠٠	واللو
<u>١.٠٠.٠٠٠</u>	اريتريا
١٦.٨٥٠.٠٠٠	

٥ - تقدير ترمنجهام (١٩٥٢) - (ص ١٥) :

المجموع	وثنيين	مسلمين	مسيحيين	
٧٦٥٠٠٠٠	١٦٥٠٠٠	٢٥٩٠٠٠٠	٠٢٩٠٠٠٠	الأريتريا
٢٢٦٠٠٠٠٠		٢٠٠٠٠٠٠	٠٩٠٠٠٠٠	الخبشة
١٥٠٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	٠٢٠٠٠٠٠	الجالا سيداما
١٥١٧٨٣٢	٤٣١٦٦٣	٧٨٠٠٠٠	٠٢٠٦٠٠٠	هرر
٥٠٠٠٠٠		٥٠٠٠٠٠		ودنا كل
١٥٥٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	٧٥٥٠٠٠		جبور شمال غربي
٤٩٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	حدود جنوب عربي
٧٧٣٧٨٣٢	١٧٨١٦٣	٢١٠٤٠٠٠	٢٨٤٦٠٠٠	

٦ - تقدير كيرك Middle East in War by George Kiok (ص ٢٧٧) :

تقدير (١٩٣٠)	{	أقباط مصر	١١ مليون
		مسيحيي الخبشة	٢٦ مليون
		مجموع سكان الخبشة	٦٠ مليون

ملحق رقم (٤)

مراجع عربية

- ١ - السودان الشمالى - للدكتور محمد عوض محمد .
- ٢ - تهذيب سيرة ابن هشام - للدكتور عبد السلام هارون .
- ٣ - تاريخ الاسلام - للدكتور حسن ابراهيم حسن .
- ٤ - السيرة الحلبية .
- ٥ - ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين .
- ٦ - نهاية الأرب - الجزء السادس والثامن عشر .
- ٧ - بين الحبشة والعرب للدكتور عبد المجيد عابدين .
- ٨ - تاريخ الطبرى .
- ٩ - صبح الأعشى للقشلقندى الخامس والسادس والثامن .
- ١٠ - النجوم الزاهرة - الجزء الرابع .
- ١١ - طائفة الدروز - للدكتور محمد كامل حسين .
- ١٢ - الدعوة للإسلام للسير توماس ارنولد ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن .
- ١٣ - العصر المماليكى - للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
- ١٤ - حضارة العرب لغوستاف لوبون - ترجمة الاستاذ عادل زعيتير .
- ١٥ - مختصر دراسة التاريخ لارنولد تونبي - ترجمة الاستاذ فؤاد شبل .
- ١٦ - مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية لاستاذ محمد صبيح .
- ١٧ - يوم الاسلام للاستاذ أحمد أمين .
- ١٨ - الاسلام في القرن العشرين للاستاذ عباس محمود العقاد .
- ١٩ - الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
- ٢٠ - تاريخ العرب لفيليب حتى .
- ٢١ - تاريخ القطن الاسلامى لجورجى زيدان .
- ٢٢ - الاسلام فى اثيوبيا لزاھر رباح .
- ٢٣ - تاريخ العالم - الجزء السادس .
- ٢٤ - عصر اسماعيل للاستاذ عبد الرحمن الرافعى .

- ٢٥- تقويم النيل لامين سامى باشا .
٢٦- مصر والسودان - للدكتور محمد فؤاد شكرى .
٢٧- الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر - الدكتور شوقي
عطا الله الجمل .
٢٨- الخليج العربى والعلاقات الدولية للدكتور محمود على الداود .
٢٩- مصر فى افريقيا - للدكتور محمد صبرى .
٣٠- الحبشة للدكتور راشد البراوى .
٣١- تاريخ أوروبا الحديث تأليف فيشر وترجمة أحمد نجيب هاشم .
٣٢- كتاب المسلمين فى الحبشة للاستاذ تيسير غليان الكيلانى .

ملحق رقم (٥)

مراجع اجنبية

- (1) A History of Ethiopia, Sir E.A. Wallis Budge (1928).
- (2) Ethiopia Today : By Ernest Luther (1964)
- (3) The Ethiopians : By Ullendorff, Edward (1960)
- (4) Islam in Ethiopia : by J. Spencer Trimingham (1952)
- (5) Le Terre Del Lago Tane . by Raffaele Di Lauro.
- (6) Encyclopedia Britannica.
- (7) Storia D'Ethiopia , by Conti Rossini .
- (8) Islam and the Arabs . by Rom Landaw (1958).
- (9) Preaching of Islam . by Sir Thomas Arnold.
- (10) A History of The Crusades . by Sir Steven Runciman.
- (11) Portugal in Africa . by James Duff.
- (12) The Blue Nile . by Alan Moorehead.
- (13) Inside Africa . by John Gunther.
- (14) In the Country of the Blue Nile . by C. F. Roy.
- (15) The ETHIOPIAN CRISIS . by Ludwig Schaefer.
- (16) The Middle East in the War . by George Kirk.
- (17) Government of Ethiopia . by Perham.
- (18) Economic Backwardness & Economic Growth
by Harvey Leibenstein.
- (19) Demographic Year Book U.N. (1962)
- (20) Gnida dell Africa Orientale,

فهرست الاعلام والاماكن

اسحق - ملك الحبشة ١٠٤-١١٩	(١)
اسماعيل - الخديو ٢٠١-٢١٦-٢٢٢	أباى - النيل الأزرق ١٢
أصحمة ٥١-٥٤	أبا باغيو ١٦٥
أصفاوصن - الأمير ٣٠٩-٣١٢	أبرهه ٤١-٤٣-٤٤
أكسوم ٨-٣١-٤٨	أبو بكر محمد سلطان هرر ١٤٩
ألفونسو دالبورك ١٠٥-١٤٤	أبو بكر باشا ٢٢٤
ألفونس - ملك أراجون ٩٠٥	أثينا سيوس ٤٠
أميرا ٨-٦١-٩٧٨	أجام ديدلى ٢٩
أمانويل - ملك البرتغال ١٤٣	أجاو ٢٢-٦٠-٦٦-١٨٧
أما ألاجى ٢٥٠	أحد الامول الإمام ١٥٠-١٥١
أميليو دى بونو - للمارشال ٢٧٠	١٥٤-١٥٥-١٥٦-١٥٧
أوجادين ٢٧٣-٢٨٩-٢٩٣-٢٩٤-٢٩٥	١٥٩-١٦٦-١٦٨-١٧١
أوريان الثانى - البابا ٩٥	١٨٦-٢٠٦
أوغندة ٢٠٠-٢٢٠	أديس أبابا ٢٤٧-٢٧٥
أولندورف ٧-٢٩-٣٤	أراينى ٨٧
١٦٣-٣٤٤	أراجاش ٢٤٣
أوشياالى - معاهدة ٢٤٨-٢٧١	أرحه ٥٤
إيدن ٢٧٣-٣٧٨	أرنولد - سيرتوماس ٦٩-٩٢
إريديسيوس ٣٩	٩٤-١٠٢-١٦٣
إيزابللا - ملكة قشتاله ١٣٤	إريتريا ٧-١٨-١٨٤-٣١٥
إيفات ٨٤-١٠٨	إرياط ٤٠-٤٣
أيللا أصبحه ٤٠	إزانا ٣٨

۱۳۸-۹۵	بطرس الناميك	(ب)	
۱۱۹-۱۰۴	بطرس لوزنجان	۸۸-۱۸	بالی
۲۸۵	بلات - الجنرال	۷۷	بازین
۳۳	بلقیس	۱۸۳-۱۷۸-۱۲۶-۱۸	باجدیر
۱۹۱-۱۸۸-۱۸۴	بلاودن	۲۷۵	بادولیو - المارشال
۲۱۳-۲۰۶		۱۴۳	بارتولومبو دیاز
۱۳۵	بلیدا - الراهب	۱۴۱	بایزید الاول - السلطان
۲۱۳	بندیقی (القنصل)	۶۰-۲۳-۲۰	بیجه - بیجا
۷۹	بیرس (السلطان الظاهر)	۲۱۰-۱۸۴-۸۱-۷۱	
۱۳۹-۱۲۲-۱۱۴-۹۸		۱۵۵-۵۳	بجر نجش
۱۱۴	بیلان	۱۳	بجر دار
۱۹۱	بیل	۹-۶	بدج - سیر والس
۱۰۴	بورکییر	۱۱۹-۸۶	
۲۹	بیبی الاول	۱۱۱	بدر الجمالی - الوزير
۱۴۱-۹۵-۴۵-۴۰	بیزنطه	۱۷۲	بدرو بایز
		۳۱	بردی الیفاتین
(ت)		۱۲۰-۱۱۸	برسبای (السلطان)
۱۲۰	تبریزی - نور الدین	۸۱-۷۷-۱۴	برکک
۱۶۳-۸۴-۸۰-۱۱	ترمنجهام	۵۵-۳۵-۸	بروس
۳۴۲-۲۶۵-۱۶۶		۱۵۸-۱۴۵	برسترجون
۱۵۶-۱۵۴-۱۲	تسانا	۷۷	بقط
۲۴۹	تساما - الرأس	۷۷	بقلین

١٢٧ جمال الدين (السلطان)	٢٣٦ التمايش
٩٤ جوينو	٢٦٢-٢٦١-٢٥٩ تفرى - الرأس
٢٠١-١٠٠ جوردون - الجفرال	١٣ تسكازى
٢٣٠-٢١٩ جوبا	١٠٦ تسكلاهيما فوت
٢٢٢-١٣ جوجام	٢٤٦ تورهان كاهان - المنسبور
٦١-٨-٩ جوجام	٨٠-٦١-١٨-٨ تيجرى
١٧٨-١٢٦ جوكما - الرأس	١٨٨-١٨٤-١٥٦
٢١١ جوفنار	٣٠٤
١٧٨-٩ جيون	١٤٠-١٣٩ تيمور لك
٢٨٧-٢٥٣ جون الثانى - ملك البرتغال	١٨٢-١٧٠ تيودور - الامبراطور
٢٤٥ جون جندر	٢٤٠-٢١٢-١٨٩-١٨٧
٣٤٢ جيبوتى	(ج)
٢٧٢-٢٣٢-١٠ جيج جيجا	١٣ جاش
٢٩٥-٢٥٧ جيجا	١٦٠ ١٥٢ ٢٥ جاللا
١٨٢-١٦ جيجا	١٧٩ ١٧٨ ١٦٢
(ح)	١٨٥ ١٨١ ١٨٠
٢٠ الخامين	٢٢٢ ٢٧ ١٨٨
٩٣-٦٤ الحاكم بأمر الله	٢٥٣
٢٩ ختشبوس	١٠٩ جبره - جبرى
٨١ خدارب - خدرات	١٤٦-٦١ جبر
١٢٧ حق الدين (سلطان)	٤٩ جعفر بن أبى طالب
١٠٤ خنا جيرمان	١٦٠-١٥٦-١٥٣ جلادويوس

۱۸۵	روبل	(خ)	
۱۰۶	روسینی - الکونت	۸۳ - ۷۱	خالد بن الولید
۱۴۵	رودریجو دی لیا	۱۵۴	خاله الوردی
۳۱۸	روباطینو - شرکه	(د)	
۳۹	رفینوس	۸۸	داره
۲۲۴ - ۲۲۲	رؤوف باشا	۳۴۵ - ۱۷۵	دالمیدا - مانویل
(ز)		۶۳	دانیل - المطران
۲۲	زاجوی	۲۷۹ - ۱۰۸	دبرا لیانوس
- ۲۴۱	زاودیتو (الإمبراطورة)	۶۵	درزی
۳۶۱ - ۲۵۹		۱۵۶ - ۶۳ - ۱۴	دناکل
۱۴۸ - ۱۲۹	زره یعقوب	۸۹ - ۶۸ - ۶۳	دهلك
۷۴	زنجبار	۴۳ - ۴۲	دوس - ثعلبان
۱۹۷	زولا	۲۶	دیدسا
۷۴	زید - الزیدین	۲۹۳ - ۲۵۸	دیر - داوا
۱۲۸ - ۸۸	الزلیعی - عبد الله	۲۷۸ - ۲۵۳ - ۲۴۳	دیمی
۱۱۰ ۱۰۹ ۸۹	زیلع	۱۴۶ - ۱۴۴	دیو
۲۷۳ ۲۲۱ ۱۱۵			
(س)		(ر)	
۲۱	سامین	۱۱۸	رانسیمان
۲۸۵	سانفورڈ - السکولونیل	۲۲۴	رضوان باشا
(۲۵ - الحیثه)			

صبر الدين (سلطان) ١٢٧٠ - ١٢٧٠	سعيد ياشا ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٥
صلاح الدين الايوبي ٩٧٠ - ٩٧٠	سليم الاول ١٤٢
صموئيل بيكر ٢٠١٢ - ٢١٩	سليمان الحكيم ٣٢٠
صوب مال ٧ - ٢٥ - ٢٢٢	سلافة (المطران) ٢٤٤
ص (ع) ٧٠ - ٧٠	السمعانى ٩٣
العباد - السلطان ٩٢٣	سهيوت ٢٢٥
عباس - الوزير ١٩٠	سولت - القنصل ٩٠ - ٣٥ - ٥٥
عبدوه ٢٥٠ - ٢٧١	٢١١ - ٢٣٠
عدل ١٠٩ - ١١٥ - ١٤٩	سيدامو ١٨ - ١٦٨
عروسي ١٨ - ١٦٣ - ١٨٣	سيفاً أراعد ١٢٨
عفر سامو ٢٧ - ١٦٠	سيفياً بانكهرست ٢٩٣ - ٣٢٣
على - الرأس ١٨٨	(ش)
عمداسيون ٨٦ - ٩٠ - ١١٠	شالية لوفج ٢١٩ - ٢٢٠
١٢٤	شيران ١٨٤ - ١٩٢
٢٢٣	شفانيفورت ٢٣٨
عمر القاضى - محمد ٢٢٤	شكيب ارسلان ٢٨١
(ف)	شوا ٩ - ١٨ - ٦١ - ٨٣
فاسكودى جاما ١٠٥ - ١٤٣	١٥٦ - ١٦٧ - ٢٤٠
القاسى - أحمد بن ادريس ١٨٤	شيانو - الكونت ٢٨٤
١٨٤	شيرولى ٨٣
١٨٧ - ١٩٠ - ٢٩٥	شيفيا ١٨٧ - ١٩٠ - ٢٩٥

(ك)			۱۷۳	فاسیلاداس - الامبراطور
۲۴۳	۱۶	کافا	۱۷۸	۱۷۴
۴۰		کالب	۱۴۴	فرانسیسکو دالمیدا
۲۰۲	۱۹۹	کاسا	۱۳۴	فردیناند - ملک أرجونه
۱۹۱	۱۹۰	کامیرون - کاپتن	۳۹	فرومنکیوس
۵۴	۳۴	کبر انجیست	۶۵	فهد بن ابراهیم
۱۵۶	۱۴۶	کریستوفردی جاما	۳۷	فلاشه
۲۳۳-۲۲۴-۱۹۲-۱۵۳-۱۳		کسلا	۶۹	فون کرم
۷۴		کلوا	۱۰۵	فیلیپ دی میزیر
۲۱	۵	کوش	(ق)	
۳۵۰		کولین لیجوم	۱۴۱	قایتبای - السلطان
۲۸۵		کونجهم	۱۲۹	قطر - السلطان
۱۴۵		کوفیلهم	۲۲۳	۲۱۷ قسایو
۱۹۲		کیرلس الرابع	۷۹	قلاوون (السلطان)
۲۲۵		کیرین	۱۲۷	۱۱۵۰ ۹۸۰
(ل)			۴۴	۴۱ القلیس
۶۷	۲۹	لالیلا	۱۴۸	۱۴۱ لغضوه الغوری
۲۵۳-۲۵۱-۲۴۳		لیج یاسو (الامبراطور)	۲۲۵	لغورج
۳۴۳	۳۴	۷ لوتر		

١٦٩	١٦٨	٦٣	مصوع	(م)	
٢١١	١٩٧	١٧٩		١٣	مارب
	٢١٨	٢١٣		٢٤٩	مارشان
٧٩			المعصم	١٩٨	مارى تيريزالريال
١٣٩			المنول	١٨٣	١٦٥ ماساجا - كاردينال
٩٢			المقتدر	٣٠٦	٢٤٥ ١٨٦
١١٠	٧٤		مقديشو		٣٤٦ ٢٠٧
١٠٩	٨١		المقرزى	٢٥٠	ماكالى
٩٣			المهدى (السلطان)	٢٤٩	٢٤٨ ماکونن (راس)
٢٣٥-٢٠٦			المهدى - محمد أحمد	٣٣	ما كيدا
١١١			المتصر	٧٨	مأمون (الخليفة)
٩٢			المنصور	٢٣٧	المنه
٣٣	٣١		منليك الأول	٩٢	٧٩ المتوكل
١٩٦-١٩٥-١٦٦			منليك الثانى	٢٧٥	متاؤس (المطران)
٢٤٠	٢٢٥			٢١٢-٢١١-٢١٠	محمد على باشا
٢٠٢	١٩٧		مورهيد - ألان	١١٥	مركو بولو
٢٧٤	٢٧٣	٢٧١	موسولينى	٧	مروى
٢٧٩				١٩٨	١٩٥ ١٩٠ مجدلا
١٦٤			موتسنجر		٢٤٠
٢٦٠			منن (الامبراطورة)	٨٣	٧٦ المخزومى
١٨٤			الميرغنية (السادة)		
٣١٦	٢٠٣	٢٠٢	ميروينر		

هـ ل س ل ا م ي			(ن)		
٢٦١-٢٥٥-١٩٩	٢٨٨	٢٨٧	١٩٧	١٩٣	قايير - الجنرال
		(و)	٣١٥	٨٠ ٦	نوبه
١٨٠	١٦٦	١٨ والو	١٦٠		نور الدين بن مجاهد
٣٤٥	٢٥٤		٣٣٥	٢٣٤	نوبار باشا
١٦٨	١٨	واللاجا	٣٤		نيبورا إد يشاق
١٠٩		ولاشما		(هـ)	
٢٧١		والوال	١٩٥	١٨١	هاريس (الميجر)
٢٣٠		ولديب ولد مريم	٥٤		هارتمان
١ ٢		وليم آدم	٢٨٦		هايلو (الراس)
٢٨٦		ونجت (الكلونيل)	١٠٨	٨٧	هدية
٢٦	١٣	ويبي شيلي	١٦٠	١٠٩ ١٨	هرر
		(ي)	١٨٣	١٦٩ ١٦٨	
١١٥		يجباسيون	٢٣٤	٢٢٢ ٢٢١	
٦٧	٣٥ ٩	يكونو أملاك		٢٤٨ ٢٣٥	
١١٤	١٠٦		١٤٤	٧٤	هرمز
١٧٦		يوحنا الأول	٢٣٤		هنتر (الميجر)
٢٠٣-١٩٩-١٩٦		يوحنا الرابع	١٣		هوايت
٢٠٥			١٣٩		هولاكو
٤٤ ٣٦ ٣١		الين	٢١٣		هويزر (القنصل)
			١٥٣	١٤٨	هيلينا (الملكة)

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	٦	طوائف	طوائفها
٨	٧	طوائفها	طوائف
١٨	٥	Hrsi	Arusi
٣٤	٤	Hebra Kegest	Kebra Hegest
٤٠	١٦	يسمع	يسمع
٤٢	٧	السامر	الثامر
٤٨	١١	أسوقا	أسواقاً
٤٩	١٦	اساقفته	أساقفته
٥٢	٦	الغرية	القرية
٦٥	٨	الصلب	الصلب
٧٤	١٦	تفضل	تفضل
٩٧	١٤	الاولى	الاهالى
١٢٠	١٣	ما	الامر الذي
		إلى	على
١٩٢	٢١	تغلب	تغلبت
٢١٠	٧	إضافة جملة كالآتي	أم للارتباط الوثيق بين الحبشة المسيحية مع الكنيسة المصرية، أم لرابطة الديانة التي تربطها مع مسلمى الحبشة
٢١٥	٩	ويعنون	ويعنون
٢٢٠	١٣	أبر	أبد

الصفحة	السطر	الحظا	الصواب
٢٣٥	٦	وتعزيراً	وتعزير
٢٣٧	١	المتعة	المنمة
٢٤٢	٢٠	البلاء	البلاد
٢٤٧	٢	شركة	شوكة
٢٤٨	١	الإيطاليون	الإيطاليين
٢٥١	١٢	الأفريقية	الأوروبية
٢٦٠	١٢	تغرى	تغرى
٢٧٢	٦	المتوسط	التوسط
	٩	إمتدادات	إعدادات
٢٧٩	٩	كتللق	كتلك
٢٩٨	٩	مجلس	مجلسي
٣٤٢	٣	إبقائها	إبقائها

شركة الطياعات الفنية المتحدة
١٥ شارع النخيل، بالدم - الرياض

محتويات الكتاب

- الإسلام في الحبشة أغلييه
- عرض شامل لتاريخ الحبشة
- كيف إنتشر الاسلام خلال
القرون .
- سيطرة الأقلية على الأغلبية
وأسبابها .
- الأرتريا - مصرها - نضالها

الناشر

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة

Bibliotheca Alexandrina



0231194

١٢٧

البن ٧٥ قرش